

ذكريات ومذكرات

وديعة قدورة خرطبيل

بحثاً عن الأمل والوطن

ستون عاماً من كفاح إمرأة في سبيل قضية فلسطين



بيسان للنشر والتوزيع ـ لبنان

ذكريات ومذكرات

وديعة قدورة خرطبيل

مذكرات وديعة قدورة خرطبيل

بحثاً عن الأمل والوطن

ستون عاماً من كفاح إمرأة

في سبيل فلسطين

١٩٣٦ ـ ١٩٩٠

الطبعة الأولى ـ ١٩٩٥

توزيع «بيسان للنشر والتوزيع»
ص.ب: ١٣/٥٢٦١
هاتف : ٣٥١٢٦٩
بيـروت ـ لبنـان

تـقـديــم

بقلم: شفيق الحوت

لم يكن قد مضى على نكبة فلسطين أكثر من أربع سنوات عندما التقيت، لأول مرة، بالسيدة الجليلة وديعة قدورة خرطبيل. وكان لذلك اللقاء قصة طريفة يحلو لي استهلال هذه المقدمة بها.

حدث ذلك ليلة من شتاء ١٩٥٢، في قاعة «الوست هول» في الجامعة الأميركية ببيروت، بعد إسدال الستار على آخر فقرة من برنامج فني طويل قدمته «جمعية العروة الوثقى».

كانت تلك الفقرة، عبارة عن لوحة مسرحية مستوحاة من قصيدة للشاعر الفلسطيني المرحوم معين بسيسو عنوانها «نداء السيول»، تصف ما كان قد سببه شتاء ذلك العام بأمطاره الغزيرة من كوارث في مخيمات اللاجئين في قطاع غزة. وكلمة «لاجئين» في تلك الأيام كانت تثير من مشاعر الغضب النابع من كبرياء جريح، غير ما تثيره هذه الأيام من مشاعر المرارة واليأس.

ولم يكن تمرير هذه «الفقرة» في ذلك البرنامج بالأمر السهل. فإدارة الجامعة في عهد رئيسها ستيفن بنروز كانت شديدة التأثر بالسياسة الأميركية الماكارثية القمعية التي كانت سائدة في تلك الأيام، والتي كانت تتصدى لكل فكر حر وتحرك نضالي ضد الاستعمار.

غير أننا استطعنا في النهاية من الاتفاق مع مستشار الجمعية، المرحوم الدكتور جبرائيل جبور على التحايل على النص بشكل يطرحه كعمل أدبي لا سياسي. وكنت ألعب دور الأب «اللاجيء» في تلك اللوحة، وبعد أن رسا دور

الأم «اللاجئة» على الطالبة ناهدة فضلي (الدجاني)، التي ستصبح أديبة وإذاعية معروفة فيما بعد، لم يبق لي من مشكلة سوى تأمين من يلعب دور الطفل «اللاجىء».

وأخيراً، وقع الخيار على فتى وسيم، يطفح صحة وعافية، وتشع عيناه بوميض من النور يكشف ما في نفسه من طيب المعدن وصفاء التكوين.

كان الفتى هو «مروان» الذي انتزع بأدائه المسرحي حماسة الجمهور، فانهمرت الدموع من مآقيها، فكان «بطل» الليلة من دون منازع.

في تلك الليلة نفسها، تعرفت على والدة الطفل «اللاجىء» مروان، ولم يخطر ببالي وأنا أصافح يدها الكريمة، أني كنت أصافح والدة كل الأطفال اللاجئين الفلسطينيين، لا والدة «مروان» وحده، هذا الذي اختارته الأقدار للرحيل من هذه الدنيا فجأة وبقسوة، وهو شاب مهندس في عز عطائه وشبابه وطموحه وتألقه، كشهادة رمزية على ما أصاب أبناء جيله الفلسطينين، من حيف وظلم وضيم. رحم الله مروان خرطبيل.

وبعد قرابة عشر سنوات على ذلك اللقاء الأول، تم لقاؤنا الثاني في شتاء ١٩٦٣، إثر الاستفاقة الوطنية الفلسطينية وبروز التحرك العارم من أجل استرداد الشخصية الوطنية الاعتبارية لشعب فلسطين وضرورة إنشاء كيان نضالي يجمع في إطاره قوى هذا الشعب الحائرة المحيرة.

كان ذلك اللقاء بداية رفقة درب طويلة في النضال المشترك ضمن مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية، وبخاصة تلك المعنية بشؤون الطفل والمرأة الفلسطينية حيث كان للسيدة الجليلة وديعة قدورة خرطبيل باع طويل في تجربتها الريادية التي ابتدأت قبل قيام منظمة التحرير، ولا تزال مستمرة حتى يومنا هذا، دونما كلل أو ملل، لا تهزها هوج الرياح ولا تقلبات الزمان.

فمنذ أيام طولكرم، قادت السيدة وديعة العروس القادمة من لبنان بنات البلدة المناضلة في صفوف العمل النسائي الجماعي الموحد، وبعد عودتها إلى لبنان وطنها الأم، بعد الهجرة القاسية والنكبة المرة، عادت للعمل المضني اليومي، وما كان في الخمسينات هناك من يجمع الشمل للعمل في الحقل

الاجتماعي سواها، فأسست فرع الاتحاد العربي النسائي الفلسطيني في لبنان، وما زالت على رأسه، تعاونها النساء والفتيات من البلدين الشقيقين، بكل إخوة ومحبة، وأذكر منهن على سبيل الوفاء المرحومات الكسندرا ظريفة وافلين حمصي ورقية حوري اللواتي قضين العمر كله في خدمة فلسطين وشعبها.

في الزمن الصعب، ومن بعده في الزمن الرديء، عندما تزعزع الكثيرون من مدعي النضال والصمود، فانكفأ من انكفأ، وتراجع من تراجع، وتلون من تلون، بقيت ذراع وديعة مرفوعة براية فلسطين والعروبة، وكأنها سارية السواري كلها.

ولا عجب في ذلك، فلقد نشأت وديعة في أسرة بيروتية عريقة قومية الهوى، علمية النهج، سباقة في خدمة المجتمع والوطن. ويكفي من أعلامها على سبيل المثال لا الحصر، عمتها السيدة ابتهاج قدورة رائدة الحركة النسائية في لبنان منذ العهد العثماني، وشقيقتها العروبية الناصعة الدكتورة زاهية قدورة، ثم جاء زواج وديعة من الدكتور المناضل المرحوم أديب خرطبيل، ابن فلسطين البار، كاستدراج الطيب للطيب، وتفاعل المعدن مع نوعه.

في هذا الكتاب القيم من الحقائق والوقائع ما يعفيني من تكرارها، وإن كنت واثقاً بأن كل هذا مما قدمته وديعة في حياتها ليس سوى انعكاس لبعض ما عندها مما حباها الله به من إيمان وثبات وصمود، ومن قدرة على العطاء.

آخر مرة التقيتها، وأعتبر نفسي على موعد دائم مع هذه السيدة الجليلة، كانت متعبة من وعكة وطريحة الفراش. بعد دقائق من اللقاء واستماعي لما رددته من كلمات، لم أعد أرى سوى قامتها المديدة الواقفة باستمرار كالألف، بكل ما عرفته عنها من قوة وعنفوان، تماماً كما التقيتها أول مرة قبل اثنتين وأربعين سنة يوم ظننتها أم «مروان» فقط، لأعرف فيما بعد أنها أم جميع الفلسطينيين.

أمد الله بعمرها، هذه السنديانة العربية الأصيلة والعريقة.

١٩٩٤/١٠/١

المقـدمة

مراراً ألحّ عليّ الأصدقاء في ضرورة كتابة مذكراتي، ومع أني كنت أعلم أنَ لديَّ ما أقوله، إلا أن مشاغل الكفاح كانت دوماً تطغى على ما عداها. فالنظر إلى الماضي وإعادة تحديده على الورق، لم يكن بالنسبة إليّ أكثر أهمية من العمل في المجالين الوطني والإنساني، اللذين أفنيت فيهما سنوات عمري الطويلة، سواء في فلسطين أو لبنان، أو المحافل العربية والدولية التي قصدتها مدافعة عن حق شعبي بالوجود وأن يكون له أرض ووطن أسوة بكل شعوب العالم. فضلاً عن السعي الحثيث للتخفيف من العذابات اليومية في مخيمات التشرد وأرض الشتات.

أخيراً اعتقدت أن ما أستطيع قوله يستحق التسجيل، ويتوجب تدوينه لئلا يضيع، ليس في جانبه الخاص، وهو ليس خاصاً البتة، إذ إنه جزء من العام، باعتباري من الكثيرين الذين عانوا نكبة التشرد، ثم نهضوا مجدداً يعملون على استعادة الأرض التي اقتلعوا منها. واحدة من الذين فقدوا مكانهم دون أن يفقدوا حقهم في الحلم في العودة إليه. إذاً الخاص الذي أتناوله ليس خاصاً إلى الحد الذي قد يظنه البعض، والفترة التي أمضيتها في فلسطين كلبنانية تزوجت فلسطينياً تستحق الرواية، لما تخللها من أحداث جسام. إذ إن ١٦ عاماً امتدت بين الأعوام ٣٢ و ١٩٤٨ كانت أكثر من حافلة، بل ومفصلية في عمر القضية الفلسطينية وحياة الذين عاصروها، وكذلك الذين جاءوا بعدها من أبناء الشعبين الفلسطيني والعربي. ففي تلك الفترة عرفت فلسطين ذروة الصراع بين الاستعمار البريطاني والاستيطان الصهيوني الزاحف وبين المقاومة الوطنية والقومية، على الرغم مما يمكن أن يقال عن تقصير بعض الحكام العرب عن نجدة شعب فلسطين وبالتالي قطع الطريق على المشروع الصهيوني لإقامة كيان غاصب على أرضنا الوطنية والقومية. ثم إنه في تلك الفترة، ويدأ بيد الرجل في النهوض للرد

على التحديات، نشأت ونمت بواكير الحركة النسائية الفلسطينية، ليست كحركة نسائية معزولة عن الشأن السياسي العام، كما في بعض الأقطار، بل في سياقه وخضمه، فالمرأة الفلسطينية التي عاشت في غضون مرحلة الإعصار تلك، لم تكن مقطوعة السياق عن الهم الذي يتهدد مجتمعها ويحاول الإطاحة به، وزرع ذلك الكيان الاستعماري الاستيطاني على أرضه، وعلى حساب بقائه واستمراره فيها.

لا شك أن المرحلة التي أشير إليها قد طبعت حياتي، ولا شك أن مؤثرات لعبت دوراً كبيراً في تكوني، بعضها حملته معي من منزلي العائلي عروساً إلى فلسطين، وبعضها تشربته من خلال المعاناة لتلك المرحلة الخطيرة التي عبرتها القضية خلال السنوات المقصودة، والتي ذكرت أنها امتدت أكثر من عقد ونصف العقد على أرض فلسطين العربية، فيما بعضها تكون لدي بعد خروجي من فلسطين، وبقائي في ركابها، وبقائها في دمي. لذا مارست نضالي في كل معترك وميدان، إلى الحد الذي باتت معه كل علاقة شخصية أو اجتماعية أو عائلية موظفة في مسار دعم وإسناد قضية الشعب الفلسطيني أولاً، والعربي استطراداً.

أكتب هذه المذكرات والقضية ببعديها الوطني والقومي الآن في مفصل نوعي لم تعرفه من قبل، ولعله يصبح من اللازم العودة إلى الوراء لتفحص ما مرت به من منعطفات. إلا أني لا أرغب في كتابة تأريخ أو تحليل، ليس هذا الذي قصدته، ربما ما سأتناوله هو تاريخي الخاص، تاريخ تلك الصغيرة التي أسميت وديعة عندما ولدت، واقترن اسمها باسم عائلة قدورة البيروتية التي انتمت إليها أولاً، ثم عائلة خرطبيل الفلسطينية التي حملت اسمها بالزواج. إلا أن هذا التاريخ الذاتي ليس سوى جزء من التاريخ العام الذي عاشته العائلات الفلسطينية، ولكل واحدة منها قصة لا بد وأن تروى، لتؤلف معاً تلك الحكاية الكبيرة التي تحمل اسم فلسطين. من هنا أساهم من مواقعي المتعددة في هذا النهر، رافداً صغيراً، شاءت جملة ظروف، مع قرار إرادي، أن يكون متميزاً عن سواه، كما يكون سواه متميزاً عنه.

إذاً من بيروت إلى فلسطين، ومن فلسطين إلى بيروت ثانية، ومن الأخيرة إلى كل محفل استطعت الوصول إليه وبلوغه، لإبراز قضية شعبي، وقضية المرأة الفلسطينية الأكثر معاناة من سواها بين نساء الكوكب الذي نعيش عليه. وبين هذه وتلك، عائلة تحاول التوازن أمام مهب رياح التطورات التي اقتلعتها والعواصف والكوارث اليومية التي تطارد الإنسان في هذه الحياة.

لا أتوق إلى كتابة ذكريات جافة، أو إلى تقديم تأريخ سردي، تطغى فيه وعليه برودة العقل على حرارة العاطفة، فقد عشت الأحداث بكل جوارحي، انفعلت بها عندما كانت صاخبة وقاسية، وحاولت مع سواي الفعل بها وتحويل مجراها أو التأثير فيه ما استطعت، لذلك أكتب كإنسان عاش حياته بكل ما تخللها، إلى الحد الذي يمكن معه القول إن تلك الحياة كانت عبارة عن تجربة انفعالية كبرى، بل أكثر من تجربة انفعالية. لقد كانت هذه الحياة أشبه ما تكون بحرب، في حلقاتها الكثير من المعارك والعراك، إلا أنها وإن كانت صراعاً على هذا النحو المتتابع، فقد كانت بالنسبة إليّ بمثابة قرار واع من أجل نصرة حق الإنسان في فلسطين، رغم أني قد أكون الأقل عذاباً من أبنائه. لقد عايشت ما يستحق التسجيل، وها أنا أفعل عندما أشرع في كتابة مذكراتي، إلا أن ما يجب أن أمر عليه في هذه العجالة، هو أن الحياة التي عرفتها تظل أوسع مدى مما يرد، لقد تقلبت طويلاً على نار هذه المرحلة التي عاشتني كما عشتها. وانطلاقاً من المدى الزمني الذي اجتزته، ومن علاقات أوسع مما يصعب حصره، سأعمد إلى ما يشبه التبويب، بادئة بما يتناولني وعائلتي ومنه إلى ذلك الذي يتناول العمل النسائي. باعتبار أن الجانب الأول هو النسغ الذي غذى حياتي وأعطاها ما أعطاها.

آمل أن تكون هذه المذكرات مفيدة للقضية التي آمنت بها وسأظل. ولاعتقادي أنها على هذا النحو أشرع قلمي وذاكرتي للعيون التي ستقرأني، يقيناً أن يكون العمل محطة يمكن الانطلاق منها نحو متابعة المسيرة، التي لا أتصور وأنا في هذا المفصل من العمر أن تتوقف من أجل قضيتي فلسطين والمرأة، خصوصاً وأن نضالي النسائي الذي مارسته، قد تم من خلال الاتحاد النسائي

العربي الفلسطيني، الذي كان لي شرف المشاركة في تأسيسه والعمل جاهدة للحفاظ عليه، في ظل ظروف صعبة وغير مؤاتية في أغلب الأحيان. وما زلت وزميلاتي فيه نحاول ممارسة نشاطاتنا المتعددة في ظل ظروف لم تتبدل، إن لم نعترف أنها تنحو منحى خط معاكس. رغم ذلك فإن طموحاتنا ما زالت واسعة وبرامجنا عديدة ومتنوعة، ولعله من الضروري قبل أن أختم هذا التقديم، أن أثني على الدور المشرف الذي قام به الاتحاد في معتركي القضية الوطنية والقومية، وهو ما يبدو جلياً في القسم الثاني من المذكرات، إذ فضلاً عن إنجازاته في الحقل النسائي والاجتماعي، سجل الكثير من المواقف السياسية إزاء أهم الأحداث التي شهدتها فلسطين والمنطقة العربية، ولعل مواقفه الفلسطينية تبقى العلامة الأنصع في تبيان خطر المشروع والدولة الصهيونية بما يتعدى مساحة فلسطين وساحة شعبها المناضل ولا سيما في هذه المرحلة الحاسمة التي تشهدها الأراضي المحتلة. ومحاولات إسرائيل المستمرة لتثبت احتلالها وفصل قضية القدس عن سائر الأراضي الفلسطينية والحيلولة بكل الوسائل دون تمتع شعب فلسطين بحقه المشروع في الحرية والاستقلال وإقامته دولته الوطنية المستقلة.

ختاماً، لا أود استباق الكلام. فقط أشير إلى العناوين التي تتناولها مذكراتي وذكرياتي، وانطلاقاً من هذه الخطوط العريضة، أبدأ رواية ما عشته، معتمدة الإيجاز حيناً والتفصيل أحياناً، بقدر ما تسعف الذاكرة، معربة عن جزيل شكري وامتناني إلى كل أولئك الذين قدموا لي نصائحهم ومساعدتهم في تحويل هذا النص من نتف إلى ما يستحق النشر. لكل هؤلاء، وهم كثر ويفيض المقام على ذكر أسمائهم، عرفاني بالجميل.

وديعة قدورة خرطبيل

الفصــل الأول

بيروت فلسطين
الأهل وحياة الإقامة

منذ أيام خرجت من المستشفى، إثر إجراء جراحة خطيرة كادت تودي بحياتي، ولكنني أحمد اللّه أنني شفيت منها وأستطيع الآن أن أبدأ في رواية مذكراتي، ولا أدري كيف أبدأ الكتابة، هل أبدأ من النقطة التي أنا فيها، ثم أعود القهقرى، أم أنحو نحو الانطلاق من البداية وأتدرج في الزمن كما كان عليه؟!

هذا السؤال يؤرقني بما هو آلية الكتابة التي يتوجب عليّ اعتمادها، بعد تفكير توصلت إلى قناعة مفادها، أن العودة في الزمن تبقى الأقرب، ما دامت تلك البداية هي التي شقت مجرى الحياة توصلاً إلى اللحظة الراهنة حيث أعاني قبل كل شيء من أوجاع الزمن الذي فرض علينا كفلسطينين أن نحتمل ما لا طاقة على احتماله من صنوف المعاناة. على أني لم أكن فلسطينية بالمولد، بل اكتسبت هويتي هذه عبر زواجي من الدكتور أديب خرطبيل، وعليه فإني عندما أقدم شهادتي هذه عبر مذكراتي، فإني أقدمها كشاهدة و «شهيدة» في ذات الوقت، فكما لبنانيتي كذلك فلسطينيتي، وعندما أفكر الآن، ونحن في النصف الأول من التسعينيات بما مر بنا كلبنانيين وفلسطينيين، أرى أن ما نسجناه من وحدة دم ومصير وصمود في خندق الدفاع الأول عن القضية العربية، لم يكن مفاجئاً أو مباغتاً أو خارج السياق، كل ما كان بيننا هو ما كان بيننا عندما صنعنا تجربة الصمود في وجه الحصار والمجازر.

تعود بي الذكريات إلى بدء نشأتي في بيت بيروتي معروف يهتم بالطب

والتجارة والسياسة إذ كان يتردد الحديث عن عميد الأسرة مصطفى قدورة الذي ورث ثروة طائلة عن والده تتمثل بشركة «قدورة وبلايك» التي تتعاطى تجارة الأقمشة النسائية. و «بلايك» هو اسم للعائلة البريطانية المعروفة، ومن فروعها الشاعر والرسام الإنكليزي وليام بلايك. بعض ما أورده عن العائلة هو ما لم أعاصره، وإنما سمعته من الأجواء التي أحاطت بي.

كان لا بد لجدي أديب قدورة، بصفته أكبر سناً من أخيه سعيد، من أن يتسلم تجارة والده مصطفى الذي توفى في سن مبكرة لا تزيد على ٣١عاماً. وبعد أن تزوج جدي من زاهية القوتلي وأنجب منها أولاداً، تخلى عن التجارة ليلتحق بعد ذلك بكلية الطب في الكلية الإنجيلية السورية (الجامعة الأميركية اليوم) كما كانت تسمى سنة ١٨٧٦. وقد ترك منزله الكائن «عالسور» وبنى له منزلاً جديداً على أرض يملكها في رأس بيروت والتي قامت عليها كلية بيروت الأميركية للبنات قبل انتقالها إلى مكانها الحالي. والمنزل الذي بناه جدي ما زال قائماً إلى الآن، وهو الطابق الأول في مستشفى نجار إذ احتفظ به الدكتور فيصل نجار، وأشاد فوقه المستشفى.

وكانت الجامعة الأميركية في بيروت ذات طابع تبشيري، تعرف وقتذاك، كما ذكرت، باسم مدرسة الكلية الإنجيلية السورية، وهذا ما جعل ليس المسلمين فحسب، بل الموارنة والأرثوذكس يحجمون عن الانتساب إليها، خوفاً من تأثرهم بحملة التبشير بالمذهب الجديد (البروتستنتي). فلما انتسب جدي إلى هذه المدرسة، انتقد وجهاء المسلمين خطوته، وهرعوا إلى المفتي الذي وجه السؤال التالي إلى جدي: هل أنت راغب في العلم؟ فأجابه جدي: نعم. فقال له المفتي عندئذٍ: ما دام إسلامك قوياً، وأنت راغب في العلم، وديننا لا يمنع التعامل السليم مع أهل الكتاب، فلا مانع من انتسابك إلى الكلية الإنجيلية، مصداقاً لحديث الرسول: «أطلبوا العلم ولو في الصين» و «العلم فريضة على كل مسلم».

وهكذا أمضى جدي خمس سنوات (١٨٧٦ - ١٨٨١) في الكلية الإنجيلية أصبح بعدها أول طبيب مسلم يتخرج منها في بيروت. وبعد تخرجه

سافر إلى اسطنبول حيث اجتاز امتحانات الكولوكيوم عام ١٨٨١ وأجيز له امتهان الطب[١].

خلّف جدي من الأولاد أربعة ذكور وثلاث إناث، وهم على التوالي: مصطفى وحليم وفريدة، وبهيج وابتهاج ونادر ونادرة.

وهناك قصة تحضرني قبل أن أنتقل إلى الوالد، وهي تلك التي ربطت بين جدي الدكتور أديب وآل اليشرطي في عكا. فإلحاح هذه القصة عليّ الآن، وفي موضعها هذا بالذات، يدل على روابط قديمة ربطتنا كعائلة مع العائلات الفلسطينية. وآل اليشرطي هم أصحاب الطريقة الشاذلية، وهي تؤشر في جانب منها إلى شهرة جدي التي امتدت إلى تلك البقاع، حيث كان يطلبه المرضى من الأماكن النائية جداً. فقد جاء رسول يوماً يستدعيه لتطبيب الشاذلي الأكبر[٢] في عكا.. وأبحر الجد إلى عكا على متن سفينة صغيرة، هي الوسيلة الأسرع للوصول، ومن غرائب الأمور التي رواها جدي بنفسه بعد عودته وظلت تتناقلها العائلة، أنه في أثناء سفره على السفينة «فكشت يده» فعالجها وشفيت قبل الوصول دون أن يعلم أحد بذلك. وأكمل رحلته حتى وصل عكا، فتوجه رأساً إلى منزل الشاذلي الكبير وكان أول الداخلين عليه، فرحب بالدكتور مرفقاً ترحيبه بالسؤال عن يده، فأخذته الدهشة وأخذ يتساءل عمن أخبره، لكن الشاذلي الكبير اكتفى بالرد: لقد عرفت.

وهكذا بدأت صداقة بين آل اليشرطي وآل قدورة، خصوصاً بين ابتهاج قدورة وبين السيدة فاطمة وأختها مريم. والجدير بالذكر، أن السيدة فاطمة اليشرطي ورثت عن أبيها زعامة الطريقة الشاذلية، في بيروت، وكان يأتمر بأمرها كل الشاذليين أينما وجدوا في العالم، ومنهم توفيق أبو الهدى الباشا الذي كان رئيساً لوزراء الأردن.

---

(١) ذكريات ومواقف لمؤلفه شقيقي قدورة.

(٢) هو الشيخ على نور الدين اليشرطي الحسني الحسيني الشاذلي التونسي المغربي.

الدكتور أديب قدورة:

والجد أديب قدورة لم يكن طبيباً مشهوراً وحسب، بل كان عضواً مؤسساً في جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية، وعضواً في مجلس المعارف وقد ورد في جريدة «ثمرات الفنون» الخبر التالي:

ذكرنا في العدد الماضي خبر تشكيل مجلس معارف ولاية بيروت، وقد قرأنا اليوم في جريدة الولاية أسماء الأعضاء كما يلي: -

فضيلتو شيخ إبراهيم أفندي الأحدب وعزتلو حسب أفندي بيهم، ومكرمتلو الشيخ أحمد أفندي عباس، ورفعتلو عبد الله أفندي رضوان، والدكتور أديب قدورة، ويوسف ريان، وخليل سركيس، وإبراهيم اليازجي، وسليم الجلخ، وبيجو الموسوي[١].

تزوج جدي من سيدة من آل القوتلي فرزق مصطفى وحليم وفريدة، ثم تزوج ثانية من سيدة سورية أخرى هي شفيقة الأبش، شقيقة أحمد أفندي الأبش، المعروف ولده حسين الأبش بصداقته للأمير يوسف كمال، وهما من أبرز الصيادين في العالم. وشفيقة هي أيضاً عمة والد الدكتور يوسف الابش في الجامعة الأميركية في بيروت حالياً[٢]. ومن شفيقة رزق الطبيب أديب قدورة بابنته ابتهاج قدورة التي باتت الزعيمة النسائية المعروفة في لبنان والعالم العربي وصبيين هما بهيج ونادر. واتجه الجميع إلى العلم على خطى والدهم فبرعوا في اختصاصاتهم المختلفة.

والدي مصطفى قدورة:

أما والدي مصطفى قدورة فهو أول صيدلي مسلم يحمل ديبلوماً بعد أن درس في الجامعة اليسوعية، ثم تخصص في اسطنبول، وتخرج سنة ١٨٩٩،

(١) العدد ٧٣٥ من السنة بتاريخ ١٧ أيار/مايو عام ١٨٨٦ الموافق ٢٧ رمضان ١٣٠٦.

(٢) أسرة الأبش من أهم زعماء الأسر الكردية، من عهد الدولة العثمانية حتى عهد الانتداب الفرنسي، وهي مرجع لكل الأكراد في المنطقة لاشتهارها بثرائها العظيم وأعمالها الإنسانية.

فأسس له والده صيدلية تفتح ليل نهار، وتؤمن الخدمات لبيروت والجوار، والصيدلية كانت تقع في بناية قدورة نفسها التي بناها الجد في ما يسمى «عالسور» غربي ساحة رياض الصلح، من ثلاث طبقات، وقد سكن والدي في الطبقة الأولى فوق الصيدلية، فيما احتفظ الجد والجدة الثانية وأولادهما بالطبقة العليا. وطبع التعايش حياة الأسرة كلها ولم يؤثر فيها كون الجدة هي الزوجة الثانية للجد، حتى أننا كنا نناديها جميعاً «جدتي» إذ لم نكن نعرف غيرها لنا جدة.

وما يتوجب ذكره هنا، أن ممارسة الصيدلة لم تكن لديه ذات هدف تجاري ومادي، فقد سبقه إلى ذلك جدي الذي كان طبيب المقاصد في المستشفى، كما أن عمي حليم لم يتقاض بدل أتعابه من الفقراء. أما والدي فقد تعود الفقراء الحصول من صيدليته على ما يحتاجونه من إسبيرين وقطن وشاش وسبيرتو إلى حد أن أخي أديب عندما تسلم الصيدلية منه وجدها على شفير الإفلاس، واضطر للقول: لا أستطيع الاستمرار إذا سرت على خطى والدي.

على أن والدي كان ذا عقلية متنورة ندر وجودها بين الرجال في نهاية القرن الماضي، وكان يجيد الكتابة باللغتين الفرنسية والتركية، إضافة إلى لغته العربية. وبفضل هذه العقلية أتيحت لي ولأخوتي جميعاً فرص التعلم والتثقف ومزاولة الأنشطة الاجتماعية.

وأذكر أن أحد كبار الزعماء البيروتيين، جاءه يوماً ليكلمه بشأن الضجة القائمة بين عامة المسلمين بسبب إدخالنا كلية البنات الأميركية، وحاول أن يثنيه عما أقدم عليه باعتباره خرقاً للتقاليد. ولما عجز عن إقناعه، قال له: لا تنس يا سيد مصطفى أن التعليم في المدارس الأجنبية باهظ الكلفة. فأجابه والدي: أنا لا أبغي أن أورث أولادي مالاً، بل علماً.

كان والدي محباً لعمل الخير، يساعد المحتاجين، وينجد المظلومين، وقد أنشأ عيادة خاصة بالفقراء مقابل صيدليته، حيث كان الأطباء المناوبون فيها يعالجون المرضى مجاناً، وهو يعطي الدواء مجاناً أيضاً، وكان يرسل موظفيه كل يوم جمعة إلى المستوصف التابع لجمعية المقاصد الإسلامية الخيرية، وهو معهم

شخصياً، للمساعدة على تركيب الدواء الذي كان لا يزال تركيباً كيماوياً محلياً، لا سلعة تجارية جاهزة مستوردة.

كان لوالدي مكتب داخل صيدليته، وكان بعض أصدقائه يجتمعون عنده في فترة بعد الظهر، ومنهم الشيخ بشارة الخوري، وعمر بك بيهم، وجورج بك تابت وهنري بك فرعون وروى لي والدي أنه كان يوماً في مستوصفه الخيري عندما جاءه الثري الكبير هنري فرعون، ولم يكن مساعده موجوداً، فما كان من فرعون إلا أن لبس «المريول» وأخذ بمساعدته في إعداد الأدوية حتى انصرف المرضى.

أما أكثر حديث فرعون، فكان يدور مع والدي عن الخيل وأمور أخرى، لأنه أنشأ وقتذاك إسطبلاً للسباق. حين توفي والدي الصيدلي الدكتور مصطفى في الخمسين من عمره، بكته بيروت عرفاناً لمآثره وأعماله. حتى عندما كنت في طولكرم، بعد زواجي، سألتني نعمة (وهي تركية) زوجة أكرم بك الركابي، قالت: وديعة هل تعرفين مصطفى قدورة؟ فقلت لها: والدي. قالت: عندما نزحت العائلة المالكة التركية، وصل قسم منها إلى بيروت بحالة يرثى لها، فكان مصطفى قدورة يرسل لهم غذاءهم اليومي. فقلت لها.. لا أعلم بذلك.

توفي الوالد وظلت بناية قدورة التي شيدها الجد أديب «عالسور» معلماً من معالم المنطقة، فقد كانت من البنايات القليلة العالية، حتى أنه في أيام الأعياد والأحداث الكبيرة والاستقبالات العامة للشخصيات الوافدة إلى بيروت، كانت عائلات العاصمة تتجمع عندنا، أو على سطحها لكي تراقب وتتفرج. وأتذكر ما كانت تحدثني به، جدتي شفيقة الأبش، حول تلك المناسبات وكيف كانت تستيقظ باكراً، وتعطي خدمها التعليمات لتحضير لوازم الضيافة، لأن العادة أن يؤم المنزل العديد من المعارف فيما يتعدى الزيارة لأن المناسبة كانت تطول اليوم كله للتفرج.

ويمكن القول أن بناية قدورة وما يحيط بها، منذ أيام العثمانيين وعقبها الانتداب، كانت إلى حد ما أول مجمع طبي في بيروت، ففي منطقة «عالسور» كانت صيدلية قدورة وعيادة عمّيَّ الدكتور حليم والدكتور نادر، وعلى بعد عشرة

أمتار من عيادتيهما كانت تقع عيادة الدكتور رئيف أبي اللمع السفير والسياسي المعروف، وكان الدكتور رئيف من الأصدقاء القريبين جداً من أسرتنا، وهو قد أصبح وزيراً فيما بعد.

كذلك في منطقة «عالسور» كانت تقع عيادة طبيب العيون الدكتور عمر زهدي، وهو من الأتراك القلائل الذين استقروا في بيروت، اشتهر جداً ببراعته، رغم أنه لم يكن يجيد العربية. كذلك في المربع الصغير نفسه «عالسور» كانت تقع عيادة الدكتور نقولا رييز صديق الأسرة مثلما كان والده من قبل.

الدكتور حليم قدورة:

وعلى ذكر عمي الدكتور حليم فلا بد من تقديمه، فقد كان جراحاً ماهراً وطبيباً شهيراً، درس الطب في الجامعة اليسوعية، وتخصص بالجراحة في باريس وعمل في المستشفى الألماني، وكانت له عيادة خاصة في محلة «عالسور» ترددت عليها أشهر الشخصيات اللبنانية. كان رجلاً أنيقاً، وسيماً ذكياً، يجيد الحديث والكتابة باللغات الثلاث: العربية والتركية والفرنسية. دخل معترك العمل الوطني والسياسي، وأصبح نائباً عن بيروت لمرتين، وكانت له مواقف مشرفة في مجلس النواب خدمة لوطنه. ففي أعقاب انكشاف خبايا معاهدة سايكس بيكو، تضاعفت في بيروت قوة التيارات السياسية، بعد أن تبين أن كلاً من فرنسا وبريطانيا تآمرتا لاستعمار المنطقة العربية وتقسيمها، وكان الغضب أكثر بروزاً في الشارع الإسلامي، وعقدت مؤتمرات «الساحل» التي أعلنت رفضها للكيان اللبناني وأصرت على الوحدة مع سوريا، وكان عمي حليم من أركان هذه المؤتمرات. شغل منصب نائب رئيس المجلس النيابي عندما شغل حبيب باشا السعد عام ١٩٢٥ منصب رئيس المجلس. كما أنه عندما انتخب للمرة الثانية (١٩٢٩ - ١٩٣٢) مع كل من عبد الله إسحاق، ومحمد فاخوري، وجورج ثابت وبترو طراد، أرسل احتجاجاً شديد اللهجة للحكومة البريطانية على إصدار أحكام الإعدام على كل من فؤاد حجازي وعطا الزير ومحمد جمجوم، وأذكر أن أحد أقارب زوجي وهو رشيد خرطبيل قد اعتقل أيضاً، ولم يتم إعدامه لأن والد زوجي تمكن من التوسط لدى مكتب المندوب السامي الذي استبدل الإعدام

بالسجن المؤبدكما سيرد بيان ذلك لاحقاً.

كان من الممكن أن يصبح عمي حليم نائباً عن بيروت لدورة ثالثة بين السنوات ١٩٣٤ - ١٩٣٧، إلا أن النتيجة كانت تعادله مع خير الدين الأحدب. وقد روت عقيلة خير الدين الأحدب الرواية التي رواها عمي وتقول: عندما ظهرت النتيجة «بالوتاج» جاءت زوجة خير الدين إلى منزل عمي طالبة منه تطبيب زوجها، فكر قليلاً، ثم ذهب معها. ولما فحصه التفت نحو زوجته قائلاً: ليس عندي إلا وصفة طبية واحدة له، لا يشفيه غيرها، وهي أن انسحب لأتركه يفوز بالتزكية، وفعلاً هكذا كان.

على أن ما يجب ذكره بشأن عمي حليم ما يتجاوزه إلى الشأن العام، ففي بواكير سنوات الانتداب جرت الانتخابات الأولى، ثم أجري بعدها الإحصاء للنفوس، وقد قاطع المسلمون الإحصاء ظناً منهم، أنه سيتم في أعقابه سوقهم إلى التجنيد في خدمة فرنسا، ثم عاد الكثيرون عن هذا الموقف، إلا أن هذا لم يغير من اعتبارهم أقلية انطلاقاً من الإحصاء العددي. وعليه فإن عمي الدكتور حليم لم يؤيد فكرة المقاطعة التي كانت سائدة في الأوساط الإسلامية، بل دعا إلى تعلم الفرنسية وإجادتها، لا لأنه كان ضليعاً فيها، إنما للتمكن من تبوأ المناصب العامة التي كانت تشترط ذلك. وكان يردد في أواخر أيامه: الذي قلته أثبتت الأيام والوقائع صحته، فقد أصبحنا في الوقت الحاضر أقلية في الوظائف، وأصبحنا فقط في وظائف ثانوية، لأنه حتى المديرون العامون الذين كانوا لا يتقنون الفرنسية لم يكونوا خلال الانتداب إلا كتاباً ومحررين.

ومن دون أن أستغرق في المزيد من تقديم تفاصيل عنه، لا بد من ذكر أنه كان خلال حكم السلطنة العثمانية «سر طبيب»، أي نقيباً للأطباء، وقد طبقت شهرته الآفاق إلى درجة أنني عندما ذهبت إلى غزة في الأربعينيات وجاء كثيرون للترحيب بي، كانوا يحدثونني عنه ويقولون: نحن نعرف عمك الدكتور حليم فهو «سر طبيب» والجدير ذكره أن أخاه مصطفى كان هو الآخر «سراجزه» أي نقيباً للصيادلة.

الدكتور نادر قدورة:

أما عمي الدكتور نادر فقد أنهى دراسة الطب في العام ١٩٢١ في الجامعة الأميركية ببيروت، وأصبح أول لبناني يختص في باريس وألمانيا بأشعة الاكس ريبواكس روتنغن في العام ١٩٢٣، ولدى عودته إلى بيروت، عين رئيساً لدائرة الأشعة في مستشفى الجامعة الأميركية العام ١٩٢٤، إلا أنه استقال منها بسبب ضغط العمل في عيادته الخاصة الكائنة قرب صيدلية أخيه وعيادة أبيه وعيادة أخيه الدكتور حليم. ولعل هذا هو ما حداني إلى القول بالمجمع الطبي. وأذكر أن مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت كانت تستعين بمعداته الحديثة، وقد اعتبر مرجعاً في مجال اختصاصه بلبنان والبلاد العربية حتى وفاته.

إبتهاج قدورة: رائدة العمل النسائي:

سأتوقف طويلاً، للحديث عن عمتي ابتهاج قدورة، التي كانت رائدة من رائدات النهضة النسائية في لبنان والعالم العربي، إلى الحد الذي كرست حياتها بتفانٍ رائع لقضية المرأة ورفع مكانتها اجتماعياً ووطنياً وتحصيل حقوقها المهدورة.

ولدت في بيروت العام ١٨٩٣ إبان الحكم العثماني، وترعرعت ونمت مواهبها الفذة في رحاب مدرستها الأولى، وهي البيت الذي نشأت فيه، العامر بالثقافة والعلم. أما مدرستها الثانية فكانت المدرسة الأميركية للبنات A.S.G، والتي دخلتها برغم اعتراض وجهاء المسلمين آنذاك، واحتجاجهم على تعليم البنات المسلمات في المدارس التبشيرية كما ذكرت. وقد تابعت عمتي دراستها، وحافظت على رصانتها ورفعة أخلاقها، حتى اقتدت بها الكثيرات، وانتسبن إلى المدرسة الأميركية للبنات. ثم نالت على طراوة عودها، شهادتها النهائية عام ١٩٠٩ بتفوق، وكانت خطيبة حفل التخرج، ألقت وهي مرتدية الحجاب خطاباً حول دور المرأة في الهيئة الاجتماعية، اعتبره بعض معاصريها بداية تاريخية لتحرير المرأة عملياً، إذ كانت من المتعلمات الأوائل اللواتي آلمهن جهل المرأة، إذ فكرت في وجوب تعليمها وتوعيتها، توصلاً إلى الخروج بها من ظلمة التخلف الآسر إلى نور التقدم والمساواة.

وكان طموحها أبعد من المدرسة الأميركية للبنات، فأجالت النظر في ما يحيط بها، وفكرت في وسيلة تنمي ثقافتها، وتوفر لها دراسة أعلى تعوضها عن الدراسة الجامعية التي لم تسمح الأوضاع العامة آنذاك بولوج بابها، فعكفت على مكتبة والدها تنهل منها ما تشاء، واستعانت بعالم جليل فتفقهت بأمور الدنيا والدين، ثم استكملت على أيدي مدرسين تعلم اللغات فأجادت العربية والإنكليزية والفرنسية وكانت تخطب بها بطلاقة.

ولما رأت أن الحياة ضمن جدران البيت والتنعم برفاهية العيش لن يرويا طموحها، صممت على الخروج إلى ميدان الحياة العامة فأسست بالاشتراك مع عنبرة سلام وأمينة حمزة وعادلة بيهم ووداد محمصاني وشفيقة غريب سلام وسواهن، «جمعية يقظة الفتاة العربية» في شهر آذار/مارس العام ١٩١٤، وكان صغر سن الفتيات المندفعات إلى العمل الاجتماعي حال، حينذاك، دون حصولهن على رخصة لجمعيتهن فالتفتن إلى إحدى سيدات بيروت المعروفات، هي المرحومة نجلاء بيهم التي استجابت لهن، وشملت جمعيتهن برئاستها ورعايتها، وعملت معهن بحماسة لا تعرف فتوراً.

باشرت الفتيات العمل، لكن فرحتهن بعملهن لم تكتمل، فالحرب العالمية الأولى التي نشبت في آب/أغسطس من العام ١٩١٤، شتتت شملهن، فتعثرت أعمال الجمعية رغم أن عدداً منهن جاهد مدة من الزمن. ومع اندلاع القتال، عم القمع وانتشرت المجاعة، وفرض جمال باشا السفاح القائد العام للجيش التركي الرابع الأحكام العرفية، وأرخى العنان لغرائزه في الفتك والظلم والتنكيل بالوطنيين. وبدا أن بيروت على عتبة انفجار. ولامتصاص الوضع أسس الأتراك في العام ١٩١٦ أربعة ملاجىء لاحتضان الصغار المشردين في الشوارع، بالتعاون مع نخبة من السيدات منهن: نجلاء بيهم، وعنبرة سلام، وثريا طبارة، وشفيقة غريب وعمتي ابتهاج قدورة. وحدث أن جاء جمال باشا إلى بيروت من عاليه وتفقد الملاجىء، ثم عاد إلى اجتماع حضره لفيف من السيدات والوجهاء والقادة العسكريين، حينذاك وقفت ابتهاج وألقت كلمة بالعربية أثارت دهشة القائد العثماني في تجرئها عدم إلقائها بالتركية. ثم دار بينه وبينها الحديث التالي كما

تنقله فايزة سعد الدين في كتابها «السيدة ابتهاج قدورة رائدة النهضة النسائية في القرن العشرين» - (ص ٢٠):

□ هل أنت من رعايا الدولة العثمانية؟

- نعم، سعادة الباشا.

□ هل تعرفين اللغة التركية؟

- كلا.

□ هل تجيدين لغات أخرى غير العربية؟

- نعم، الانكليزية والفرنسية.

□ كيف لا تعرفين اللغة التركية وأنت من رعايا الدولة العثمانية؟!

استأذنت ابتهاج الباشا بسؤال تطرحه، فأذن لها بذلك فقالت:

سعادتك مسلم فلماذا لا تعرف قرآنك؟

ذهل الحاضرون وخافوا، ومن بينهم أحمد مختار بيهم أحد أكبر وجهاء بيروت، لكن جمال باشا سرّ بجوابها وسرعة بديهتها، فربّت على كتفها قائلاً:

«آمل أن نلتقي في العام المقبل فأجدك تتحدثين التركية وتجدينني أتكلم العربية».

ومضت الأيام، وأصيبت عمتي بمرض التيفوس أثناء عملها في ملاجىء الأطفال حتى كادت تفقد حياتها، لكنها، بعد أن استعادت قليلاً من صحتها، عاودت نشاطها وأسهمت في ٢٣ تموز/يوليو من العام ١٩١٧ في تأسيس «نادي جمعية الأمور الخيرية للفتيات المسلمات» بالتعاون مع أمينة حمزة وعادلة بيهم ووداد محمصاني ووحيدة الخالدي وعنبرة سلام. وكان هذا النادي يهدف إلى رفع مستوى الفتيات ثقافياً واجتماعياً، وقد درج على إقامة الحفلات الشهرية التي يحضرها رجال ونساء ينتظمون في قاعات منفصلة، وقد أنشئت في النادي مكتبة للمطالعة، وظل عاملاً لمدة ثلاث سنوات، وربما كان أول ناد ثقافي نسائي في البلاد العربية.

على أن نشاط عمتي لم يتوقف يوماً عند مؤسسة واحدة، بل شمل أكثر من واحدة في وقت واحد، فقد اشتركت مع سلوى محمصاني وشفيقة سلام في «اللجنة النسائية لدار الأيتام الإسلامية»، ثم تسلمت عمادتها منذ العام ١٩٢٠ إلى العام ١٩٤٥، عندما أسست «رابطة الجمعيات النسائية الخيرية الإسلامية» لأحياء بيروت، ومارست نشاطها من خلال تشكيلها عشر جمعيات موزعة في أحياء العاصمة. وقد بذلت الرابطة، بتوجيه منها، جهودها لتخليص الأحياء العاملة فيها من التخلف الاجتماعي نتيجة الفقر والجهل والمرض، وعملت على رفع مستوى الأسرة بتوجيهها وتدريبها على حسن استثمار طاقاتها المهملة من أجل حياة فضلى.

وكانت كذلك، وبطلب وإلحاح من السيدة لور خوري زوجة رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري حينذاك، صديقة «لجمعية الصليب الأحمر اللبناني» التي تأسست بفضل جهود المرأة اللبنانية في العام ١٩٤٥.

وفي المجال الاجتماعي والاقتصادي، شاركت في تأسيس «جمعية النهضة النسائية» في بيروت العام ١٩٢٤م، بالتعاون مع والدتي خانم الحسامي والسيدات لبيبة ثابت، ونجلاء كفوري، وسلمى صائغ، وجوليا دمشقية، وسواهن. وكانت غاية هذه الجمعية زيادة تشغيل اليد العاملة وتشجيع الصناعة الوطنية. ومن أجل هذه الغاية، أقيمت المعارض، وارتدت السيدات الأنسجة الوطنية، وسافر فريق من اللبنانيات إلى سوريا، حيث زرن المصانع واطلعن على كيفية الإنتاج، وطالبن باستبدال الأسماء الأجنبية على حواشي المنسوجات بأسماء المصانع العربية. وقد توقفت هذه الجمعية أثناء الحرب العالمية الثانية، ثم استأنفت بعدها أعمالها، ولا سيما في قرى الجنوب اللبناني، حيث افتتحت هناك المدارس لمحو الأمية، وأنشأت بجانب كل مدرسة مركزاً لتعليم الخياطة والأشغال اليدوية.

في حفلة تكريمية أقيمت لإبتهاج قدورة بحضور رئيس الوزراء العام حينذاك الحاج حسين العويني وعدد من الوزراء والنواب والشخصيات السياسية والدبلوماسية العربية العام ١٩٦٤، قالت المحامية لور مغيزل «ابتهاج قدورة من اللواتي بعثن النهضة النسائية، ورعين حبوها وتلمساتها. ورافقن سعيها وتطوراتها، فإذا بها تتلبّس بالحركة النسائية، وإذا بالحركة النسائية تتجسّم فيها، حتى لم يعد

بوسعك أن تميز بين الاثنين»[1].

ولقد رافقت عمتي الخطوات الأولى لتشكيل الحركة النسائية المستقلة، لتضم في العام ١٩٢١ معظم الجمعيات النسائية في لبنان، ثم يتحول هذا الكيان الاتحادي، في العام ١٩٢٤م، إلى هيئة مرخص لها رسمياً باسم «الاتحاد النسائي في سوريا ولبنان». بقي الاتحاد منذ تأسيسه الهيئة التي تزعمت ووجهت النهضة النسائية اللبنانية، وقد توالى على رئاسته، فضلاً عن عمتي ابتهاج عدد من السيدات اللبنانيات، منهن: إفلين بسترس، حنينة طرشا، لور ثابت، ونجلا صعب.

وقد وجهت في ٧ تموز/ يوليو من العام ١٩٣٨ كتاباً باسم سيدات العراق ولبنان وفلسطين، إلى الرائدة المصرية هدى هانم شعراوي تفوضها فيه الدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني لدى الهيئات الدولية، أو لدى أية هيئة يمكنها أن تنصف القضية الفلسطينية وتؤمن لها الحل العادل. ثم وجهت كتاباً آخر إلى الرائدة شعراوي، باسم زعيمات الحركة الفلسطينية ورئيساتها، اللواتي التقين في منزلها العام ١٩٤٤، اقترحت فيه عقد مؤتمر القاهرة لبحث قضية فلسطين.

بدأ الأمر دعوة إلى اللقاء في المنزل، ثم تطورت الفكرة نحو عقد مؤتمر نسائي في لبنان، يخصص للموضوع الفلسطيني الذي كان ينذر بشر مستطير، وكان إلحاح الفكرة في محله بعد أن تبين أن عقد المؤتمر في دمشق قد يحرج الحكومة القائمة التي تضع في حسابها أنه لا بد وأن يتحول إلى مشاغبة على سلطات الانتداب في فلسطين، ولتلافي احتمال مماثل في لبنان جرى استمزاج رئيس الحكومة الذي ارتأى ألا يتم الحصول على إذن رسمي، فنحن في موسم اصطياف، وسيدات البلدان المجاورة جئن مصطافات، «أعقدن حلقتكن، واطلعن بعد ذلك على الناس بمقررات لها صفة نتائج المؤتمر، وهذا يعني وضع الحكومة أمام الأمر الواقع...» رغم إغراء مثل هذا الاتجاه، خاطبت ابتهاج الجمع

---

(١) الدكتورة فايزة سعد الدين: السيدة ابتهاج قدورة رائدة النهضة النسائية. مجلة تاريخ العرب والعالم: العدد ٢٥ . الجدير ذكره أن حفل التكريم أقيم في التاسع من آذار العام ١٩٦٤.

خلال اللقاء في منزلها بالقول «أرى أن مؤتمراً ابن ساعته لا يأتينا بالنتائج التي نهدف إليها، إذ كل امرأة منتمية إلى جمعية نسائية في لبنان وسوريا ومصر والعراق تعرف مشكلة فلسطين، هدفنا هو إسماع الرجال صوتنا، هو استفزاز الرجل تجاه كارثة تستنفره إليها المرأة. وهذا لا يكون إلا في مؤتمر تسبقه الدعاية المنظمة ويحضره مراسلو الصحف الأجنبية وأصحاب الرأي من الرجال. وقد ارتأيت أن أكتب إلى الصديقة هدى هانم شعراوي رئيس الاتحاد المصري. أن رغبتها لا تقل عن رغبتنا، ولو لم نكتب إليها لكتبت إلينا. لهذا أقول إن المؤتمر سيعقد في مصر هل توافقن يا ستات.

وافقت السيدات بالإجماع على الرأي السديد الوادع، رأي هذه اللبنانية التي إذا ما خطر في بال أحد أن يحصي ستات الستات «في الدنيا، فهي دون ما ريبة إحداهن»[1].

ثمة مجال آخر على المستوى القومي اتجه إليه نضال عمتي وهو اهتمامها بالقضية الفلسطينية، فقد أصبح الوضع في فلسطين لا يطاق بسبب السياسة الاستعمارية البريطانية والتآمر البريطاني الصهيوني، والاضطهاد الذي حل بشعب فلسطين، رجالاً ونساءً. وقد أدركت المرأة الفلسطينية أن عليها واجبات وطنية إلى جانب الرجل، ولذلك فقد طلب وفد من سيدات القدس العاملات في الحقل الاجتماعي برئاسة زليخة الشهابي إلى عمتي ابتهاج بحث موضوع فلسطين ودور المرأة في الأقطار العربية، فاقترحت أن يعقد مؤتمر عام لجميع السيدات العربيات بدعوة من الزعيمة هدى هانم شعراوي في القاهرة. وهكذا أرسلت عمتي هذا الطلب ونفذ بعقد المؤتمر العام في ١٢ تشرين الأول أكتوبر من سنة ١٩٤٤ فحضرته أنا عن فلسطين، كوني رئيسة لإحدى الجمعيات النسائية في فلسطين. ولسوء الحظ لم تذهب عمتي إلى المؤتمر بسبب وعكة صحية ألمت بها. ولكنها أرسلت برقية وطلبت من أختي زاهية أن تحضره بمناسبة وجودها في القاهرة (تحضر أطروحة الدكتوراة) وكان الوفد اللبناني برئاسة السيدة روز شحفة،

---

(١) المصدر السابق ص ٢١ ـ ٢٢.

أما الرعاية وكلمة الافتتاح فللملك فاروق.

أما عضوية الوفد اللبناني فكانت لكل من نجلاء كفوري، وإفلين تويني بسترس، ونازك عابد بيهم وحياة بيهم. وقد تحدثت في المؤتمر كلٌ من كفوري وبسترس اللتين لم تشيرا في كلمتيهما إلى عمتي إبتهاج، مما أدى إلى انزعاجي واحتجاجي فسارعت السيدة كفوري إلى الاعتذار، لأن «هذا التجاهل لم يكن مقصوداً، وقيمة زعامة ابتهاج قدورة محفوظة ولا جدال حولها فهي رئيستنا ورائدتنا».

وفي اليوم التالي أقيم احتفال كبير في قاعة الإحتفالات التابعة لمقر الاتحاد النسائي المصري العام، بحضور حشد من شخصيات الحكومة المصرية والنواب والسفراء، واحتضنتني هدى هانم وأجلستني في الصف الأمامي، وافتتحت كلمتها بتحية إلى الزعيمة ابتهاج قدورة صاحبة الفضل في عقد هذا الاجتماع، وأشادت بمناقبها ومآثرها. بعدها ألقت رئيسات الوفود النسائية العربية كلماتهن، وبصفتي رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في طولكرم، ألقيت كلمة فلسطين وموضوعها، «نداء الأرض» نبهت فيها إلى ضرورة العمل بسرعة قبل ضياع الأرض الفلسطينية كلها.

دام الاتصال بين الرائدة ابتهاج قدورة وزعيمة النهضة العربية رئيسة الاتحاد النسائي العربي العام هدى هانم شعراوي سنوات طويلة، لتنسيق العمل النسائي العربي، وتطوير الحركة النسائية، وخدمة القضية الفلسطينية، وعندما توفيت هدى شعراوي في ١٧ تشرين الأول ١٩٤٧، تم انتخاب ابتهاج قدورة خلفاً لها. وهذا أمر طبيعي باعتبار أن العلاقة بينهما هي التي أدت إلى قيام الاتحاد النسائي العربي العام، ويضم الاتحادات النسائية في جميع البلدان العربية ويعقد دوراته في مختلف عواصمها. وقد فازت عمتي بالتزكية لدى ترشحها في مؤتمر الاتحاد العربي العام الذي عقد في اليونيسكو العام ١٩٤٨، وامتدت رئاستها اثني عشر عاماً على حقبتين، امتدت الأولى من العام ١٩٤٩ إلى العام ١٩٥٧ والثانية من العام ١٩٦٢ إلى العام ١٩٦٧. وقد اشتركت عمتي أيضاً في عدة مؤتمرات دولية نقلت خلالها صوت المرأة اللبنانية والعربية إلى أعلى المحافل.

ومن مآثرها فيها رفعها بتاريخ ٢٦ أيار/ مايو من العام ١٩٤٨، باسم الاتحاد النسائي العربي اللبناني، احتجاجاً شديد اللهجة إلى الحكومة البريطانية، بواسطة سفير بريطانيا في بيروت، على المأساة الأليمة التي يمثلها الساسة البريطانيون على المسرح السياسي في فلسطين العربية، حتى أصبحت ميداناً للفتنة وإراقة الدماء بدلاً من أن تكون ميداناً للأمن والسلام. ولكن نضالها لم يقتصر فقط على الدفاع عن حقوق المرأة بل تعداها إلى النطاق السياسي إذ سجلت العديد من المواقف الوطنية، ففي ٨ تموز/يوليو من العام ١٩١٩، استقبلت في منزلها ببيروت لجنة كينغ ـ كراين الأميركية التي جاءت إلى بلاد الشام للوقوف على رغبة سكانها في الحكم الذي يريدونه لبلادهم التي انفصلت عن الدولة العثمانية، وقرأت عمتي أمام اللجنة بالنيابة عن زميلاتها: عنبرة سلام، وأمينة حمزة، وليلى وعادلة بيهم، مذكرة باللغة الإنكليزية عنوانها: «تمنيات المرأة العربية»، طالبت فيها ببرنامج دمشق الذي تضمّن: طلب الاستقلال التام لسوريا بحدودها الطبيعية؛ ورفض أية حماية أو وصاية، ومنع الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، كما طالبت في مذكرتها بحق سوريا في فرص التنمية والتطوير لتحتل مكانتها بين أمم العالم[1]. يقول Howard هاورد في بحثه «هذه هي المرة الأولى التي تطرح فيها المرأة اللبنانية قضيتها» لقد استحوذ الإعجاب على لجنة كينغ ـ كراين لذكاء ابتهاج قدورة «وطلاقة لسانها بالانكليزية وحجتها وجرأتها ووقوفها على خفايا السياسة.. وكان اسم ابتهاج قدورة من أبرز الأسماء في خواطرها وأوراقها»[2]. وفي العام ١٩٣٦، وبعد اطلاعها على نص المعاهدة الفرنسية ـ اللبنانية في الصحف، قدمت إلى رئيس الجمهورية إميل إده مذكرة تاريخية باسم الاتحاد النسائي في لبنان، ورد فيها ما يلي:

قلتم يا فخامة الرئيس: لي الشرف أن أثبت لفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية أن الحكومة اللبنانية تضمن لجميع تابعيها، من دون تمييز، المساواة في الحقوق المدنية والسياسية، وأنا أتساءل هنا: «هل المرأة من أصل لبناني، وهل

(١) سلمى صايغ، صور وذكريات ص ١٦٢.

(٢) سلمى صايغ، صور وذكريات ص ١٦٣.

المولودة والمقيمة في لبنان تدعى تابعية تابعية لبنانية أم لا؟ فإذا كانت كذلك فقد نالت اعترافاً صريحاً من فخامتكم بمساواتها بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية». فأجابها الرئيس إده على الفور بأن الدستور اللبناني ضمن لها الحق، إلا أن قانون الانتخابات حصر الحقوق السياسية بالذكور دون الإناث.

وتابعت النضال، وتولت رفع العرائض كلما انعقد مجلس نيابي أو تألفت وزارة. ففي العام ١٩٤٣ رفعت إلى المجلس النيابي عريضة باسم الاتحاد النسائي العربي اللبناني، طالبت فيها بالحقوق السياسية للمرأة اللبنانية، فتبناها عشرة نواب ثم قدموا عام ١٩٤٤ اقتراحاً إلى المجلس بمنح المرأة حقوقها الانتخابية والتمثيلية كاملة، لكن المجلس النيابي رفض هذا الاقتراح، فأعادت الكرة العام ١٩٤٥ بطرح الموضوع بإلحاح، متأثرة بوثبة المرأة السورية التي نالت، ذلك العام بالذات، حقها في أن تنتخب ممثلي الشعب في الندوة النيابية. ونتيجة للمثابرة، ولموقف الاتحاد النسائي وأصوات النساء في جميع مناطق لبنان، اقترحت اللجنة التشريعية في المجلس النيابي الاعتراف التدريجي بحقوق المرأة السياسية علي أن يكون لها الحق بأن تنتخب ولا تُنتخب. قابلت النساء هذا الاقتراح بالاحتجاج الشديد، وقادت عمتي في ٢٠ آذار/مارس ١٩٥١ مظاهرة كبيرة سارت فيها المتظاهرات نحو المجلس النيابي، حيث سلمت رئيسه مذكرة تضمنت احتجاج النساء على ذلك الاقتراح المبتور. بعدئذٍ منحت الحكومة اللبنانية في الرابع من تشرين الثاني/نوفمبر العام ١٩٥٢ المرأة المتعلمة فقط حق الانتخاب، إلا أن النساء رفضن القبول بهذا الشرط، إذ كيف يجوز للرجل الأمي أن يمارس حقه الانتخابي ولا يجوز للمرأة الأمية؟!. ولهذا جدّت النساء في طلب المساواة، فوافق مجلس الوزراء في شباط/فبراير من العام ١٩٥٣ على إعطاء المرأة حق الانتخاب. وفي العام نفسه، انتخبت عمتي وزميلتان لها، هما لور ثابت والين ريحان، لعضوية المجلس البلدي لمدينة بيروت، فقطفت المرأة ثمار جهادها بهذه المبادرة الرسمية من الحكومة اللبنانية التي اعترفت بمساواة المرأة بالرجل.

إنني أخشى أن أكون أطلت في الكلام عن إبتهاج قدورة، إلا أني حاولت قدر الإمكان إبعاد العاطفة التي أحملها لها. واختصاراً لما يستحق أن تفرد له

صفحات، وقد أفردها آخرون سواي، وأود أن أشير إلى أنها ترأست سنة ١٩٦١ وفد لبنان النسائي إلى المؤتمر الآفرو - آسيوي الذي عقد في القاهرة للبحث في قضيتي فلسطين والجزائر، وألقت كلمة عبرت فيها عن وجهة نظر المرأة اللبنانية الداعية إلى استمرار النضال حتى ينال القطران استقلالهما بجلاء الاستعمار الفرنسي والاحتلال الصهيوني، وقد شاركت في أعمال المؤتمر كرئيسة لوفد الاتحاد النسائي العربي، ثم توجهت بعدئذٍ مع رئيسات الاتحادات النسائية الافرو - آسيوية لزيارة الرئيس جمال عبد الناصر الذي استقبلنا بالترحاب مثنياً على جهودنا الخيرة.

وقد حضرت اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر المذكور، بوصفي رئيسة للوفد الفلسطيني، وانتخبت في الهيئة الإدارية التي تمثل آسيا وأفريقيا.

أختتم بالقول إن عمتي توفيت في صيف العام ١٩٦٧، بعد أن أمضت عمرها في خدمة المرأة اللبنانية والعربية من دون تفكير في جزاء وحين علمت الأديبة المصرية أمينة السعيد بوفاتها قالت:

«لقد توارى بفقدها وجه من أكرم الوجوه العربية في تاريخنا الحديث، وبموتها ماتت هدى هانم شعراوي للمرة الثانية».

لقد كرست عمتي حياتها للجهاد والخدمة العامة، ولم تتزوج قط، على الرغم من أنها كانت جميلة المحيا وثرية، وسيدة من الطراز الأول، أذكر أنه عندما أصبحنا في سن الزواج خاطبتنا قائلة:

«لا تفعلوا مثلما فعلت عمتكم ابتهاج، فأنا رفضت الزواج من أفضل الرجال، وكان ينبغي ألا أرفضه، ذلك كان خطأ، لا يكفي أن تتعلموا، وتحصلوا على الشهادات العالية، بل ينبغي أن تتزوجوا أيضاً. هذه هي سنة الحياة، والعلم والزواج يجب أن يتحققا معاً».

والدتي خانم الحسامي :

والدتي من عائلة الحسامي المعروفة بانتسابها إلى الأمير المملوكي حسام الدين لاجين الذي حكم فيما مضى بلاد جبيل. كان والدها كامل الحسامي

رجلاً مثقفاً، دفع بأولاده إلى مدارس الراهبات فتعلموا الموسيقى واللغات، حتى جدتي رضى الحسامي، التي كانت شبه أمية، فقد جاهد كي يعلمها أيضاً، فاستقدم لها المعلمات إلى البيت، حتى باتت تقرأ وتكتب وتعزف على البيانو (الأورغن).

وهكذا نشأت والدتي في بيئة تهتم بالثقافة والفنون. وعندما تزوجت وهي في سن لا يتجاوز الخامسة عشرة، وجدت نفسها في بيئة مختلفة تهتم بالطب والصيدلة، لكنها سرعان ما تكيفت معها وأخذت تطالع مع والدي وعمي الدكتور نادر الكتب العلمية والطبية، وبمرور الزمن أصبح لديها إلمام كاف بمبادىء الطب وتركيب الأدوية. كذلك اهتمت والدتي بالشؤون العامة، فكانت من مؤسسات «جمعية النهضة النسائية» سنة ١٩٢٤، وغايتها تشجيع الحرف والصناعات الوطنية. ومن أجل هذه الغاية كانت تخيط لنا الألبسة من الأقمشة الوطنية، وكنا نرتدي ما تخيطه في البيت والمدرسة والحي والحفلات التي يحضرها علية القوم.

أما على الصعيد الوطني، وحين بدا أن هناك محاولات من البعض لإحداث شرخ طائفي خدمة للاستعمار الفرنسي وبقائه متسلطاً على البلاد، كانت في طليعة المنادين بالوحدة والتآلف بين فئات المجتمع اللبناني. وفي العام ١٩٤٣ دعت إلى منزلنا، في شارع المكحول القريب من الجامعة الأميركية، نخبة من المثقفين ورجال الدين، منهم الأستاذ القاضي رفيق البراج، والنائب السابق أديب الفرزلي، والشيخ حمود، والأب خلف كاهن كنيسة «السيدة الأرثوذكسية» في رأس بيروت، والأب بولس الخوري وهو حالياً مطران مرجعيون، وغيرهم كثر. فتبادلوا الأحاديث الودية، ثم نظموا مسيرة انطلقت من بيتنا إلى الكنيسة حيث ألقى فيهم أحد المشايخ المسلمين كلمة وطنية، ثم ذهبوا إلى الجامع العمري الكبير حيث ألقى الأب بولس الخوري، بدعوة من المفتي الشيخ محمد توفيق خالد من على منبر الجامع خطبة دعا فيها إلى المحبة والإخاء بين جميع الطوائف. وبعد ذلك، توجهت المسيرة إلى السراي الحكومي يتقدمها رجال الدين من مسيحيين ومسلمين، وهم ينشدون النشيد الوطني اللبناني، فقابلوا رئيس الحكومة آنذاك رياض الصلح الذي كان بالغ التأثر بذلك المشهد الوطني الرائع.

كانت والدتي شابة حين توفي والدي، فوجدت نفسها مسؤولة عن تربية ستة أولاد هم أديبة وأنا ورفيقة، وأديب، وزاهية، ولبيب. كانت مثال الأم الحنون والمربية والمرشدة المثقفة الواعية التي نجحت في أن تقوم بدور الأم والأب في آن واحد، بفضل ثقتها بنفسها وشخصيتها الفذة التي استطاعت بها تربية أولادها.

أخواتي وإخوتي:

أديبة هي من أوائل خريجات كلية بيروت الجامعية، تزوجت من الدكتور جودت قزعون وأسرة قزعون معروفة وكان لها في ظل حكم الدولة العثمانية عضو في «مجلس المبعوثين»، مثلت في البرلمان بالمرحومين حسين قزعون والدكتور أمين قزعون وبعدها رفعت قزعون، وقد عملت أديبة في الحقل الاجتماعي من خلال عضويتها في الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني وجمعية متخرجات كلية بيروت ولجنة المساعدات في مستشفى الجامعة الأميركية، وقد برعت باللغة الإنكليزية ولها كتابات نشرت بعضها في صحف بريطانية. أما رفيقة فهي أصغر سناً، وقد تزوجت من عبد الفتاح الميقاتي ابن الثري الفلسطيني عزيز بك الميقاتي، عملت بنشاط محدود في الحركة النسائية الفلسطينية، ومثلت مدينة حيفا في الاتحاد النسائي العربي العام في القاهرة.

أما الدكتورة زاهية فغنية عن التعريف للكثيرين، فهي الباحثة والمؤرخة المعروفة في لبنان والعالم العربي، لها عشرات الأبحاث والكتب المنشورة. تلقت زاهية علومها الابتدائية والثانوية في المدرسة الأميركية ثم في كلية بيروت للبنات حيث نالت شهادة الصوفومور. وأكملت دراستها في الجامعة الأميركية وتخرجت العام ١٩٤٣ حاملة بكالوريوس علوم في الدراسات التاريخية.

توجهت بعد ذلك إلى مصر لمتابعة علومها العالية في جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة اليوم) فنالت منها سنة ١٩٤٧، شهادة الماجستير عن دراستها التي خصصتها لعائشة أم المؤمنين. ثم نالت منها في العام ١٩٥١ شهادة الدكتوراة في التاريخ، فكانت أول فتاة لبنانية تحصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة مصرية.

وقد شاركت أثناء وجودها في مصر في مختلف النشاطات الفكرية والسياسية. وقد انتدبتها جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية في بيروت سنة ١٩٤٤، لتكون مسؤولة عن بعثاتها الطلابية إلى المعاهد المصرية، ونظراً لما قدمته إلى الطلاب من مساعدات، ولما كانت تتمتع به من مكانة في الأوساط الجامعية والثقافية، انتخبها الطلبة اللبنانيون في مصر أيضاً رئيسة لهم ثلاث سنوات متعاقبة، فترأست الاجتماعات العامة، وقادت التظاهرات الطلابية من أجل دعم القضايا العربية.

والتحقت بعد عودتها إلى لبنان، سنة ١٩٥١، بالجامعة اللبنانية أستاذة مساعدة في قسم التاريخ، وتولت سنة ١٩٦١، رئاسة قسم التاريخ فيها، ثم نالت رتبة الأستاذ الأصيل، وتدرجت فيها حتى أصبحت عميدة لكلية الآداب.

تزوجت من الدكتور محمد عبد السلام كفافي المعار من الحكومة المصرية أستاذاً في كلية الآداب ثم عميدها في الجامعة نفسها، وأسهمت زاهية في دعم هذه الجامعة منذ تأسيسها سنة ١٩٦١، ودرّست فيها التاريخ سنوات عديدة. رشحتها الحكومة اللبنانية في ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٥٨، لمنصب مستشار في جامعة الدول العربية، وهي المرة الأولى التي ترشح فيها إحدى الدول العربية سيدة لهذا المنصب[1]. إلا أن بعض الدول الأعضاء في الجامعة اعترض على هذا الترشيح بحجة كونها امرأة، ووجوب المحافظة على التقاليد، مما جعل الجامعة تعلن في ١٢ كانون الثاني/يناير من العام ١٩٥٩ أسفها لعدم إمكان تعيينها في المنصب المذكور، وانبرت الأقلام النسائية في مختلف الأقطار العربية صفاً واحداً تحمل المسؤولين تبعة الحيلولة دون كسب المرأة لحق سياسي عملي، وكذلك الأقلام الصحافية الرجالية راحت تندد بالعقلية الرجعية المتعامية عن الحقيقة[2]، ومن الضروري الإشارة إلى أن مؤهلات أختي زاهية العلمية التي رفضت جامعة الدول العربية الاعتراف

(١) د.حنيفة الخطيب: تاريخ تطور الحركة النسائية في لبنان وارتباطها بالعالم العربي ١٨٠٠ - ١٩٧٥ ص: ١٤٦ و ١٤٨.
(٢) جريدة القاهرة: ١٩٥٨/٢/٢٩

بها مكنتها، سنة ١٩٧١، من الفوز على منافسيها واحتلال مركز العمادة في كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية، وبذلك كانت أول عميدة في العالم على الشبان والشابات معاً. وكان إسناد هذا المركز المهم إليها نصراً جديداً للمرأة اللبنانية، وقد ملأته بكفاءاتها وبنشاطها المكثف الذي شجع مجلس الجامعة على انتخابها بالإجماع مرة ثانية.

حققت زاهية الكثير من الإنجازات في الجامعة اللبنانية وأبرزها: الاستعانة بالأساتذة الشبان في الهيئة التعليمية، وتغيير المناهج وأنظمة الامتحان، وتطوير المكتبة ضمن الإمكانيات المادية المتاحة، والإلتزام بمبدأ مشاركة الطلاب في اجتماعات مجلس الجامعة، وإرسال العديد من الشبان لمتابعة الدراسات العليا في الخارج، والتأكيد على دور الجامعة في المجتمع اللبناني.. هذا فضلاً عن إشرافها على العشرات من رسائل طلابها في قسمي الدبلوم والماجستير.

ورأت أختي زاهية، في إطار سياستها الهادفة إلى تطوير الجامعة وقيامها بدورها الوطني والقومي في مواجهة نذر الحرب الأهلية أن تدعو الأساتذة الجامعيين إلى المشاركة في الشؤون العامة لوطنهم، فتوجهت إليهم في ٢١ نيسان/ابريل من عام ١٩٧٥ بنداء يدعوهم إلى التخلي عن الوقفة السلبية التي تدرجهم في عداد الأكثرية الصامتة، ليكونوا على مستوى الحدث السياسي، فيتدارسون مشاكل الوطن والمواطن، ويضعون لها الحلول الإيجابية البعيدة المدى. واستجابة لهذا النداء، اجتمع في قاعة المحاضرات في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، في ٩ حزيران/يونيو من العام ١٩٧٥، ستون أستاذاً من معظم الجامعات العاملة في لبنان، فاستعرضوا على مدى ساعتين الظروف الصعبة التي يعيشها الشعب اللبناني، وخرجوا ببيان دعا إلى المحافظة على كيان لبنان، والتمسك بعروبته الأصيلة، والعمل على تحقيق المساواة الاجتماعية بين جميع مواطنيه من دون تفرقة أو تمييز. وإلى جانب نشاطها الأكاديمي والبحثي، باشرت عقد حلقات فكرية لتأسيس «اتحاد للجامعيات اللبنانيات»، وفعلاً تشكلت الهيئة التأسيسية في مطلع تشرين الثاني/نوفمبر من العام ١٩٥٢، إلا أن زاهية فوجئت أثناء سعيها للحصول على الرخصة بوجود جمعية مماثلة تدعى «جمعية اللبنانيات الجامعيات»، لكنها عندما أدركت اختلاف الأهداف تابعت سعيها حتى حيازة

الترخيص بعد عام من التأسيس. وقد بذلت جهداً لتوحيد الجمعيتين، إلا أن محاولاتها لم يكتب لها النجاح، خصوصاً بعد أن قامت المساجلات التي تبين أن وراءها خلافاً حول ارتباط لبنان التاريخي والثقافي بالمحيط العربي، ففيما زعمت جمعية اللبنانيات أن هناك ثقافة لبنانية متميزة مؤيدة في ذلك من اتحاد الجامعيات العالمي، أكد إتحاد الجامعيات على ارتباط الثقافة اللبنانية بالعربية، باعتبارها جزءاً من المحيط القومي.

وانطلاقاً من قناعته هذه، سجل (إتحاد الجامعيات اللبنانيات) - وما يزال - الكثير من المواقف الوطنية والقومية، وتوجه في ١٢ أيار/مايو من العام ١٩٧٥ بنداء إلى المجلس النسائي اللبناني، ذكّره فيه بالأبعاد الخطيرة لابتعاد المرأة عن دورها ومسؤولياتها، فاستجاب المجلس للنداء، ونظم في ٢ حزيران/يونيو من العام ١٩٧٥ مسيرة نسائية انطلقت من نقابة الصحافة باتجاه منطقتي التباريس والبربير، الواقعتين في قلب بيروت لإزالة حاجز رمزي من كل ناحية.

واستطاع الاتحاد، في حدود إمكانياته المادية، أن يقدم منحاً دراسية لبعض الطالبات في الجامعات الموجودة في بيروت: وهي الجامعة الأميركية، والجامعة اليسوعية، وجامعة بيروت العربية، وكلية بيروت الجامعية، حتى بلغ عدد المستفيدات من هذه المنح ٣٠ جامعية.

وعلى الصعيد القومي، أسهم الاتحاد سنة ١٩٥٦، في حملة تبرعات لضحايا العدوان الثلاثي على مصر، ودعا في حرب حزيران ١٩٦٧ إلى مقاطعة البضائع الأميركية، وتبرع في حرب تشرين ١٩٧٣ بكميات من الأدوية والمواد الغذائية لضحايا العدوان الإسرائيلي على مدينة القنيطرة السورية المدمَّرة. وكان اتحاد الجامعيات اللبنانينات قد عقد في ٨ آذار/مارس عام ١٩٦٤ لأول مرة «مؤتمر الجامعيات العربيات» في بيروت تمهيداً لعقد المؤتمر الثاني للجامعيات العربيات في القاهرة في أول نيسان/ابريل من العام ١٩٦٧. ولا يزال اتحاد الجامعيات اللبنانيات يتابع جهوده لتوطيد أواصر الصداقة والتعاون بين الجامعيات في سائر أقطار الوطن العربي.

يبقى أن أشير إلى أن الدكتورة زاهية قدورة التي واكبت نشوء الجامعة

اللبنانية وعايشتها، أعطت هذه المؤسسة ما تستحق من جهد ورعاية وأولوية، باعتبارها المؤسسة التي تفتح أبوابها لأبناء الطبقات الفقيرة والمتوسطة من عموم المناطق والطوائف اللبنانية.

أخي أديب:

وأصل إلى أخي أديب، فالذين عرفوه شاباً رياضياً أولاً، وصيدلياً ثانياً، ونقيباً للصيادلة لثلاث دورات وأمينا لسر اتحاد الصيادلة العرب، ورئيساً للمجلس الأعلى للحزب السوري القومي الاجتماعي، ونزيل سجون لمرات ومرات، لا يصدقون أنه الطفل الذي تأخر عن دخول المدرسة، تحت وطأة الربو الذي أصابه. فخلافاً لما درجنا عليه من الدخول في سن مبكرة إلى المدرسة، اضطر مرضه والدي لاتخاذ قرار بإبعاده عن بيروت ورطوبتها، وعليه تمّ إرساله خارجها مع ممرضة لبعض الوقت، وعندما تحسنت حاله تم إدخاله إلى مدرسة الشيخ عباس القريبة من منزلنا القديم في «عالسور»، حيث كان انتظامه الدراسي متقطعاً. إلا أن تطور وضعه الصحي أدى إلى دخوله المدرسة ومنها إلى الجامعة الأميركية حيث نال إجازته في العام ١٩٣٨ كأصغر طلاب دفعته، وخلال التحاقه في الأخيرة قرر التغلب على معاناته عبر الأنشطة الرياضية، ومارس السباحة والملاكمة وكرة السلة والتنس وتفوق في العديد منها.

لكن الأهم في مسار شقيقي أديب كان انتماؤه للحزب السوري القومي الاجتماعي، الذي تعرف عليه طالباً في الجامعة الأميركية، أسوةً بسواه من الطلاب الذين كانت تتوزعهم الأفكار القومية آنذاك. ولعل انتسابه للحزب خلال فترة الدراسة طبع حياته إلى حد ما، إلا أن نشاطه الحزبي قد واكب تخرجه من الجامعة، إذ شغل مراكز هامة في الحزب، فكان عميداً للدفاع والخارجية ورئيساً للمجلس الأعلى للحزب، ومن خلال هذه المواقع مارس أدواراً سياسية في كل من لبنان وسوريا على حد سواء. فقد تعرف شقيقي أديب على مؤسس الحزب أنطون سعادة في مطلع الثلاثينيات، وعين منفذاً عاماً لبيروت ولم يتجاوز في حينه الواحد والعشرين عاماً، ولما نشبت الحرب العالمية الثانية وقامت سلطات الانتداب بحملاتها القمعية على القوميين والشيوعيين، كان أديب من ضمن

المستهدفين نظراً لموقعه الحساس في الهرم التنظيمي. وقد تعرض لدخول السجون خمس مرات، أولاها كانت في العام ١٩٣٩ عندما أمضى في سجن القلعة ثلاثة أشهر ومثلها في سجن الرمل. وفي السجنين لم يكن أديب مجرد سجين حزبي، بل لعب دور الطبيب، ومن الذين طببهم فرج الله الحلو القيادي البارز في الحزب الشيوعي اللبناني. وقد تابع أخي نشاطه الحزبي رغم كل المصاعب والمتاعب التي جابهته إلا أنه قرر في النهاية تجميد نشاطه في إطار الحزب احتجاجاً منه على المؤامرة التي قام أحد زعماء الحزب في العام ١٩٥٥ بتدبيرها واغتيال المرحوم العقيد عدنان المالكي، نائب رئيس أركان الجيش السوري، بدون علم قيادات الحزب. وزاد ابتعاده عن الحزب حين اندفع الحزب في تأييد الرئيس كميل شمعون، إذ اعتبر أن هذا الموقف يعتبر انسياقاً في قتال طائفي لمصلحة فرد مهما كان مركزه ولأن ذلك يتنافى مع فلسفة الحزب القائمة على العلمانية ولأن مصلحة الشعب تأتي قبل مصلحة أي فرد.

ولكن أخي أديب، خلال نشاطه الطويل في صفوف الحزب السوري القومي الاجتماعي دأب دوماً على التوفيق بين اتجاهات الحزب القومي والتيار العربي الشامل، ونظم لقاءات خلال حياة الزعيم أنطون سعادة، بين أخته الدكتورة زاهية قدورة وبينه وجرت بينهما نقاشات مطولة عالجت في العمق موضوع الانتماء العربي، لأن أخي كان موقناً أن انتماء سوريا ومصيرها مرتبطان بالمصير العربي المشترك.

أخي لبيب:

خلافاً لشقيقي أديب الذي انخرط في الحياة السياسية منذ نعومة أظفاره فإن أخي لبيب وجه نشاطه واهتمامه إلى الصيدلة والتجارة ونشط في هذا الميدان، وقد ساهم عبر علاقاته العامة في دعم عدد من المؤسسات الخيرية التي تعنى بشؤون المعوزين، والمحتاجين.

عروس الفرح والأحزان:

بعد استعراضي للوسط الذي نشأت فيه، وكان هذا التفصيل ضرورياً

لتسليط الضوء على الإطار الوطني والثقافي الذي قيض لي لحسن الحظ أن أنمو في ظله، أراني الآن أجلس على شرفة منزلي في رأس بيروت، أغمض عيني على ستين عاماً مرت فأجدني عروساً تقصد عريسها في فلسطين وطبريا تحديداً، وكان ذلك ذات يوم حين جاء عمي الحاج خليل خرطبيل إلى بيروت من فلسطين قاصداً منزل عمي الدكتور حليم قدورة، حيث عقد قراني بحضور عدد محدود من أسرتي قدورة وأسرة عريسي الدكتور أديب خرطبيل بسبب وفاة والدي منذ فترة قصيرة، وكان مفتي الجمهورية آنذاك الشيخ محمد توفيق خالد هو من أشرف على العقد بحضور عدد محدود من الأهل، الرجال في منزل عمي والنساء في منزلنا، وعندما انتهت المراسم بدأت صديقات أمي وبعض القريبات في ركوب السيارات، باتجاه طبريا وكنت أرتدي فستان العرس والطرحة البيضاء جالسة في السيارة الأمامية، فيما أمي في سيارة ثانية ترتدي ثياب الحداد على والدي الذي توفي منذ أقل من ثلاثة أشهر.

أكثر من خمس وعشرين سيدة من قريباتنا وصديقات أمي، وكنت أتطلع إلى البحر، فأرى وجه أبي الذي لم يمض على وفاته أكثر من خمس وسبعين يوماً، ثم يمتد نظري لأرى عريسي أديب ينتظرني في طبريا التي لا أعرف شيئاً عنها. أو ما أعرفه عنها ليس أكثر من ذلك الذي أخبرني به الدكتور أديب في فترة خطوبتنا القصيرة. كان الوقت ظهراً تقريباً عندما انطلقنا، وذهني يتأرجح بين طفولتي، والموكب الذي أنا فيه، أكاد أتوجه بخاطري نحو خيار يبقى بالنسبة إليّ مجهولاً. لم يكن ما حدث رغماً عني، بل على العكس من ذلك، إلا أني كنت في تلك اللحظات خائفة. السائق وعمي الذي استأجر موكباً من السيارات لا يقل عن عشر لا يتحدثان إلي، بل يتحدثان مع بعضهما بعضنا، فيما أنا في المقعد الخلفي محاطة ببياض الثياب التي تلفني.

أنا الآن في السيارة، ولست فيها، أهرب من أسئلة القلق أمام مغامرة الزواج التي تجابه كل عروس إلى طفولتي فأرى نفسي صغيرة، والحرب الأولى قد وضعت أوزارها للتو. ما أن أفتح عيني حتى أجد أمامي مشاهد البؤس والمرض والجوع، مشاهد أراها ولا أعانيها. ذكرت أن والدي كان صيدلياً قانونياً، ولأن السلطات العثمانية كانت في حاجة إلى أمثاله، فقد أولته منصب رئيس الصيادلة

في الجيش التركي، «سراجزه» وطلبت منه الإقامة في عاليه، ومن حسن حظي أن جدي كان قد بنى منزلاً كبيراً في ذلك المصيف، فتحول إلى مسكن مريح لنا وسط أشجار الصنوبر والتين والعنب. في مدينة عاليه وفي مدرسة هدلا عشت طفولتي الأولى وأنا في الثالثة من عمري، وكنت كل صباح أذهب وأختي أديبة التي كان عمرها ضعف عمري تقريباً إلى المدرسة التي هي أقرب إلى الكتّاب منها إلى مدرسة اليوم. نتعلم القراءة والكتابة وبعض الأغاني ولا نلبث أن نرجع إلى البيت. كنت في الثالثة آنذاك، وما إن انتهت الحرب، وانهارت الدولة العثمانية، حتى عادت العائلة إلى بيروت. ومع رجوعها عاود أبي يزاول عمله المعتاد في الصيدلية، فيما انتسبت إلى المدرسة الأميركية للبنات، وهي المدرسة التي سبق وانتسبت إليها عمتي ابتهاج، ولم تكن تبعد عن بيتنا في «عالسور» سوى مسافة قصيرة جداً. تعلمت في المدرسة الأميركية معظم المواد باللغة الانكليزية، وتسبب هذا التركيز في تضاؤل اهتمامنا بالثقافة العربية ـ الإسلامية. ولما أدرك والدي هذا النقص في تعليمنا، طلب إلى الشيخ سلام وهو من أشهر علماء الدين في بيروت آنذاك، أن يشرف على تربيتنا تربية إسلامية صحيحة، فكان يزورنا مرتين في الأسبوع، ليعطينا دروساً في اللغة العربية، ويفسر لنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، حتى ختمنا القرآن، فأقيمت لنا «ختمية» ووزع على الجيران، بهذه المناسبة الملبس والحلوى والمهلبية.

لكن والدي لم يكن متزمتاً، وقد عاملني معاملة صبي، فعلمني الصيد، وكنت أصطاد معه ومع والدتي في عنجر وجديتا ومناطق أخرى في سهل البقاع. وذات يوم جاءه رجل وقال له: إن المسلمين في جديتا يستغربون ارتداء ابنتك وديعة لباس الصيد وركوب الحصان، ويقولون أن ذلك يتنافى مع مألوف العادات الإسلامية، فأجابه والدي: «لا يهمني ما يقوله الناس فأنا أريد تربية بناتي تربية إسلامية حقيقية ليعشن حياة اجتماعية متطورة حسب البيئة، وحسب ما ارتئي».

وكنا نمضي أياماً جميلة في جديتا والبقاع وعين صوان وعين بركة، نلعب في الصباح والمساء، ومعنا أصدقاء أهلي وأولادهم وأقاربنا، وذات يوم قالوا: لا يوجد نبع للشرب هنا، وهناك نهر كبير جار غير صالح للشرب. فقلت لهم: سأحفر للبحث عن نبع. وهكذا فعلت في عدة أمكنة وكان عمري في ذلك

الوقت لا يزيد على عشر سنوات ولم يصدقني أحد وقابلوني بالهزء، وبعد الظهر تدفق الماء العذب وكان مشهداً عظيماً، مشهد الماء العذب البارد النظيف النقي. ركض الجميع ليتفرجوا وبدأ الفلاحون يزغردون ويقولون: هذه عين وديعة. ومضت أيام وسنون، ومررت بشتورة فوجدت بعض أصحابنا من آل قيقانو في مقهى بديعة مصابني في شتورة، فسألتهم عن الجميع والعائلة والأصحاب وعن مقرهم، فقالوا: إننا قرب عين وديعة، وكان سروري عظيماً جداً لبقاء العين ولارتباطها باسمي.

كان الأولاد في الماضي يخشون آباءهم، ولكن الوضع في منزلنا كان مختلفاً، فأبي عامل أبناءه كأصدقاء وأكرم بناته، كما اعتبر والدتي صديقة له، فكان يستشيرها في جميع تصرفاته.

وكان قد قدم لها «بيانو» هدية في يوم زفافها، فكنت، حين أعود من المدرسة أحاول العزف عليه، وقد لاحظت والدتي اهتمامي بالموسيقى، فاختارت معلمة خاصة كي تعلمني العزف هي الآنسة الين عجمي شقيقة الأديبة الكبيرة ماري عجمي التي كانت صديقة لعمتي ووالدتي. أعجبت المعلمة باستعدادي، وقالت لأمي إن ما أعلمه للآخرين في سنة أعلمه لهذه البنت في شهر. على أن ولعي بالموسيقى جعلني قليلة الاهتمام بدروسي، مع أني كنت مع ذلك من الفتيات النشيطات على الرغم من صغر سني إذ كنت أصغر فتاة في الصف.

وذات يوم استلمت والدتي رسالة من المدرسة الأميركية للبنات تفيد أن علاماتي في تراجع مستمر. أدركت والدتي أن السبب هو البيانو فأقفلته واحتفظت بمفتاحه. وشعرت كأن شيئاً انتزع من روحي. حزنت وتعذبت كثيراً، ولما أصبحت أكبر سناً سمحت لي بمعاودة العزف عليه، حتى جمعت اهتمامي بالموسيقى إلى الرياضة وخاصة كرة السلة والتنس، والإلتحاق بفرق الكشافة الخاصة بالبنات، وكنت وقتها مشرفة على مجموعة من الزميلات واذكر عدداً منهن: زلفاً تابت التي تزوجت فيما بعد الرئيس كميل شمعون، ونجلا كوراني، وليلى طرابلسي وكوكب مشنوق، وشفيقة حسامي، وكنا نرغب في الحياة الكشفية، التي كانت بإشراف رئيسة أميركية ظريفة تذهب بنا إلى مخيمات

صيفية في مناطق سوق الغرب ونهر الكلب والباروك لنلهو ونتعلم أناشيد الكشاف، وكانت من أجمل أيام الطفولة السعيدة التي عشتها.

ولما تأسست «جمعية النهضة النسائية» سنة ١٩٢٤، كنت وشقيقاتي نرتدي الأزياء الوطنية ونحث الناس على شراء المنتجات المحلية، بفضل توعية الوالدة وعمتي ابتهاج.

لقد كنت متحمسة لكل ما يجري حولي، ولهذا جوانب سلبية، تبدت شغباً ولعباً صبيانياً لصغر سني وكنت أيامها في التاسعة، واذكر أنه قبل سنتين من نيلي شهادة «الهاي سكول» انعقد مؤتمر الفتيات في المدرسة الإنكليزية للبنات حيث طلب من كل فتاة أن تختار شخصاً يكون مرشدها فتروي له مشاكلها وهمومها، فاخترت السيدة «اروين» رئيسة المدرسة الأميركية للبنات لأني كنت أحبها كثيراً. كانت السيدة مثال الأميركية الطيبة. ولما قابلتها قالت لي:

أهلاً وديعة، ما هي مشكلتك؟

قلت لها:

أنا كما يقولون فتاة مشاغبة، وكثيرة المشاكل، هل الإنسان يتغير؟ أم أنه يظل كما نشأ دون أي تعديل لسلوكه؟

وبكيت،.

ضمتني السيدة «اروين» وقبلتني ثم كلفتني، فيما بعد، أن أكون من الفتيات المسؤولات عن حفظ النظام في المدرسة الأميركية للبنات، فبقيت على هذه الحال حتى نلت شهادة «الهاي سكول»، وكان عمري وقتذاك خمس عشرة سنة، وكانت هذه الحادثة نقطة تحول في حياتي.

كنت أستعد لنيل الشهادة الثانوية، فأصبت بمرض «أبو كعب» قبل الامتحان النهائي بشهر. فارتفعت حرارتي، وأخذت أبكي لعدم قدرتي على التقدم من الامتحان. وكان الدكتور جودت قزعون خطيب أختي أدية يعتني بي، وعندما خف المرض قال لأمي: أعتقد أنه ينبغي أن تتقدم وديعة إلى الامتحان لئلا تسوء حالتها. ذهبت أمي إلى مدرسة الأميركان وأخبرت السيدة آروين بقصة مرضي،

فوافقت على خضوعي للإمتحان وأنا مستلقية على السرير في غرفة الطوارىء في المدرسة. وكانت أمي تأخذني كل صباح وتعيدني في المساء. إلى أن نجحت في الامتحان النهائي وعندما حان وقت التخرج وقفت مع بنات صفي لأتسلم شهادتي.

وبعدها دخلت كلية بيروت للبنات لدراسة Primedex لتحضير دراسة الطب. كان في الكلية صفان للسنتين الأولى والثانية (فرشمان وصوفومور) الجامعيتين. وتقع الكلية في بناية جدي الدكتور أديب قدورة التي كان قد بناها وأقام فيها عندما كان يتعلم الطب في الجامعة الأميركية وعندما ترشح عمي الدكتور حليم قدورة للإنتخابات باعها لآل مسرنيان، ثم تحولت إلى كلية بيروت الأميركية للبنات، وهي الآن مستشفى نجار في رأس بيروت.

وكانت هوايتي في الكلية التمثيل والرقص الإيقاعي ولعب التنس والباسكت بول والفالي بول، وكنا دائماً نذهب إلى الجامعة الأميركية للمطالعة، لأنه لا توجد مكتبة في كليتنا، ونعتبر ذلك حدثاً عظيماً، وكانت المسؤولة السيدة «شانن» تنظر إلى وجوه الفتيات لتتأكد من عدم وجود المساحيق الممنوعة عليها. وذات يوم شاهدت على وجهي احمراراً، فظنته بفضل المساحيق، وأرادت التأكد من ذلك باستخدام قطعة مبللة بالماء، فوجدت الاحمرار طبيعياً. وأذكر حين ذهابنا إلى الجامعة كنا نشاهد الشبان مصطفين إلى جانب الطريق، وكان ذلك غريباً آنذاك.

قضيت أياماً حلوة في الكلية مع الصديقات وعدت إلى المرح مع زميلاتي، ومن الحوادث التي أتذكرها ما يطابق القول «من يزرع يحصد» إني كنت في إحدى الجلسات مع والدي فسألني عن وضع البستان في الكلية الذي كان منزل جدي وخصوصاً عن شجرتي المشمش فيما إذا كانتا لا تزالان موجودتين. فأجبته بالإيجاب. وفي اليوم التالي أخذت أقطف من ثمارهما وأعطي زميلاتي، لكن المسؤولة سألتني: ماذا تفعلين؟ فقلت إنني أقطف مما زرع والدي. وأخبرتها بما دار بيني وبينه. فقالت للتلميذات. لا تقطفن من هذه الشجرة لأن وديعة من الآن فصاعداً هي التي ستقطف فقط.

لم يكن لدينا أصدقاء ذكور في تلك الأيام، فالحجاب الذي كان ينتصب حائلاً بيننا وبينهم لم يشمل المسلمات فقط، ففي مطلع ذلك القرن، كانت المسيحيات تتحجبن أيضاً، وكان من الصعب التمييز بين المسلمة والمسيحية. وحين حاولت بعض المسلمات نزع الحجاب ثار المحافظون، وحرضوا «القبضايات» على قذف ماء الفضة على نساء أسفرن عن وجوههن في مناطق كالبسطة التحتا والبسطة الفوقا. على أن الحجاب لم يكن سائداً في الريف. إذ كانت نساء العائلات البورجوازية يتحجبن فقط أما الفلاحات فكن يشاركن الرجل في كل أعماله الزراعية وهن يغطين رؤوسهن بالمناديل.

إنتبه وقد جاوزت السيارة، التي أنا فيها والموكب النبطية بمسافة طويلة، وبتنا على الحدود مع فلسطين. أذهب إلى فلسطين وأغوص في تلك المصادفات التي تحملني إليها الآن عروساً، ترتدي الثياب البيضاء، فيما أمي تلبس حزناً ثياباً سوداء على أبي. بداية وأنا أحكي قصتي مع الشاب الذي سيصبح زوجي فعلاً، بعد أن صار قانوناً وشرعاً، أشير إلى أني لم أتابع دراسة الطب. كان الدكتور أديب خرطبيل صديق صهري الدكتور جودت قزعون، درسا الطب معاً في الجامعة الأميركية، ثم غادرا إلى أوروبا بهدف التخصص، وأثناء وجودهما هناك، كان أديب خرطبيل يسأل زميله جودت قزعون: أليس لخطيبتك أديبة أخت؟ فيجيبه صهري: نعم: لها أخت صغيرة. ولما عاد من أوروبا، زارنا الدكتور قزعون ولمح إلى رغبة الدكتور خرطبيل في أن يخطبني، مشيداً بأخلاقه العالية. فأجابه والدي بأنه لا يريد أن يغرّب بناته. وبعد أيام جاء الدكتور خرطبيل يسأل عن صهري. ودق الباب، ففتحته، ونظر إلي ونظرت إليه فقلت له: الدكتور قزعون ليس هنا وأغلقت الباب. ذهب إلى صهري، وقال له رأيتها، ليست صغيرة. لقد أعجبتني، وأنا أريدها. فأخبره صهري أن والدها لا يريد أن يغربها.

بعد لقائه بي على باب بيتنا، صار يتصل بكثيرين لإقناع والدي الذي قطع الطريق على جودت عندما ألمح له بالقول أنه لا يرغب بزواجي في الغربة. ومن الذين اتصل بهم أستاذه وزميله الدكتور موسى غنطوس. كان الدكتور غنطوس صديقاً لوالدي، وكان يتردد على منزلنا، الذي كان وقتها قريباً من مخفر حبيش في رأس بيروت على خط سكة الحديد، وكان بيتاً جميلاً، وقد اختاره والدي

لقربه من الجامعة والكلية في مكان إلى الشرق من مستشفى الجامعة الأميركية الآن، وهي الأرض التي كانت سابقاً لعمي الدكتور حليم. والمسافة قريبة، واذهب إلى الكلية مشياً على الاقدام يترصدني. وكنت إذ ذاك في صف «الصوفومور»، وبدأ خطّاب يقصدون بيتنا، وعلم الدكتور أديب بالأمر فضاعف من إلحاحه على صديقه الدكتور غنطوس. وفعلاً جاء غنطوس وتحدث إلى والدتي بالأمر، وهي فاتحت أبي، فاشترط أن يأتي الدكتور خرطبيل إلى بيتنا، كي أراه بدوري، وكان مثل هذا التفكير نادراً في حينه في بيروت.. وقد خشي ألا يعجبني، وفعلاً جاء وجلسنا مع بعضنا البعض وأخذنا نتحادث عن الكلية، وكان شاباً ناضجاً ذا شخصية، وكان في السابعة والعشرين. وقد أعجب والدي به. بعدها سألتني أمي، باعتبار أنه لم يكن مألوفاً أن يتم حديث الزواج بين الفتاة وأبيها. إلا أن أبي رغم إعجابه به ظل متردداً، لرفضه فكرة ذهابي إلى فلسطين. وتشاء الصدف أن يكون الدكتور خرطبيل يوماً، وتحديداً في فندق يمتلكه أبوه، وأجرّه لأسرة الصوراتي البيروتية، وفيما هو يشرب القهوة لاحظت السيدة الصوراتي، زوجة مستأجر الفندق، عليه الحزن وانحراف المزاج، فسألته ما بك؟ لماذا لا تخطب وتتزوج، فأجابها طلبت فرفضت.

قالت: من هم هؤلاء المجانين؟ إن خير البنات يتمنين الزواج منك. أنت طبيب شاب، ومن أسرة ثرية ومعروفة، ولا ينقصك شيء، لا تقلق، فأنا أعرف بنتاً تناسبك، سأتدبر الأمر مع أهلها، لكن بشرط أن تطلب إلى أبيك أن يخفض لنا إيجار الفندق؟

قال: حسناً، حسناً سأفعل!.

سألته: من هي البنت التي تفكر فيها؟

قال: بنت قدورة.

سألت: ابنة خانم؟

أجاب: نعم.

سألته وعمتها ابتهاج؟

أجاب: نعم.

وسألت: أدبية أم وديعة أم رفيقة؟

أجاب: وديعة.

فقالت: هي من أفكر فيها من أجلك. سأذهب غداً إلى بيروت، وسيتم ما تصبو إليه.

جاءت السيدة صوراتي إلى بيروت، والتقت عمتي ووالدتي أثناء تدبيرها خطيبة لعمي نادر من آل الجزائري كانت جارة لها، فأفصحت عن غايتها، وامتدحت الدكتور خرطبيل، فقالت عمتي ابتهاج: أعطيك الآن موافقتي، ثم التفتت إلى والدتي وأضافت: «لا أرى ما يمنع زواج وديعة من الدكتور خرطبيل، لديك أربع بنات، ولي الحق بواحدة».

واجهوا أبي بالأمر الواقع، فقال:

«دعوني أجتمع إليه، وسأبحث المسألة معه، وإن كنت أراه مع صهري جودت قزعون لأنه صديقه».

جاء أديب خرطبيل إلى منزلنا، فرحب به والدي، ثم دعاني لأجلس معهما. كان في السابعة والعشرين من عمره، فيما كنت أنا في السابعة عشرة. لاحظ أبي إعجابي به، فوافق على خطوبتنا، وحدد موعداً لها بعد أسبوعين.

وعندما «طلبني» الدكتور أديب خرطبيل بعد أن نال إعجاب أهلي، طلب إليّ والدي أن أستشير في موضوع خطوبتي رئيسة الكلية السيدة «اروين» التي تعرفني منذ طفولتي، وأن تسأل الدكتور «هوورد» رئيس القسم الطبي في الجامعة الأميركية عن الدكتور خرطبيل. ففعلت ذلك. وكانت السيدة «اروين» منزعجة لأنها كانت تأمل أن أدرس الطب، لإعتقادها أنني سأكون من أوائل المسلمات اللواتي يتخصصن في هذا الحقل. فقالت لي «اروين»: إن رئيس قسم الطب في الجامعة الأميركية قد أثنى كثيراً على صفات الدكتور خرطبيل العالية وإمكانياته العلمية، «أبارك لك بذلك». وعندما أخبرت والدي سر كثيراً وأبلغ موافقته للدكتور خرطبيل.

عاد الدكتور خرطبيل فوراً إلى طبريا لإعلام والده بالأمر، فيما عاود والدي مزاولة عمله المعتاد في الصيدلية، وذات يوم، كانت إدارة الكلية قد نظمت لنا زيارة إلى مجلس النواب لسماع مناقشاته، ووصلناه صباحاً، وكان عمي حليم حاضراً، واذكر يومها أنني حين كنت في المجلس أتابع ما يدور فيه، كانت أمي تمر على أبي في الصيدلية للذهاب إلى محلات قساطلي لشراء فستان الخطبة لي، إلا أنها لاحظت احمرار وجهه، ولما أمسكت بيده شعرت بارتفاع حرارته واقترحت تأجيل الذهاب، إلا أنه أصر عليها، ولما رجع كانت حرارته قد بلغت الأربعين، وجاء عمي الدكتور نادر واقترح عودته إلى البيت. كنت مأخوذة بما أشهده أمامي، فيما عمي الدكتور حليم يقدم مداخلاته أو يطلق نكاته الحلوة، ولما انتهت الجلسة في ساعة متأخرة من المساء ورجعت إلى البيت، وجدت كل الأضواء مضاءة فيه، وعدد من السيارات أمامه. في الداخل كان أمامي الكثير من الأطباء، لكن والدي ناداني وسألني كيف كانت الجلسة وكيف أدى شقيقه حليم دوره. حكيت له ما حدث فأخذ يضحك.. أهم أطباء البلد يومها كانوا في بيتنا ومنهم: الدكتور حنينة، والدكتور حتي، صهري الدكتور جودت قزعون، وعمي نادر، وبعد فحصه وجدوا أنه يعاني من نزلة صدرية، ولم يكن هناك من دواء لعلاجها بعد، فقرر الأطباء التأكد مما يشكو منه عبر التصوير، وكانت لدى عمي نادر تجهيزات حديثة، إلا أنهم تذكروا وجود تجهيزات يمكن نقلها إلى المنزل لدى الدكتور سكريه العائد حديثاً إلى لبنان. وفعلاً استحضروها، إذ ذاك كان عمي الدكتور حليم قد وصل إلى البيت، بعد التصوير عقدوا ما يشبه اجتماعاً تشاورياً.

كان الاتفاق أن يأتي الدكتور أديب خرطبيل بوالده وأقاربه يوم الجمعة التالي، إلا أن والدي مرض السبت، أي قبل سبعة أيام من الموعد. كان الأطباء يروحون ويجيئون في البيت، ناداهم والدي وقال لهم أعرف أنني أصبت بنزلة صدرية، وسأموت الخميس وستدفنوني الجمعة. كنت واقفة أستمع إليه. وبدأوا يتندرون بكلامه. وأخذوا يعملون لعلاجه، يوم الأربعاء دخلت عليه والدتي فقال لها يجب أن ترسلي تلغرافاً إلى طبريا كي لا يحضروا يوم الجمعة كما كنا قد اتفقنا مع الدكتور أديب قبلاً، لأني سأموت يوم الخميس والجمعة ستدفنوني.

ثارت أمي في وجهه، وكان أبي يتحدث وكأنه يروي قصة عن آخرين، عاد وكرر طلبه منها، مشدداً على ضرورة عدم مجيئهم لمناسبة الفرح لأنهم سيجدون أنفسهم وسط جنازة. بالفعل فقد أرسلت البرقية إلى طبريا فوصلت إليها الخميس مساءً، وفيها طلب التأخير لإصابة الوالد بعارض صحي، وحين عرف أديب بالبرقية، بدا قلقاً من احتمال وجود نية لإلغاء الخطبة، إلا أن والده أكد عكس ذلك بدليل أن ما ورد في البرقية لا يدل على ذلك بل هو مرض الوالد. على أي حال اتفقا على المجيء إلى بيروت في اليوم التالي صباحاً، وفعلاً وصلا وكانت الجنازة تلك اللحظة تخرج من بيتنا. وكانت جنازة حافلة في بيروت نظراً لعلاقات والدي الكثيرة وصداقاته.. حتى أن البعض كانوا يقولون إن حليم قدورة يصل إلى مجلس النواب باتساع جمهور شقيقه.

بعد الجنازة بأربعين يوماً عاد الدكتور أديب واتفق مع والدتي وعمي على عقد القران، والانتقال إلى طبريا، يومها قالت أمي تستطيعون أن تقيموا الفرح الذي تشاؤون في طبريا، أما هنا فلا.

أنا الآن أدخل بثيابي البيضاء إلى طبريا، كثيرون من الأهل هم الذين قصدوا حتى حدودها لاستقبالي والموكب. كان الوقت بعد المغرب، الليل بدأ يغطي المدينة، لكن الشوارع أضيئت في ذلك اليوم بالكهرباء على حساب عمي الحاج خليل خرطبيل. منزل عمي على تلة مرتفعة تطل على البحر، زوجة عمي تمسك بيدي وأنا أدخل إلى البيت، وتناولني خميرة فيها غصن أخضر لألصقها فوق باب المنزل، فيما الزغاريد ترتفع، ثم أدخل عروساً في طبريا.

مر أسبوعان على وصولي في احتفالات العرس، كان النساء والرجال خلالها يدبكون ويرقصون ويلعبون لعبة السيف، فيما المآدب تقام على شرف العروس اللبنانية، ظلت أمي وخالاتي وعماتي في طبريا أياماً، نزلن في أحد الفنادق وهي واحد من عشرة فنادق يملكها عمي الحاج خليل، ثم عدن إلى بيروت، فيما بقيت وحدي أتقبل تهاني المهنئين من أصدقاء العائلة الذين كانوا يتوافدون باستمرار، وبعد انتهاء مراسم العرس والتهاني انتقلت إلى بيتي الخاص، الذي بناه عمي لنا على الطريقة الحديثة، ومن ضمنه عيادة واسعة لزوجي. وقد بلغ اهتمام

عمي بتأثيثه أنه أحضر الكثير من التجهيزات من أوروبا. ولا أستطيع أن أقارن بيتي في ذلك الحين بالمنازل التي عرفتها في بيروت، فقد كان أكثر حداثة من سواه، وأجمل تجهيزاً، ومؤلفاً من ثلاث غرف نوم وصالونين ومطبخ واسع وشرفات وغرفة طعام، وكانت أم جوزيف السيدة التي كانت تشرف على الطبخ في منزل أهلي منذ عشر سنوات قد رافقتني إلى طبريا.

لم تكن طبريا إذ ذاك مجرد مدينة تشبه المدن الفلسطينية الأخرى، فالمدينة كانت مقراً لحياة رغيدة، ففيها كانت الفنادق ودور السينما وبرك السباحة وملاعب التنس، وكان السياح يقصدونها باستمرار للتمتع بحمامات مياهها المعدنية، والمدينة هي بالأصل مشتى بحكم موقعها على الضفة الغربية من البحيرة التي تحمل اسمها، وهي إحدى مدن الجليل الشمالي، وهي منخفضة عن سطح البحر، لكن انخفاضها لا يقلل من أهميتها، وفيها الكثير من الآثار، خصوصاً القلعة والسور القديم، وهي مدينة مقدسة لدى الطوائف المسيحية وإن كان تاريخها يعود إلى ما قبل السيد المسيح. ومدينة طبريا كانت متعددة الطوائف، حتى أن رئيس البلدية فيها كان يهودياً فلسطينياً، وكان جارنا في منزلنا الخاص، وعندما انتقلنا إليه أنا وأديب استقبلني مع أفراد عائلته، اللواتي نثرن علينا أوراق الزهر والنقود وزغردن احتفاءً بقدومي. والمدينة التي تتبعها العديد من القرى، كانت تضم عائلات معروفة بملكياتها الواسعة، وكان عمي الحاج خليل خرطبيل من أكبر ملاكيها، فقد كان يمتلك الكثير من المحال في الأسواق التجارية. حتى أن ما أقدمت البلدية عليه بتوسيع أحد الشوارع وهدم الكثير من الأملاك، لم يؤد إلى غضبه، إذ قال يومها هناك غيرها الكثير، وكانت له عشرات العقارات، فضلاً عن فنادق حديثة، وقد كان ورث بعض ثروته، وزاد عليها، وكان له شقيقان أقل منه ثراءً. ومن العائلات المعروفة والثرية آل الطبري والحوري . أما الحياة الاجتماعية في مطلع الثلاثينيات فكانت طبيعية بين الطوائف والجماعات، لا فرق بين مسلم ومسيحي، وكانت المناسبات تجمع الجميع من دون تمييز. وكما ذكرت فإن المدينة خلال تلك الفترة كانت مقصد الكثير من السياح العرب وغير العرب، وقد حدث أن ثار خلاف حول ملكية الحمامات التي ذاع صيتها للعلاج من أمراض الروماتزم والشيخوخة المبكرة، ومع

أن الحمامات هي وقف إسلامي، إلا أن دولة الانتداب البريطانية ادعت أنها ملك للدولة، وتولى عمي قيادة موقف الدفاع عن ملكية الوقف الإسلامي لها مع وجهاء البلدة، إلا أن الأمر انتهى إلى اعتبار أن حصة الوقف هي الثلث فقط. وكثيراً ما كان بعض أثرياء لبنان يحصلون على حق الاستثمار ومنذ العهد العثماني وحتى الثلاثينيات، كما أن العديد من اللبنانيين كانوا يقصدونها باستمرار، وكنت أراهم دوماً، باعتبارهم من معارف عائلتنا أو من معارف زوجي بحكم دراسته في الجامعة الأميركية وصداقته للكثير من زملاء الدراسة. وكانوا يزوروننا باستمرار في منزلنا.

تعرفت في غضون هذه الفترة إلى عائلة زوجي، كما تعرفت إلى سواها. كان أديب زوجي وحيداً، مع أن له إخوة وأخوات، فقد توفيت والدته في صغره، ثم لم يلبث أبوه بعد عدة سنوات أن تزوج. والفارق بينه وبين أخيه الذي يليه هو عشر سنوات أما أخوته فكانوا على التوالي محمد ـ وشفيق ـ وأبو الخير ـ ونبيل ـ ورياض وحورية وخيرو ونوال. إلا أن الشخصية الأكثر حضوراً في المنزل بل والمدينة بطبيعة الحال هي شخصية عمي من دون سواها. كان رجلاً قوي البنية، عاقلاً يفرض احترامه ومهابته على جميع من حوله، ليس بفضل قوته المالية وهي كبيرة وواسعة، بل بفضل قدرته على وزن الأمور بحكمة والوصول إلى إقناع الآخرين. ولم تكن سيطرة الأب في فلسطين مختلفة عنها في بيروت، بل كانت متشابهة من حيث ضرورة خضوع الجميع لسلطته، سواء كانوا من النساء أو الأبناء والأحفاد. أما المدينة فكانت هي الأخرى تشبه بيروت في بعض العلاقات الاجتماعية، إلا أن بيروت أكثر تحفظاً من الأولى فيما يخص السفور، وتنوع الطوائف والفئات فيها. وكان المسلمون الفلسطينيون يشكلون الأكثرية الساحقة، ويأتي اليهود بعدهم. وكان علية القوم من أي طائفة يعملون في التجارة والأعمال التي تدر أرباحاً حقيقية، وقد بنوا لأنفسهم منازل في الحي حيث إقامتنا، وقد اخترت عدداً من الصديقات اللواتي زرنني في فترة التهنئة. أما المدينة القديمة فكانت مكتظة. إلا أن ما يجب علي أن أذكره أني وجدت طبرياً أكثر جمالاً وإشراقاً من بيروت، وأكثر نظافة بالتأكيد.

كان منزلنا الزوجي بعيداً بعض الشيء عن منزل عمي، ولم أكن في

بيروت لأتحجب، ولم يكن زوجي الدكتور أديب متزمتاً. إذ إن تربيته لم تكن على هذا النحو، ثم إن إقامته في بيروت سنوات الدراسة، وسفره إلى باريس للتخصص، جعله أبعد ما يكون عن هذه العادات، التي كانت تمليها العلاقات من دون سواها. وقد جاءني يوماً عمي الحاج خليل ورسم لي صورة البيئة المحافظة في طبريا، وقال لقد رأيتك سافرة في بيروت، فإن أردت الاستمرار فلك الحرية المطلقة، لكن إذا خرجت إلى الشارع سافرة فيجب أن تبقي على هذا النحو، ونحن نتدبر الأمر مع أقاربنا ونقول لهم إنها لم تتعود الحجاب في بيروت، وإذا أردت أن تتحجبي فيجب أن تفعلي باستمرار، سألته ماذا الذي يفضله هو، فقال ومن دون مواربة أفضل الحجاب، حتى لا نترك مجالاً للقيل والقال، فقلت سأفعل، ما دامت نساء العائلة يتحجبن. وهكذا كان. إلا أن هذا القيد الاجتماعي لم يتعلق بي وحدي، بل كان يشمل نساء طبريا، وكانت هناك تقاليد تشمل الرجال وزوجي منهم. طبيعي إن دراسته وتخصصه وبيتنا الزوجي، كل هذه الأمور كانت تخفف من سيطرة الأب، إلا أنه مثلاً لم يدخن سيكارة أمام أبيه حتى عندما كان عمره في نهاية العشرينيات. وقد حدث يوماً أننا كنا في فندق مع مدير الصحة فقدم سيكارة لعمي وثانية لزوجي، إلا أن الأخير لم يدخن في حضرة أبيه، كما أن أشقاءه الصغار من أبيه في أعمار المراهقة شفيق ١٦ ـ ومحمد ١٨ سنة لم يكونوا يدخنون في حضور زوجي أخيهم الأكبر. ويوماً قال عمي لو لم يكن من فائدة لهذه العادات سوى منعهم من التدخين أمامنا لوجب الحفاظ عليها من أجل صحتهم ولو لساعات محدودة.

لم يمض على وجودي في طبريا أكثر من عام، حتى اعتزم زوجي الإلتحاق بعمل طبي في حكومة عموم فلسطين، وترك المدينة. لم يفعل ذلك من أجل حاجة مادية، فقد كانت كل أسباب الرفاهية متوفرة لنا: منزل جميل، ربما الأجمل والأحدث في المدينة، وعيادة تغص بالمرضى وتدر دخلاً جيداً، ولا إلتزامات مادية علينا من أي نوع كانت، مع ذلك فقد قرر الابتعاد عن طبريا، وعن العلاقات الاجتماعية التي تقيدنا. والتي كنا نهرب منها في أيام العطل قاصدين يافا وحيفا وسواهما من المدن القريبة بسيارتنا. وكان لدينا الكثير من الأصدقاء، أصدقائنا وأصدقاء عائلتنا، وقد كانت العادات آنذاك تقوم على الفصل

بين الرجال والنساء. أذكر الآن أحد الأصدقاء الذين كانوا يترددون على طبريا كثيراً وهو الدكتور بعقليني وتفرض علينا العادات المتبعة عدم الاختلاط، هذا ما أثار زوجي أكثر من أي أمر آخر، إذ شعر أن هذه القيود نلتزمها حتى لا نغضب عمي، الذي أشهد أنه وضع الخيارين أمامي بداية فاخترت أصعبهما احتراماً له ولأهلي الجدد. هذا الأمر كان في أساس قرار مغادرة طبريا الذي اتخذه زوجي وقال «لم أعد أحتمل العادات والتقاليد فهي تقيدني ولذلك سأتقدم من وظيفة طبيب في حكومة فلسطين، وإذا ما تمت الأمور كما أتوقع نستطيع الرحيل إلى مكان آخر».

وبالإجمال لم تكن الأمور سيئة إلى هذه الحدود، إلا أني أتذكر أن استقبالاتنا العديدة وضغط الأصدقاء علينا، إلى الحد الذي انتفت فيه خصوصية حياتنا هي التي أملت القرار، علماً أن الوجود اليهودي في المدينة قد يكون أخذ يشكل هاجساً خطراً لزوجي، كما للآخرين من أهالي المدينة، إلى الحد الذي أصبح فيه يمكن الحديث عن قيام توازن سكاني فيها، خلافاً لما كانت عليه الأمور في سواها من المدن ، وفي مختلف الميادين، من الطب إلى التجارة. هذا الاستشعار بالخطر كان ماثلاً في عموم مدن وقرى فلسطين في ذلك الوقت، وأخذ اليهود يتصرفون لا كأقلية في المجتمع، بل بصفة حاكمين، حتى أنني أذكر أن أحد اليهود، من الذين كان أجداده في طبريا، قبل صدور وعد بلفور، والذي أصبح طبيباً في المدينة، قال لزوجي بين المزاح والجد «سأقتلع لك عينيك، كما فعلت بي»، مشيراً إلى حادثة أدت إلى فقدانه عينه في عراك مع زوجي، عندما كانا في سن العاشرة من عمريهما. بالطبع لم يكن هذا كل ما حدث، فقد أخذت الجمعيات تتأسس في المدن على يد الأعيان من المسلمين والمسيحيين للوقوف في مواجهة الخطر الصهيوني من النواحي السياسية والأمنية والاقتصادية، ومع تأسيس الجمعيات كانت التظاهرات والاحتجاجات تتصاعد ضد سلطات الانتداب البريطانية وضد التسلط اليهودي، في غضون ذلك كان الخطر الأساسي، ذلك الذي يمثله شراء اليهود للأراضي، إلا أن هذا الأمر لم يصل حدود تهديد الملكية العربية في فلسطين وتهويدها، خلافاً لما تدعيه الدعايات الإسرائيلية ـ الصهيونية من الحصول على الأراضي بالشراء.

إذن كان الفلسطينيون في عموم المدن والبلدات والقرى يستشعرون الخطر، وفشلوا في العمل لإبعاده عنهم، وكنا في طبريا كما في سواها نعلم علم اليقين أن هناك ما يدبر لفلسطين وأهلها، إلا أننا لم نعتقد يوماً، وحتى لحظة التهجير التي سأتحدث عنها لاحقاً، أن الأمور ستبلغ الحد الذي وصلته. كان الجو محموماً في كل البلاد، والأوضاع تلقي بثقلها الضاغط على صدور الجميع، وتجعلهم يتصرفون أو لا يتصرفون بلا وعي في بعض الأحيان، أو بوعي جزئي لما كانوا يلمسونه لمس اليد ويشاهدونه بأم الأعين ويسمعون عنه من حوادث تقع في هذا المكان أو ذاك. إذ ذاك كان حديث الأخطار هو الرائج ولا حديث سواه، والحقيقة التي يجب أن تقال أن هذا الشعور بالخطر وضرورة المجابهة قد عم كل الأوساط من دون استثناء، من أفقر فقراء القرى والبدو حتى أثرى أثرياء فلسطين، وانتشرت الأحزاب والجمعيات في كل مكان، وعقدت المؤتمرات، وخرجت الصحافة بالأخبار والتعليقات على ما يجري، وكان الكثير من الأسماء يطن في الآذان، وكذلك كانت المواقف السياسية والفتاوى الدينية تصدر، ومنذ العام ١٩٣٢ عندما دخلت إلى فلسطين عروساً بدت لي البلاد كأنها على فوهة بركان، لا أدري متى ينفجر.

وتشاء الأقدار أن أعيش في وطني الأم لبنان تحت نير الانتداب الفرنسي، ثم أن انتقل بعد زواجي إلى وطني الثاني فلسطين لأشهد هناك انتداباً بريطانياً يغطي مشروعاً استيطانياً صهيونياً ويمهد له الطريق. وهكذا كنت كسواي في ساحة النضال التي فرضتها علينا الظروف، للدفاع عن وجودنا القومي والتي تجعل من الاستحالة على أي كان الوقوف على الحياد، أمام الخطر الصهيوني والمدعوم بريطانياً.

وبعد مدة من إقامتي في طبريا، عاشت أسرتنا تحت وطأة اعتقال رشيد خرطبيل، ومع أنه من أبناء صفد، ولا يمت بقربى لعمي الحاج خليل، إلا أنه كان شقيق زوجته. وكان قد سبق اعتقاله إلقاء القبض على عدد من الفلسطينيين العرب إثر حادثة البراق، التي أدّت إلى اضطرابات دامية شملت القدس والخليل ويافا وصفد، ثم تلتها موجة اعتقالات شملت رشيداً مع من شملت. وكان بين المعتقلين ثلاثة مناضلين صدرت عليهم أحكام بالإعدام وهم: فؤاد حجازي من

صفد، ومحمد جمجوم وعطا الزير من الخليل، وكانت التهمة التي حوكموا بموجبها أنهم قتلوا يهوداً. وكان رشيد معتقلاً معهم في السجن نفسه، ولما صدرت الأحكام، واكبتها الإشاعات من أن الأحكام الثلاثة ما هي إلا مجرد دفعة من أحكام ستصدر تباعاً، وبدا مصير رشيد هو الآخر مسألة وقت لا أكثر. في تلك الأثناء لم يهدأ عمي الحاج خليل، كان شغله الشاغل الحيلولة دون تنفيذ حكم الإعدام عليه. ولم يترك أحداً من نافذي سلطات الانتداب إلا واتصل به، وساعدته سمعته ومكانته في المدينة على الوصول إلى كل من يتوسم فيه القدرة والاستعداد للمساعدة وبعد جهود حثيثة نجح في تخفيف الحكم على رشيد شخصياً إلى السجن المؤبد بدلاً من الإعدام شنقاً الذي نفذ بالثلاثة. ولكن جهوده فشلت في تخفيف الحكم على الثلاثة أيضاً. هذا المناخ الذي استغرق وقتاً جعل منزلنا وكذلك منزل عمي في حال من الغليان الدائم، وهو غليان كان يشمل كما ذكرت جميع بيوت الفلسطينيين من دون استثناء، وشمل المرأة كما الرجل تماماً ومن واجب الإنصاف للتاريخ أن عمي لم يقبل أن يستثمر ثروته خارج طبريا و أن يبيع أي ملك من أملاكه ليهود، ووظف هو وزوجي أموالهما في طبريا حتى قبيل سقوط المدينة بيد الصهيونيين.

نضال المرأة الفلسطينية والعربية:

تراني هنا، وقبل أن أنتقل إلى الجانب العائلي، الذي قادني إلى القدس أولاً، أود أن أشير ببعض التطويل إلى موضوع نضال المرأة الفلسطينية والعربية. ومن دون تكرار أؤكد أنني تأثرت، وما زلت متأثرة بشخصية عمتي ابتهاج، التي دلتني على الطريق، وأدخلتني في مسار تعرفت خلاله على تلك الأعمال الأدبية الأولى التي أثارت قضية المرأة سواء تلك التي كتبها أحمد أمين أو مي زيادة أو طه حسين. وهو ما سيظل حاضراً في نفسي وأنا في فلسطين، من دون أن يعني ذلك أن وجودي بين أبنائها كواحدة من السيدات، هو ما أدى إلى إطلاق العمل النسائي، الذي حتمته الظروف وجملة الأوضاع التي أحاطت بفلسطين، ودفعت المرأة وحفزتها على القيام بدورها والنهوض بأعبائه قدر طاقتها.

وكما كانت بدايات الحركة النسائية في لبنان، كانت مثيلتها في فلسطين، إذ بدأت بالقيام بأعمال بر وإحسان ومساعدة للأيتام والأرامل والمعوزين. وقد سبق ذلك كما هو معروف تأسيس المدارس الأجنبية والأديرة، التي منحتها الدولة العثمانية حقاً بتأسيس دور الأيتام التابعة لكل طائفة، وتشكيل لجان من السيدات في الطائفة لتعليم النساء والأطفال حرفاً كالخياطة والتطريز والأعمال اليدوية فضلاً عن جمع التبرعات لمساعدة العائلات الفقيرة والمحتاجة. ولما لم يكن للطائفة الإسلامية مدارس خاصة بها، فقد التحقت البنات الفلسطينيات المسلمات في المدارس التي كانت تدرس بها «شيخة» لتعليم الدين والقرآن. ولما تبين أن هذه العلوم ليست كافية، سرعان ما قصدت الفتيات المدارس التبشيرية، كما فعلن في بيروت، مما أدى إلى تنامي الكفاءات وبروز متعلمات يجدن اللغات الأجنبية وبعض التركية، إضافة إلى العربية. والحقيقة أن امتلاء فلسطين كلبنان بمدارس الأميركيين والبريطانيين والفرنسيين واليونانيين والإيطاليين والروس كان له نواحيه الإيجابية أيضاً، إذ إنه قاد حالما توقفت الحرب الأولى إلى بروز عشرات الجمعيات الوطنية الخيرية والثقافية والصحية، هذا البروز الذي كان في أصل توعية المرأة ولعبها لدورها في الأحداث الكبيرة التي عاشتها فلسطين، ولا سيما

ثورة الأعوام ٣٦ ـ ٣٩، ثم خلال حرب فلسطين في العام ١٩٤٧.

إلى القدس:

عندما أخبر زوجي الدكتور أديب والده أنه يريد التقدم بطلب وظيفة في «حكومة فلسطين» جابهه بمعارضة فورية، وسأله: «ماذا ينقصك حتى تريد الانتقال؟ بيتك من أجمل بيوت طبريا، وقد بني لك خصيصاً، وجميع أفراد أسرة خرطبيل وأسرة الطبري وسواهما فرحون بك وبزوجتك، يشاركهم في ذلك العديدون من أهل طبريا، وعيادتك قائمة وعاملة، فماذا يزعجك لتترك المدينة؟».

لكن زوجي أصر على رغبته، ولا سيما بعد تعيينه «طبيباً عاماً»، وهو مركز مرموق يتمناه أي طبيب، وهكذا أسقط في يد عمي فوافق مرغماً على انتقالنا.

وسافرنا إلى القدس. ولدى نزولنا في فندق أجنبي وعلم صاحبه أنني لبنانية الأهل قال لي يوماً: إني أرى شبهاً عظيماً بينك وبين رجل كان ذا مركز هام (سراجزه)» أي نقيب الصيادلة في مقر الجيش العثماني. في مدينة «عاليه» اللبنانية خلال الحرب العالمية الأولى، وقد خلصني من حبل المشنقة. هل تعرفين هذا الرجل البيروتي واسمه مصطفى قدورة؟ قلت: انه والدي. وهنا تدفق الحديث على لسانه يعدد فيه مآثر والدي ومزاياه وخدماته.

بعد حوالى السنة في طبريا، هاأنذا في القدس، ومن دون حجاب خلافاً لما كان عليه الحال في طبريا، علماً أني في الأخيرة لم أكن أتنقل إلا في السيارة مع السائق، أو برفقة زوجي، فنزولنا في فندق يملكه أجنبي في القدس جعلني أتحرك بحرية دون حجاب كالامتياز الذي عرفته في بيروت، خلافاً لما كانت عليه الفنادق ذات الملكية الإسلامية.

من شرفة غرفتنا في الفندق كانت تبدو البلدة القديمة وكذلك الأحياء الجديدة، كما تظهر بوضوح قبة الصخرة. وكذلك السور الذي كان يحيط بالمدينة التاريخية. أكثر الفنادق والتوسع العمراني كان في الأحياء الجديدة خارج السور. وكانت المدينة القديمة بالنسبة إليّ هي الأجمل رغم ثراء ورفاهية القسم الحديث فيها، وكان أجمل ما في تلك المدينة التي قامت منذ آلاف السنين،

المسجد الأقصى وكنيسة القيامة، كما أدهشتني المباني الأثرية والطرقات المرصوفة ومظاهر القداسة التي تظلل المكان. جذبتني المدينة بكل ما فيها، وسرعان ما انخرطت في أجوائها وأصبحت جزءاً منها. لم تكن سيدات القدس يعرفنني، كما لم أكن أعرفهن، إلا أن هذا الجدار سرعان ما انهار، وبدأت علاقات متينة معهن. إجمالاً كانت نساء القدس محجبات، ولم يختلطن مع اليهوديات. وكانت العائلات اليهودية قامت ببناء منازل خارج السور كما فعلت العائلات الفلسطينية الكبيرة كآل النشاشيبي والحسيني والخالدي والدجاني ونسيبه وسواها وقد ترددت وزوجي على منازلهم مراراً، إلا أن ترددي هذا لم يمنع من اقتناعي أن هذه الأحياء الجديدة تناقض الطابع التاريخي الذي تحياه المدنية القديمة بمسلميها ومسيحييها ويهودها الشرقيين، خصوصاً عندما تنتقل في الأسواق المسقوفة، فيصل إلى مسامعك قرع أجراس الكنائس أو أصوات المؤذنين. مهما شاهدت ستظل القدس هي المدينة الأبهى من سواها أبداً.

كان عمل زوجي هنا في القدس يتطلب بقاءه غائباً طوال النهار، اتصلت بوالدتي لتكون إلى جانبي فلبت ندائي، وهي كانت من العاملات في عدد من المؤسسات الاجتماعية، لذلك قدمت سيدات من القدس للترحيب بها، منهن: زليخة الشهابي، وطرب عبد الهادي، وزاهية النشاشيبي، ووحيدة الخالدي، ومتيلدا مغنم، وخديجة الحسيني وعنبرة سلام الخالدي، وقد عرفت عدداً منهن بواسطة ابن عم أمي رشيد الحسامي وامرأته إقبال أيام كان في القدس كرئيس محكمة يعرفه الجميع ويجلونه في هذه المدينة التاريخية.

وفي هذه المدينة بدأت اندماجي في العمل النسائي الفلسطيني، وأخذت أسأل عن كل ما فاتني من أحداثه، سيما وأن القدس كانت مركز السلطة وإدارتها، وكذلك معقل نشاط الحركة السياسية الفلسطينية الشعبية، وتحركاتها، وهي تحركات لم تكن تقتصر على الرجل، إذ إن المرأة شاركت في مجراها، وبذلك كانت هذه المرأة تتولى تغيير التقاليد القديمة والعلاقات الرجعية التي تريد من المرأة أن تلزم منزلها بما يلغي دورها العام. وبالطبع لم يبلغ حضورها وزنه منذ البداية، إلى جانب الرجل بل تدرج اشتراكها، وتصاعد بعد انكشاف وعد

بلفور العام ١٩١٧. الذي تآمرت فيه بريطانيا على عروبة فلسطين وتخلت عن وعودها للعرب بالاستقلال وسمحت بتدفق اليهود على فلسطين.

ففي بداية العشرينيات شاركت النساء الفلسطينيات بقيادة المثقفات وبنات الأسر الكبيرة منهن في أول ثورة للشعب الفلسطيني على الانتداب البريطاني، فخرجن في المظاهرات الضخمة التي تفجرت في القدس ويافا وحيفا. وربما كانت أبرز هذه المظاهرت تلك التي طافت بشوارع القدس في ٢٧ شباط ١٩٢٠ وضمت أربعين ألف فلسطيني وفلسطينية، ومن أبرز الأحداث النضالية في التاريخ الكفاحي للمرأة الفلسطينية المسيرة الكبرى التي نظمتها مئات السيدات الوطنيات الفلسطينيات العام ١٩٢١، حين توجهن إلى مقر المندوب السامي البريطاني مطالبات بإلغاء وعد بلفور ووقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين والكف عن تعذيب المناضلين الفلسطينيين في السجون. وقد تمخضت هذه الخطوات الأولى للمرأة الفلسطينية في المسيرة الوطنية لشعبها عن تشكيل أول اتحاد نسائي فلسطيني العام ١٩٢١ أسسته السيدات ميليا سكاكيني وزليخة الشهابي وطرب عبد الهادي.

كانت الاتحادات والجمعيات النسائية في فلسطين، منذ ظهورها في مطلع العشرينيات مكونة من بنات الأسر البرجوازية والغنية ونساء الموظفين في حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، وهذه الظاهرة زادت من النشاط الاجتماعي الذي يحمل الطابع الإصلاحي والعمل الخيري والثقافي والتوعية الوطنية للمرأة الفلسطينية. ولكنها حدت من النشاط السياسي إلا أن الانتفاضات والثورات أثرت في التنظيمات النسائية الفلسطينية ونفحتها بالروح الثورية، وهذا ما أدى بالكثير من التنظيمات النسائية إلى التفكير وتقرير العمل بالسياسة مع عملها الاجتماعي والخيري. ولهذا تأسست «جمعية السيدات العربيات» في القدس سنة ١٩٢٨ لتشارك الرجل في جهاده وعمله الوطني وتضحياته. ومن السيدات اللواتي برزن في هذا الميدان: زليخة الشهابي، وميليا سكاكيني، ووحيدة الخالدي، وطرب عبد الهادي، وكاترين ديب، ومتيلدا مغنم وخديجة الحسيني. وهكذا بدأت المرأة تعمل بحماسة بعد أن سجلت أول جمعية نسائية في نص دستورها تعاطي شؤون السياسة، فبدأت تساعد المنكوبين وأسر المناضلين وتعقد المؤتمرات

النسائية، وتسير في المظاهرات وتلقي الخطب الوطنية الحماسية، وتجوب مدن فلسطين وقراها لتؤسس جمعيات نسائية وطنية لم تكن قد تأسست بعد، ولتلتقي الجمعيات التي قد تأسست لأهداف أخرى، فتوحد الأهداف بينها ليعمل الكل يداً واحدة لأجل فلسطين الغالية، وهكذا زارت مندوبات عنها مدن يافا ونابلس وصفد وطولكرم وعكا وطبريا وحيفا وغيرها لهذه الغاية السامية المقدسة. وظلت كل هذه الجمعيات تقوم بواجباتها المخطط لها حتى تأسس الاتحاد النسائي العربي العام في مصر، برئاسة هدى هانم شعراوي، بناءً على طلب من عمتي ابتهاج قدورة، وبعد البحث والتشاور معها لتكوين اتحاد نسائي عربي عام يمثل جميع البلدان العربية، وقد عقد المؤتمر سنة ١٩٤٤، وبعده تشكلت في البلاد من أقصاها، إلى أقصاها من غزة جنوباً إلى عكا شمالاً، في أكثر مدن فلسطين جمعيات نسائية تحمل اسم الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني. وتسجلت جميعها لدى الحكومة كجمعيات تنص دساتيرها على حقها في العمل السياسي، ولم تلبث الجمعيات النسائية الأخرى أن التحقت بالاتحاد النسائي المصري الذي سمي حينها «الاتحاد النسائي العربي العام – مصر». وهكذا أضاف كل بلد عربي إلى الاتحاد النسائي العربي اسمه، ونصت أهداف هذه الاتحادات على تعليم أبناء الشهداء، فضلاً عن مساعدة عائلات المناضلين، وكانت عضوات الاتحادات يقمن بزيارة المساجين حاملات الهدايا ويعقدن المؤتمرات المحلية والعربية. وكان لهذه الاتحادات دور رائد في تنظيم المسيرة الوطنية للمرأة الفلسطينية وحفزها، فأخذت تنظم المظاهرات النسائية المناهضة للانتداب البريطاني، وتشكل الكثير من اللجان لرعاية أسر المعتقلين والشهداء، ومقاومة الهجرة اليهودية وبيع الأراضي.

شهدت المشاركة الوطنية للمرأة الفلسطينية تصاعداً ملحوظاً مع نهاية العشرينيات بلغ ذروته باستشهاد أربع فلسطينيات في منطقة القدس خلال ١٩٢٩ و ١٩٣٠، وذلك أثناء الثورة الفلسطينية الثالثة التي ظلت ملتهبة لأسابيع طويلة، وشاركت فيها المرأة الفلسطينية مشاركة فعالة، ففي تشرين الأول عام ١٩٢٩ عقدت النساء الفلسطينيات مؤتمراً نسائياً عاماً في القدس حضرته ٣٠٠ سيدة لمناقشة المؤامرة التي يحوكها الانتداب البريطاني والعصابات اليهودية ضد الوطن،

وناقش أيضاً دور المرأة الفلسطينية في التصدي لها. وقد تمخض هذا المؤتمر عن إرسال برقيات احتجاج على سياسة بريطانيا إلى حكومتها وإلى عصبة الأمم المتحدة، وبرقيات أخرى إلى الملوك والرؤساء العرب طالبات فيها وضع حد للبطش الذي يعانيه المواطنون الفلسطينيون من الانتداب البريطاني، ولوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين. وفي نهاية هذا المؤتمر تم تشكيل وفد نسائي من ١٤ سيدة لمقابلة المندوب السامي البريطاني، وأما سائر السيدات فقد استقللن ٨٠ سيارة اخترقت شوارع القدس وطفن على مختلف القنصليات الأوروبية للإعلان عن موقف المرأة الفلسطينية[1]. وبذلك تكون المرأة الفلسطينية قد اقتحمت مجال النضال السياسي والمدني لتزداد بذلك التصاقاً بقضيتها الوطنية.

إلى طولكرم:

شاركت المرأة الريفية زميلاتها في المدن هذا النضال، فكانت تنقل المؤن والذخيرة إلى الثوار في الجبال وتقوم بتمريض المصابين منهم، فضلاً عن عقد الاجتماعات النسائية سراً في البيوت لمناقشة كيفية المشاركة الوطنية النسائية الشاملة، ولتنظيم عشرات الإضرابات والمظاهرات التي كان أبرزها إضراب ١٩٣٦، وقد استشهد خلال هذه المرحلة عدد من الفلسطينيات الوطنيات منهن الشهيدة فاطمة خليل غزال التي استشهدت في ٢٦ حزيران برصاص الجنود البريطانيين، وقد كنت في ذلك الوقت في طولكرم رئيسة «للجمعية الخيرية الاجتماعية» بعد تسلم زوجي منصبه طبيباً مسؤولاً في قضاء طولكرم أو (بني صعب) كما يسمى لبطولة رجاله ووطنية نسائه، ولم يكن مضى على وجودنا في طولكرم سنة واحدة حتى أبدت «جمعية السيدات الخيرية الاجتماعية» رغبتها في أن أتولى رئاسة الجمعية، فكانت لي مفاجأة كبيرة لأنه لم يكن مضى على إقامتي في فلسطين إلا أربع سنوات، ولم أعمل في أية جمعية من قبل. وزاد من المفاجأة لي أنني ابنة بيروت فضلاً عن أن بلد زوجي طبريا لا طولكرم. وإزاء إلحاحهن بكل إخلاص ومحبة نزلت عند رغبتهن لأسباب عدة، منها خدمة البلد

---

(١) غازي الخليلي؛ نضال المرأة الفلسطينية ص ٧٧.

وإنقاذ الجمعية من التفكك إثر المشاكل بين أعضائها. وكان شرطي أن نعمل جميعاً يداً واحدة لخدمة البلد وأهله. وهكذا كان.

والآن سأذكر شيئاً، ولو مختصراً عن الاتحادات النسائية وبعض الأعضاء المناضلات اللواتي تحملن الكثير من القهر، وعملن بكل جهد وإخلاص لخدمة فلسطين ولخلاصها من براثن الهجرة الصهيونية. وسأبدأ بسيدات القدس، ثم أذكر المدن الأخرى الكبرى.

في القـــدس:

* زليخة الشهابي: كانت رئيسة الاتحاد في القدس منذ تأسيسه، مثال الوطنية والإخلاص، تعمل بنشاط لا مثيل له من دون ملل ولا كلل في خدمة وطنها وقضيتها. ومن أعمالها القيمة والخيرة تأسيس ناد رياضي ولجنة إسعاف، وافتتاح مستوصف لمعالجة المعوزين والتطعيم ضد الأمراض السارية والمعدية. أسست فرعاً لرعاية الطفولة والأمومة، وعقدت الاجتماعات والمؤتمرات المحلية والعربية. وساعدت المجاهدين وتصدرت المظاهرات ورفعت الاحتجاجات وأرسلت البرقيات إلى الملوك والأمراء والرؤساء وهيئة الأمم المتحدة والحكومة البريطانية. ترأست زليخة الوفد الفلسطيني إلى مؤتمر القاهرة الذي دعت إليه الزعيمة النسائية هدى هانم شعراوي، في عام ١٩٤٤، وقد انبثق عن هذا المؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام. وكنا ندعو إلى الاجتماعات كل الاتحادات الموجودة في فلسطين، ونتخذ القرارات وننسق الأعمال فيما بيننا، ونقدم التقارير عن الاتحادات، ونتشاور ونتعاون على العمل لخدمة الوطن والقضية. وآخر اجتماع عقد في منزلي في طولكرم كان سنة ١٩٤٧ وسأسرد تفاصيله في موضع آخر. وكذلك بقيت زليخة تعمل بصفتها رئيسة للاتحاد النسائي العربي الفلسطيني العام حتى ١٩٥٣ حين كلفتها حكومة الأردن تمثيل الأردن بعد ضم الضفة الغربية إلى الشرقية، وهكذا كان. لذا أرسلت برقية لي تعلمني بها أن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان هو الممثل لفلسطين في المستقبل، ولي عودة إلى هذا الموضوع فيما بعد.

* السيدة نعمة العلمي الحسيني: من مؤسسات «جمعية السيدات العربيات»

شغلت منصب الرئاسة فيها، وهي على درجة عالية من الثقافة، وتجيد عدة لغات أجنبية.

* الآنسة زاهية النشاشيبي: قامت بنشاط مشكور في خدمة الوطن من خلال جمعية تتولى تعليم الفتيات المعوزات دروساً في القراءة والكتابة والخياطة والتدبير المنزلي، واشتركت في المظاهرات والإضرابات وخاصة في ثورة ٣٦، وبقيت هذه الجمعية ناشطة في القدس إلى أواخر الستينيات.

* السيدة كاترين شكري ديب: رئيسة جمعية تهذيب الفتاة الأرثوذكسية التي هدفها تعليم الفتيات المعوزات، وهي من مؤسسات الاتحاد النسائي في القدس.

* السيدة متيلدا مغنم: من مؤسسات النهضة النسائية في القدس سنة ١٩٢٩، أسست الاتحاد النسائي في رام الله ومن الأنشطة التي قامت بها تعليم الحياكة والغزل والنسيج والتطريز، وهي من مؤسسات النادي الثقافي في القدس.

* الآنسة هند طاهر الحسيني: أسست دار الطفل العربي بعد مجزرة دير ياسين، وهذا عمل جبار ومثمر ومستمر ويعمل حتى الآن، ويشمل حضانة أطفال قوامها ستة صفوف ابتدائية، وخمسة صفوف ثانوية، وقسماً مهنياً، ونادياً رياضياً.

* السيدة عنبرة سلام الخالدي: الأديبة المعروفة، والبيروتية الأصل زوجة العالم الفلسطيني أحمد سامح الخالدي. برزت في العمل النسائي منذ نشأتها، وعملت في المجال الاجتماعي الخيري في بيروت مع الآنسة ابتهاج قدورة، ونقلت إلى العربية «الألياذة والأوديسة» ملحمتي هوميروس فصادفتا رواجاً كبيراً. وأسهمت عنبرة في إنشاء مزرعة دير عمرو التي أسسها المرحوم أحمد سامح الخالدي لأيتام المجاهدين الشهداء، وكانت مثال الوطنية والإخلاص في العمل الإنساني الرائد.

كما أشير إلى عدد من السيدات التي كان لهن نشاط مرموق على الصعيدين الوطني والاجتماعي:

* أنسطاس الحلبي، وعائدة الدجاني، وشهيدة ذزدار، ونائلة الكيخا،

وعبوش أبو الهدى، وهالة وسوسن ونسيبة، ونازك سنينية، ونعيمة النشاشيبي، وسلمى حمصي سلامة الرئيسة الدائمة لـ «جمعية حاملات الطيب الأرثوذكسية» لإغاثة البائس والمريض من سنة ١٩٢٦ حتى لجوئها إلى لبنان سنة ١٩٤٨، وقد ظلت على اتصال بالأعضاء في القدس فيما بعد، وشاركت معي في بيروت.

يـــافـــا:

* السيدة اديل عازار: رئيسة جمعية اليتيمات الأرثوذكسيات في يافا من سنة ١٩١٠ حتى سنة ١٩٤٧. افتتحت مدرسة وطنية رحبت بكل طالبة عربية.

* السيدة رين الحاج: رئيسة «المدرسة المارونية» بيافا التي تهدف إلى الاعتناء بالعائلات الفقيرة.

* السيدة ماري برتقش والسيدة وديعة تماري: وقد رئستا جمعية العناية بالطفل والأم من سنة ١٩٢٣ حتى ١٩٤٧.

* السيدة الكسندرا ظريفة: بدأت عملها في جمعية الشابات المسيحيات بالاسكندرية لمساعدة الجرحى إبان الحرب الكبرى، وعند عودتها إلى يافا أسست جمعية رعاية الطفل، وجمعية السيدات الأرثوذكسيات، وبعد قيام الاتحاد النسائي في يافا سنة ١٩٤٤ إشتركت في العمل الوطني حتى خلال نكبة ١٩٤٨، ولم تترك يافا بل عملت في مستشفى .C.M.S الإنكليزي لمساعدة المجاهدين العرب. وعاونت الصليب الأحمر الدولي لمساعدة أبناء بلدها يافا، وكانت تعمل بكل إخلاص لقضيتها. وفي العام ١٩٥٣ لجأت إلى بيروت، والتحقت معي بالاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وعملنا معاً مدة طويلة، وكانت مثال النشاط والوطنية.

في نابلـــس:

* السيدة مريم عبد الغني هاشم: من الفاضلات الرائدات وكانت كتلة نشاط وإخلاص، وقد اجتمعت إلى جانبها نخبة من سيدات نابلس منهن: عندليب العمد، لائقة المصري، صبحية النابلسي، معييه كمال، وأسّسن جمعية

خيرية برئاستها سنة ١٩٢١ وبقيت حتى وفاتها سنة ١٩٤٧، وكانت الجمعية ممثلة في الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني العام، وكان عملها إنسانياً لإغاثة الملهوف ومساعدة المجاهدين بالمال والأسلحة ومساعدة أبناء الشهداء، وتنظيم المظاهرات. أسست السيدة مريم أيضاً النادي الثقافي الرياضي لتعليم الفتيات الطباعة والاختزال ومسك الدفاتر، ولمحو الأمية، والتدريب على الإسعافات الأولية والدفاع المدني. وبعد وفاتها استلمت الرئاسة السيدة الحاجة عندليب العمد.

* فائزة عبد المجيد: أديبة اجتماعية عملت بنشاط، لها كتابات في القضايا العربية عموماً وقضية فلسطين خصوصاً، وهي عضو في جمعية رعاية الطفل في نابلس التي تأسست العام ١٩٤٨، وعضو عامل في رابطة المناضل الجريح في القدس سنة ١٩٤٩. وفي أمانة سر الاتحاد النسائي في نابلس من سنة ١٩٤٨، واشتركت في تأسيس الهلال الأحمر، وحتى الآن هي رئيسة جمعية الطفل بنابلس .

كما أسست كلية فلسطين في طولكرم عام ١٩٥٩ مع السيدة مفيدة عبد المجيد.

* الحاجة عندليب العمد: تسلمت رئاسة الاتحاد النسائي في نابلس خلفاً للسيدة مريم الهاشم، وقد كانت رئيسة اتحاد الجمعيات الخيرية، والذي ضمّ ١٦جمعية في نابلس سنة ١٩٤٨، وعضواً في الهلال الأحمر في نابلس وعمان، وفي جمعية المقاصد الخيرية، وأدارت مستشفى للمجاهدين وللتوليد. وبعد الهدنة الثانية في فلسطين أرسَلْت إليها كل معدات مستشفى الاتحاد الذي كنت قد أسسته للمجاهدين سنة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، بعد لجوئي إلى لبنان عقب الهدنة الثانية. كانت حياتها حافلة بأعمال الخير جعلتها نموذجاً مشرفاً للمرأة الفلسطينية.

* عفيفة ملحس: قامت ببناء مسجد، وخصصت فيه جناحاً خاصاً للسيدات.

* السيدة مريم الخليل: من المناضلات في مدينة حيفا ورئيسة الاتحاد النسائي في المدينة. كانت عضواً في المؤتمر النسائي العربي العام، وقد عملت

على الصعيد النسائي الوطني منذ سنة ١٩٣٠، وظلت تعمل على أرض فلسطين إلى أن حلت نكبة فلسطين، فتركت أرضها ووطنها كغيرها من الفلسطينيين الذين هجروا وطنهم.

* السيدة ساذج نصار: سكرتيرة الاتحاد النسائي منذ تأسيسه. أديبة لامعة ومناضلة متحمسة تلقي الخطب، وتنادي لقضية فلسطين. وكانت سكرتيرة الاتحاد النسائي العربي العام في حيفا، وبعد الهجرة إلى بيروت كنا معاً من ضمن المشاركات في مؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام الذي عقد في اليونسكو للبحث في القضية الفلسطينية سنة ١٩٤٩.

* السيدة رقية الحوري: من العضوات البارزات اللواتي ناضلن داخل الاتحاد في حيفا. أسهمت معي في الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت بجد ونشاط، إلا أنها كانت من ضمن السيدات اللواتي حاولن شق طريق أخر داخل الاتحاد.

* السيدة رفيقة قدورة ميقاتي: وهي شقيقتي كانت عضواً بارزاً في الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في حيفا، وقفت دائماً إلى جانب المعوزين وكانت عضواً في مؤتمر الاتحاد في القاهرة.

* السيدة شفيقة مجدلاني: بدأت عملها الإنساني والخيري منذ شبابها، فكانت عضواً في «الجمعية النسائية الأرثوذكسية» ورئيستها في حيفا، هدفها الإحسان ومساعدة الفقراء والبائسين والمرضى. أسست «جمعية الإحسان العام»، مع عدد من سيدات حيفا، لمساعدة العاملات والفتيات اللواتي يفدن إلى المدينة في مهمة ثقافية أو أدبية أو للعمل لكسب العيش.

في غـــزة:

* الآنسة يسرى البربري: كانت عضواً في مجلس إدارة «جمعية المحاربين القدماء» ومجلس إدارة «أبناء فلسطين» و «جمعية الهلال الأحمر»، وقد كنا سوياً من ضمن الوفد الفلسطيني إلى هيئة الأمم المتحدة في دورة ١٩٦٣، برئاسة الأستاذ أحمد الشقيري، فضلاً عن أعضاء يمثلون الشعب الفلسطيني كافة، وقد

كان أول وفد رسمي تمثل فيه المرأة العربية.

* عقيلة السيد رشدي الشوا: رئيسة الاتحاد النسائي في غزة، وكانت مثال الوطنية والعمل الإنساني، واشتركت في أكثر المناسبات الوطنية لخدمة القضية الفلسطينية.

في عكـــا:

* السيدة رقية الكرمي: زوجة الشاعر الفلسطيني أبو سلمى، أسست في منزلها في عكا «الإتحاد النسائي» بمؤازرة نخبة من السيدات في الاتحاد العام منهن: سنية حقي، سلوى الشامي، سنة ١٩٢٩ واستمر حتى سنة ١٩٤٨. وأدرك الاتحاد في عكا أن عليه مسؤولية وطنية كبيرة، كلما ارتفعت الراية السوداء تنذر بشنق أحد المجاهدين الأبطال، فكانت السيدات تسرعن إلى باب السجن لمؤاساة عائلات الشهداء ومساعدتهم مع أبنائهم والوقوف بجانب أسر المساجين ومساعدتهم مادياً ومعنوياً.

* السيدة نبيهة ملكي منسى: رئيسة جمعية إغاثة المسكين الأرثوذكسية. وكان في عضوية الجمعية كل من: نبيهة عدس، ورفقة برغش، وثريا ملحس، وروز صيقلي عزام. وهدف هذه الجمعية الدعم المادي والمعنوي للأسر المعوزة، وتوفير ستر الزواج للبنات الفقيرات.

إلى نابلس:

ما إن ازداد تعلقي بالقدس وأهلها، حتى كان زوجي قد أنهى فترة التدريب التقليدية في وظيفته الجديدة، وطلب الانتقال إلى مدينة نابلس الجميلة، ومع أني قابلت هذا الانتقال بتذمر بعد أن صارت علاقتي وثيقة مع سيدات المدينة المقدسة، خصوصاً مع عنبرة سلام الخالدي صديقة الأسرة والوالدة منذ الطفولة وزليخة الشهابي، إلا أن الانتقال بات أمراً واقعاً. وفعلاً ذهبنا إلى نابلس فوجدتها مدينة مثقفين شباناً وشابات، إذ فيها عدد كبير من المهندسين والمحامين والأطباء ورجال الأعمال وأصحاب الاختصاصات المختلفة، وفي المدينة عرفت «كلية النجاح» وشاهدت معامل الصابون الشهيرة، ومعاصر الزيتون الكثيرة، أهاليها

يغلب عليهم الكرم الريفي والاهتمام بالضيف، فضلاً عن ارتباطهم العميق بالأرض. خلال إقامتي في نابلس تعرفت على سيدات أكبر الأسر النابلسية أمثال: آل طوقان والمصري وعبد الهادي والصمد، والنابلسي، والهاشم، خصوصاً السيدة مريم الهاشم رئيسة الحركة النسائية في المدينة.

إلا أن الحدث الأبرز في حياتي العائلية، خلال إقامتي التي لم تتجاوز السنة، كان ولادة مولودي البكر فاروق، وكانت ولادته عسيرة، وكادت الطبيبة الإنكليزية التي تولت العملية تودي بالمولود، لولا تدخل زوجي لإنقاذه، وقد ولد وهو يعاني من ضعف في الكلس ناجم عن «وحامي» الصعب، مما استوجب توجيه عناية خاصة له، كما حدث لي قبل الولادة، عندما عشت أشهراً ملقاة على ظهري، وقد حضرت أمي من بيروت إلى نابلس وشهدت الولادة، وتولت الاهتمام بي وبالطفل لمدة ثلاثة أشهر. ولم يكن لزوجي من يمكنه مساعدتي في غضون تلك الفترة، فوالدته متوفاة، وشقيقاته صغيرات ولا يستطعن شيئاً حيال مثل هذه الأمور، إضافة إلى بعد المسافة بيننا وبين طبريا.

إلـــى غـــزة:

ما كدت أتأقلم مع الحياة في نابلس، حتى عاد زوجي ذات يوم من عمله، وطلب إليَّ الاستعداد للانتقال إلى غزة، وقع عليَّ الخبر وقوع الصاعقة وخصوصاً أن البلدة كما وصفها لي البعض بأنها أشبه بمنفى صحراوي منها بمدينة، إلا أن الأمر بدأ يخف تدريجاً عندما أكد زوجي أن وظيفته الرسمية في مراحلها الأولى تفرض على صاحبها الانتقال من منطقة إلى أخرى للتعرف على الوضع الصحي في مختلف أرجاء فلسطين. وهكذا كان، فبعد تذمر انتقلنا إلى غزة حيث استقبلنا رئيس البلدية والمسؤولين، ومنذ اللحظة الأولى أصبحت لنا علاقات وثيقة مع آل الحسيني والشوا والعلمي وأبو رمضان وأبو خضرة وغيرهم. وفي إحدى زياراتنا آل الشوا سألني أحدهم عن الرابط بيني وبين الدكتور حليم قدورة «سر طبيب» الجيش العثماني في غزة إبان الحرب العالمية الأولى، ولما عرف أنه عمي استطرد يروي حكاية مع والده الحاج الذي كان يموِّل الجيش العثماني بالمواد الغذائية، وقد حدث أن تأخرت الإمدادات لمدة ثلاثة أيام، فثارت ثائرة الحاكم

العثماني، الذي اعتبر ما حدث مقصوداً ويستهدف النيل من أداء جنوده وضباطه في ظل ضغوط بريطانية معروفة، وعليه فقد أمر بإلقاء القبض على الحاج شوّا وحين علم عمي الدكتور حليم قدورة بذلك قصد الحاكم ورجاه العفو عن الحاج فاستجاب له، خصوصاً وأن عمي كان قد أنقذ حياة ابنته الوحيدة من داء عضال كاد يقضي عليها.

مثل هذه الأحاديث وسواها جعلتني شيئاً فشيئاً أتعود حياة المدينة، إلا أن هذه وعلى الرغم من الراحة النفسية التي شعرت بها، لم تستطع التخفيف من مصاعب الحياة. وكانت البداية في المنزل الذي أقمنا فيه، وقد شغله قبلنا طبيب المدينة، إذ لم تكن في المنزل مياه جارية، أو حمام، أو مجلى، وباختصار كان المنزل هذا بائساً قياساً إلى الحياة التي تعودتها في بيروت أو في المدن الفلسطينية التي أقمنا فيها قبلاً. ولأننا رأينا مثل هذا الوضع لا يطاق، قرر زوجي تجهيزه بكل ما هو في حاجة إليه. وأنفقنا الكثير من المال، على العمل، الذي قامت به عدة ورشات دفعة واحدة، حتى أصبح قابلاً للعيش فيه، إلا أنه بعد انتهاء الترميم بأشهر، جاء زوجي ليخبرني أنه عثر على منزل قد يكون الأفضل في غزة، وكان يشغله قبلنا والد صلاح الدباغ ناظر المعارف الذي نقل إلى منطقة ثانية، رغم ما أنفقناه على إصلاح المنزل، إلا أننا قررنا الانتقال، وقام زوجي باستنفار أصدقائه في المستشفى والممرضين والخدم، لمعاونته في نقل أثاث البيت فيما أنا كنت منصرفة إلى الاهتمام بابني فاروق وابنتي عايدة التي ولدت في غزة.

ولعايدة قصة يجب أن تروى، وهي قصة ارتبطت بالمنزل الذي انتقلنا إليه، ففي غضون يوم واحد فقط، كان كل شيء في مكانه في المنزل الجديد. وحدث أن زارتني رئيسة الممرضات في المستشفى ومساعدة زوجي في عمله، فأخبرتني أن هذا البيت ما سكنه أحد قبلنا إلا وانهالت عليه المصائب، فأجابها زوجي إن هذه الأقاويل ما هي إلا ترهات، لا أنا ولا وديعة نؤمن بمثلها، لكن المرأة لم توقف حديثها عند هذا الحد، إذ انطلقت تروي حادثة وقعت لابن صاحب البيت وهو من آل أبو رمضان، فقد بني البيت لتزويج الابن، الذي أنهى دروسه في جامعة كامبردج في بريطانيا، ولدى عودته من الدراسة، أقام له والده

حفلة عامرة على شاطىء غزة دعا إليها الكثيرين، بعد الطعام والشراب، نزلت شقيقاته إلى البحر للسباحة، إلا أن التيار جرفهن معه، فهب الأخ لإنقاذهن، إلا أن النتيجة كانت أن الأخوات نجين فيما غرق هو.

بقيت هذه الحكاية، وما قاله زوجي رداً على مساعدته، من أننا لا نؤمن بالخرافات صحيحاً حتى وقعت تلك الحادثة التي أودت بابنتي وكادت أن تودي بزوجي أيضاً.

يوماً زارتني سيدة لا أود ذكر اسمها لأنها معروفة بأنها ذات عين حاسدة لتهنئتنا بالانتقال إلى بيتنا الجديد، وأدهشها أن كل شيء في مكانه رغم أنه لم تمض أكثر من ٢٤ ساعة على دخولنا إليه. وقالت أنها كانت تتوقع أن ترى أغراض المنزل في حال من الفوضى، وعندما سألتني عن الجهد الذي بذلته في ترتيبه بهذه السرعة، أجبتها إني لم أمسك شيئاً بيدي، لأن زوجي هو من تولى ذلك بمساعدة أصدقاء، نظراً لانشغالي بالطفلة الصغيرة عايدة. فقالت أنها لا تسمع لها صوتاً، وطلبت أن تراها، ومع أني قلت لها أن الصغيرة نائمة، إلا أنها أصرت على رؤيتها، فتقدمتها إلى غرفة النوم. كانت الصغيرة في سريرها وسط الساتان الزهري، فقالت ما أجملها، من دون أن تذكر اسم الله، ولما خرجت سمعتها تقول لقد وضع الله سعادتك بين يديك، فلديك الزوج والأطفال. كل هذا مر مروراً عابراً من دون أي أثر عليَّ، في المساء تناولنا عشاءنا مثل العادة وسهرنا، ثم ذهبنا إلى النوم، وفي منتصف الليل، كانت الصغيرة نائمة بين سريري وسرير زوجي، وشاهدت في المنام أنني أسمع صوت بكائها في جبل بعيد ولا أراها، وأركض بين شعابه من دون أن أجدها. وفي بحثي عنها صادفت الكثير من الممرضات والأطباء، وكان الأطباء الذين يرتدون ثياب العمل يمسكون بأيديهم سكاكين. كنت أسمعها وأحاول إنقاذها من هؤلاء.. فجأة أستيقظ فأجد عايدة تبكي وتصرخ بصوت لا يكاد يسمع إلا بعض الشيء. ركضت إلى المطبخ وأحضرت ماءً كي تشرب، واستيقظ زوجي وسألني ما بها، فقلت له إنها تبكي، فأجاب هذا ليس من عادتها. عندما وضع يده على رأسها لاحظ ارتفاع حرارتها ولما قاسها وجدها فوق درجة الأربعين، أحضر حقيبته وأخذنا نضع الماء على رأسها لتخفيف حرارتها.. وهكذا حتى الصباح، عندما

أخبرني أن المندوب السامي سيصل إلى البلد، ويتوجب عليه المشاركة في استقباله وألح على أنه إذا احتاجت الصغيرة لأمر ما يمكن الاتصال بالدكتور بولس لمعاينتها. فعلاً وغادر زوجي المنزل، وعاد أكثر من مرة كلما توقف لتناول الشاي أو القهوة للاطمئنان على الصغيرة، التي قمت بتحميمها وبدأ وضعها يتدهور، وقرابة الظهر جاء الدكتور بولس والممرضات وقاموا بنقلها إلى المستشفى حيث تأكد لهم إصابتها بمرض كومفرشن أو «هزة الحيط» Comverson الذي كان يتسبب في وفيات الصغار. وقبل أن يذهب زوجي لمرافقة المندوب السامي في جولته، كان قد اتصل هاتفياً بعمي الدكتور حليم في بيروت طالباً إليه إعلام أمي بضرورة الحضور إلى غزة، ولكن أمي كادت إن تعجز عن المجيء لولا تدخل عمي الشخصي لتأمين تجديد جواز سفرها في غضون ساعة واحدة، وهكذا استأجرت تاكسي من بيروت إلى حيفا ومنها انتقلت بالقطار إلى غزة، التي وصلت إليها قرابة مغيب الشمس. وكان زوجي بانتظارها فذهبا معاً إلى المستشفى حيث كنت والصغيرة. ولما وصلت قالت لي: «ماما زوجك أهم من ابنتك، خذي زوجك وارجعا إلى البيت وأنا سأتولى شأن الصغيرة في المستشفى». فعلاً عدنا إلى البيت، لنجد ابني فاروق مريضاً هو الآخر، أرسلت السائق إلى المستشفى لإحضار حليب له، وحالما خرجت وجدت زوجي ملقى على الأرض في الصالون، كان المشهد أمامي مرعباً، مع ذلك تمالكت نفسي وركضت إلى طبيب قرب البيت لإعلامه، فلما أتى وفحصه قال: آسف إن حالته خطرة ولا أستطيع أن أفعل له شيئاً، يجب أن ينقل إلى المستشفى، وفي هذا الوقت وصل السائق فأرسلته إلى المستشفى البريطاني وأحضر ثلاثة أطباء من أصدقاء زوجي، وأخذوا بإسعافه حتى أخذ يتحسن، وأعتقد اليوم أن زوجي قد عرف أن لا أمل بإنقاذ عايدة، وأظن أنه قد عانى من صدمة نفسية تسببت له بالحادثة، وكنت قد نسيت عايدة، لأن همي كان زوجي، خصوصاً وأن الأطباء ظلوا إلى جانبه طوال الليل. وفي الصباح جاءت أمي من المستشفى، وكان أديب أحسن حالاً، فنظر إليها وقال: ماما كيف هي الصغيرة. أجابته كل شيء تمام، الحمد لله.. فعرف عندها أن الصغيرة قد ماتت. وعمرها كان خمسة أشهر.

أقعده هذا الحزن والوعكة التي ألمت به عن السير في موكب جنازتها الذي شارك فيه عدد كبير من أهل غزة وأصدقائنا فضلاً عن وفد من أهلنا في طبريا قدموا خصيصاً برفقة عمي الحاج خليل خرطبيل، فضمّ تراب غزة جسدها الطاهر، وأسهم أهل غزة الطيبون في مواساتنا بالوقوف إلى جانبنا ولا سيما أننا ضيوف ولم نتمكن من الذهاب آنذاك إلى بلدة زوجي طبريا. وكانت تلك أول مأساة في حياتنا. قصدنا بعدها مصر للنقاهة تاركين ولدنا فاروق في عهدة والدتي، على أن ذلك لم يطل إلاّ أربعاً وعشرين ساعة، إذ زارنا في الفندق صديق زوجي الأستاذ حسن صدقي الدجاني ليخبرنا أنه قصد المنزل في غزة لتعزيتنا فقيل له إننا في مصر فأخبرنا أنه وجد ابننا فاروق مريضاً فرجعنا إلى غزة في الحال. وأخذ هاجس ابننا فاروق يطرق تفكيرنا ومعه مرّ الذكريات، فآثرنا الهرب من غزة بالانتقال إلى مركز عمل آخر، فاسْتُجيب لطلب زوجي وذهبنا إلى طولكرم، قضاء بني صعب، ليعمل في وظيفته الحكومية، وأنا أقوم بواجباتي البيتية طوال سنة، كنا خلالها بين أهل طولكرم المشهورة بأنها منبع الثوار ومعقل قياداتهم. في أثناء هذا تزوجت أختي رفيقة من عبد الفتاح ميقاتي ابن عزيز بك الميقاتي أحد أكبر أثرياء فلسطين، وقد حضر حفلة الزفاف العديد من أهل حيفا ووجوهها ورجالات الحكومة والموظفون. وحضر عدد كبير من أهلي من بيروت وحلوا ضيوفاً علينا في طولكرم.

وخلال إقامتي في طولكرم زارتني السيدة بدرية المقدادي الناشف، رئيسة الجمعية الخيرية فيها وشرحت لي أهداف الجمعية وأبرز وجوه نشاطاتها، فضلاً عن خلفيتها الوطنية، ومشاركتها في التظاهرات، وتقديم العرائض الداعية إلى توحيد الآراء والصفوف، وشدّ أزر القوى الوطنية المجاهدة في سبيل وقف سيل المهاجرين اليهود إلى فلسطين. وأفصحت السيدة لي عن خلاف ناشب بين أعضاء الجمعية، طالبة إليّ التوسط والإنصاف في الحكم التوفيقي، فاستعددت لذلك الواجب. وبعد مدة زارني ثانية وفدها المكون من الرئيسة بدرية، وزوجة رئيس بلدية طولكرم أم إبراهيم الحاج إبراهيم، والحاجة خيرية المقدادي، وشمسه مسلم، وطلبن إليّ تولي رئاسة الجمعية فاعتذرت محتجة بأسباب منها مسؤوليتي الكبيرة أمام زوجي وأولادي. لكن احتجاجي كان مرفوضاً إذ أصررن

على عدم الخروج قبل حصولهن على وعد مني بالقبول، معتبرين أن العمل ذو طبيعة وطنية بارزة ومقدسة. وعدتهن بالتفكير في الأمر ومناقشة ذلك مع زوجي الذي عاد مساءً واطلع على كل ما دار، وسرعان ما أخذ يشجعني على قبول طلبهن فكانت تلك أول خطوة لي على الطريق بفضل تفهمه وانفتاحه على محيطه بلا تحفظ. خصوصاً وأن المرحلة في سنة ١٩٣٥ كانت تشهد أوسع موجات المهاجرة اليهودية إلى فلسطين فيحرك ذلك مشاعر الفلسطينيين قاطبة. ومن الطبيعي إذن أن تنبع موافقة زوجي على عملي الاجتماعي الخيري الوطني من روح وطنية مخلصة في ظروف بالغة الصعوبة والخطورة.

في أثناء ذلك باشرت العمل داخل جمعية طولكرم الخيرية النسائية بشكل طبيعي لأني كنت قد اكتسبت خبرة سابقة منذ أيام دراستي في الكلية، ومواكبتي لعمل والدتي ضمن الجمعيات اللبنانية، ونضال عمتي ابتهاج قدورة مؤسسة حركة النهضة النسائية في بيروت. وكان النشاط الذي مارسته بمؤازرة أنشط الأعضاء مثل الحاجة حليمة أخت القائد الكبير عبد الرحيم الحاج محمد، وثريا الحاج إبراهيم التي عملت بجد وإخلاص رغم سوء حالتها الصحية فكانت مثال التضحية والوطنية، والسيدة نهيل الحسن، وأم صلاح صلاح، وزهرة صلاح، وسارة البعباع، وسنية الحاج إبراهيم، وأم جمال القاسم، وعفيفة المقدادي، ونهال حنون، وميمنة الشيخ التي لجأت إلى طولكرم بعد استشهاد والدها المجاهد عز الدين القسام.

ومن النشاطات التي قمنا بها في جمعيتنا أننا:

١ ـ افتتحنا مستوصفاً لمعالجة المعوزين، والتلقيح اتقاءً للأمراض السارية، ويديره عدد من الأطباء بإشراف زوجي.

٢ ـ أسسنا فرعاً لرعاية الأمومة والطفولة والتدريب على كيفية الإعتناء بالأطفال والأمهات، وخصصنا يوماً لفحص الحوامل.

٣ ـ أسسنا دار حضانة للأطفال.

٤ ـ أرسلنا برقيات احتجاج في ذكرى وعد بلفور إلى كل من الحكومة البريطانية في لندن والسلطة المحلية، في فلسطين المحلية، وإلى ملوك ورؤساء

الدول العربية ، فضلاً عن مشاركتنا في التظاهرات لرفع الصوت المطالب بحقوقنا المهدورة.

٥ ـ فتحنا مشغلاً للخياطة والتطريز يوفر للأيدي العاملة فرص إحياء التراث العربي الفلسطيني من جهة، وتحسين الوضع المادي لعائلات النساء العاملات فيه من جهة أخرى، فضلاً عن إقامة أسواق خيرية لعرض المنتوجات.

٦ ـ أنشأنا مسرحاً نعرض فيه التمثيليات الوطنية التاريخية التي من شأنها توعية الجماهير أولاً، وإمداد صندوق الجمعية الخيرية بريع وافر يوسع مجالات نشاطها وفوائدها ثانياً.

٧ ـ شكلنا لجان توعية تقوم بزيارات إلى القرى المختلفة لبث الحماسة والوعي في صدور أبنائها، وتعليم النساء أساليب المشاركة وتنظيم التظاهرات الوطنية.

٨ ـ ألفنا لجنة لمساعدة عائلات الشهداء، اتخذت قراراً بتبني أبناء الشهداء وتعليمهم.

وباختصار، كنا نسهم في عمليات إيصال الأدوية والأطعمة والألبسة والذخائر إلى المجاهدين وامتدت أنشطتنا لتشمل جميع الميادين الاجتماعية، وكنا نلتقي مراراً الجمعيات النسائية الخيرية في القدس وسائر أرجاء فلسطين.

وحين أعود بالذاكرة إلى الماضي أشعر الآن، أننا في طولكرم كنا نعمل وكأننا في سباق مع الزمن، فالهجرة اليهودية كانت قد وصلت إلى حدود مقلقة، وزاد الطين بلة محاولة وزير المستعمرات فرض مجلس تشريعي في فلسطين، وارسال وفد إلى لندن للتفاوض ومحاولة التأثير، وكانت هذه بعض مقدمات اندلاع ثورة العام ١٩٣٦.

ثورة عام ١٩٣٦:

زارنا في نيسان ١٩٣٦، أقارب لنا من آل حسامي قدموا من بيروت لتمضية بضعة أيام في فلسطين، فدعانا واجب الضيافة للسياحة بهم في الأماكن الأثرية والمقدسة كالمسجد الأقصى وكنيسة القيامة خصوصاً. وفي القدس التقى

زوجي أصدقاءه من آل الحسيني الذين سألوه عن سبب وجوده هناك في حين الثورة معلنة، وأشاروا عليه بالعودة إلى طولكرم، فعدنا حالاً. بعد العشاء قرابة منتصف الليل فوجئنا بطرق على الباب بعنف يخفي وراءه جنوداً بريطانيين حاملين معهم أربعة يهود جرحى، وهم يطلبون إجراء الإسعافات الأولية لهم، باعتبار أن عيادة زوجي الخاصة في المنزل نفسه. فلم يكن لنا مفر عندئذٍ من مساعدة زوجي في الإسعاف مع أقاربي وأصدقائي بسبب غياب الممرضين المساعدين، فسخنا الماء وناولناه معدات الجراحة ومواد تنظيف الجروح وما شابه ذلك، وهو ونحن نرى في ذلك عملاً إنسانياً واجباً ومجرداً. وينبغي أن أشير إلى أن من أولئك الجرحى، ابن إحدى كبرى عائلات مدينة تل أبيب اليهودية، ومنهم أيضاً بطلها في حمل الأثقال. ومن غرائب الصدف أن زوجي وجد أحد الجرحى أثناء إسعافه متمنطقاً حزاماً مليئاً بقطع ذهبية. وحين أفاق من تأثير المخدر قال له زوجي: خذ هذا الحزام الذي كان يلف وسطك، وانتبه جيداً.

في الصباح الباكر نقل الأربعة إلى مستشفى تل أبيب حيث تساءل الأطباء عن ذلك الطبيب الماهر الذي تولى إسعافهم قائلين: «إن الذي فعله لا يأتي أحد بأحسن منه، ولا حتى في مستشفى». ثم علمنا أن اثنين من الجرحى توفيا، وبقي حياً صاحب الحزام الذهبي وهو ابن أكبر أثرياء تل أبيب من آل نبشي. وبعد مقتل يهوديين أصيبا في كمين على طريق طولكرم حاول زوجي إسعافهما، بدأت الثورة فعلياً. حينئذٍ غادر ضيوفنا طولكرم إلى بيروت.

وبدأت أنا بالعمل في دعم الثوار بسرية تامة خوفاً على زوجي الموظف في حكومة فلسطين، فدعوت أعضاء الاتحاد إلى الاجتماع لتخطيط مستقبل مشاركة الثوار في جهادهم، وشرعنا بحملة تبرع داخلية قدمت كل واحدة خلالها قطعة من مصاغها دعماً للمجهود الحربي، فكانت بادرة وطنية رائعة للجمعية الخيرية في طولكرم. وبعدها التقينا لجنة سيدات القدس وسائر الجمعيات الفلسطينية. وأصدرنا أول بيان يحث المرأة على الإضراب والصمود ومشاركة الرجل، وذلك بتاريخ ٣٠ نيسان ١٩٣٦، وهذا نص البيان:

«أيتها الأمة الباسلة، يا سليلة الأماجد. إن اتحادك وتضامنك وإضرابك العام

في البر والبحر سيكون له تأثير في العالم. كما يهزّ نفوس جميع المناضلين الناطقين بالضاد هزّة فخر وإعجاب. وإن مستقبل بلادك وقف على ما تبذلين من تضحية وعلى استمرارك في الإضراب والمقاطعة اللذين سيكونان ضربة على كل من يتجاهل حقوقك المقدسة.

أيتها الأمة الكريمة أنت المسؤولة أمام الله وأمام حقوقك المقبلة إن تهاونت في حفظ حقوقك. كفاك ضياع ثمانية عشر عاماً كادت تضيع فيها البلاد. أيها الشعب العظيم في حقه، إجعل هذا الإضراب المعركة الأخيرة بينك وبين الخصم. إبق مثابراً ومستعداً لكل نوع من أنواع التضحية لكي تكسب النصر. سدد الله خطاك وهداك سواء السبيل.

لقد ظهرت أمتنا الكريمة جليلة في إضرابها. رهيبة في وظيفتها، عظيمة في ائتلاف أحزابها وفي تضامنها مما لم يسبق له مثيل. فبارك الله الأمة في اتحادها المقدس.

أيها الشعب الباسل لا تجعل بذور الفساد تتطرق إليك بعد اليوم فتعرقل حركة إسعاد أوطانك. عاهد الله أن تكون وفياً للوطن باذلاً مجهوداتك لإنقاذه مستمداً قوتك من حقك. فاليوم يومك والعالم متطلع لامتحان صبرك ونياتك وقوة عزيمتك.

أيها الشعب الحريص على كيانه، لقد وضعنا آمالنا كلها بين يديك ووكلنا مستقبل أطفالك إليك. إن دماء أجدادنا جبلت بهذه الأراضي المقدسة. بفضل جهودك وتفانيك في إخلاصك سيعيش أولادك وأحفادك أحراراً.

والله معك أيها الشعب في جهادك المبرور لتقرير المصير. ولك في حقك أعظم نصير».

وعمت التظاهرات الصاخبة جميع أرجاء فلسطين مدنها وقراها، ومنها طولكرم حيث حاول البوليس البريطاني إعاقة تظاهرة أهلها في الشوارع فأفشل الشبان العرب محاولته. وقد ألقيت خطبٌ كثيرة في الكنائس والمساجد بحماية الشبان، دعيت فيها المرأة إلى المشاركة الفعالة في الثورة.

في خضم هذه الأجواء اجتمعت السيدات العربيات في يافا يوم ١٤/٥/١٩٣٦، وكنت حاضرة، هذا الإجماع فأصدرت القرارات التالية:

١ ـ الموافقة على قرار اللجنة العربية العليا وتأييد جميع قراراتها.

٢ ـ أن تكون فلسطين عربية حرة.

٣ ـ أن يكون لفلسطين مجلس نيابي حر.

٤ ـ منع الهجرة اليهودية منعاً باتاً.

٥ ـ سن قانون يمنع بيع الأراضي إلى اليهود.

٦ ـ المداومة على الإضراب العام حتى تنال البلاد حقوقها كاملة غير منقوصة.

كان ضرورياً التنسيق بين مختلف قطاعات الشعب ولا سيما الجمعيات النسائية التي أخذت تقوم بحملات لجمع الأموال وشراء الأسلحة والعتاد. وتجهيز الطعام وتأمين الكساء والدواء، وإيصال كل ذلك إلى معاقل الثوار. فضلاً عن حركات الإضراب والتظاهر وإرسال البرقيات ورفع العرائض احتجاجاً على المؤامرة. وبعد مرور مئة يوم على بدء الإضراب العام المفتوح تلقيت دعوة من لجنة السيدات العربيات في القدس للاجتماع إليهن، فلبيت الدعوة على الفور. وفي نهاية الاجتماع أصدرنا بتاريخ ١٩٣٦/٧/٢٧ هذا البيان:

«تقف البلاد ـ وقد سلخت في إضرابها مئة يوم ـ وهي أصلب عوداً وأشد مراساً وأثبت على التضحية وأصبر على الجهاد مما كانت قبل اليوم.

وتتقدم لجنة السيدات العربيات وكافة الجمعيات النسائية على أرض فلسطين إلى اللجان والهيئات الوطنية وإلى وفد الدعاية في لندن، الأستاذ جمال الحسيني ورفقائه، وإلى أصحاب المهن والتجار والعمال والسائقين شاكرة جهودهم، مثنية على إخلاصهم، مطرية حكمتهم، مقدرة لهم تسييرهم سفينة البلاد في سبيل السوى حتى يصلوا بها إلى الرجاء المنتظر والأمل المرموق، إلى الحرية والاستقلال.

وتتجه إلى الشعب الأبي تكبر جهاده وتفتخر بثباته وتعتز بتضحياته، فقد أراد به الخصم شراً فقال «لا» ورددها داوية تجلت إضراباً شمل المدن والقرى، وسالت دماء روت هذه التربة من جديد، وتصاعدت أرواح إلى السماء تشكو غدر الإنسان بالإنسان على الأرض. ثم كانت ثباتاً رائعاً وجهاداً صابراً وبلاغاً للناس كافة، يعلن أن بريطانيا أرادت فلسطين يهودية، ولكن فلسطين عربية يريدها العرب كذلك وستبقى عربية إلى ما شاء الله.

ثم تلتفت إلى أحرار البلاد المبعدين في المنفى وإلى السجناء الأبطال تحييهم وتشكر صبرهم وثباتهم وترجو لهم فرجاً قريباً للأمة العربية ونصراً عزيزاً، وإلى عائلات الشهداء الأبرار تعزية وتسأل الله أن يجعل شهداءنا زكاة طيبة تقدمها الأمة بين يدي حريتها واستقلالها.

ولجنة السيدات العربيات وكافة الجمعيات النسائية التي تستمد من موقف الأمة عزيمة قوية، لا تنفك تعمل للبلاد والوطن ما بوسعها العمل، وتفدي هذا الوطن الغالي جميعاً بالنفس والنفيس».

أما الجيش البريطاني فقد اعتمد مواجهة الثورة من خلال خطة جهنمية قضت بتدمير البيوت والقرى الكثيرة لمجرد ظنه أنها مواقع للثوار الفلسطينيين، كما كان يحاصر الأهالي ويمنعهم من إخراج المؤن أو إدخالها. إزاء هذه البربرية المنظمة قررنا مواجهة المخاطر، وخاصة في منطقة «باقة الغربية» حيث كانت الجسور ملغومة وقضت الخطة بجعل الثوار يرشدوننا إلى الطرق السالكة بالإشارة من خلال رفعهم العلم الأبيض، حتى نتمكن من بلوغ القرى المحاصرة والمنكوبة لتزويدها بحاجاتها المادية والمعيشية والصحية. وشملت عملياتنا في الإغاثة سائر قرى طولكرم مثل: قلقلية، ارتاح، دير الغصون، عنبتا، عين شمس، ذنابة، كفرسابا، الطيبة، بلعا، بيت أمرين، زيتا، قاقون، الخضيرة، عزون.

تعددت وتنوعت ردود فعل أهالي منطقة طولكرم على جرائم الأعداء الإنكليز وقد التقوا جميعاً على الصمود في مواجهة الوحشية وهذا عدد من هذه الردود على سبيل المثال لا الحصر:

ففي قرية ارتاح القريبة من مدينة طولكرم جمع الإنكليز ثمانية عشر شاباً، أوقفوهم إلى حائط وجمعوا الأهالي للتعرف إليهم. ولكن بسبب خوفهم من الأعداء واتقاء لنسف البلدة كلها لم يأتوا بحركة ونفوا معرفتهم بالشبان، فقام الإنكليز بإعدام الثمانية عشرة - وأغلبهم من القرية نفسها - وكان بين الأهالي امرأة تدعى «أم محمد» لها من المعدمين ولدان أدى مصرعهما أمام عينيها إلى اختلال في عقلها. وقد ظلت تتردد إلى منزلنا فيما بعد، وزوجي يقوم بمعالجتها والعناية بها، وأنا أمدها بالمال والكساء مع علمي أن كل ذلك لا يعوضها شيئاً مما فقدت، وأني أشهد لجبروتها الإنساني الرائع حين أنكرت معرفتها بالشبان كسائر الناس رغم وجود فلذتي كبدها معاً في عداد المهددين بالموت المحتوم.

أما القائد عارف عبد الرازق وهو من قواد الثورة الذين عملت معهم أثناء الثورة، وهو من منطقة الطيبة، قضاء طولكرم، فقد حكم عليه بالإعدام من قبل الحكومة البريطانية فيما هو متخف مع رفاقه في الطيبة. وعندما حملت امرأته وحان موعد الوضع، كان الوضع محرجاً وغير طبيعي إذ خشي الجميع أن تنتبه السلطات البريطانية. ولذلك حضر أحد الرجال سراً وطلب إلى زوجي المساعدة، فسارع لإنقاذ الموقف وأجرى للمرأة عملية الولادة في جبال الطيبة نفسها بالسرية التامة.

وفي قاعة بلدية طولكرم، احتجز البريطانيون ثلاثين جثة، واستدعوا زوجي الطبيب الشرعي فحضر، كما أحضروا جميع أهالي البلدة للتعرف إلى هويات الشهداء في مشهد يدمي القلوب ويحطم النفوس. إلا أن هؤلاء الأهالي الجبابرة عضّوا على جراح نفوسهم ومرّوا بالجثث الثلاثين منكرين أنهم يعرفون أياً من أصحابها، خشية أن يقوم الجيش البريطاني بتدمير بلدتهم عن بكرة أبيها كعادته في مثل هذه الحالة، رغم أن الشهداء فلذات أكبادهم وهم أزواج أو إخوة أو آباء أو أبناء.

وما دمنا في الحديث عما تعرضت له طولكرم، فلا بد أن أشير إلى أن زوجي كان يقصد الجبال حيث معاقل الثوار، يداوي جراحهم ويعالجهم بالاتفاق مع طبيب إيرلندي وهو «سر طبيب» في الحكومة البريطانية في فلسطين اسمه

الدكتور بيغر متطوع لخدمة الشعب الفلسطيني المدافع عن أرضه وعرضه وكرامته، في حين كانت بلاده إيرلندا تطالب باستقلالها من الاحتلال البريطاني أيضاً. وكان بين الطبيبين «كلمة سر» فزوجي يرسل جرحاه إلى مستشفيات نابلس ويعلم الدكتور بيغر بأسمائهم المستعارة.

وذات يوم، تأخر زوجي عن موعد خروجه من المنزل لسبب ما، فدخلت خادمتنا لتخبرنا أن بالباب رجلاً يطلب رؤية السيدة وديعة. خرج زوجي لمقابلته فإذا به يريد بعض الإسعافات «من السيدة». عاجله أديب بصفعة ونهره قائلاً له: في المرة الثانية أطلب ما تريد مني لا من زوجتي، بعد هذه الحادثة السريعة استفسرت منه عن سبب تصرفه مع ذلك الرجل الذي هو من الثوار التابعين للقائد عبد الرحيم الحاج محمد. وجاءني الجواب عندما سارع «التمرجي» الذي يعمل في عيادته لاستدعاء أحد قادة المنطقة، وكانت المفاجأة أن حضر ذلك الرجل نفسه الذي صفعه زوجي مِن قبل فقال لزوجي: أقدر موقفك، أنا أعرف أنك تحت رقابة المخابرات البريطانية، واعتقدت أنني واحد منهم وأتجسس على السيدة وديعة. لذلك لم تعنِ تصرفاتك نحوي معنى سيئاً، بل اعتبرها مدعاة فخر واعتزاز بإنسان حريص على قضيته ونفسه.

وتصاعدت العمليات مع الأيام، وذات يوم قُرع بابنا وكان خلفه ضابط بريطاني طلب إلى زوجي إسعاف جريحين أصيبا في منطقة بلعا، رافقه زوجي إلى هناك فوجدهما طيارين بريطانيين أسقط الثوار طائرتيهما وهما يحاولان قصف المنطقة. فور رجوعه أخبرني أن الضابط سأله: «لو علمت قبل حضورك يا دكتور أن الجرحى من الإنكليز لا من العرب، هل كنت ستحضر بمثل هذه السرعة»؟ فأجابه: أنا من واجبي، طبياً، أن لا أفرق بين مريض ومريض ولو كان من أعدائي. أما سؤالي: هل أنت يا حضرة الضابط كنت ستهتم باستدعائي هكذا فيما لو وجدت الجرحى من العرب لا الإنكليز؟

في مجرى هذه الحرب المفتوحة، شنت القوات البريطانية على المدن والقرى الفلسطينية حملة بربرية شعواء ولا سيما على طولكرم، فعاثت فساداً، وأتلفت المؤن، ونهبت المنازل، ودمرت البيوت والمساجد، ونبشت القبور،

وشوهت جثث شهدائنا، وقتلت وجرحت المئات من الأبرياء. وعند الفجر سمعنا طرقاً عنيفاً، أطل زوجي ليجد العسكر الإنكليز يأمرون الجميع بالتجمع في الساحة العامة مع سائر أهل المنطقة. ولما كان طفلنا مروان، ابن الشهرين مريضاً وقف زوجي في وجههم يقول للضابط الغريب عن المنطقة، كيف تطلب إليّ الخروج؟ ألا تعلم أني موظف درجة أولى في حكومة عموم فلسطين؟ لدي طفل مريض، أريد مقابلة قائدكم. وفعلاً صرح له ذلك القائد بالبقاء داخل المنزل حيث مكثنا ننتظر ساعة الفرج، فيما الشبان العرب يلجأون إلى منزلنا هرباً من مداهمات الإنكليز وجرائمهم، وقد فوجئنا حينها بدخول الخادمة لتخبرنا أن عدداً من الجنود يطلبون الطعام. قلت: أعطيهم ذلك من باب المطبخ، خوفاً من افتضاح أمر الشبان الملتجئين إلى دارنا.

ولما كان بيتنا يقع عند مدخل مدينة طولكرم، ويبعد عن مقر البوليس الإنكليزي مئتي متر وقد اعتاد الثوار أن يطلقوا النار على المقر من خلفه. جاءنا يوماً الضابط رئيس المخفر الإنكليزي يناشد زوجي التدخل لدى الثوار ليكفوا عن مهاجمتهم للمقر من هناك، فقال له زوجي: أنا لا أستطيع مُنعهم، فإن كنت أنت تستطيع فافعل. فانصرف الضابط بعصبية ظاهرة، على أثرها قلت لزوجي «الله يستر». وبالفعل حين أخذ الثوار يطلقون النار كعادتهم، رد عليهم الإنكليز بكل أنواع أسلحتهم حتى الثقيلة، وأصبحنا بين نارين، ولم يبق أمامنا إلا الاختباء تحت السرير ريثما تمر العاصفة.

كانت أجواء الثورة قد شملت الجميع، كباراً وصغاراً، وقد حدث أن زوجي أقام وليمة لخمسة عشر صديقاً منهم الدكتور بيغر الإيرلندي وقاضي القضاة الإنكليزي. وفي أثناء الطعام دخل ولدنا فاروق الصغير حاملاً «لعبة رشاش» من نوع «مترليوز» كان أبوه قد ابتاعها له ليلهو بها، وأخذ يطلق النار على المدعوين، فسأله الدكتور بيغر: على من تطلق النار يا فاروق؟ أجاب على الإنكليز لأنهم يساعدون اليهود. حاول أبوه نهره وطرده، إلا أن الدكتور بيغر أصر على ترك الطفل يتصرف حسبما يشعر، وقد شفّ تصرفه هذا عن إحساس وطني مبكر جداً أثار إعجاب المدعوين، حتى أن القاضي قال: أنا سعيد بهذا الطفل الذكي، وافتخر به لأن هذا الجيل يعي قضيته في سن مبكرة.

إلى جانب أعمال الإغاثة والإسعاف وتوريد الأسلحة والأغذية للثوار والقرى المحاصرة شرعنا بتطبيق القرار الذي اتخذته الجمعية الخيرية النسائية في طولكرم بتبني أبناء الشهداء ومعاملتهم كأبناء الأسرة نفسها فضلاً عن حفظ اسمهم في سجل أسرتهم الأولى، وعليه تبنت السيدة ثريا الحاج إبراهيم طفلة، وكذلك نهال جنون وحذت حذوها أسر كثيرة، أما أنا فقد تبنيت طفلاً اسمه «أحمد» هو ابن لامرأة ذات عشرة أولاد غيره كانت تأتي لزيارته مرة كل أسبوع أو أسبوعين وأنا أعامله معاملة ولدي فاروق ابن السنوات الثلاث ويذهب معه إلى المدرسة. واتفق أن زارتنا امرأة من قرية بلعة في يوم ماطر عاصف قارس البرد، وهي تحمل طفلين بثياب رثة، وقد أتت إلى العيادة لتلقي العلاج، فقدمت لها الطعام والكساء، أما ولدي فاروق فترجم عاطفته نحوهم بتصرف تلقائي إنساني تمثل في خلعه على أحد الطفلين ثيابه الجديدة التي اشتريتها له قبل يومين. رفضت المرأة ذلك، لكن زوجي أصرّ وخصوصاً أن فرحة فاروق بعمله هذا زادت وجهه براءة وتألقاً.

قبل أن أختم حديثي في هذا الصدد، لا بد أن أشير إلى بعض الأحداث السلبية التي عانينا منها، وإذا كان سواي قد تناول الجوانب السياسية والتنظيمية، فأنا من جانبي سأتناول واقعة آلمتنا جداً، إذ يوماً تملك الحزن زوجي عندما سمع خبر استشهاد حسن صدقي الدجاني، عضو حزب الدفاع الوطني على يد أحد الثوار لخلاف سياسي، وقد شهد زوجي التجهم والغضب على وجوه قادة الثورة حين زارهم في معقلهم في منطقة الطيبة، وكانت هذه الحادثة الدموية قد أحدثت وضعاً مأساوياً في عموم المنطقة بعد تداولها وانتقالها، أما على المستوى العائلي فكانت أشد وقعاً، لأن زوجة الشهيد الدجاني كانت حينها في مصر لحضور المؤتمر النسائي الشرقي الذي رعته هدى هانم شعراوي بدعوة من عمتي ابتهاج قدورة التي تخلفت عن حضوره، كما تخلفت بدوري لأسباب لها علاقة بوضع زوجي ووجوب البقاء إلى جانبه في مثل الظروف التي كانت تظلل فلسطين عموماً وبالأخص منطقة طولكرم.

وفور سماعها بالخبر المفجع الذي عكّر جو المؤتمر عادت حرم الشهيد حسن صدقي الدجاني من القاهرة إلى فلسطين وقد حضر من فلسطين كل من السيدات:

طرب عبد الهادي، وحيدة الخالدي، عقيلة شكري ديب، متيلدا مغنم، ساذج نصار، رفقة الشهابي التاجي، سعاد الحسيني، ماري نجيب أبو الشعر، صبحية راغب التميمي، كيتي طنوس، ريا القاسم، سلمى رجائي الحسيني، سميحة الخالدي، عقيلة جورج صلاح، عقيلة حسن البديري، عقيلة بكر النشاشيبي، فاطمة شكري المهتدي، ملك الشوا، أما الآنسات المشاركات كذلك في المؤتمر فهنّ: زليخة الشهابي، منيمنة الشيخ القاسم، فاطمة النشاشيبي، زهية النشاشيبي، مريم الهاشم، بدرة كنعان، نبيهة ناصر.

المؤتمر النسائي الشرقي:

انعقد المؤتمر النسائي الشرقي بحضور وفود من العديد من الدول العربية والآسيوية والأفريقية في القاهرة العام ١٩٣٨، وهو المؤتمر الأول المخصص لنقاش مسألة فلسطين التي كانت إلى تصاعد بفعل تأثير التواطؤ البريطاني مع العصابات الصهيونية، وقد اتخذ المؤتمر بعد مداولاته الكثير من القرارات، فقد اعتبر أن المشكلة الفلسطينية خلقتها دول أوروبا، والحلفاء تحديداً، وعليهم دون سواهم تسويتها على قاعدة العدل والإنصاف. وناشدت السيدات الملوك والأمراء العرب والمسلمين التدخل لوضع حد لسياسة الظلم والبطش التي يمارسها الإنكليز، كما أبرقن إلى أقطاب الدول الأربع تشمبرلن وهتلر وموسوليني ودلادييه مطالبينهم ببذل الجهد لحل قضية فلسطين حلاً عادلاً، لأن السلام لن يسود حتى يتم الاعتراف للسكان العرب بحقوقهم، كما تقرر الاتصال بالهيئات والجمعيات النسائية ودعوتها لمناصرة قضية فلسطين. وأيد المؤتمر المطالب العربية وهي إلغاء الانتداب البريطاني وإنشاء دولة فلسطين ذات السيادة واعتبار وعد بلفور باطلاً وإيقاف الهجرة اليهودية ومنع انتقال الأراضي إلى اليهود والأجانب واعتبار فلسطين وحدة تامة لا تتجزأ. وأدان سياسة بريطانيا القائمة على البطش والتنكيل والاضطهاد الجماعي وقمع الحريات، وطالب بإطلاق سراح السجناء السياسيين، ووصف جهاد المناضلين الفلسطينيين بأنه مشروع وتسوغه جميع الشرائع، ودعا كل عربي وعربية إلى تقديم المساعدة بكل أشكالها، كما استنكر المؤتمر الحملات الإعلامية الأجنبية على المجاهدين بفعل التأثير

الصهيوني، وأبرق إلى رؤساء الحكومات الأوروبية وعصبة الأمم محتجاً على سياسة البطش والتنكيل، كما أبرق إلى رئيس جمهورية أميركا روزفلت معرباً له عن ألمه من تصاعد الأصوات المغرضة ومناشداً ممارسة أميركا نفوذها على اليهود، واعتبر إصرار بريطانيا على سياستها في فلسطين إنما هو عمل عدائي مقصود موجه نحو العرب والمسلمين وأبرق إلى قداسة البابا وسائر رؤساء الأديان في أوروبا وأميركا ، وأعلن المؤتمر عن تشجيع البضائع والمتاجر الوطنية، وشكل لجاناً للدفاع عن فلسطين من المندوبات فيه ومن ينضم إليهن على أن تكون لجنة مصر اللجنة الرئيسية المركزية ترتبط بها فروع في العراق وسوريا ولبنان وفلسطين. وكلفت اللجنة الأولى دراسة إنشاء مكتب دعاية له فروع في المدن العربية وتخصيص أيام لجمع الإعانات. ووافق على رفع التماس إلى ملك مصر ليشمل أرامل وأيتام فلسطين بعطفه، ومساعدتهم على دخول المعاهد العلمية، وإنشاء قسم خاص في جمعية الهلال الأحمر لرعاية جرحى فلسطين وإرسال الأدوية المجانية، وطالب وزارة المعارف والمعاهد الدينية إيواء وتعليم أيتام فلسطين من أبناء الشهداء مجاناً. والعمل على إنشاء ما يماثل ذلك في الأقطار العربية. وبعد أن شكرت المؤتمرات كل من الملك فاروق ووجهن تحية الإكبار لمجاهدي فلسطين والسيدة هدى شعراوي والاتحاد النسائي المصري، كررن المطالبة بتجريد اليهود من السلاح إسوة بالعرب وناشدن نساء الهند الدفاع عن حقوق المرأة والقضية الفلسطينية.

لاقى المؤتمر صدى طيباً بين الجمعيات النسائية الفلسطينية، لا سيما عندما وصلت الصحافة المصرية، التي أفردت مساحات واسعة له، ذاكرة طواف المشاركات فيه في أنحاء القاهرة طالبات المساعدة لمنكوبي فلسطين، وهن يوزعن الشارات والميداليات التذكارية الخاصة بالمناسبة. وكما ذكرت سابقاً فقد تخلفتُ عن حضوره، وأبرقتُ إلى المؤتمر بتاريخ ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٣٨ برقيتين تضمنت أولاهما اعتذاري عن المشاركة والتمنيات بالتوفيق فيما جاء في الثانية ما يلي: «دموع اليتامى والثكالى تستنجد نصرتكن لفلسطين المفجوعة نحيي المؤتمر ونؤيد قراراتكم» وحملت البرقيتان توقيعي بوصفي رئيسة للجمعية الخيرية بطولكرم.

بيروت ـ القاهرة:

رغم وجودي في فلسطين، الواقعة تحت الانتداب البريطاني، لم أشعر يوماً بغربة، فقد كانت أمي إلى جانبي في الملمات التي تتعرض لها أسرتي، كثيراً ما كانت تترك بيروت وأشقائي وشقيقاتي لتأتي إلى المدينة التي كنا فيها نقيم، كما حدث عندما جاءتني إلى القدس ونابلس وثالثاً إلى غزة. كما أن زيارات الأقارب والأصدقاء كانت تتكرر هي الأخرى بدورها، وكانوا يأتون إلينا أنى ذهبنا في مدن فلسطين، لا سيما بعد توقف ثورة العام ١٩٣٦ بعد أن استمرت أكثر من ثلاثة أعوام، إثر اندلاع الحرب العالمية الثانية، ذقنا خلالها الأمرين خوفاً ورعباً، دون أن يفت ذلك من عضدنا. إلا أن العلاقات بيننا وبين لبنان لم تقتصر على زيارات الأهل، إذ كنا بدورنا نقصد دوماً لبنان في إجازة زوجي السنوية، وهكذا كنا شبه مزدوجي الانتماء، ولم نكن نشعر في فلسطين أننا طارئون على المكان، وكذلك في لبنان. وكما كنا نقصد لبنان للاصطياف، كنا نمضي أيام الإجازات أكثر الأحيان في فندق مدام عودة في رام الله، وقد زارنا أخي أديب واصطحب صغارنا إلى البحر، ولما عاد لحظ زوجي احمراراً في وجهه، وبعد الفحوص تبينت له إصابته بحمى التيفوئيد البالغ الخطورة في تلك الأيام، وحرنا في الأمر نظراً لعدم وجود مستشفى في طولكرم، وأقربه إلينا كان في نابلس، ثم استقر رأي زوجي على تجهيز غرفة له في البيت، باتت وكأنها في مستشفى، ولم نستطع الاتصال ببيروت لإخبار الأهل بسبب تعذر استعمال الهاتف، إلا أن الخبر بلغهم بطريقة ما، فاتصلت عمتي ابتهاج بالسيدة لور الخوري حرم الرئيس الشيخ بشارة التي تولت الاتصال بالمندوب السامي البريطاني في القدس، الذي اتصل بنا يطلب التحدث مع بيروت.. بعد أن تم التأكد من الخبر جاء أفراد أسرتنا إلى طولكرم لبعض الوقت واصطحبوا أخي معهم الذي كان قد تماثل للشفاء.

وفي العام ١٩٤٤ قصدنا لبنان للاصطياف في عاليه، حيث نزلنا في فندق طانيوس، الذي كان يجاوره قصر ينزل فيه الملك فيصل الثاني، ابن الملك غازي ملك العراق وحفيد الملك فيصل الأول قائد الثورة العربية الكبرى على الدولة العثمانية، وكان فيصل حدثاً عندما توفي أبوه العام ١٩٣٩ فأصبح خاله الأمير

عبد الإله ابن الملك علي أكبر أبناء الشريف حسين الأول وصياً على العرش، وقد حدث أن بنى أولادي علاقة طيبة مع فيصل الصغير هذا، وكانوا يلهون معاً في حديقة القصر أو الفندق.

إلا أن المقابلة الأكثر إثارة خلال ذلك الصيف كانت مع السيدة هدى شعراوي، ففي ذلك الوقت عادت عمتي ابتهاج من القاهرة بعد أن قابلت الشعراوي ودعتها لزيارة لبنان، كما اقترحت عليها البحث في انعقاد مؤتمر نسائي عربي في القاهرة لبحث المستجدات الطارئة على القضية الفلسطينية، وكان وفد فلسطيني قد زار عمتي ابتهاج وطالبها بذلك. وفعلاً لبت السيدة شعراوي الزيارة إلى بيروت، في الصيف وخلال وجودها قابلت الرئيس بشارة الخوري في القصر الجمهوري ببيت مري، ثم زوجة الرئيس رياض الصلح.

أقيمت للزائرة الكريمة حفلات تكريمية مختلفة ألقيت فيها كلمات ترحيب وتقدير، وكنت أنا وعائلتي نقضي الصيف في عاليه فأقمت حفلة غداء على شرفها في فندق «شاهين» بعاليه حضرتها كل من ابتهاج قدورة، وحوا إدريس، وجورجيت حتي، ولميا بيهم، وليلى بيهم، وسنية حبّوب، وإقبال الذوق، وحياة بيهم، وشفيقة سلام، وإميلي نصر الله، ورقية بيهم، ولور تابت، وإفلين بسترس، نجلا صعب ووالدتي وأخواتي أديبة ورفيقة وزاهية، وغيرهن. ركزت في حديثي معها على ضرورة عملها في الساحة المصرية لتأليف هيئة نسائية لمساعدة شعب فلسطين، فوعدت بالاستجابة فور الدعوة إلى المؤتمر النسائي العربي العام في القاهرة. وتوالت حفلات الترحيب، ففي زحلة أعدت إميلي نصر الله رئيسة الاتحاد النسائي هناك حفلة غداء في منتزه وادي العرايش (البردوني)، وفي منطقة الشمال، طرابلس، كان على رأس المستقبلين السيدة إقبال الذوق رئيسة الاتحاد النسائي هناك. وكانت الحفلة الرئيسية تلك التي أقامتها عمتي ابتهاج في عاليه.

وعدت إلى طولكرم آخر الصيف الحافل بالنشاط، واجتمعت إلى زميلاتي في الجمعية فأطلعتهن على تفصيلات الأمور، فأجمعن على انتدابي إلى مؤتمر القاهرة المزمع عقده قريباً، ثم اتصلت برئيسة الاتحاد النسائي في القدس الآنسة زليخة الشهابي، وطلبت إليها عقد اجتماع نسائي عام للتشاور وتحديد برنامج

عمل للمؤتمر، فضلاً عن تعيين الوفد الذي سيمثل فلسطين. وقد اختيرت رئيسات اتحادات المناطق، وكان الوفد برئاسة الآنسة الشهابي نفسها، وأنا بالطبع كنت ممثلة لطولكرم. وانضمت وفود نابلس وطبريا والناصرة وعكا، وحيفا التي كانت أختي رفيقة في عداد وفدها. وبوصول القطار إلى محطة اللد انضمت إلينا وفود مناطق القدس ورام الله ويافا وبيت لحم والخليل ويافا وغيرها من وفود سوريا ولبنان والأردن. كانت رحلتنا في القطار ذات طابع عملاني إذ أمضيناها بالتجوال على الوفود كأننا بدأنا أعمال المؤتمر. وكان في صحبتنا كذلك الاقتصادي اللبناني إميل البستاني والاقتصادي الفلسطيني كامل عبد الرحمٰن، وعلمنا أنهما سيكونان على مقربة من المؤتمر أثناء انعقاده مع أنه نسائي محض، إلا أنهما يشجعانه كعمل وطني.

وصلنا القاهرة الساعة العاشرة من صباح الثامن من كانون الأول سنة ١٩٤٤، فاستقبلتنا في المحطة لجنة قوامها حرم محمد علي علوية باشا، وحرم الدكتور محمد بك صالح، والسيدة سيزا نبراوي، وحرم الدكتور سيد نجا، وحرم سمير بك ذو الفقار، وحرم مصطفى بك مرعي، والأستاذة أمينة السعيد، والأستاذة نعيمة الأيوبي، والآنسة حواء إدريس، والآنسة ماري كحيل، والسيدة نعمة توفيق خليل، وأختي زاهية التي كانت تدرس في جامعة القاهرة. توجهنا في الحال إلى مقر الرائدة شعراوي، ومنه إلى قصر عابدين لتسجيل أسمائنا في سجل تشريفات الملك والملكة، فاتفق أن الملك كان عائداً حينذاك من صلاة الجمعة، فالتقيناه ورحب بنا وبالرائدة شعراوي في ردهة القصر.

أمت الوفود دار الرائدة شعراوي لتناول الغداء إلى مائدتها مع عدد من الشخصيات النسائية الرسمية، التي استبقتنا ـ أنا وأختي رفيقة ـ للإقامة في ضيافتها مع زوجات رؤساء الجمهوريات والحكومات، وكانت ممثلة لعمتي في المؤتمر فقد ذهبت مع سائر الوفود ـ بصحبة لجنة الاستقبال ـ إلى البواخر النيلية التي خصصتها وزارة الأشغال لذلك، تسهر على راحتهن عضو الاتحاد السيدة نائلة غالب، وقد وضع منزل الأستاذ إبراهيم طوسون سلطان ـ قريب هدى هانم ـ تحت تصرفهن، ولكن عدداً منهن آثر الإقامة في الفندق أمثال كونتيننتال وشبرد.

أسماء أعضاء الوفود النسائية المشاركة في هذا المؤتمر:

الوفد الفلسطيني:

الآنسة زليخة الشهابي، السيدة طرب عبد الهادي، سميحة التاجي، حرم شكري ديب، عقيلة جمال بك الحسيني، عقيلة موسى بك العلمي، عقيلة حسن بك البديري، السيدة وديعة قدورة خرطبيل، عقيلة السيد أمين عازر، عقيلة رفعت الهباب، عقيلة توفيق ظريفة، عقيلة رشيد أبو لبن، عقيلة حمدي قمبرجي، الآنسة مريم هاشم، السيدة حرم المرحوم عمر المصري، حرم وجيه النابلسي، السيدة مريم خليل عريضة، السيدة ساذج نصار، السيدة ماري صهيون، السيدة رفيقة ميقاتي، السيدة روز وديع بستاني، الآنسة عفت بهائي، السيدة فريزة برادعي، السيدة عقيلة حنأ صلاح، السيدة عقيلة يوسف قدورة، السيدة فاطمة النشاشيبي، السيدة حلا إسكندر سابا.

الوفد اللبناني:

السيدة روز شحفة وتولت رئاسة الوفد الذي شارك فيه ، السيدة إديل نخوة، السيدة نجلا صعب، السيدة ادلايد ريشاني، السيدة شفيقة سلام، الدكتورة جمال كرم حرفوش، السيدة عليه السعيدي، السيدة إقبال الذوق، السيدة إميلي نصر الله، السيدة ليلى عمر بيهم، السيدة نازك سركيس، السيدة زاهية سلمان، السيدة نجلاء كفوري، السيدة حياة بيهم، الآنسة زاهية قدورة. يشار هنا إلى أن السيدة ابتهاج قدورة لم تشارك في عضوية الوفد اللبناني ولم تحضر المؤتمر رغم أنها هي التي دعت لانعقاده لإصابتها بوعكة صحية كما سبق وذكرت..

مندوبات شرق الأردن:

الآنسة لولى أبو الهدى، الآنسة إميلي بشارات، الآنسة حليمة أبو الهدى.

الوفد العراقي:

السيدة نظيمة تحسين العسكري، الآنسة عفيفة رؤوف، الآنسة مائدة

الحيدري، الآنسة سانحة أمين زكي، الآنسة سرية الخوجة، السيدة زهرة خالد الجوريجي، الآنسة نزهة غنام.

وفد الاتحاد النسائي السوري:

الرئيسة السيدة عادلة حرم الأمير مختار عبد القادر الجزائري.

رئيسة شرف السيدة زهرة حرم المغفور له محمد علي بك العابد رئيس الجمهورية السابق.

رئيسة شرف السيدة أسماء حرم دولة فارس بك الخوري رئيس مجلس الوزراء.

نائبة رئيسة السيدة رفيقة حرم السيد نصوحي بك النجاري رئيس مجلس الوزراء السابق.

سكرتيرة القسم العربي الآنسة فاطمة كريمة المرحوم الحاج يسن دياب.

سكرتيرة القسم الفرنسي السيدة سنية كريمة دولة عطا بك الأيوبي.

سكرتيرة القسم الإنكليزي الآنسة عدوية كريمة القائمقام يحيى بك الطباخ.

وفد أعضاء الاتحاد النسائي المصري:

حضرة صاحبة العصمة السيدة هدى هانم شعراوي، السيدة نفيسة هانم علوية، السيدة فاطمة هانم عاصم، السيدة جميلة هانم عطية، السيدة سيزا هانم نبراوي، السيدة بثينة هانم شعراوي، السيدة عزيزة هانم هيكل، السيدة حرم فؤاد أباظة باشا، السيدة عطية هانم علوية، الدكتورة نعيمة هانم الأيوبي، الدكتورة نائلة هانم كامل غالب، السيدة أمينة شكري.

كان يوم ١٢ كانون الأول ١٩٤٤ مشهوداً على الصعيدين القومي والنسائي، لما يمكن أن يتمخض عنه المؤتمر العربي النسائي الموسع الذي ينعقد برعاية الملك فاروق من قرارات مصيرية على مستوى القضية العربية

الفلسطينية التي يعالجها في ذروة تعقيداتها. وقد غصت باحة دار الأوبرا ومقاعدها بحضور يمثلون صفوة القوم إجتماعياً وسياسياً منهم:الأميرة خديجة عباس حليم، والأميرة شويكار، مرتدية زي «مبرة علي محمد» الرسمي يرافقها عدد من سيدات المبرة، والسيدة فاضلة هانم عزت، والسيدة صفية هانم زغلول. ومن هيئة الحكومة رئيس مجلس الوزراء أحمد ماهر باشا، ومحمود غالب باشا وزير الأشغال، ومصطفى عبد الرازق باشا وزير الأوقاف، وإبراهيم عبد الهادي وزير الصحة، وعلي ماهر باشا رئيس مجلس الوزراء الأسبق، والوزير يوسف ذو الفقار باشا، وأحمد لطفي السيد باشا، والفريق إبراهيم عطاالله باشا ياور الملك ورئيس هيئة الأركان، والفريق عمر فتحي باشا كبير ياوران واللواء باسيل جرجس سوسو باشا، وفؤاد أباظة باشا، وعدد من السفراء ورجال السلك الدبلوماسي.

جاء برنامج افتتاح المؤتمر على النحو التالي: أعلن مندوب الملكة فريدة افتتاح المؤتمر. كلمة الافتتاح للدكتور محمد حسين هيكل باشا وزير المعارف والشؤون الاجتماعية. خطاب الرئيسة هدى هانم شعراوي. قراءة السيدة أمينة السعيد للرسائل. تحية لبنان للسيدة نجلاء كفوري، خطاب سوريا للسيدة عادلة مختار بيهم الجزائري، خطاب شرق الأردن للآنسة لولي أبو الهدى. خطاب العراق للسيدة نظيمة تحسين العسكري. خطاب فلسطين للسيدة ساذج نصار. خطاب لبنان للسيدة روز شحفة.

غادرت الوفود دار الأوبرا، وكنت منزعجة مما حدث حين أغفلت مندوبة لبنان في خطابها اسم عمتي ابتهاج قدورة صاحبة الفضل العظيم لخروج هذا المؤتمر إلى النور، وعبرت عن ذلك أمام بعض أعضاء الوفد اللبناني، فانتقل احتجاجي إلى السيدة نجلاء كفوري نفسها التي بادرتني قبيل افتتاح الجلسة التالية في اليوم الثاني، بالاعتذار لما صدر عنها وهي تعترف بالفضل لعمتي وتراها غنية عن التعريف.

تأخرت قليلاً عن موعد انعقاد المؤتمر الذي حضره حشد من الوزراء والنواب والشخصيات العربية المرموقة، ولدى وصولي وجدت في انتظاري السيدة نعمة توفيق خليل والسيدة سيزا نبراوي لأن السيدة هدى الشعراوي تريد أن

أجلس في الصف الأمامي بين رئيسات الوفود والوزراء ففعلت مغتبطة بترحيبها الخاص بي. وزاد اغتباطي أنه لدى افتتاح السيدة أمينة السعيد الجلسة بإلقائها خطاب السيدة هدى رئيسة المؤتمر، تضمن الخطاب قولاً حقاً في عمتي ابتهاج: «أعبر عن مزيد أسفي وأسف السيدات أعضاء الاتحاد النسائي إذ حال المرض في هذه المرة أيضاً دون اشتراك الآنسة الفاضلة ابتهاج قدورة إحدى مؤسسات النهضة النسائية في العالم العربي ورافعات لوائها معنا في هذا المؤتمر، فنحرم بذلك للمرة الثانية آراءها الصائبة ومعاونتها القيمة لنا. فالله أسأل أن يلبسها ثوب العافية فتعود إلى الصفوف على ما عهدناه فيها من نشاط وإخلاص».

نداء الأرض:

شكرت للسيدة شعراوي عاطفتها الإنسانية أولاً ثم لحسن فهمها ودعمها للقضية الوطنية الفلسطينية، وقد كان لي في المؤتمر كلمة جعلت عنوانها «نداء الأرض» لأن الأحداث كلها تنذر بضياع الأرض، وكان للحاسة السادسة فعل في مجرى تفكيري.

بدأت كلمتي بتحية لملك مصر والسيدة هدى هانم شعراوي رئيسة الحركة النسائية في الشرق العربي.. ثم قلت إن تحيتي ينقصها الابتسام ويعوزها الاطمئنان وتغمرها الدموع والآلام، وأكملت:

إنني جئت من بلادي لأقف في هذا الجمع لأقول كلمة واحدة كنت أنوي أن تكون مجردة من التحيات وأصرخ صرخة واحدة مغمورة بالدموع والأحزان أتيت لا لأقف في هذا الجمع لأخطب بلغة الأدينة لأنني لست باحثة البادية، ولا لأنظم الجمعيات النسوية، ولكنني أتيت لأقف في ظل قصر المليك لأصيح بأعلى صوتي وافاروقاه.

لكنني في عصر غير عصر المعتصم إذ كانت وسائل الاستنجاد فيه الصراخ وتمزيق الثياب وتعفير الوجوه بالتراب، إنني في عصر وسائل النقل فيه موفورة، وموجات الأثير خاضعة لإرادة الإنسان. فالمليك والوزراء والأغنياء والقادرون على الإنقاذ يسمعون أنين أطفالنا في أسرّتهم ويرون البؤس على

صفحات وجوهم، يقرأون بدون كتاب آلامنا ونهايتنا المحتومة.

والآن نقول لكل منكن يا سيداتي: ماذا نعمل؟

وأنا أقول علينا أن نعمل كل ما نعمله الآن.

قضية بلادي هي قضية العالم بأسره، كانت مقنعة مستورة.

قضيتنا الأرض والأرض وحدها وعلاجها في مصر وفي مصر وحدها.

لقد أصبحت بلد المعزّ لدين الله، وفيها ينبوع ديننا، ومخلفات رسولنا، وفي متاحفكم سلاح أبطالنا، وفي مقابركم شهداء تاريخنا، وفي أزهركم علماؤنا، وعلى محملكم كسوة كعبتنا، وفي مليككم خليفتنا، وفي خزائن أغنيائكم الطلسم الذي ينقذ أرضنا.

الأرض قضيتنا ولا قضية إلا الأرض.

ومما يلاحظ ويؤكد أن الحركة الصهيونية بدأت مستترة ومتواضعة ولم تُكشف حقيقة نياتها حتى قويت شوكتها فبدأت أحزابها الرئيسية منذ سنتين فقط تنادي جهاراً بدولة يهودية.

وفلسطين سيداتي هي الخط الأول من الجبهة العربية، وأهالي فلسطين ليسوا إلا حماة للأراضي وطلائع للجيوش، وفي الوقت الذي تذهب بلادهم ضحية العدوان ويغلبون على أمرهم فقد غلبت الأمة العربية على أمرها. لذلك سيداتي نطلب من الأمم العربية أن لا تكتفي بالاحتجاجات وبصوغ البيانات بل يتعدى ذلك إلى عون مادي. إن يهود فلسطين يتألفون من ستمائة ألف نسمة مزودين بالمال والنظام والعلم، وإنهم قوة عظيمة يحسب حسابها بما يأتيها من العون المادي والسياسي لاسترضائهم (كما حصل في انتخابات أميركا الأخيرة) لذلك ترون يا أخواتي أن تغلغل اليهود في فلسطين وأراضيها قد أصبح ينذر البلاد العربية بشرّ مستطير وخطر ليس له نظير، فإذا أراد رجالات العرب أن يدرأوا عن أنفسهم وعن بلادهم خطر الدمار والانهيار فقد آن لهم أن يقابلوا النظام بالنظام والمال بالمال، فما الذي يمنع بلاد العرب حكومات وشعوباً من إغاثة فلسطين بقيمة لا يستهان بها لإنقاذ الأراضي العربية المهددة بالخطر، وكل شخص

بفلسطين يعتقد أن في مقدور الحكومات العربية أن تنقذ جانباً من أراضي البلاد وتجعلهم يشعرون بالفعل بأن قضيتهم وأن بلادهم هي قضية البلاد العربية، وليست ملكاً لهم وحدهم، وإنما الملك للعرب أجمعين.

قضيتنا الأرض، والأرض وحدها، وعلاجها في مصر، وفي مصر وحدها.

كل واحدة منكن تقول ماذا أخذوا من أراضيكم وكيف وصلت أيديهم؟ وهل كان باختياركم أو جبراً؟ إن أكثر البيوعات والصفقات حصلت من ملاكي الأراضي العرب غير الفلسطينيين، وأما وفاء للديون الباهظة التي أرهقت كاهل الفلاح العربي بفوائدها وأما للحاجة القصوى للدراهم لتأمين الحاجة وقسم منها اغتصب اغتصاباً.

ولكن ليس من المستغرب إذا وجدنا أن الصهيونية بما لها من النفوذ في فلسطين وخارجها ومن الجمعيات القوية كـ «كارن كايمت» أن يحصلوا على الأراضي بالرغم من نصوص النظام وقيوده الصريحة كما حصل في قرية ميرون من قضاء صفد مؤخراً.

فسيدات فلسطين اشتركن مع رجالاتها في الاستنجاد بالحكومات العربية الحاضرة لتأسيس مؤسسة تشترك في تمويلها وإدارتها الحكومات العربية أجمع ويكون أعضاؤها من حكومات مصر والعراق، والمملكة العربية السعودية، سوريا، ولبنان، وشرق الأردن، واليمن، وفلسطين، باسم إنقاذ أرض فلسطين، وأن يتم هذا المشروع بسرعة وأتمنى لو تؤسس لجان للسيدات كما للرجال في جميع هذه الأقطار.

إن الفتاة الأوروبية والمصرية تقف في مثل هذا الموقف الذي أقفه الآن لتطلب التساوي بالرجل في حق الانتخاب وفي حق المحاماة وفي كرسي الحكم، ونحن نقف ونطلب مطلباً واحداً، وهو أسمى غاية من مطلق المصرية والأوروبية، نطلب ورقة تأمين على الحياة، وهذا الصك يطبع في مصر ويختم بخاتم المليك المعظم، مليك مصر والسودان، وفي مصر وحدها كل منكن يا سيداتي تقول: هذه معجزة وأنا أقول: هذا هو النور، وهذا هو الهدى والاطمئنان على الشرف، والشرف كله والخطر سار حول البلاد بأسرها.

أيها المليك، إنني أستصرخك من وراء هذه المنصة وشاهدتي على ذلك صاحبة العصمة هدى هانم شعراوي وصديقاتي أمهات العرب. لتبني فلسطين عربية رغم أعدائها.

عاشت فلسطين ومصر وعاشت الأمة العربية.

قرارات المؤتمر النسائي العربي:

وفي صباح السادس من محرم سنة ١٣٦٤ - ١١ (ديسمبر كانون الأول) سنة ١٩٤٤ اجتمعت المندوبات المشاركات في منزل رئيسة الاتحاد النسائي المصري العربي، برئاسة السيدة الجليلة هدى شعراوي وقرأت السيدة الرئيسة قرارات اللجان المختلفة بعد أن محصت تمحيصاً دقيقاً ووضعت مختصرة مؤدية للغرض. وقد قرر المؤتمر:

١ - تضافر الأمة العربية على صيانة استقلال كل منها.

٢ - تأييد المؤتمر لمشروع تكوين جامعة الدول العربية والمطالبة بسرعة تنفيذ هذا المشروع.

٣ - مطالبة الحكومات العربية مصر والعراق وسوريا وفلسطين ولبنان بإعادة المبعدين وبالإفراج عن جميع المعتقلين السياسيين الذين لم تثبت إدانتهم، ولما كان لفلسطين وضع خاص إصدر المؤتمر بشأنها القرارات التالية:

١ - تأييد حق العرب في أن تكون فلسطين دولة مستقلة تحكم نفسها بنفسها حكماً نيابياً تتمثل فيه الأكثرية العربية.

٢ - وقف الهجرة إلى فلسطين وقفاً تاماً.

٣ - مطالبة الشعوب العربية أفراداً وجماعات بالمساهمة المادية والمعنوية في تأييد قضية فلسطين، وتشكيل لجنة عامة تمثل جميع البلاد العربية لوضع القواعد التي تراعي تحقيق هذا الغرض على أن يكون لهذه اللجنة فرع يمثلها في كل بلد عربي.

٤ - نشر الدعوة في جميع البلاد العربية للدفاع عن حقوق العرب في

فلسطين وتأليف لجان لهذا الغرض.

٥ ـ إرسال برقية باسم المؤتمر لكل من رئيس جمهورية الولايات المتحدة ورئيس حكومة إنكلترا تتضمن الإعراب عن تألم سيدات العرب مما يبدو بين آن وآخر من تصريحات تظاهر الصهيونية على حساب حق العرب الصريح ورجاء الرئيسين المذكورين بإسم السلام أن لا يتأثرا بنفوذ اليهود.

٦ ـ مطالبة الحكومات العربية بالتعاون فيما بينها على اتخاذ ما يلزم من الإجراءات التي تكفل منع تسرب أراضي العرب إلى اليهود، ودعوة ملوك البلاد العربية وأمرائها ورؤساء جمهورياتها وزعمائها وأفرادها عامة بالاشتراك في تأسيس شركة مساهمة للعمل على الاحتفاظ بأراضي فلسطين لمالكيها العرب وفق نص القرار الذي اتخذ في هذه المادة.

وفي نهاية المؤتمر وجهت إلينا دعوات كثيرة منها زيارة الملك فاروق في أنشاص، وزيارة الملكة فريدة والأميرة شويكار، وزيارة صفية هانم زغلول زوجة سعد زغلول باشا أم المصريين، والهلال الأحمر المصري. كما أقيمت لنا حفلة غنائية أحيتها أم كلثوم التي أنشدت الأغاني الوطنية.

ولمناسبة عيد رأس السنة الهجرية، قامت الوفود برحلة نيلية إلى القناطر الخيرية بدعوة من جمعية الهلال الأحمر المصري تصحبنا صاحبة العصمة السيدة ناهد هانم سري وأعضاء جمعية الهلال الأحمر.

بناءً على الدعوة الملكية ليوم ١٧ كانون الأول، استقلينا جميعاً القطار إلى أنشاص فاستقبلينا مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية مع إحدى وصيفات الملك. ثم طفنا بعد الاستراحة، في أرجاء المزارع الملكية حيث دقة التنظيم وروعة المشاهد في معامل التفريخ، وبحيرات البط والأوز، وحظائر الجمال والغزلان والخيول العربية النادرة. وزاد سرورنا تشريف الملك لنا هناك، فنهضت الدكتورة كرم حرفوش من الوفد اللبناني وأعربت عن شكرها للملك وتقدير جهوده في سبيل نهوض المرأة العربية. ثم أبدى الملك رغبته في أن يتم التزاور بين سيدات الأقطار العربية زيادة في الارتباط والنشاط. وكان الختام حفلة شاي عدنا بعدها إلى القاهرة.

خلال وجودي في القاهرة التقيت عدداً كبيراً من الصديقات سيدات مصر أمثال: ليلى دوس، شريفة محرز، حواء إدريس، أمينة السعيد، نعمة خليل، الكسي فرج، فضلاً عن الرائدة هدى هانم شعراوي التي ظلت علاقتي بها تزداد متانة من سنة إلى سنة.

انتهت أعمال المؤتمر النسائي العربي العام في القاهرة، فعدنا إلى فلسطين لكي ننسق أنشطة الاتحاد مع قيادة الأحزاب بما يخدم القضية الوطنية المصيرية، ويضع لها خطة مستقبلية لتطوير أساليب النضال اجتماعياً وسياسياً لمصلحة الشعب والثورة، اتخذنا قراراً بإنشاء مستشفيات تغطي جميع المناطق بإشراف الجمعيات النسائية الفرعية لمساعدة الجرحى الثوار، وشرع الدكتور خرطبيل يدرب نحو خمسين متطوعاً على أساليب الإسعاف الأولي، واستعنا بأحد الضباط العرب لاستكمال تدريبهم على وسائل الدفاع المدني.

شهور قليلة مضت، فقدم فصل الشتاء العام ١٩٤٦. سافرت مع زوجي وأولادي إلى القاهرة لقضاء عيدي الميلاد ورأس السنة، ولحضور مؤتمر الأطباء الذي دعي إليه زوجي، كانت برفقتنا أختي رفيقة وزوجها عبد الفتاح الميقاتي وأولادهما، وأحمد خليل وزوجته، وفريد السعد وزوجته. واتفق أن كانت أختي زاهية تناقش في هذا الوقت رسالتها لنيل الماجستير في التاريخ أمام لجنة مؤلفة من الدكتور حسن إبراهيم حسن مشرفاً، وعضوية الدكتور مصطفى زيادة، والشيخ الدكتور أمين الخولي. وجلس في مقاعد الحضور شخصيات علمية واجتماعية مرموقة.

العودة إلى فلسطين: نحو النكبة:

ما إن رجعنا إلى فلسطين حتى عاودنا الانخراط في العمل. بداية أبرقت الجمعية في طولكرم للملوك والرؤساء العرب الذين عقدوا أول مؤتمر قمة للدول العربية في انشاص، مطالبة بدعم ثوار فلسطين لاستمرارهم في ثورتهم المشروعة، ثم شرعنا بإعداد مستشفى، وقد أشرف على المشروع زوجي مع فريق من الأطباء، وما أن حل صيف العام ١٩٤٦ حتى توجهنا نحو رام الله للاصطياف، وهناك التقينا أصدقاء كثيرين من آل الغرغور وآل الخوري، فضلاً عن شخصيات

فلسطينية من حيفا أمثال الحاج إبراهيم، وآل الفاهوم من الناصرة، ونقيب المحامين في القاهرة وديع فرج وعقيلته الكسي، وزارتني يوماً سيدات مقدسيات منهن: زليخة الشهابي، وزاهية النشاشيبي، وطرب عبد الهادي، ومتيلدا مغنم، وسميحة التاجي، وفاطمة النشاشيبي، والسيدة ألين صلاح. وفجأة سمعنا دوي انفجار هائل هزّ المنطقة وقد سمعناه في حديقة الفندق مدوياً من جهة مدينة القدس حيث سكرتارية الحكومة البريطانية. فعرفنا أن فندق الملك داود كان المستهدف، وعلمنا بعدها أن عملية تفجيره الإرهابية كانت من تنظيم عصابة الأرغون، التي أدخلت قنابل إلى الفندق في براميل الحليب، فانهار جناح البناية الضخمة على رؤوس نحو مائة موظف ينتمون إلى مختلف الطوائف، حتى أن بعض اليهود الصهاينة العاملين لبناء الوطن القومي الصهيوني لم يسلموا من التفجير. وقد اعتبر هذا اليوم يوم حداد في القدس وسائر المناطق لأن أكثرية الضحايا كانوا من العرب، فضلاً عن عدد كبير من البريطانيين.. ثم تتالت الهجمات في يافا والقدس ولم تلبث الأحداث أن تسارعت على نحو مقلق، وكان أبرز عناوينها المفاوضات البريطانية العربية ـ الفلسطينية، وانتقال القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة حيث تقرر إيفاد لجنة خاصة هي التي أوصت بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين، واجتماع مجلس جامعة الدول العربية على مستوى رؤساء الوزراء في عاليه وتشكيلهم لجنة قيادة عسكرية وجيش الإنقاذ وحشد الجيوش على حدود فلسطين وهي أمور يعرفها كل إنسان ولا مجال للخوض بها.

بعد الاطلاع في تفاصيلها على قرارات الجامعة، نظمت تظاهرة نسائية حاشدة في طولكرم تأييداً لها، وانطلقنا إلى مركز مساعد حاكم اللواء لتقديم الاحتجاج على وجود العدو على أرضنا. ألقينا الخطب الحماسية في المساجد مع صرخات «الله أكبر» وقرعت أجراس الكنائس، وكانت حاميتنا من أجساد شباب طولكرم الذين وصلنا بفضلهم إلى مقر البلدية حيث استقبلنا وجهاء المنطقة ومنهم: هاشم الجيوسي رئيس البلدية، والمفتي الشيخ طاهر الطبري، وصلاح صلاح، وغيرهم، وقد طلبوا إلي إلقاء كلمة، فانتهزت المناسبة الجامعة للتأكيد على أن المرأة ركن من أركان الجهاد المقدس وهي سائرة مع

المجاهدين بروحها وإيمانها بعدالة القضية. وحين عودتي إلى المنزل نقل إليّ زوجي إتصال المستر فوت - حاكم اللواء في نابلس - يسأل عن قيادتي في تلك المظاهرة التي تشكل خطراً علينا ولا سيما أن الجيش البريطاني قرر قمعها. لكن زوجي أجابه بأنني حرّة في تصرفاتي. وهكذا سرت في اليوم التالي إشاعة تزعم أني خلال قيادتي التظاهرة أطلقت من مسدس رصاصة إيذاءنا ببدء الثورة، وهو أمر غير صحيح.

حضرت تلك السنة السيدة حوّاء إدريس موفدة من قبل الرائدة هدى هانم شعراوي للقاء الاتحادات النسائية، فعقد الإجتماع الأول في القدس برئاسة الآنسة زليخة الشهابي واتخذت عدة قرارات منها الدعم المادي لإنشاء المستشفيات. وفي اليوم التالي دعوت السيدة إدريس إلى الغداء بحضور العاملات في الحقل النسائي، في فلسطين وهن: زليخة الشهابي وطرب عبد الهادي وسميحة التاجي وزاهية النشاشيبي وعقيلة جمال بك الحسيني وعقيلة حسن بك البديري (من القدس) ومليحة رفعت الهباب وجميلة قمبرجي والكسندرة ظريفه وعقيلة أمين عازار (من يافا). ومريم الهاشم ورفقة عمر المصري وحرم وجيه النابلسي (من نابلس). ومريم خليل عريضة وساذج نصار ورفيقة ميقاتي وماري صهيون (من حيفا). وعفت بهائي وفريدة البردعي وعقيلة حنا صلاح وعقيلة يوسف قدورة (من عكا). وملك حمدي حلاوي وعقيلة رشدي الشوا وعقيلة الدكتور طعمة (من غزة). فضلاً عن أعضاء الاتحاد في طولكرم. وبعد الغداء انتخبت لجنة نسائية لمقابلة مساعد حاكم اللواء مستر سمرفيل المتزوج من سيدة لبنانية، ثم انطلقنا في مسيرة نسائية ضخمة تتقدمها السيدة حواء إدريس ورئيسات الاتحاد في المناطق، وانضم إلينا حشد غفير من الجماهير، وتعالت الهتافات الحماسية تندد بالانتداب البريطاني. ولما وصلنا إلى مقر الحاكم العسكري قدمنا إليه مذكرة احتجاج على الوضع وعلى انحياز حكومته إلى الصهاينة لإضاعة فلسطين. وغادرتنا السيدة حواء إدريس بعد أسبوع إلى القاهرة لنقل انطباعها ومشاهداتها إلى الرائدة شعراوي.

ولما أعلن عن قيام جيش الإنقاذ وتشكلت قوات الجهاد المقدس، وبدت الأمور تندفع في اتجاهها. ما نسمعه وما حولنا كان يوحي بالاطمئنان وعكسه

تماماً، ـ وكانت الأسئلة تقض مضاجعنا، تارة نطمئن إلى سلامة وقدرة الاجراءات على أنقاذ البلاد، وطوراً نراها عاجزة عن الإحاطة بالموقف، ليس على الصعيد السياسي بل وعلى المستوى الميداني أيضاً.

ما يعنينا هنا، أنه وسط هذا الاستعداد والاستعداد الصهيوني المضاد، المنظم والدقيق، لم تغب الجمعيات النسائية عن مسرح الأحداث الوطنية المصيرية آنذاك، فقد اشتركت جمعيتنا في طولكرم وسائر جمعيات المناطق في الجهاد المقدس، وأنشأنا علاقات وثيقة مع جمعيات مصر ولبنان وسوريا والعراق وكانت عمتي ابتهاج ممن أرسلن المساعدات من بيروت، وفي فلسطين تلقيت وتلقت زميلاتي المناضلات زليخة الشهابي وهند الحسيني وسلطانة حلبي وكيتي أنطونيوس هذه المساعدات ووزعناها.

وبعد أن أقرّت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين في تشرين الثاني ١٩٤٧ كثفنا جهودنا داخلياً، ونشطنا خارجياً حين طلبنا إلى رئيسة الاتحادات النسائية في مصر السيدة شعراوي أن تتولى الدفاع عن قضية فلسطين، فاستجابت كعادتها لكل نداء وطني عربي، وظلت على اتصال بنا حتى قبل يومين من وفاتها تسأل عن حاجاتنا، وترسل المساعدات الملحة، فوقعت وفاتها علينا وقضيتنا وقوع الصاعقة، خسرناها جميعاً. ولما تعذر سفري للمشاركة في تشييعها، أبرقت باسمي وباسم الاتحاد معزية، وفعل ذلك سائر فروع الاتحاد في المناطق.

وهنا لا بد أن أتوقف قليلاً عند وفاة السيدة شعراوي، والحقيقة أن ما وصفته في برقيتي لعائلتها «أنه فاجعة أليمة ومصيبة فادحة وخسارة لا تعوض، اهتزت لها قلوبنا بالحزن العميق» كان أقل مما قاله الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في نعيه رئيسة الاتحاد النسائي العربي العام، وفقيدة النهضة النسائية.

قال البيان: «إذ ينعي الاتحاد فقيدة النهضة النسائية، إنما يعبر عن شعوره الأليم. ويصور فداحة الخطب ويظهر ما للفقيدة من أثر لا في نهضة المرأة العربية فحسب، بل في الجهود السياسية، وفي الدفاع عن قضية العروبة، وفي الجهاد، وفي مقاومة الاستعمار في مختلف الأقطار العربية، فهي الزعيمة الخالدة التي جمعت أوفى مقومات الزعامة وأحق علاماتها، فهي التي حملت لواء الدفاع

في كل ميدان، وهي التي شملت بما استطاعت من المعونة هذه المآسي الاستعمارية في الأقطار العربية عموماً، وفلسطين خصوصاً، وقد كانت المثل الأعلى في سمو النفس وصفاء السريرة وقوة الصمود للحوادث، فما وهنت أمام فادح من الأمر، وما قصرت في مستطاع، وما يئست من أمر عسير، بل كان لها من إرادتها وقوة أملها وإخلاصها ما ييسر الخير لديها، ويجعله من سعيها فضلاً يشمل وعناية تعم، فالمرأة العربية وقفت في مصاف الأمم بفضل عزيمتها وآمالها، وأن التاريخ بيسجل لها موقفاً من مواقفها، لا سيما في سعيها في عقد عدة مؤتمرات لنهضة المرأة ولقضية فلسطين، ولإحكام الروابط بين الاتحادات في الأقطار الشقيقة، وتوحيد الجهود نحو كل هدف في خير المرأة العربية ببلادها، وستظل تشمل كل عربية تريد أن تتخذ من هداها هدى ورشاداً...».

العام ١٩٤٨ يداً بيد:

كانت فلسطين مع بداية العام ١٩٤٨ أشبه ما تكون بجحيم يومي، إطلاق رصاص، إلقاء قنابل، متفجرات وألغام تتفجر، وقتلى بالعشرات على الأقل، كان الموت يطارد الناس أينما ذهبوا وحلوا، في دور السينما والمقاهي، في الأعمال والأسواق في الشوارع، في الكنائس والمساجد وحتى داخل بيوتهم.. لم تعد حياتنا ولا حياة سوانا تسير على سويتها المعتادة، إذ أصبح كل شيء، قلقاً ومعلقاً، وبانتظار أن يستقر الوضع بعد مواجهة باتت وشيكة الاندلاع من دون أدنى شك.

الأحداث المتفجرة يومياً في كل مكان قطعت أوصال المدن داخلياً وفيما بينها حتى اضطر البريطانيون إلى تحديد أماكن إقاماتهم وحصرها وتحصينها بالأسلاك الشائكة، عدا من أشارت عليهم حكومتهم بمغادرة أرض فلسطين نهائياً.

واستمرت عمليات اليهود الإرهابية في مختلف أحياء القدس فبعد نسف فندق سميراميس في حي القطمون ليلة ٥ ـ ٦ كانون الثاني الذي بلغ ضحاياه ٢٢ شخصاً، تصاعدت العمليات الإرهابية لتشمل باب العمود، وباب الخليل، ووادي الجوز، والشيخ جراح، وحي الشماعة، فضلاً عن القرى المجاورة أمثال

لفتا، وبيت صفافا. ورغم أن قلق الشعب بلغ أسماع اللجنة العسكرية المستقرة في دمشق فإنها لم تحرك ساكناً إلا في ٢٥ شباط ١٩٤٨ حين أوعزت إلى اللواء فوزي القاوقجي بإرسال قوة إلى القدس بصفته القائد العام لجيش الإنقاذ. بيد أن المؤامرة كانت أكبر من قدرة الشعب الأعزل الذي لا يستطيع أن يؤمن مصادر السلاح والعتاد، وهو في الأصل محروم من اقتنائه مقابل سماح البريطانيين لليهود به وبالتدرب عليه بشكل متفوق.

كانت القسطل فاتحة الانهيار، ثم تكرس السقوط بعد محاولة القائد عبد القادر الحسيني استرجاعها واستشهاده، وكان الأمر أشبه ما يكون بمؤامرة محبوكة ليس فقط من العصابات الصهيونية بل أيضاً من بعض الدول العربية، التي حاول الحسيني إقناعها بإمداده بالسلاح المناسب لمواجهة مدافع وطائرات ورجال العدو، فرفضت رغم استمرار محاولاته طيلة اثني عشر يوماً في دمشق. وكان لسقوط القسطل وقع صاعق على العرب، لا سيما مع اقتران ذلك باستشهاد الحسيني، الذي أذكر أنه وقبل استشهاده بثلاثة أيام قد اتصل بزوجي وطلب إليه الاتصال بقائد جيش الإنقاذ فوزي القاوقجي لتأمين مدفع له، وكان اللجوء إلى زوجي معبراً عن تدهور العلاقات بين الرجلين.

سقطت القسطل ثانية في التاسع من نيسان، وفي ذات التاريخ كانت ترتكب مذبحة دير ياسين على يد عصابة «الأرغون» التي قادها يومها مناجم بيغن، وكرت سبحة المجازر لاحقاً، في مزرعة بيت الخوري وقرية نصر الدين القريبتين من طبريا، ولم تسلم طبريا كما لم يسلم سواها..

ولم يكن في طبريا أحزاب أو تنظيمات سياسية. وكان الأهالي من مسيحيين ومسلمين، وحتى اليهود الشرقيين، متآلفين متحابين لدرجة أن اليهود في طبريا عرضوا على العرب جعل المدينة مدينة سلام، إلا أن الأهالي ممثلين باللجنة القومية رفضوا هذا العرض تضامناً مع إخوانهم العرب في سائر الأراضي الفلسطينية، فتشكلت لجنة قومية جديدة العام ١٩٤٨ برئاسة صدقي الطبري، ومحمد سحتوت سكرتيراً، وإلياس دياب أمين صندوق، وعضوية يوسف طبري، وإبراهيم خوري، وصدقي الخليل. فنشطت هذه اللجنة في تنظيم الأهالي. وجمع

الأموال لشراء الأسلحة والذخائر، وكان المصدر الوحيد للأسلحة والعتاد «السوق السوداء» تأتي من دمشق أو من الجنود البريطانيين. وكانت الأسلحة قديمة وقليلة يعود تاريخها إلى الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من كل ذلك كانت معنويات الأهالي مرتفعة جداً وبدأوا بالتدرب على السلاح وتنظيم مخططات للدفاع عن بلدتهم طبريا بمعاونة بعض الضباط الذين قدموا من سورية وصمدوا أمام الهجمات اليهودية وقسمت المدينة إلى قسمين؛ قسم لليهود وقسم للعرب، وكانت القوات البريطانية لا تزال هناك تساند اليهود وتقدم لهم كل دعم ممكن، بينما تشدد القبضة الحديدية على العرب وتصادر أسلحتهم.

بدأت المصادمات الدامية بين العرب واليهود في طبريا سنة ١٩٤٧، وأخذت تعنف حتى ١٩٤٨. وصمد أهالي طبريا الأبطال وتمكنوا من صد جميع الهجمات لاحتلالها، فسقط عدد كبير من الشهداء من بينهم القشقوش ومطلق سحتوت وجرى دفنهم قرب القلعة. وفي عام ١٩٤٧ قام اليهود بخطف بعض الوجاء ومنهم عمي الحاج خليل خرطبيل الذي بقي مخطوفاً أكثر من ثلاثة أيام ولم يطلق سراحه إلا بعد أن قام المجاهدون بخطف ثمانية عشر يهودياً. وقد سمعت الخبر الأول أثناء إقامتنا في طولكرم من إذاعة دمشق فأصبحنا في وضع لا يحسد عليه. وخطف عمي لم يكن مصادفة، إذ أن مقدراته المالية كانت حاضرة ليس فقط لإغاثة المنكوبين، عندما تعرضت المدينة لسيل أدى إلى دمار واسع في الأحياء القديمة، وتشكلت لجنة من الوجهاء للمساعدة على التعمير، فما كان منه إلا أن أبلغها أن منازل آل خرطبيل عندي، وقام أيضاً باستئجار خياط واشترى الأقمشة اللازمة لكل المنكوبين من دون استثناء.. لم تكن مقدراته المالية لتذهب في هذا الاتجاه فقط، بل انه بإمكاناته كان حاضراً لاستباق اليهود إلى شراء الأراضي والأملاك التي يرغب العرب في بيعها كي لا يتملكها اليهود في طبريا أو قضائها.

واستطاع اليهود رغم وجود الجيش البريطاني ولا شك بالتآمر معه محاصرة طبريا وقطع جميع المساعدات والنجدات عنها، وتمكن الأهالي من الصمود على الرغم من قلة الذخائر التي كانت تصل بواسطة القوارب من سورية عن طريق سمخ.

ولتلافي نقص بل وندرة السلاح سافر الحاج خليل خرطبيل والمفتي الشيخ طاهر الطبري، رغم المضايقات إلى دمشق وبيروت لشراء الأسلحة والعتاد من مالهما الخاص، وهناك قابلاً رئيس جيش الإنقاذ فقال لهما: إننا لا نملك طلقة واحدة. وحين وجدا أن لا جدوى من مساعدته إتصلا برئيس الجمهورية السورية السيد شكري القوتلي، ولكن المقابلة لم تؤد إلى نتيجة عملية. بعدها توجهاً إلى بيروت وقابلاً رئيس الجمهورية اللبنانية، الشيخ بشارة الخوري الذي وعدهم خيراً. فقال له الحاج خرطبيل: نحن لا نريد أية قطعة سلاح شفقة، ولا نريد شفقة أحد، بل نريدها بأموالنا.

وبقي الوعد وعداً إلى أن سقطت طبريا ففي أعقاب هدنة لم تصمد لأكثر من أربعة أيام، تعرضت المدنية لهجوم من ٤٠٠ يهودي مزودين بأحدث الأسلحة، وكان عدد أفراد الحامية لا يزيد عن مائتي متطوع، ولم يبد أي قائد عربي حماسة للتدخل فسقطت المدينة، ونقل أهاليها بالشاحنات إلى الناصرة، وأصبحوا مشردين لا مأوى لهم بعد أن منعوا من نقل أمتعتهم وهرب أعضاء اللجنة القومية إلى الناصرة ثم نزحوا بعد ذلك إلى إربد والجولان بانتظار الفرج، وكانوا ينتظرون العودة بعد دخول الجيوش العربية. وبدأت أمالهم بالعودة تتضاءل يوماً بعد يوم إذ لم تتمكن الجيوش العربية من استرداد أية قرية أو مدينة، وأصبح أهالي طبريا وحتى أهالي فلسطين مشردين لاجئين، وبات الخطر الصهيوني يهدد الأمة العربية بكاملها.

توزع أهالي طبريا على المخيمات بين سوريا والأردن ولبنان باستثناء عدد قليل ظلوا في الناصرة، وعانى أهالي طبريا شأنهم شأن إخوانهم المشردون وهم يعيشون على ما تقدمه وكالة غوث اللاجئين. ولكنهم رغم النكبة لم يفقدوا إيمانهم وكرامتهم، وبقيت روحهم المعنوية عالية، والتحق أبناؤهم بالمدارس وتابعوا دراستهم الثانوية والجامعية، كما برز منهم الكثير من الشخصيات في شتى الميادين ومنهم على سبيل المثال فقط لا الحصر: الحاج خليل خرطبيل، والقسيس عبد الله الصايغ وأولاده الدكتور فايز الصايغ والدكتور يوسف، والدكتور أنيس، والشيخ طاهر الطبري، والدكتور أديب خرطبيل والمهندس مروان خرطبيل

وشحادة الخوري وسعيد خوري وفؤاد ياسين وحسين طبري والدكتور رشيد طبري ويوسف طبري ومصطفى سحتوت و...

لم أكن وعائلتي في طبريا خلال حصارها ولحظة سقوطها، وقد فصلت في الحديث عنها لأنا كنا نتتبع أخبارها أكثر من سواها، مع أن أخبار ما يجري في سواها لم يكن ينقصنا. الأهم أنه قد أشرت سابقاً إلى أننا كنا نأتي إلى لبنان، وقد حدث صيف العام ١٩٤٧، أن كنا في برمانا عندما انضم إلينا أخي أديب، وصدفة سألني إذا ما كنت أرغب في لقاء سعادة، فأجبته بالإيجاب، وحين التقيته في العرزال في ضهور الشوير بادرني بالسؤال عن سير الأمور في فلسطين فأسهبت في الحديث عن بطولات الشباب ودور النساء. إلا أن لغتي الحماسية لم تقنعه بشيء، فالتفت نحوي ثم قال إن النكبة حاصلة. لأن الجيوش العربية ستكون متفرجة أكثر منها حامية أو مدافعة، لأن طبخة الخيانة تتم على نار حامية وسجلوا قولي: أن فلسطين ستسلم يداً بيد إلى اليهود؟

ما سمعته منه لم يفت من عضدي البتة، لأنه كان يتحدث من مسافة بعيدة، فيما كل الذين هم على الأرض أقدر على رؤية الواقع كما هو. على أي حال، ما إن جاء آخر أيلول حتى قفلت عائدة إلى طولكرم بصحبة أولادي، لأجد زوجي هناك وقد باشر بتدريب خمسين فتاة وسيدة على عمليات الإسعاف الأولي. وبدأنا بتجهيز المستشفى بعدما تبرع زوجي بعيادته وطابق من منزلنا للوفاء بالتزاماتنا الإنسانية والوطنية نحو الجرحى من الثوار. وكان المستشفى قادراً على استقبال ستين جريحاً فقط. أما أولادي فقد توزعوا في المدارس على النحو التالي: أمل في مدرسة راهبات الناصرة بحيفا، وفاروق ومروان في سانت جورج بالقدس. ولما انتشرت شائعات حول نية جيش الإنقاذ دخول فلسطين وتوقع ردود فعل يهودية، عزمت على استعادتهم إلى المنزل. افتتحنا المستشفى في الثالث عشر من كانون الأول ١٩٤٧ وشاركتني أمل ابنة الربيع العاشر في إستقبال القائد عبد القادر الحسيني الذي جاء خصيصاً لحضور مراسم الافتتاح. وإزاء الاضطرابات نقلت أولادي جميعاً إلى منطقة رام الله. للاطمئنان إلى سلامتهم، ومن ثم تفرغت للخدمة في المستشفى إلى جانب الممرضات، حتى أني صرت أذهب إلى القرى لتجنيد المساعدات مع السيدات أمثال زهرة صلاح، وبدرية

الناشف، وسنية الحاج إبراهيم، وبشرى سمارة وابنها وأم جمال القاسم.

وقد اعتاد زيارة المستشفى فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ الذي يعاون الناس تعاوناً رائعاً وكان يطلب إمداد رجاله بالطعام، وكذلك القائد الحسيني الذي كان بينه وبين القاوقجي جفوة جعلته يطلب منه مدفعاً لقواته بوساطة زوجي. وجال طبيب الجيش أمين رويحة على مستشفيات المنطقة حتى بلغ مستشفانا في طولكرم فأعجبته ما فيها من نظافة وعناية ومعاملة. سأل زوجي عن المشرف عليها فقال له: زوجتي والسيدات اللواتي يعملن معها في الاتحاد النسائي. وهكذا توطدت الصداقة بيننا وبين الدكتور أمين رويحة الذي داوم على الاتصال والإشراف لا يروّعه اعتقال ولا يرهبه حكم بالإعدام حتى بات علماً من أعلام الوطنية ودرعاً من دروعها، وجاءتنا المساعدات أيضاً من مكتب فلسطين الدائم في بيروت بوساطة عمتي ابتهاج. ومن الرائدة شعراوي في مصر، وكنا على اتصال دائم بسائر اتحاداتنا النسائية في المناطق.

في نيسان ١٩٤٨ حضر خمسة عشر شخصاً بصفتهم رؤساء بلديات المستعمرات المنتشرة بين حيفا ويافا رافعين العلم الأبيض رغبة في الاستسلام، خوفاً من عمليات جيش الإنقاذ الذي كان يتخذ من «نور شمس» مركزاً لقيادته، استقبلهم زوجي في الساحة العامة للمستشفى ثم طلب إلي إعداد الطعام، فرفضت آنئذٍ استضافتهم في منزلي بسبب شكي في حسن نواياهم. اتصل زوجي بالقيادة في نور شمس فطلب إليه قائد المنطقة مدلول عباس أن يحضرهم إليه استجابة لرغبتهم. وأرسلت لهم الطعام إلى القيادة.

ضاقت مستشفانا بالجرحى الثوار فأخلينا الطبقة الثانية أيضاً من منزلنا باستثناء ثلاث غرف لنسكنها، حتى جاءنا يوماً القائد مدلول عباس بعائلته المؤلفة من امرأة وثمانية أولاد فحلوا علينا ضيوفاً.

سرت، بعد أسابيع، إشاعات مفادها أن جيش الإنقاذ عازم على الانسحاب للجيوش العربية، فسارعت مع زوجي إلى رام الله لإحضار أولادنا مجدداً تمهيداً لإبعادهم إلى بيروت. وهكذا بقيت أمل وهشام عند أهلي في بيروت، ومروان وفاروق عند جدهما في إربد بالأردن. وحين مغادرتنا ودعنا الأصدقاء في بيروت

على أساس أننا عائدان إلى أرض المعركة، ومنهم كان الزعيم أنطون سعادة الذي سأل: هل أنتم متفائلون بالنصر؟ وقبل أن يرد مودعونا عليه قال: إن الجيوش العربية ستدخل فلسطين ولكنها لن تحارب لأن طبخة الخيانات على نار حامية. لا تعجبوا بل سجلوا قولي: إن فلسطين ستسلم يداً بيد.

استقبلنا الأصدقاء بالترحاب لدى حلولنا في منزل عمي الحاج خليل خرطبيل في إربد، قبل انتقالنا في اليوم التالي إلى طولكرم من جديد ولدى استقلالنا السيارة صاح عمي قائلاً: لا يجوز أن تذهبا سوياً يجب أن تبقى هنا يا وديعة بجانب أولادك. لا أريد أن تذهبا معاً، زوجك طبيب واجبه يناديه. فملأت عينيه الدموع، عندما أجبته بأني لا أترك زوجي وحيداً وأتخلى عن واجبي في مستشفى تغص بالجرحى.

انسحب جيش الإنقاذ بعد استشهاد الحسيني وبقيت البلاد ثلاثة أيام بلا حامية، فأخذ الناس يفرّون ليلاً إلى الجبال خوفاً من هجمات اليهود. سمعت ذات ليلة طرقاً الباب فإذا بشاب يطلب مسدساً لحماية إحدى الطرق الفرعية المؤدية إلى منزلنا إثر إشاعة خبر هجوم يهودي وشيك فأعطيته ما طلب بلا وعي وشعوراً بخطورة المرحلة الراهنة. وفور عودة زوجي لأخذ مسدسه فوجىء بإعطائه لرجل مجهول وافترض أن ذاك الرجل ارتكب به جريمة قتل، فمن يتحمل المسؤولية غيره وهو المحفور اسمه على قبضته؟ ما لبث الرجل أن عاد بعد أيام ليفاجئني بقوله: هذا مسدسك يا سيدة وديعة. سألته: من أين تعرفني قال: أنا أحمد. عندئذٍ غرقت عيناي بالدموع وأنا مأخوذة بهذا الشاب الذي ربيته طفلاً بين أولادي وها قد أصبح بطلاً يقول لي: أفديك بدمي، فأنا لم أنسك ولا أنسى المعاملة المثالية التي لقيتها لديك وقت المحنة.

على الطرف الآخر من باب تحمل المسؤولية، دخلت الجيوش العربية فلسطين، بعد ثلاثة أيام، وكانت منطقة طولكرم مع جنين ونابلس من نصيب الجيش العراقي، أما الجيش الأردني فتولى الدفاع عن القدس واللّد والرملة، وللجيش السوري طبريا وبيسان وللجيش المصري غزة، وللجيش اللبناني صفد والناصرة.

إزاء تحركات اليهود المبرمجة بوعي وتخطيط وإصرار على اجتياح البلاد قرية قرية ومدينة مدينة، وقفت الجيوش العربية موقف العاجز، أو موقف شاهد الزور على أعظم المجازر المرتكبة بحق القرى الآمنة والشعب المغلوب على أمره ولم يشهد التاريخ لذلك مثيلاً. وسرعان ما صعّد اليهود من هجماتهم وغاراتهم الجوية، ففاجأتنا واحدة ليلاً، بعدما نبهتنا الطاهية «أم جوزيف» فما كدنا نبلغ الطبقة السفلى بثياب النوم حتى كانت الطائرات تقصف المنطقة، وليس لنا من حام حارس آنذاك إلا الله.

وكانت الهدنة، فسافرت إلى بيروت فجأة من عمان على متن طائرة صغيرة تتسع لستة مسافرين، فدهش أهلي حين رأوني ولا سيما أنهم منشغلون بضيوفهم من الشخصيات الفلسطينية أمثال أنيس البيبي وقرينته، وآل الحسيني، وآل العلمي. وجاء آخرون وقد اغتنموا فرصة وجودي لتنسّم أخبار فلسطين وحالتها الحاضرة. وبعد أيام غادرت إلى إربد فطولكرم حيث زوجي على أحر من الجمر للإطمئنان على الأولاد وإدخالهم إلى الجامعة الأميركية في بيروت.

ذكرت قبلاً تفصيلات عن سقوط طبريا، ولم يقف الأمر عند حدود مدينتي، إذ سرعان ما سقطت يافا وقائد قطاعها حسن سلامة كما سقطت صفد وبعدها بيوم وبيسان وبعدها بخمسة أيام عكا و...

بعد سقوط معظم المناطق الفلسطينية، طلب إلي زوجي العودة إلى بيروت لاستئجار مسكن هناك. سألته عما سيفعله هو، فقال: سأبقى هنا في طولكرم حيث واجبي يفرض علي البقاء رغم سقوط بلدتي طبريا وخسارتي كل أملاكي. الوطن أهم من الأملاك الخاصة.

وفي اليوم التالي كنت في عمان برفقة الدكتور نصفت كمال، وعصام الشوا، لم يكن سهلاً العثور على مكان للنوم، فتوجهنا إلى منزل صديق لزوجي هو رئيس «بنك الأمة» ثم تابعنا في الصباح مسيرتنا إلى دمشق، فزرنا صديقاً لزوجي من آل عبوشي. وقد بادرني بالسؤال عن زوجي وعمي الحاج خليل، ثم روى لي عن عمي كيف فرض عليه الملك عبد الله دفع خمسة مئة ألف جنيه لمساعدة المهجرين. فرد عليه: يا صاحب الجلالة، أنا مهجر أيضاً، ولكني

سأدفع بكل طيبة خاطر لأني بذلك أساعد شعبي، هذه الحكاية كنت أسمعها للمرة الأولى.

وصلنا في اليوم التالي إلى منطقة قب الياس بالبقاع، حيث منزل أختي أدبية وزوجها الدكتور جودت قزعون وبرفقتي ولداي فاروق ومروان اللذين جئت بهما من بيت جدهما في إربد. وبعد يومين وصلت إلى بيروت، وكلفت أحدهم البحث عن مسكن لنا، ثم انطلقت بعد ذلك إلى منطقة سوق الغرب بحثاً عن مدرسة داخلية لفاروق ومروان، أما «أمل» وهشام فظلا عند أهلي. وهكذا داخلني شعور بالاطمئنان نحو أولادي.

عدت مسرعة إلى فلسطين، وما أن دخلت ما سمي بعد ذلك الضفة الغربية، حتى أخذت ترتسم أمامي معالم الكارثة التي حلت بالناس، شاحنات تحمل الكثير من الأهالي وعلى وجوههم أسئلة المصير والقلق من الأيام الآتية، عربات، كل ما يمكن أن يشكل وسيلة نقل، بعض السيارات متجهة إلى خارج فلسطين كالأردن وسوريا ولبنان، وبعضها الآخر متجه إلى الداخل، حرائق بعيدة، دخان يظلل السماء، وطرقات مسكونة بالعيون الراعبة أو بالصمت المخيف. ما إن وصلت إلى طولكرم حتى وجدت زوجي غارقاً في مساعدة الجرحى والمصابين، المرضى العاديون لم يكن لهم من مكان في اهتماماته التي كانت منصبة على إنقاذ من يمكن إنقاذه.. في حال الانتهاء من ذلك يتم الالتفات إلى سواهم. عملت إلى جانبه في المستشفى، وبذل جهده في تأمين ظروف شفاء الجرحى في أسرع وقت ممكن، ولما خرج آخر جريح من المستشفى، عملنا على فك الأجهزة والآلات والمعدات وأرسلناها إلى السيدة عندليب العمد رئيسة الاتحاد النسائي في نابلس، إلى المستشفى هناك. كنا نخشى إذ ذاك أن تلحق طولكرم بسواها من مدن فلسطين التي احتلت، ورأينا نابلس أبعد عن الخطر، لذلك كان قرارنا في هذا الاتجاه. ما إن أنجزنا هذا العمل، حتى إلح عليَّ زوجي بوجوب الرجوع إلى بيروت، كي أكون إلى جانب الأطفال، وريثما ينهي مهمته أو تتضح الأمور. ما اتفقنا عليه، كان ضرورة نقل أثاث المنزل الذي كان قد أصبح في إربد إلى بيروت، خصوصاً وأن قرارنا استقر على الإقامة في بيروت، إقامة مؤقتة ريثما تكون الجيوش العربية قد أكملت «تنظيف» فلسطين وأعادت البلاد إلى أهلها.

وصلت إلى بيروت في صباح اليوم التالي، وأنا ذاهلة، فجن جنون أهلي واستدعوا الطبيب لمعالجتي. أخذت أولادي من المدرسة في نهاية الفصل الدراسي، وذهبت بهم إلى فندق في منطقة حمانا، كنت أغادره بين الفينة والفينة إلى بيروت لأتابع البحث عن مسكن للأسرة كاملة هذه المرة. وبعد مدة وجيزة عثرنا على المسكن المناسب الذي نرتاح إليه لقربه من الجامعة الأميركية، وهو نفس المنزل الذي نقيم فيه حتى الآن.

الفصل الثاني

نكبات خاصة العائلة ثانية

لم يأت شتاتنا دفعة واحدة كسوانا، إذ تم على مراحل. رغم أني أجرت منزلاً مرتفع البدل في بيروت، وقررنا نقل أثاثنا له، الذي سبق وحملناه إلى إربد في الأردن، إلا أن قناعتنا لم تصل يوماً حدود الاعتقاد أننا خسرنا وجودنا في فلسطين، أكثر من ذلك ظل بيتنا في طبريا الذي لم نقم فيه سوى أقل من عام، حاضراً في يومياتنا، وكنا على شبه ثقة أننا سنعود إليه، وأن ما يجري من أمور ليس سوى فترة عارضة. مع ذلك أخذنا في بناء ركائز لوجودنا في بيروت، ورمزها الأساس البيت في منطقة رأس بيروت. ربما كانت العودة إلى بيروت بالنسبة لنا ولسوانا مسألة لا تقبل الجدل أو الشك، خصوصاً وأن الجمعية العمومية للأمم المتحدة كانت قد اتخذت قراراً في ١١ كانون الأول ١٩٤٨ نص «على عودة اللاجئين العرب إلى ديارهم، على أن تدفع التعويضات للذين يختارون عدم العودة، على أن تقوم بالتعويض عن الخسائر والأضرار بالملكية الحكومية السلطات المسؤولة تبعاً لمبادىء القانون الدولي». مثل هذا القرار عاملاً إضافياً في الاعتقاد بالعودة السائد يومها، أسوة بسائر الشعوب التي نزحت بفعل الحرب، إذ ما من ألماني منع من الرجوع إلى بلاده بعد الحربين الأولى والثانية. ولم أتصور أنني سأمنع من العودة إلى طبريا، القدس، نابلس، طولكرم أو غزة.

أخذت أجمع الأثاث في البيت الذي استأجرته، أنقله من منازل أهلي وأقاربي وأضعه في مكانه، فيما ظل أديب في طولكرم يمارس مهمته، وهكذا أصبحنا موزعين كأسرة بين لبنان وفلسطين. أما عائلة خرطبيل التي ينتمي إليها زوجي، والتي أصبحت واحدة منها فقد توزعت هنا وهناك. واقتصر المجيء على بيروت علينا دون سوانا. القسم الأكبر من العائلة اتجه إلى الشام، إذ علاقات طبريا التاريخية كانت معها أكثر من بيروت. قبل أن يصلوا إلى الشام، اتجهوا

نحو إربد، إذ لنا قرية هناك مؤلفة من عدة ألوف من الدونمات. وهي ملك لعمي، ولم يكن يلتفت إليها، باعتبار أن أملاكه في طبريا هي التي كانت تدر عليه دخلاً حقيقياً، خصوصاً الفنادق وعددها عشرة وكذلك المحال التجارية. بعد أن خسر أملاكه تلك أخذ يبحث عن هذه التفاصيل التي لم يقم لها اعتباراً في السابق. بعد إقامة قصيرة في تلك القرية، انتقل إلى الشام، وكان متقدماً في السن، وتوفي في دمشق. بعض أفراد العائلة أقام في حمص، حلب، حماه، والأردن، وقصد بعضهم مصر.

في بيروت أخذ يتشكل شبه مجتمع فلسطيني، العائلات الفلسطينية التي ارتبطت بعلاقات مع أسر لبنانية قصدت بيروت، كآل خالدي الذين ارتبطوا بعلاقة مصاهرة مع آل سلام، إلا أن عائلات أخرى لم تمتلك علاقات عائلية قدمت إلى هنا، وكان الكثير منهم من المتمولين أو من المتعلمين الذين شغلوا مناصب جيدة في القطاع الخاص. إضافة إلى ألوف العائلات التي أقيمت لها مراكز تجمعات مرتجلة. على أن العائلات التي تمتلك أرصدة مالية أو كفاءات علمية بدأت تؤسس لوجود انتقالي ريثما تحل القضية، وشيئاً فشيئاً وبعد أن طالت السنوات، أخذت هذه تدخل في النسيج الاجتماعي وتصبح جزءاً منه. والحقيقة أن العائلات البيروتية استقبلت العائلات الفلسطينية في بيوتها أولاً، قبل أن تأخذ الأخيرة في تدبير أمور إقامتها، وكنت أرى في بيت أهلي أو سواه العشرات، ولا أبالغ في ذلك مطلقاً. والحقيقة أن من ظل في فلسطين إذ ذاك كانت تلك الأسر التي يتعذر انتقالها لأسباب مادية، فيما القادرون غادروا تحت وطأة الأحداث التي كانت تتصاعد، إضافة إلى عشرات الألوف الذين دمرتهم المجازر وما تخللها ورافقها من إشاعات.

لم يطلب أديب مني العودة إلى طولكرم، بعد أن أدخلت الأولاد إلى الجامعة الأميركية في بيروت، وأخذنا نرتب أمورنا لتأمين المستقبل لهم من خلال التعليم، وكان يتردد علينا هنا بمعدل مرة كل شهر أو شهرين، فيقيم لمدة أسبوع يعود بعدها إلى مركز عمله في طولكرم. وفي طولكرم رتب أمور إقامته وحيداً، كانت لديه طباخة بيروتية ماهرة، وسائق، وعيادته مفتوحة وتغص

بالمرض، وكان يصف فلسطين إذ ذاك بأنها غير التي عرفناها وعرفها سوانا، مشيراً إلى زحف الصهاينة بعد فشل التقسيم وانهيار الهدنة الأولى والثانية وتصاعد الخطر، وتشرذم المئات من الذين عرفناهم. والذين غادرت بعدهم، بعد أن ناقشنا زوجي وأنا في كيفية تأمين أطفالنا من الخطر أولاً، وتدبير مقومات مستقبلهم.

بالطبع لم نكن نحن ولا أبناء العائلات الثرية بحاجة إلى مساندة، فيما كانت أعداد هائلة معظمها من منطقة الجليل قد وصلت إلى لبنان عموماً وعاصمته خصوصاً. وكانت عمتي ابتهاج على رأس الجمعيات النسائية والمؤسسات الخيرية وبالتنسيق مع الحكومة اللبنانية والهيئات الدولية تستقبل جموع اللاجئين وتشرف على توزيعهم وإيوائهم في المدارس والكنائس والمساجد. وكانت مشاهد البؤس تفطر القلوب وتفتت الأكباد، خصوصاً وأن هؤلاء الذين كانوا ينتظرون إعانات تقيم أودهم كانوا حتى الأمس يعيشون في منازلهم موفوري الكرامة في القرى والمدن.

ما دمت أتحدث عن عائلتي، لا بد وأن أشير إلى أنني طوال السنوات التي أمضيتها في فلسطين، لم أنقطع عن بيروت، ولا أهلي انقطعوا عن زيارتي. كانت أمي حاضرة لدى ولاداتي، وفي الملمات التي مررنا بها، كما أن شقيقاي وشقيقاتي كانوا يزورونني، وكنا نأتي لبنان للاصطياف في عاليه، أو نذهب إلى رام الله.. صحيح أني اندمجت في عشرات العلاقات في حياة المدن التي أقمنا فيها، إلا أني بذات الوقت حافظت على ما أمتلكه قبل الزواج، وهكذا كان انتقالي أخف وطأة من سواه. فعلى الصعيد المادي، كنا ميسورين بحمد الله. ولذلك سجلت الأولاد في المدارس، وحافظنا على مستوى معيشي لائق. كل هذه المسائل قللت من الإحساس بالغربة، وإن لم تقطعها، فالمؤكد أن بعدي عن زوجي والأولاد، والإقامة في هذه المدينة أو تلك والأصحاب والأصدقاء الذين تقاذفتهم رياح الشتات، كانت تشكل مرارة في الحياة اليومية في بيروت، ليس لنا بل ولسوانا أيضاً، فضلاً عن وجود عشرات الألوف من أبناء شعبي في حال يرثى لها من العوز والفاقة وانتظار الصدقات.

إذن أصر زوجي أديب ابن طبريا على البقاء في طولكرم، باعتبار الثانية كالأولى أرضاً فلسطينية، لكن اضطررت للنزوح والأولاد بعيد الهدنة الثانية وبعد أن احتل الصهاينة منطقة المثلث وأوقفت الجيوش العربية عملياتها نهائياً في فلسطين..

كان أولادي فاروق وأمل ومروان وهشام في سن الدراسة، فأدخلت أمل إلى الكلية الإنجيلية الفرنسية، أما الصبيان الثلاثة فقد استقروا في الانترناشيونال كوليج التابعة للجامعة الأميركية. وبذلك انتظمت حياة الأولاد في بيروت، وكان وجود أقاربي في محيط منزلنا، أو قربه عامل استقرار لهم. على أن هذا لا يعني أننا انقطعنا عن فلسطين وتحديداً عن طولكرم، فإذا ما تأخر زوجي أديب عن المجيء إلى بيروت لانشغالاته وصعوبة إقفاله لعيادته، كنا نعلمه باعتزامنا الذهاب إليه. وما أن يحصل الأولاد على فرصة حتى كنا ننتقل إلى دمشق ومنها إلى عمان فطولكرم.. وبديهي القول أن حياتنا كما حياة سوانا قد اختلفت، لأن طولكرم لم تعد كما كنا نعرفها سابقاً. صحيح أن المدينة لم تتغير، لكن كل شيء كان مغايراً لما ألفناه فيها وفي سواها من مدن فلسطينية، ثم إن الأولاد أخذوا يفقدون شيئاً فشيئاً إحساسهم بالمكان لصالح بيروت. لم تعد طولكرم بالنسبة لمروان كما كانت عليه العام ١٩٤٨، عندما كان ابن السنوات العشر يبكي طالباً إلى أبيه مرافقته عندما يغادر المنزل إلى الجبال لتطبيب الثوار أو لقائهم، كما لم يعد فاروق يملك الأصدقاء السابقين. وكذلك هشام وأمل.. لقد باتوا جزءاً من مجتمع طلاب المدارس التي سجلوا فيها في بيروت، فضلاً عن الأقارب هنا، باختصار، وكذلك على الرغم من اندماجهم في الدراسة والنشاطات الرياضية، ظلوا يحنون إلى طولكرم التي كان هشام يرى فيها مدينة أجمل من بيروت. أما فاروق فقد انساق في هواية رياضة الجري، وفاز ببطولة الجامعة الأميركية مرات، ثم ما لبث أن حطم الرقم القياسي لهذه الرياضة في لبنان وحافظ على بطولته لها سنوات متتابعة، فيما أمل نالت شهادة البكالوريوس في العلوم، ومروان غادر بيروت بعد تخرجه من الانترناشيونال كوليج وأنهى صف الفرشمن بتفوق إلى إنكلترا ليتخرج مهندساً من جامعة لافبرا، أما هشام فتابع دراسته في الجامعة الأميركية وتخصص في الاقتصاد، ومن ثم حصل على شهادة

الماجستير من جامعة سلوغان في سولت ليك بالولايات المتحدة الأميركية.

أظن أنني وأنا أسرد هذه الوقائع قد سرحت في الذاكرة وتجاوزت ما يتوجب تسجيله على صعيد حياتنا العائلية، بداية لا بد وأن أشير إلى أنه في العام ١٩٤٩ فجعت عائلتنا بوفاة الدكتور جودت قزعون صهري وصديق زوجي. ما إن تماسكنا بعد هذه النازلة، حتى عادت حياة العائلة تستعيد مسارها الإنساني، وكانت مناسبة اقتران أخي أديب بالآنسة نهلة العطار ابنة أخت الرئيس السوري شكري القوتلي لمسة فرح بعد النكبة التي ضربتنا وضربت فلسطين بأسرها.

هذا الانتظام في حياتنا العائلية، سرعان ما قطعه منام ثم وقائع.. ذكرت أن زوجي أديب ظل في طولكرم، في إحدى الليالي نهضت من نومي على مرأى كابوس، رأيت خلاله زوجي ممتطياً حصاناً في «وادي الحوارث»، وفجأة تبتلعه رمال متحركة، يبذل جهده، ولكن بصعوبة بالغة ينجح في النجاة بنفسه. أنهض خائفة، أشرب ولا أرتوي، أرتدي ملابسي وأنطلق مسرعة نحو بيت أهلي القريب. أخبر أمي بما شاهدت، فتأخذ في التخفيف عني، ثم تعد لي نارجيلة، ولما شعرت أني هدأت طلبت إلي العودة إلى البيت، فعلاً رجعت وأمضيت يومي أعتني بالأولاد، حتى المساء، إذ حضر أهلي أصروا على مرافقتي إلى مطعم الغلاييني مع أقارب لنا من آل الحسامي والميقاتي وقباني جلسنا إلى العشاء، وما زال الكابوس ماثلاً أمامي، ظللت وأنا معهم تحت تأثير ما شاهدت.

وفيما نحن على هذه الحال في المقهى سمعنا طرقاً على الزجاج، فصرخت إحدى قريباتي: أنظري يا وديعة من في الخارج. وكان زوجي قد أتى من طولكرم، وقصد بيتنا فلم يجدني ولكن الخادمة أرشدته إلى مكان وجودنا. وبعد إلقائه التحية، قال أهلي له تعال واسمع زوجتك يا دكتور كيف تتصرف بأعصاب «متوترة» بعد أن شاهدتك في منام مزعج.. فأجاب: أجل، هذا ما كان، واسمعوا ما حصل. فأخذ يروي لنا قصته التالية:

كنت على موعد على الغداء في منزل الدكتور نصفت كمال في جنين. فحضر أربعة ضباط من أصدقائنا وقال لي أحدهم وهو يبتسم: دكتور أديب، هناك

أمر صادر من مراجع عليا بالقبض عليك وتحويلك إلى سراي نابلس، أجبتهم: ما ذنبكم؟ أنتم مأمورين، وما عليكم إلا التنفيذ، ورافقتهم وكأننا في موكب رسمي إذ لا دلائل تشير إلى أنهم «يقبضون» عليّ قبضا. حين وصلنا السراي سألت عن محافظ المنطقة أحمد خليل. فقال أحدهم: غير موجود. لكنني شاهدت سيارته هناك، فخطر ببالي أن الوشاية بي هي منه شخصياً، وتذكرت ما كان بيني وبينه ـ في إحدى الجلسات سابقاً ـ من جدال حين هاجم المفتي الحج أمين الحسيني، فقلت له آنذاك: لا تنسى أن المفتي رجل دين، وهو مفتي فلسطين ويمثلنا.

وتذكرت كذلك اجتماعاتي إلى مخاتير قرى طولكرم وقضائها، بحضور أحمد خليل الذي كان يتولى التسويق لضم الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، فيجيبونه: نحن رأينا من رأي الدكتور خرطبيل. فأعلق على ذلك قائلاً: لا، لكل شخص رأيه، رغم علمهم برأيي السابق والثابت: أن أرض فلسطين لفلسطين، وأنا ضد ضم أي شبر لأحد.

في هذه الأثناء، والأفكار والخواطر تتقاذفني، علمت أن صديقي المحامي عطاالله، وهو من أكبر المحامين في فلسطين، قد حضر مع النائب الدكتور كمال حنون إلى منزلنا بطولكرم حين علما بالقبض علي، فكانت اتصالات لإخلاء سبيلي، وتم تحويلي إلى عمان. طلبت أن أذهب إلى منزلي لتحضير نفسي، فشاهدت تجمعاً هناك من الأهالي يستنكرون العمل. لكني انطلقت بسيارتي مع السائق وخادمتي اللبنانية، والموكب العسكري يرافقنا، حتى وصلنا إلى عمان. وهناك قصدنا منزل صديقي وزير الداخلية فلاح المدادحة، فقيل: إنه نائم. فقلت: لا بأس، اعلموه بوصول الدكتور أديب خرطبيل لمواجهته. فحضر الوزير مسرعاً بعد دقائق. وأخبرته بأمر أحمد خليل، فتعجب كيف أن ذلك الرجل تخطاه بهذه المسألة. وظللنا نتسامر إلى الصباح، فقام إلى الهاتف واتصل بجلالة الملك عبد الله، واعلمه بوجودي، وطلب مقابلته، والتقينا الملك، فبادرني قائلاً: أنت منحرف سياسياً يا دكتور خرطبيل. أنا أعلم أن لعائلتك مكانتها، ووالدك صديق لنا. كيف أدعوك إلى مؤتمر أريحا ومؤتمر عمان وترفض الدعوة؟

فأجبته: يا جلالة الملك، أنا طبيب، ولست رجل سياسة.

فرد الملك: ولكننا عرضنا عليك أن تكون وزيراً للصحة، أو نائباً في المجلس، لكنك رفضت ذلك أيضاً.

فتدخل هنا الوزير المدادحة قائلاً: سيدنا، أن الدكتور خرطبيل خدم المملكة الأردنية مدة سنتين.

قال الملك: أنت يا دكتور من جماعة «أبو لفة» (من جماعة المفتي الحاج أمين الحسيني).

أجبته: أنا لست من جماعة أحد. أنا أخدم عملي الإنساني الذي أقوم به.

قال الملك: إذن، يجب أن تغادر إلى سوريا أو لبنان، المهم أن تغادر عمان قبل نفيك إلى «سجن الجفر».

عندئذٍ انطلقنا سريعاً بموكب من السيارات رافقني إلى الحدود الأردنية السورية، وقد ودعني الأصدقاء. وها أنت تشاهديني، يا وديعة، هنا الآن.

بعد بضعة أشهر سمعنا باغتيال الملك عبد الله في المسجد الأقصى، بتاريخ ٢٠ آذار ١٩٥١. وقد ترك اغتياله على يد شاب فلسطيني أثراً كبيراً على القضية والشعب الفلسطينيين. وقد حمدنا الله أن زوجي غادر الأردن قبل ذلك الحادث، لأنه كان سيواجه متاعب جمة وعواقب وخيمة من جراء ما دسّ عليه لدى الملك عبد الله قبل وفاته، الذي رأى في بقائه بطولكرم خطراً يتهدد مشروعه بضم ما تبقى من أرض فلسطين الى المملكة الأردنية الهاشمية.

كان زوجي أديب يتحدث إذ ذاك بلغة يائسة وحزينة، وهو يروي ما حدث، هذا مع العلم أنه لدى وصوله إلى المنزل وسؤاله عني وإعلامه بمكاني قد أخذ حماماً ساخناً وأبدل ثيابه، كأنه ينفض عن نفسه تفاصيل الواقعة.. رغم ذلك كانت رنة الأسى واضحة، كأنه في تلك اللحظات لا يروي فقط خروجه من فلسطين بل ضياعها ومن دون قدرة لديه على المقاومة.

للمرة الأولى منذ رجوعي إلى بيروت واستئجار منزل، لا يعاودني القلق على زوجي في طولكرم. إذ لم أعد أنتظر مجيئه ولا يتملكني. إحساس أو

يعاودني أنه في موقع الخطر، وأسئلة وهواجس تنتابني في كل لحظة من يومياتي. فالإنسان الذي خلفته ورائي في طولكرم هو الآن معي جسداً وروحاً وحضوراً. إلا أن هذا الشعور الذي أزاح ما أصابني حينما شاهدت ذلك الكابوس، قد ترك المكان لقلق من نوع آخر هو ذلك الذي أحضره زوجي معه عندما أتى سالماً وقد نجا من أن يساق إلى المعتقل الصحراوي في الجفر. أشعر أنه أتى من فلسطين وكأنه آخر من يخرج منها، أو آخر الخارجين، بعد ما سبقه الجميع، كانت طولكرم بالنسبة له قريبة من طبريا كما هي من القدس ونابلس و... أما الآن فبيروت بعيدة.. بالتأكيد لم يترك زوجي مدينة عمله إلا مكرها، لكن الخيار الذي انتصب أمامه وحمله معه إلى بيروت كان يقارب نهاية فلسطين التي لم يشأ أن يتزحزح عنها، سواء كان هنا أو هناك، المهم أنه كان دوماً ضمن جغرافيتها المقدسة.. كانت الأيام الأولى لوجوده أياماً محمومة، لقد أتى الكثير من الأصدقاء اللبنانيين والفلسطينيين إلينا يسألون عن التفاصيل، تفاصيل نكبة ما بعد النكبة، وكان يجيب بانكسار حيناً وبأمل يصنعه أو يصطنعه حيناً آخر. من أن فلسطين لا بد وأن تنبعث مجدداً وسط هذا الرماد الذي لفها، والتكالب على بقاياها. كان بحاجة إلى كثير من الرعاية والعون والمساندة بل وحتى العطف، وقد وفرتهم له يقيناً أننا قادرون على بدء حياة من جديد، وساعده الأهل، كما أن وجود أعداد كبيرة من الفلسطينيين في بيروت ومن مختلف الشرائح كان بالنسبة له عنصراً مخففاً من ثقل ما يحمل من عذابات. وشيئاً فشيئاً أخذ في استعادة أصدقائه، صداقات مقاعد الدراسة في الجامعة الأميركية.. وهكذا اجتمعت عوامل متضافرة لتعاونه على النهوض ثانية.

بعد أشهر من الإقامة في صميم العذاب النفسي الذي حمله، أخذنا نفكر في العمل، وهنا أتحدث عن الأعوام ١٩٥١ و ١٩٥٢ و ١٩٥٣ و ١٩٥٤ أيضاً، وكان تشجيعي على خيار من هذا النوع متعدد الاستهدافات، إذ أولاً، كان مدخولنا في فلسطين جيداً، ثم أنه له عيادته الخاصة في طولكرم. كانت دوماً تغص بالعشرات من المرضى، إلى درجة عجزه أياماً كثيرة عن فحص مرضاه، فيعمد إلى تضيفهم فئتين أبناء طولكرم يرجئهم إلى يوم ثان، وأبناء القرى البعيدة يتولى علاجهم مع الحالات المستعجلة. وأخذنا نلح عليه بضرورة معاودة نشاطه

وممارسة الطب من جديد. وقد اقتنع أخيراً بضرورة الحصول على فرصة ثانية، وكانت إذ ذاك وكالة الإغاثة الدولية «الأنروا» قد أصبحت تمارس دورها، فعين في هذه الوكالة الدولية، ثم ما لبث أن اعتزم افتتاح عيادة خاصة، وفعلاً استأجر واحدة له في «عالسور» ـ ساحة رياض الصلح فيما بعد ـ على مقربة من صيدلية أخي أديب، إلى جانب العديد من الأطباء. إلا أن تلك العيادة كانت بمثابة عبء مادي علينا وليست مصدراً للدخل، إذ أن أكثر الذين كانوا يقصدونه هم من أقاربي أو معارفه ومن كل الفلسطينيين، ولم يكن يتقاضى منهم بدلاً مالياً لقاء المعاينة، واقتصر دخلنا تبعاً لذلك على الراتب الذي نحصل عليه من الأونروا، الذي كان إلى جانب رصيدنا كافياً لحياة لائقة، وإن كانت مهددة بالتوقف. لذا عندما اغتيل الملك عبد الله، الذي ضم الضفة الغربية إلى الشرقية، شعرنا أن الخطر قد زال، مما دفع زوجي إلى الذهاب لطولكرم لتصفية بناء كان قد إقتناه خلال عمله هناك. عندها تملكتنا قناعة حقيقية أن باستطاعتنا دفع كلفة تعليم أبنائنا في أفضل الجامعات في لبنان أو خارجه وبقاء وضعنا على سويته.

لم نفكر في الحصول على الجنسية اللبنانية، إلا بعد أدراكنا أن فلسطين تبتعد عن قبضات أصابعنا. فالرحلة الوحيدة التي قام بها زوجي إلى طولكرم لم تتم إلا بعد أن سبقتها الكثير من الاتصالات لتأمين ذهابه وعودته سالماً. وكانت لأيام، فيما كان ثمن كلفة قراره بالعودة إليها غالياً، إذ يعادل التسليم بما أصاب الضفة الغربية واعتبار الموقف السابق بمثابة خطأ تم الرجوع عنه، وهذا كان مستحيلاً أو المستحيل بالنسبة لنا. في منتصف الخمسينات شاع في بيروت أن هناك إمكانيات للحصول على الجنسية اللبنانية، وأكد لنا ذلك جارنا القاضي عبد شهاب، إلا أن زوجي تردد في طلبها، فألححت عليه، وبدا له الأمر كأنه أشبه ما يكون بالتخلي عن مريض في حال الخطر، إذ أن وضعاً من هذا النوع يتطلب رعاية استثنائية وليس العكس، وقدمت له قائمة بالمبررات العملية التي تساعدنا في حياتنا سواء من أجل فلسطين أو من أجل أبنائنا، وأخذنا نناقش الأمر في ليال طويلة، وعندما لاحظت لينا في موقفه ذهبت في اليوم التالي إلى عمتي ابتهاج، وطلبت منها استعمال نفوذها في هذا الصدد، فوعدتني خيراً، ثم قامت واتصلت برئيس الحكومة آنذاك عبد الله اليافي، وأخذت منه موعداً لمفاتحته

بطلبي. وفي اليوم التالي التقته في مقر رئاسة الحكومة وعرضت له أمر زواج الدكتور أديب خرطبيل من ابنة أخيها، وقالت له أنها ترجوه منحه الجنسية، فأجاب: «عرفت أن جنسيات تعطى ولكن للمسيحيين الفلسطينيين فقط وليس المسلمين.. على أي حال سأحاول جهدي».. وأخذنا ننتظر وعد الرئيس اليافي.

وفي إحدى الأمسيات، وكان القاضي شهاب في منزلنا فأعاد سؤالنا عما إذا كنا تقدمنا بطلب الجنسية، وأخبرنا أن الكثيرين حصلوا عليها لقاء مبالغ كبيرة دفعت. وهنا تذكر زوجي واقعة لا تصدق إلا عندما تدخل في باب المصادفات، هي التي قادت في النتيجة إلى حصولنا على الجنسية.

في العام ١٩٢٤ كان أديب خرطبيل وفؤاد مسلم ورشيد الطبري وثلاثتهم من الفلسطينيين الذين يدرسون الطب في الجامعة الأميركية في بيروت، يمرون من أمام مخفر حبيش، ولاحظ الثلاثة حشداً من الناس يقفون أمام المخفر، ولدى سؤالهم عن سبب ذلك، أفاد أحد الحضور أن هناك تسجيلاً لأسماء اللبنانيين تجريه سلطات الانتداب الفرنسي. ووقف الثلاثة يتناقشون في الأمر، أديب يدعوهم إلى تسجيل أسمائهم وفؤاد ورشيد يرفضان. ولما أعياه إقناعهما، تركهما وقال أنا سأسجل إسمي فقد تلزمني الجنسية اللبنانية يوماً ما. وفعلاً وقف بالطابور وراء الذين يتقدمونه، فيما صديقاه انتظاره خارجاً حتى أنهى التسجيل ولحق بهما. عندما تذكر تلك الواقعة شعرت وأن جبلاً قد أزيح عن كتفي، خصوصاً وأن وعد الرئيس اليافي لنا لم يكن قوياً إلى درجة الركون إليه. وفي اليوم التالي كنا نتفق مع محامٍ على تولي القضية، ثم عثرنا على أحد الأشخاص للبحث في قيود التسجيل وإحصاء النفوس المذكور، وبدأت عملية بحث مضن توجت بالنجاح، ثم ما لبثت الأمور بعد تأكد ذلك أن باتت شبه تلقائية، وهكذا حصلنا على الجنسية اللبنانية من دون أن ندفع أكثر من أتعاب المحامي ومن كلفناه في التفتيش بالسجلات. على أن الحصول على الجنسية اللبنانية الذي رأيته أمراً بديهياً بالنسبة إليّ، ليهبط برداً وسلاماً على أديب. الذي كاد شعوره بامتلاكها يقارب الإعتراف بضياع فلسطين. بالتأكيد كان يدرك أننا نحتاجها مع أولادنا، إلا أن هذا لم يمنعه من إدراك أنه يبتعد عن فلسطين خطوة إضافية، وسيكون أبناؤنا أكثر مسافة عنها. لا أعرف الآن لماذا قرر الدخول إلى مخفر حبيش

وتسجيل اسمه، لا أستطيع أن أفسر الأمر عبارة عن استباق أو دليل الحاسة السادسة التي قادته إلى هذا السلوك.. تارة أفكر أن الأمر كان صبيانياً لا أكثر ولا أقل، وطوراً أراه مجرد تصرف لم يبن في حينه على ما يبرره، كالكثير من الأمور التي نقوم بها على هذا النحو وليس خلافه. ولكنه في النتيجة كان تصرفاً حمدنا الله عليه ومكننا من أن نشعر بالكثير من الاستقرار في حياتنا الجديدة.

فواجع خاصة:

أكتب الآن وأديب تحت التراب، ومروان في البحر، في قاعة مع حطام الطائرة، وأمل متزوجة من الدكتور أديب الداودي وقد عقد قرانهما عام ١٩٥٥ حين كان مديراً لمؤسسة اللاجئين الفلسطينيين في سوريا. وهي جهاز حكومي يتولى جميع شؤون اللاجئين الفلسطينيين في سوريا من قيود وإقامة واشراف على التعليم ومنح هويات شخصية وتذاكر سفر الخ...

وعين الدكتور أديب الداودي في هذا المنصب عام ١٩٥٢ وبقي على رأس المؤسسة في عام ١٩٥٥ بعد زواجه من أمل حين طلب العودة الى ملاك وزارة الخارجية، فأرسل الى لندن قائماً بأعمال السفارة ومنها تنقل سفيراً في عدد من الشعبات التي سيرد ذكرها، كما مثَّل سوريا في أكثر من عشر دورات من دورات الجمعية العامة للأمم المتحدة، وفي عام ١٩٦٧ كان أميناً عاماً سياسياً في وزارة الخارجية، فأوفدته الحكومة ليمثلها في اجتماعات مجلس الأمن قبل العدوان الإسرائيلي وبعده.

وفي عام ١٩٧٤ استدعي من بروكسل حيث كان سفيراً لسورية لدى بلجيكا والسوق الأوروبية المشتركة ليعين مستشاراً سياسياً للرئيس حافظ الأسد وبقي في هذا المنصب لمدة سبع سنين، وبعدها نقل سفيراً الى الأمم المتحدة في جنيف لأسباب صحية.

وأود أن أتحدث بشكل خاص عن الخدمات الكبيرة من الناحيتين القومية والإنسانية التي قدمها الدكتور أديب الداودي لشعب فلسطين والقضية الفلسطينية خلال عشرات السنين، سواء عمله كمدير لمؤسسة اللاجئين أو على الصعيد

الدولي عبر مشاركته في اجتماعات الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن ولجنة حقوق الإنسان.

فعلى صعيد العمل الداخلي، تميزت فترة رئاسته لمؤسسة اللاجئين بإدارات وخدمات كثير يمكن الإشارة الى أهمها كما يلي:

١ ـ إصداره للعديد من النشرات باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية عن القضية الفلسطينية ومن أهمها نشرة أسبوعية تصدر لأول مرة في الوطن العربي، وتنشر فيها ترجمات لأهم المقالات التي تصدر في الصحف والمجلات الإسرائيلية، وتم ذلك في عام ١٩٥٣.

٢ ـ طبع مجلد باللغتين الإنكليزية والفرنسية ضم لأول مرة في عام ١٩٥٣ جميع القرارات التي صدرت عن مختلف هيئات وأجهزة الأمم المتحدة عن القضية الفلسطينية، وصدرت ملاحق بعد ذلك.

٣ ـ حصول الحكومة السورية بمساع منه من وكالة إغاثة اللاجئين الفلسطينيين على مخصصات وافرة رصدت لتعلّم أبناء اللاجئين في سوريا. أدت الى توسع كبير في فتح المدارس ونشر التعليم على نطاق واسع، وعلى أثر ذلك حصلت حكومات الأردن ومصر ولبنان على مساعدات مماثلة مما شكل ثورة تعليمية شاملة في أوساط اللاجئين الفلسطينيين.

٤ ـ اقتراحه على الحكومة السورية، إخلاء أكثر من مئة مسجد كانت تغص باللاجئين الفلسطينيين في عام ١٩٥٥، وقيامه ببناء مخيم اليرموك في ضاحية دمشق الجنوبية الذي أصبح مدينة مزدهرة تعج بالحياة. وقد صمم على تنفيذ هذا المشروع رغم معارضة شرسة من بعض الأوساط الفلسطينية، ولكنه مضى في انجازه قبل أن يترك مؤسسة اللاجئين ويستلم عمله كقائم بأعمال سوريا في لندن. ويقدر عدد سكان مدينة اليرموك الآن بأكثر من ٤٠٠ ألف مواطن فلسطيني وسوري.

أما هشام فقد تزوج من سامية الأيوبي وفاروق من نهاد الداعوق، وأنا أعيش وحيدة في المنزل إياه الذي استأجرته عندما رجعت من فلسطين، أكتب الآن وأعرف أن دولاب الحياة قد دار على هذا النحو من دون سواه، لذا سأتابع

الحديث في هذا السياق، على أن أتناول نشاطي في الاتحاد لاحقاً. كأن جرحي بفقدان ابني مروان وزوجي أديب يضغطان عليَّ أن أخاطبهما، وأنا أراهما أمامي، يحولان بين رؤيتي لما يكشفه زجاج النافذة على الخارج من مشاهد بعيدة أو قريبة.

فاجعة مروان:

مروان أولاً، هكذا حدثت الأمور زمنياً، ثم إن فاجعته كانت المقدمة التي ستطيح بأبيه في الكويت، حيث كنا يومئذ، وأحمله وأعود به ممدداً في تابوت على متن الطائرة الآتية إلى بيروت.

مروان أولاً، هذا ما حدث، وسأعرف مروان جيداً، وأعرف الكثير عنه بعد رحيله. أما ما عرفته عنه، فسأرويه بعد أن أنتهي من سرد وقائع الفاجعة الأولى:

عندما علمت ابنتي أمل أن أخاها مروان الذي لم تره منذ ثلاث سنوات قد عاد الى بيروت، بعد إنهاء دراسته في الولايات المتحدة وهو معنا، حضرت من الهند حيث عيِّن زوجها الدكتور أديب الداودي سفيراً لسورية في نيودلهي لرؤيته، وهكذا أمضت معنا شهراً، شعرنا خلالها أننا نمر بما يشبه الحلم. إذ من الصعب الحديث عن متعة اجتماع عائلة الآن، وقد ذهب من ذهب، واستقر من استقر بعيداً. يستعيدني مروان إلى طفولته الآن، والتي لا أملك نفسي من سردها كما يلي:

ولد مروان في طولكرم بفلسطين أواخر العام ١٩٣٨ وترعرع على حب الأرض والوطن في وقت كان الشعب يقاوم بكل الوسائل المحتل البريطاني.

كان مروان منذ صغره نبيهاً وذكياً يستوعب الأمور بسرعة ويمحصها ويحللها ويتصرف وكأنه رجل ناضج يختبر الحياة ويحاول أن يتعلم من تجاربه، وكان مشاكساً إلى درجة مذهلة، مشاكساً لكل من حوله، كأنه كان يريد أن يشب في طفولته.

وحين بلغ السادسة من عمره، دخل مدرسة السان جورج في القدس أسوة بأخيه فاروق. وقد تجلى ذكاؤه منذ الأيام الأولى لوجوده على مقاعد الدراسة،

وكان يمتاز بكثرة الحركة والنشاط والحيوية. واستمر طالباً في المدرسة تلك حتى نهاية العام ١٩٤٧ أي حتى دخول جيش الإنقاذ إلى فلسطين، فتم نقله مع أخيه إلى مدرسة أخرى في رام الله.

ولما أعلن عن دخول الجيوش العربية إلى فلسطين وانسحاب جيش الإنقاذ منها العام ١٩٤٨، وخوفاً من الأوضاع الأمنية المتردية، قررنا إرسال الأولاد إلى بيروت ليبقوا باستضافة أهلي إلى حين يتم تسجيلهم في مدرسة الجامعة الأميركية للعام الدراسي المقبل التالي باعتبار أن العطلة الصيفية كانت على الأبواب.

وفي هذه الأثناء، وبعد أن اصطحبت أولادي إلى بيروت، وجدت أن شقيقتي وفيقة قد حضرت هي بدورها مع زوجها وأولادها من حيفا إلى منزل أهلي في بيروت، بحيث أصبح المنزل لا يستوعب الجميع. فقررنا البحث عن مكان آخر واستقر رأينا على أن نأخذ فاروق ومروان إلى منزل جدهم في إربد لفترة قصيرة إلى أن تستقر الأوضاع في فلسطين.

ولكن بعد ابتداء فصل الصيف وإعلان الهدنة الثانية، قطعنا الأمل من استتباب الأوضاع في فلسطين وأصبح الأولاد في فراغ معظم الوقت، فعدت إلى لبنان وسجلت الأولاد الثلاثة في مدرسة سوق الغرب في القسم الداخلي لفصل الصيف بينما تكون العطلة الصيفية في الجامعة الأميركية قد انتهت.

ولدى بدء العام الدراسي في مدرسة الجامعة الأميركية تحول الأولاد الثلاثة إليها. وعلى الرغم من أنهم كانوا جميعاً مجتهدين ومجدين في تحصيلهم العلمي، إلا أن مروان ظلّ أكثرهم حيوية ونشاطاً. فقد كان ينظم المظاهرات داخل الجامعة التي كان السيد ليفيت يدير الفرع الاستعدادي (الاي.سي.) فيها، كما كان يشارك في مختلف النشاطات الوطنية والعلمية والثقافية.

أذكر جيداً أنه لم تمض فترة زمنية على التحاقه، حتى أقامت مدرسة الجامعة الأميركية ـ القسم الاستعدادي معرضها السنوي، فوجهت دعوة لي ولزوجي إلى زيارة المعرض والاطلاع على المعروضات. وفي أثناء تجوالنا في المعرض، حضر أحد الأساتذة وطلب منا التوجه إلى ناحية أخرى ليطلعنا على

المجسم الذي أعده مروان. فذهبنا برفقته، وكم كانت دهشتنا عظيمة حين رأينا المجسم الذي أعده وكان عبارة عن رأس لستالين وأنا متأكدة أنه فعل ذلك نكاية بالأميركيين، وليس حباً لستالين.

وعند إعلان النتائج، نال مروان الجائزة الثانية، فكان لا بد له من الاعتراض على التصنيف الذي ناله على عمله، ولا سيما أن اللجنة كانت في البداية ترشحه للمرتبة الأولى، فعلّق على ذلك بأنه لو كان ستالين أميركياً وصنع له المجسم لكان نال حتماً الجائزة الأولى.

وكان من عادة مروان أن يناقش أساتذته في مختلف المواضيع ويبدي وجهة نظره ويستفسر عن الأمور الغامضة أو غير المفهومة. وفي هذا المجال، كان يجادل أستاذ اللغة الإنكليزية الأميركي في أكثر الأحيان حول السياسة الأميركية تجاه القضية الفلسطينية، وفي إحدى المرات طرد مروان من المدرسة لمدة ثلاثة أيام عقوبة له بسبب خلاف في الرأي بينه وبين أستاذه المذكور. لكن المظاهرات ضد أميركا تأييداً للقضية الفلسطينية والتي كان مروان يقود بعضها في إحدى المناسبات كانت السبب الرئيسي وراء طرده. وبما أنه كان يأتمنني على أسراره فقد أخبرني بذلك وطلب مني أن لا أبوح بسره إلى والده.

وتشاء الصدف أن تتلازم فترة طرده مع فترة إجراء الامتحانات في المدرسة. ولما كان العدد الأكبر من الأساتذة يحبونه ويغارون على مصلحته ويدعمون تحركه، فقد تعمدوا تأجيل الامتحانات إلى ما بعد فترة الطرد لكي يتسنى له المشاركة في الامتحانات مع رفاقه ولا سيما أنه كان من المجلين في صفه.

ولما أنهى مروان صف (الفرشمن) وكان متفوقاً في الدرجات التي حصل عليها، طلب منه والده دراسة الطب في الجامعة الأميركية نفسها، فلم يأبه لطلب والده لأنه لم يكن مقتنعاً بذلك بل حاوره في الموضوع وأعلمه أنه يريد دراسة الهندسة فاقتنع الوالد أخيراً ووافق على رغبته. فالتحق مروان بجامعة (لفربارا) في إنكلترا وهي من أشهر الجامعات لدراسة الهندسة في العالم وقد فضل إنكلترا عن غيرها لوجود أخته أمل هناك.

وكانت ابنتي أمل، في هذا الوقت، التي تزوجت من الدكتور أديب الداودي قد انتقلت وإياه إلى لندن حيث شغل منصب القائم بأعمال السفارة السورية هناك.

وتابع مروان تخصصه في الهندسة في إنكلترا وكان من الطلاب المتفوقين وحصل على درجة الامتياز ولم يقتصر نشاطه هناك على التحصيل العلمي، بل تعداه إلى النشاطات الاجتماعية الأخرى التي كان ينظمها من وقت إلى آخر، ومنها الدعوة إلى محاضرة عن قضية فلسطين ألقتها الدكتورة «أديث سمرسكيل» من حزب العمال والوزيرة في الحكومة البريطانية آنذاك، وهي صديقتي شخصياً. وكان مروان يتردد أيام العطل والأعياد على بيت أخته وزوجها في لندن.

ولن أنسى فرحي بلقائه خلال الاستقبال الحار الذي أعده لي بالاشتراك مع صهري الدكتور أديب الداودي في مطار لندن عام ١٩٥٦، وكنت آتية من القاهرة حيث حضرت اجتماع مكتب الاتحاد النسائي العربي العام عن طريق روما.

وبعد سنوات من الدراسة في إنكلترا، عاد مروان من جامعة (لفربارا) في منتصف عام ١٩٥٨ حاملاً معه شهادة في الهندسة المدنية بتفوق ملحوظ. والجدير بالذكر أن تلك الجامعة تكرّم الطلبة المتفوقين برفع علم بلادهم إلى جانب علم الجامعة عندما تسلّم الشهادات إلى مستحقيها تقديراً لهم، وهذا ما علمته من السيدة فاطمة الخالدي سلام التي كان ابنها هاني يتلقى علومه في الجامعة ذاتها. وقد أخبرتني فاطمة بأن العلم اللبناني رفع إلى جانب علم الجامعة لما تسلم مروان شهادته تقديراً له. وهذا ما لم يخبرني به مروان، ومن سخرية الأقدار أني علمت به بعد رحيله.

كان الوضع مضطرباً في لبنان لما عاد مروان من إنكلترا إذ كانت الثورة تجتاح البلاد. فما كان منه إلا أن اتصل بالرئيس صائب سلام لاستشارته والبحث في موضوع العمل الوطني ووضع الوطنيين في بيروت، مقدماً خدماته ضمن إمكاناته للمساعدة في أي عمل يمكن أن يقوم به. ولما وجد أن لا فائدة له من البقاء في لبنان، عقد اتفاقاً مع شركة (الكات) بشخص صاحبها إميل البستاني

للعمل مع الشركة في الباكستان لفترة سنة واحدة من أجل اكتساب الخبرة الضرورية للانطلاق في المجالات التي تتطلبها مهنة الهندسة المدنية والتعرف على خفاياها كسائر المهن الأخرى، وهذا ما تطلبه الجامعات من المتخرجين الجدد في شتى الحقول والاختصاصات.

ولقد اختارها مروان لأن الدكتور الداودي كان قد انتقل إليها مع زوجته أمل لاستلام عمله في سفارة الجمهورية العربية المتحدة بكراتشي بدلاً من إنكلترا. التي قطعت سورية علاقتها الدبلوماسية معها بعد عدوان السويس فكانت هذه المرة الثانية التي يلتحق فيها مروان بالبلد الذي تكون فيه أمل. ولعل المفاجأة الأعظم عندما أتت زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للباكستان في ظل وحدة مصر وسوريا في ذلك الوقت. فما كان من مروان إلا أن طلب من صهره بوصفه دبلوماسياً في الباكستان يمثل الجمهورية العربية المتحدة هناك، الانضمام إلى الوفد الذي تشكل من المواطنين العرب في كراتشي لاستقبال الرئيس جمال عبد الناصر وذلك لما يكنه للرئيس عبد الناصر من حب واحترام وإعجاب بشخصيته.

فنزل الدكتور أديب الداودي عند رغبة مروان، إذ مهد له أن يكون في عداد الوفد العربي الذي استقبل الرئيس ودعي لجميع الحفلات طوال الفترة التي قضاها في الباكستان وأخذت له صور واقفاً خلف الرئيس عبد الناصر وهو ما كان يعتز به إلى أبعد الحدود. وكان مروان مسروراً جداً لتحقيق حلمه الكبير.

مكث مروان قرابة عام واحد في الباكستان إلى أن انتهت فترة تدرّبه، فعاد إلى بيروت ومن ثم سافر إلى جامعة كورنيل في الولايات المتحدة الأميركية لمتابعة تخصصه ونيل شهادة الماجستير في الهندسة المدنية.

وفي الولايات المتحدة الأميركية، زاول مروان نشاطات عدة، راوحت بين النشاطات الطلابية والنشاطات السياسية عن طريق إقامة الندوات وعقد المؤتمرات الداعمة لقضية فلسطين، وقد ترأس تحرير مجلة الطلبة العرب لبعض الوقت، ثم انتخب نائباً لرئيس الطلبة العرب في أميركا. وكان طوال مدة إقامته من أنشط الطلبة العرب، إذ كان على اتصال دائم مع الدكتور فايز صايغ والدكتور عزت

طنوس وجميع الشخصيات الفلسطينية النشطة التي تعمل للقضية في الولايات المتحدة.

ومن أهم الذكريات التي حدثت لي مع مروان كانت في الفترة التي توجهت فيها إلى سان فرانسيسكو عام ١٩٦٢ لحضور المؤتمر النسائي الدولي.

كنت قد أعددت قبل سفري إلى مؤتمر سان فرانسيسكو خمسة بحوث حملتها معي من أجل عرضها على الوفود. وكم كانت دهشتي عظيمة أن أجد مروان في استقبالي بعد أن علم بحضوري من مكتب الطلبة في نيويورك بينما كان في طريقه إلى كندا لترؤس مؤتمر للطلبة العرب هناك. وبعد أن توجهنا إلى فندق (ولدورف استوريا)، أرسل خبراً إلى زميله زياد الحسامي الذي كان يتابع دراسته في الولايات المتحدة للتوجه بدلاً منه إلى كندا وترؤس المؤتمر.

وبعد أن ألغى مروان رحلته إلى كندا، أمضى معي في الفندق فترة أسبوع، كان يطلع خلالها على البحوث التي حملتها معي ويراجعها، فيعيد صياغة بعضها أو أجزاء منها وينقح البعض الآخر من أجل أن تكون مستساغة وقريبة من الفكر الأميركي. وقد قام بطباعتها بعد ذلك في مكتب الجامعة العربية هناك وعمل منها نسخاً عدة لتوزيعها على أعضاء مؤتمر /اسيلومار/ في سان فرانسيسكو.

وفي أثناء إقامتي في نيويورك وجهت لنا دعوات عدة، منها دعوة السفير اللبناني جورج حكيم وعقيلته، ودعوة السفير السوري السيد صلاح الطرزي، فضلاً عن دعوة تلقيتها من مكتب الطلبة العرب وقد طلب مني مروان قبل التوجه لتلبيتها عدم البوح أمام زملائه أنه عائد إلى بيروت حتى لا يفاجئهم بقراره لأنهم كانوا ينوون ترشيحه للرئاسة وهو مصمم على ترشيح صديقه نقولا الفرزلي بدلاً منه، وأراد أن يبقى مشروعه هذا طي الكتمان حتى الموعد المحدد للانتخابات.

ولدى قيامي بتلبية دعوة الطلبة، تسنى لي الاطلاع على نشاطاتهم المختلفة والتي كانت تفوق نشاطات جميع السفارات العربية الموجودة في الولايات المتحدة. وقد التقيت هناك بأصدقاء مروان وزملائه كما اجتمعت مع أعضاء مكتب الجامعة العربية الذين أشادوا بشخصيته الفذة والقيادية وعمله الدائم للقضية الفلسطينية والعربية. فكانت مناسبة سعيدة ومميزة شكرتهم فيها على جهودهم

وأعمالهم وحفاوتهم بي.

وبعد أن أمضيت قرابة الأسبوع في نيويورك، توجهت إلى سان فرانسيسكو لحضور المؤتمر، وعاد مروان بدوره إلى جامعة كورنيل.

بعد انتهاء مؤتمر سان فرانسيسكو وعودتي إلى بيروت، وجهت لي ولزوجي دعوة من السفارة العراقية لحضور اليوم الوطني. وقد لبّينا الدعوة، وهناك التقينا بالسيد إميل البستاني الذي أخبرنا بأنه كان في نيويورك والتقى هناك بمروان وقد أشاد البستاني بذكائه وأثنى على جهوده، وكان مندهشاً من حديثه ووعيه السياسي ومناقشته الموضوعية للأمور حتى ليخاله المرء وكأنه أكبر من سنه الحقيقي. وقال البستاني بالحرف الواحد: «إن مروان لي وسيكون رفيقي دائماً». فأجبته بأننا لا نشك بشخصية مروان أبداً، هو الذي سيختار طريقه بنفسه. ويا لسخرية القدر أن يتحقق كلام إميل البستاني وأن يكون مروان رفيقه في الكارثة أيضاً ويبقى معه في قاع البحر إلى الأبد.

وما أن انتهى العام الدراسي ١٩٦٢ ونال مروان شهادة الماجستير في الهندسة المدنية بامتياز من جامعة كورنيل، وعزم على العودة إلى لبنان حتى أخذت العروض تنهال عليه من مصادر شتى، فعرضت عليه وظائف عدة ومراكز مرموقة ورواتب مغرية في الولايات المتحدة ومنها وظيفة في الجامعة نفسها التي تخرج منها. لكنه رفض جميع تلك العروض والإغراءات وفضّل العودة إلى لبنان معتبراً أن لوطنه حقاً عليه ويجب خدمته أولاً. وعاد مروان إلى بيروت باندفاع ونشاط لخدمة القضية الفلسطينية وتحقيق طموحاته ببناء مستقبل باهر لوطنه العربي، خصوصاً وأنه كان يؤمن بمبدأ الوحدة العربية، وينتمي إلى حزب البعث العربي الاشتراكي من دون أن نكون على علم بذلك.

ولدى وصول مروان إلى بيروت، هبّ حشد من العائلة والأصدقاء لاستقباله وكانت فرحة كبيرة عند الجميع، فشكرت المولى وحمدته على عودته لي سالماً. وقد اتصل به السيد إميل البستاني على الفور وطلب منه بإلحاح الاجتماع به لأنه يريده أن يعمل معه في شركته. فوعده مروان خيراً. وبعد أيام عدة قضاها في استقبال المهنئين من الأهل والأصدقاء ذهب لمقابلة البستاني وتعاقد معه على

العمل لديه في شركة الكات. وكان من عادة مروان أن يحضر إلى البيت بعد العمل ويجلس معنا ونتحدث سوية، ثم يخرج من البيت ولا يعود إلا متأخراً في الليل.

وبعد انقضاء فترة على وجوده في بيروت، حضرت ابنتي أمل وأمضت قرابة الشهر معنا على الرغم من انشغالها ووجوب التحاقها بمقر عمل زوجها الذي عين سفيراً لسورية في الهند والذي كان منهمكاً في تأسيس السفارة. وفضلاً عن ذلك كان على أمل أن ترعى ابنتيها الصغيرتين اللتين تركتهما مع المربية في الهند، كنت أشعر بأنها لا تريد فراق مروان أبداً وكأن شيئاً يدور في تفكيرها. ولكني لم أستطع أن أحدد ما كانت تشعر به أو تهدف إليه.

وفي إحدى المناسبات، ناداني مروان قائلاً: «أمي ابنتك صارت منجمة هندية تعرف بالكف، وقد أخبرتني أن خطوط كفي تظهر بأن عمري قصير جداً». وقد اقشعر بدني من ذلك الكلام وطلبت منه أن يكف عن الحديث بالموضوع لأنها خرافات يجب عدم تصديقها. وكنت ممتعضة جداً من هذه الحادثة التي كهربتني وهزّت كياني، الأمر الذي جعلهم يهدئون من روعي ويخففون من انزعاجي بالضحك وإطلاق العبارات الساخرة: «ما لك انزعجت هكذا، فهذا كله كلام بكلام».

وبعد انقضاء يومين على هذا الحديث، تشاء الصدف أن أسمع أمل ومروان على شرفة المنزل يتحدثان، فأخبرها بأنه بينما كان عائداً من أحد المؤتمرات من كندا حصلت معه حادثة اصطدام خطيرة بالسيارة غاب عن الوعي على أثرها، ولم ينقذه سوى أحد القساوسة الذي كان يمر بالصدفة في ذلك المكان الخالي من الناس، فنقله إلى منزله وطلب له سيارة الإسعاف لنقله إلى المستشفى بسبب حالته الخطرة، وهذا ما لم يخبرنا به في حينه.

فلما سمعت هذا الخبر بالصدفة، صعقت وتوجهت إلى مروان وقلت له: «هل هذا صحيح، ولماذا لم تخبرنا؟» فأجاب: «أردت أن لا أزعجك أنت ووالدي»، ونظر إلي نظرة لن أنساها طوال حياتي، وقال: «يا أمي سأطلب منك طلباً واحداً فقط، أرجو أن تعديني بأنك ستنفذينه لي». قلت له: «ما هو يا ولدي؟»

قال: «بالله عليك، لو متّ أنا، وكلنا ميت، أطلب منك أن تبقي في عملك وتخدمي القضية المقدسة التي نذرت نفسك وصرفت عمرك في خدمتها». فصرخت بأعلى صوتي: «ماذا بك يا ولدي؟ وماذا تقول؟ بالله عليك، أطلب لأمك أن تكون هي الأولى التي ستترك هذه الدنيا وترتاح!!».

وتركت أمل ومروان وأنا في حالة من التوتر التي لا توصف، وما زلت إلى الآن أردد في نفسي: «يا إلهي، هل كان كل هذا صحيحاً أو حقيقياً؟» لا أعرف، لأنني أسمع صوت مروان يرن في أذني، وعباراته ما زالت تتردد داخلي.

أذكر أنه علم يوم عيد الفطر أن خمسة من الأولاد الموجودين في بيت إسعاد الطفولة الذي أسسناه في الاتحاد النسائي الفلسطيني لأبناء الشهداء والأيتام الفلسطينيين في سوق الغرب، كما سيأتي بيان ذلك، لا يستطيعون قضاء عطلة العيد خارج المركز لأنه ليس لديهم أهل يصطحبونهم معهم إلى منازلهم، فما كان منه إلا أن توجه إلى هناك واصطحب الأولاد الخمسة معه لقضاء فترة العيد وتناول طعام الغداء معنا. وبعد الظهر، أخذ مروان الأولاد في نزهة بالسيارة واشترى لهم الألعاب وأدوات التسلية ورجع بهم إلى بيت الطفولة. كم كان ذلك اليوم عظيماً فقد كنا جميعاً مسرورين بما فعله.

عادت أمل إلى نيودلهي في الهند للإلتحاق بزوجها وثابر مروان على مزاولة عمله في شركة الكات. وفي يوم من الأيام، طرح مروان على والده فكرة إنشاء مكتب للهندسة لكي يستطيع العمل مستقلاً وبنشاط أكبر، فسّر والده بذلك سروراً عظيماً.

وتمضي الأيام، ويعود مروان إلى البيت وقت الغداء بحالة عصبية ومزاج معكّر، فيسأله والده عن سبب تكدره، فيخبره بأنه قدّم استقالته من العمل، إلا أن إميل البستاني رفضها وقد تباحث بالموضوع معه، وأعلمه بأنه سينشىء مكتباً مستقلاً للهندسة من أجل بناء مستقبله بيديه والاعتماد على نفسه، وأن الأخير قال له بأنه يثق به كل الثقة وهو أكيد بأنه سيلقى النجاح الباهر وأن شركته ستكون أهم من شركة (الكات)، ولكنه طلب منه البقاء في العمل حتى انتهاء العام ليتسنى له تحقيق مشروع هام يعتزم تنفيذه في الأردن لأن عدة مهندسين ذهبوا

إلى هناك ولم يستطيعوا الحصول على الموافقة من السلطات الأردنية بمباشرة العمل. وكان يأمل ويثق بأن مروان سيحقق المشروع ويباشر العمل به لأنه الوحيد المهيأ لذلك لما لوالده من علاقات وصداقات مع الشخصيات الأردنية. وقد أوعز البستاني لرئيس المهندسين السيد حلبي باعطاء مروان راتباً مفتوحاً لإغرائه كي يستمر في العمل ويشرف على المشروع، ولكن مروان رفض ذلك. فما كان من البستاني إلا أن طلب منه إنجاز العمل المكلف به في الأردن كي يستطيع البت باستقالته بعد ذلك. هذا كان كلام مروان وقد أكدته لي سكرتيرة البستاني بعد ذلك.

كان من عادة مروان، كما ذكرت سابقاً العودة مساءً من العمل والجلوس معنا بعض الوقت، ثم يخرج من المنزل ولا يعود إليه إلا متأخراً جداً. لم تساورنا أية شكوك حول غيابه الطويل عن المنزل، إذ كنا نعلم أنه يذهب للسهر واللهو ولقاء أصدقائه مثل زهير العلمي وخالد اليشرطي وعلي الخليل.

ويوم ٨ شباط ١٩٦٣ صباحاً جاءت الخادمة إلى غرفتي وأخبرتني أن مروان لم يذهب إلى عمله كعادته، وأنه لم يزل نائماً في السرير. فاضطربت لهذا الأمر وأخذت أفكر ماذا عساه ألمّ به. واعتقدت أنه ربما يكون مريضاً أو متوعكاً أو تعباً بسبب سهره وعدم أخذه قسطاً وافراً من الراحة. فتوجهت فوراً إلى غرفته وفتحت الباب وإذا بي أراه يستمع إلى الإذاعة، وكانت إذاعة العراق، تبث البيانات المتتالية. فبادرني على الفور بالقول: «لقد نجح الحزب في الانقلاب واستلم الحكم في العراق، وهذه البيانات تبشر بذلك». ونهض من السرير على الفور وارتدى ملابسه بسرعة فائقة وخرج من المنزل وقد علمت بعد ذلك أنه توجه إلى مقر ميشال عفلق وصلاح البيطار، إذ لم يعد إلينا إلا ما بعد منتصف الليل. ومنذ ذلك الحين علمت أن مروان كان على علاقة بحزب البعث وأن تأخره في العودة إلى المنزل ليلاً يعود إلى انشغاله بالأمور السياسية مع أصدقائه والاجتماعات التي كانوا يعقدونها للتباحث في الشؤون العامة، وليس لمجرد السهر واللهو وقد علمت بعد ذلك أن مروان كان المسؤول عن الشؤون الفلسطينية في الحزب أيضاً.

بعد أسبوعين من الإنقلاب في العراق أخبرنا مروان بأنه وافق على السفر إلى الأردن للعمل في مشروع اليرموك بناءً على طلب البستاني. فرضخنا أنا ووالده للأمر ووافقنا على سفره إلى الأردن.

ويوم الثامن من آذار لم يذهب مروان إلى عمله كالمعتاد بل كان يحمل الراديو ويستمع إلى الأخبار، وإذا به يصرخ: «لقد نجحنا، حدث الإنقلاب في سوريا ونجح الإخوان». وقد سمعنا البيانات المتتالية تذاع من الراديو. فما كان منه إلا أن ارتدى ملابسه بسرعة وتوجه إلى مقر الحزب للقاء رفاقه.

وانقضى قرابة الأسبوع ومروان في عمل دائب ومتواصل مع أصدقائه إلى أن قرروا بعد فترة تأليف وفد والذهاب إلى دمشق للتهنئة. لكن مروان وعدهم بأنه سيلتقي بهم في دمشق بعد عودته من الأردن لارتباطه بالعمل الذي كلفه به البستاني.

ويوم ١٣ آذار حجزت سكرتيرة شركة (كات) لمروان تذكره سفر لعمان ليوم ١٥ آذار. وقبل سفره بيوم واحد، وفي أثناء تناوله القهوة معي ومع والده، أخبرنا بأن إميل البستاني طلب منه السفر معه بطائرته الخاصة إلى عمان في اليوم التالي صباحاً لأن الأخير ذاهب إلى عمان لحضور اجتماعات مجلس إدارة البنك العربي ويمكنه اصطحابه معه بطائرته الخاصة. إلا أن والده نبّهه إلى مخاطر السفر بطائرة صغيرة الحجم كالتي كان يملكها البستاني وطلب منه التخلي عن هذه الفكرة والانتظار حتى موعد إقلاع طائرة طيران الشرق الأوسط طالما أنه يحمل تذكرة سفر على متنها، وهو يخشى الطائرات الصغيرة الحجم عموماً مهما كانت حديثة العهد. وكان رد مروان بأن طائرة إميل البستاني تشبه طائرة جون كنيدي رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأميركية. ولم يقتنع الوالد بهذا الكلام بل قال لمروان بغضب بالغ وعصبية ظاهرة: «لا يا ولدي، لا أحبذ السفر قطعياً على مثل هذه الطائرة». فما كان من مروان إلا أن قال: «يا أبي، هل من المعقول أن أقول هذا القول لأميل البستاني وأنا مسافر معه على هذه الطائرة؟ أرجوك يا والدي أن تسمح لي بالسفر على طائرة البستاني وإلا لن أسافر إذا لم توافق على ذلك». فصمت الوالد برهة من الوقت، ثم قال لمروان: «الله معك يا ولدي ويحرسكم الله جميعاً».

وقد سافر على نفس الطائرة أيضاً الدكتور نمر طوقان.

الفـــاجعة:

بعد أن سمح زوجي أديب لمروان بالسفر مع إميل البستاني بطائرته الخاصة إلى الأردن، ذهب مروان للاجتماع بأصدقائه وودعهم ولم يعد إلا متأخراً، ولم يغمض لي جفن إلى أن حضر إلى المنزل. وفي الصباح الباكر من يوم ١٥ آذار ١٩٦٣ استيقظ وجاء إلي طالباً أن أخيط له زراً مقطوعاً من سترته. وبعد أن أنجزت له طلبه، ودعني وتوجه نحو غرفة والده، فوجده لا يزال نائماً، فنظر إليه نظرة طويلة كأنها نظرة وداع.

غادر مروان المنزل على عجل وتوجه نحو سيارة إميل البستاني التي كانت تنتظره قرب المنزل. أسرعت بدوري إلى الشرفة لألقي نظرة على مروان قبل مغادرته المكان، فوجدت سيارة سوداء كبيرة تقف عند المدخل، بدت لي وكأنها سيارة دفن الموتى. فانزعجت كثيراً من المنظر الذي شاهدته وعدت أدراجي إلى داخل المنزل وأنا أرتجف خوفاً وقلبي يضطرب من الفزع. فلما استيقظ زوجي أديب من نومه وجدني في حالة يرثى لها، فاستفسر مني عن سبب تكدري وانزعاجي وعما إذا كان أصابني مكروه، فأخبرته بما أنا عليه وبأني كنت قد حلمت في الليل حلماً شاهدت نفسي فيه وأنا أحمل صندوقاً من الحديد وألقيه في البحر. فأخذ يطيب خاطري وليزيل عني كآبتي وانزعاجي قال لي بأن الطائرة التي سيسافر على متنها مروان ستطير فوق اليابسة لأنها متوجهة إلى الأردن لا فوق البحر، ولا داعي لهذا الخوف والانزعاج، وقد أعطاني حبة مهدئة لكي أستطيع أن أتمالك نفسي وأستعيد قواي.

تناولت جريدة الصباح بعد توجّه زوجي إلى عمله وأخذت أقرأ فيها، فاستوقفني خبر مفاده أن نائب رئيس مجلس النواب السيد منير أبو فاضل الصديق والجار والمخلص لقضية فلسطين سيترأس جلسة مجلس النواب اللبناني في ذلك اليوم عوضاً عن الرئيس الأصيل صبري حمادة بسبب غياب الأخير. فطرأت لي فكرة في الحال بأن أتصل به مستفيدة من الظرف المؤاتي لكي أكلمه في موضوع المذكرة التي قدمتها إلى المجلس النيابي بخصوص تصاريح عمل للعمال

الفلسطينين لعله يساعدني فيها، ولا سيما أنه كان سيترأس جلسات المجلس النيابي. وأدرت قرص الهاتف طالبة المجلس النيابي، وكانت الساعة قد قاربت التاسعة صباحاً، فردّ عليّ عامل الهاتف، ولما سألني: «من المتكلم؟» أجبته: «وديعة خرطبيل، وسألته هل وصل منير بك أبو فاضل إلى المجلس؟» فقال: «نعم... نعم...» بسرعة وارتباك وسألني عن حاجتي به. فأجبته بأنني أريد أن أتحدث إليه. فما كان منه إلا أن حولني إلى المسؤول هناك، ولما سمع هذا إسمي، قال: «تكرمي... تكرمي.. سيدة خرطبيل.» وما هي إلا لحظات حتى كنت أتكلم مع السيد منير أبو فاضل الذي ردّ عليّ بصورة غير طبيعية وكأنه لم يكن يتوقع أن أتصل به وفوجىء بي وأنا أكلمه، فبادرني على الفور بالقول: «وديعة... ماذا تطلبين... ماذا تريدين... إطلبي... قولي...».

ولم أكن أدري شيئاً، فقلت له: «سبق لي أن قدمت مذكرة إلى مجلسكم الكريم راجية العمل على إصدار تشريعات خاصة تبيح للفلسطيني المقيم في لبنان العمل في مختلف المجالات المتوافرة، وأرجو منكم إدراج هذا المشروع على جدول الأعمال وإقراره من قبل مجلسكم، حتى لا أضطر أن أتوجه أنا وحشد كبير من السيدات إلى مجلس النواب للمطالبة بهذه الحقوق المشروعة». ولم أنه كلامي حتى قاطعني وقال لي: «لا يا وديعة، لا تتحركي من البيت... سأعمل كل شيء ممكن، وأنا سأمر عليك ظهراً». فشكرته على بادرته اللطيفة وعجبت من استجابته السريعة، ولم أكن أتوقع منه هذا الجواب.

وتمر فترة قصيرة من الوقت، وإذا بالخادمة تتوجه نحوي وتفيدني بأن إحدى الآنسات على الباب تطلب مقابلتي. فقمت من مكاني وذهبت تواً لأجد إبنة صديقتي أولمبي حداد زوجة الدكتور إميل خضر من القدس تقول لي بأن والدتها تنتظر في السيارة عند مدخل البناية، وقد طلبت منها أن تستعلم عني وما إذا كنت في البيت أو خارجه لتقوم بزيارتي. فقلت لها: «يا حبيبتي، قولي لأمك تتفضل... أهلاً وسهلاً».

وفي أثناء ذلك، وبانتظار السيدة أولمبي حداد خضر، دخلت إلى غرفتي لأرتدي ملابسي، وإذا بجرس الهاتف يرن، فتوجهت نحو الهاتف ورفعت

السماعة، وقلت: «الو». فرد عليّ شخص مجهول: «هل هنا بيت خرطبيل؟» فقلت: «نعم». فقال: «بيت مروان؟» «قلت: «نعم». قال: «أخبرك بأن مروان ومن معه في الطائرة وقعوا في البحر». لم أتمالك نفسي وقلت له: «ماذا؟ ماذا؟» لكنه لم يجب وأقفل الخط. فأخذت أركض كالمجنونة في البيت وأصرخ: «أولمبي... أولمبي»، وإذا بأولمبي تدخل من الباب وتشاهدني على هذه الحالة فترتعب وتلحق بي وتحاول أن تفهم مني ما أقوله لكن دون جدوى، فقد كنت أركض وأصرخ وهي تركض خلفي.

ولم أستطع أن أحدد ذلك الشخص الذي اتصل بي وأعلمني بذلك الخبر المشؤوم، ولكني تذكرت في الوقت نفسه جواب منير أبو فاضل لي في الصباح لما تحدثت معه على الهاتف، وعلمت فوراً إن في الأمر كارثة كبرى يحاولون إخفاءها عني، وإنه كان على علم بما حدث وقد فوجىء باتصالي به، فطلب مني البقاء في البيت حتى يحضر هو متوخياً مني الانتظار لكي يأتيني الخبر المشؤوم من غيره بطريقة ما.

لم تكن الكارثة مفجعة لي وحدي، بل كان المجلس النيابي اللبناني بأجمعه في هرج ومرج ذلك اليوم، ذلك أن إميل البستاني من أعضاء المجلس، وكان شخصية سياسية واقتصادية مرموقة وكان خبر سقوط طائرته في البحر ومعه مروان ونمر طوقان قد عمّ منذ الصباح وأخذت حشود الناس تتوافد إلى المجلس وكافة الإدارات مستطلعة ومعبرة عن شعورها تجاه هذه الكارثة الكبيرة.

ولم يكن أهلي وأقاربي بعيدين عن الخبر المأساوي الذي كانت البلاد قد تناقلته منذ ساعات، إذ سرعان ما دخل نفر منهم إلى بيتي وكنت في حالة من الهلع والهستيريا وشاهدوني أركض وأصرخ وخلفي السيدة أولمبي تحاول أن تهدىء من روعي، وبعضهم كان ينتظر في منزل جاري السيد سابا حكيم ليتأكد من صحة الخبر كي يدخل منزلي، وكان منهم من ذهب إلى المطار ليستفسر ما إذا كان مروان قد سافر على طائرة طيران الشرق الأوسط أو لا، ومنهم من ذهب إلى شاطىء البحر عله يطلع على عملية الإنقاذ، ومنهم من طاف على المستشفيات ليستطلع أخبار الجرحى والمصابين. ولما سمع الذين كانوا داخل

منزل جاري صوتي، ركضوا ودخلوا وأمسكوا بي وأجلسوني على الكرسي. وأخذ الناس يتوافدون إلى منزلي بالعشرات وأنا فاقدة الوعي من هول الصدمة وفظاعتها.

وفي هذا الجو المأساوي، رن جرس الهاتف، فأخذت السماعة علّني أقف على خبر يعيد إليّ وعيي، وإذا بالمسؤول في فندق الكارلتون يسألني، وكان من المؤكد أنه لم يسمع بخبر الكارثة، عما إذا كانت حفلة الاتحاد النسائي الفلسطيني ستقام في الثلاثين من الشهر. فأجبته: «نعم.. نعم..» لأنني كنت أعتقد بأن مروان سينجو من الكارثة لكونه سباحاً ماهراً وبمقدوره اجتياز المسافة إلى الشاطىء. وكنت أقول هذا القول لمن كان حولي وأطلب منهم الانتظار كي يروا مروان بأنفسهم ينجو ويدخل المنزل. وكانت عيناي مسمرتين بالباب وأنا في حالة من الذهول والشرود، بينما الجميع يبكي وينوح، حتى أن بعض الأقارب أخذ يتصرف بطريقة هيستيرية دون وعي أو إدراك.

لبثت في مكاني لا أتحرك، ورفضت أن أستبدل ملابسي أو أتقبل التعازي، وكنت أردد: «لا.. لا.. مروان سيأتي». ولكن مروان لم يأت... وما زلت حزينة مفجوعة، يعتصر قلبي الألم واللوعة والأسى. وقد شاركني حزني عدد كبير من الناس، إذ بقينا أربعين يوماً نتقبّل العزاء بانتظار انتشال ولدي مروان وإميل البستاني من البحر، لأن جثتي الطيار ونمر طوقان كانتا قد وجدتا على شاطىء البحر، ولكن كان انتظارنا دون جدوى.

توافد المعزّون على بيتنا، وجاءت وفود حاشدة من فلسطين والأردن وجميع الأراضي اللبنانية لتقديم التعازي، ولم تغب السفارات العربية والأجنبية عن المشاركة في هذا المصاب الأليم، هذا فضلاً عن مشاركة الملك حسين والرئيسين اللبناني والسوري، بإرسال مندوبين عنهم لتقديم التعزية.

وقد شارك في التعزية أيضاً مختلف الأحزاب والمنظمات والهيئات الشعبية إلى جانب أعضاء حزب البعث العربي الاشتراكي وعلى رأسهم السيدان ميشال عفلق وصلاح البيطار.

لقد كانت فاجعة مروّعة هزّت بيروت وسكانها الذين توافدوا من كل أنحاء المدينة للتعبير عن حزنهم العميق وأسفهم لما حصل، وما زال البعض منهم

حتى اليوم يتذكر الحادثة ويتكلم عليها في شتى المناسبات.

ولم تقتصر التعازي على الذين حضروا شخصياً إلى منزلنا للإعراب عن شعورهم بل انصبت علينا مئات البرقيات والرسائل من الداخل والخارج، بما في ذلك إنكلترا وأميركا وفلسطين والأردن وسوريا والسعودية والكويت، جميعها تؤاسينا بالمصاب الأليم. وكان مصدر هذه البرقيات والرسائل أصدقاء شخصيين لمروان وأصدقاء للعائلة أو ممن هزّتهم الفاجعة الأليمة.

وقد أقيمت التعازي في عدد من الأقطار العربية التي كان لمروان فيها أصدقاء ورفاق ومحبذون. كما أقيم مهرجان تأبيني له في ٢٥ نيسان في الولايات المتحدة بيادرة من منظمة الطلبة العرب هناك التي نعته وكرمته بعد الوفاة.

فإليك يا مروان، أيها الولد الحبيب، يا أيها الخلوق الجميل والمخلص والبار والوفي نوجه السؤال تلو السؤال، لماذا تركتنا لماذا غادرتنا فجأة لقد كنا نأمل أن نقضي العمر معاً. كنا في حاجة إلى كلمة قبل الفراق تبلسم جراحنا أو نتخذها شعاراً لنا.

فارقتنا إلى الأبد، لكنك ما زلت في ذاكرتنا نستلهم منك في كل لحظة معاني الوطنية والشرف والتضحية والوفاء. فقد أبيت أن تترك بلادك وتمتطي تيار الغربة والهجرة، نابذاً الإغراءات الكثيرة التي أحاطت بك من كل جانب، لأنك كنت تعلم علم اليقين أن الكفاح من أجل القضية التي نذرت نفسك لها والموت في سبيل نصرتها خير من حياة الذل والمهانة.

لقد تخليت عن تحقيق طموحاتك الشخصية وآثرت البقاء في البلاد قريباً من القضية لكي تقوم بواجباتك نحوها على أكمل وجه، ونزلت عند رغبة إميل البستاني لأنه كان يثق بك ويحترم مبادئك، وأردت أن تبادله الثقة بالوفاء والاحترام بالاحترام.

وكان لاستشهاد الحبيب مروان ردود فعل كبيرة في مختلف الأوساط ولا سيما في الأوساط الطلابية التي وقع عليها نبأ وفاته وقع الصاعقة، فلم تدخر وسعاً من أجل عقد الاجتماعات والندوات والحلقات إحياءً لذكراه وتخليداً

لمبادئه وأفكاره والقيم التي كان يؤمن بها. وقد قام أصدقاؤه ومحبوه بتحركات ونشاطات واسعة من أجل هذا الغرض، وكانت تصرفاتهم تظهر مدى تعلقهم وحبهم وتقديرهم له، إذ إنهم كانوا لا يتركون فرصة سانحة إلا ويعبرون عن مشاعرهم نحوه مهما كانت الصعوبات والعقبات.

ومن الأمثلة الكثيرة التي تشهد على تعلق هؤلاء الشباب، ما قاموا به في عمان بعد وفاته بفترة وجيزة، فبعد مشاركة سلفي الدكتور محمد خرطبيل العائلة أحزانها في بيروت وعودته إلى منزله هناك، طرق شابان في أحد الأيام منزله وطلبا منه مرافقتهما بالسيارة إلى مكان ما. فما كان منه إلا أن تردد بادىء الأمر، إلا أنه نزل عند طلبهما ورافقهما إلى المكان بعد أن علم الغاية من اصطحابه وبعدما ترجلوا من السيارة ساروا في أزقة ضيقة وهناك دخل وإياهما إلى قاعة مكتظة بجمهور غفير من الشباب ظهرت في صدرها لوحة كبيرة تحمل رسم مروان، وكانت مفاجأة كبيرة له وللحاضرين وأجهش الجميع بالبكاء. لقد كانوا يقيمون لمروان حفلة تأبينية بعيداً عن أنظار السلطة لانتمائهم إلى حزب البعث العربي الاشتراكي الممنوع، وهم لم يسبق لهم أن تعرفوا إلى مروان بل كانوا يعلمون الكثير عن مزاياه وأخلاقه ومبادئه.

ولما سألهم الدكتور محمد خرطبيل عن سبب إقامة هذا الاحتفال هناك، أفادوه أنهم كانوا يحضرون للقيام بعمليات ضد إسرائيل والانتفاضة من داخلها وليس من خارجها وذلك قبل وفاة مروان الذي كان سيخطط لهذا الأمر ولكن بوفاته توقف كل شيء وكانت الكارثة.

وفي لبنان، أقيم احتفال تأبيني لمروان في الذكرى الأربعين لوفاته في سينما أديسون شارك فيه جمهور غفير أيضاً من الشخصيات الرسمية والسياسية والهيئات الطلابية والشعبية، وتوالى الخطباء على الكلام وتعديد المناقب والصفات التي كان يتحلى بها الفقيد. وكان من بين الحضور الحاج أمين الحسيني وقياديو حزب البعث العربي الاشتراكي والهيئة العربية العليا وغيرهما من الهيئات والأحزاب والمنظمات. وقد ألقى ممثلوهم كلمات تأبينية أشادوا فيها بمروان واعتبروا فقده خسارة كبرى للجميع وللقضية.

أما كلمة الهيئة العربية العليا فكانت للأستاذ إميل الغوري الذي عرف في الفقيد رمزاً للنضال والتضحية والشجاعة. كما ألقيت كلمات باسم كل من الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني والعائلة. وكان عريف الاحتفال الدكتور علي الخليل.

كما عقدت الندوات والاجتماعات تخليداً لذكرى مروان وجرت مناقشة لآرائه وأفكاره وتوجهاته، وبقينا لفترة طويلة نتلقى سيلاً من البرقيات والرسائل تصلنا إلى بيروت من مختلف الأوساط الرسمية والشعبية والطلابية للتعزية والمؤاساة بهذا المصاب الأليم.

وعلى الصعيد الإعلامي، تابعت الصحف والمجلات تغطية وقائع الندوات والاجتماعات التي عقدت لتأبينه بعدما كانت قد نشرت تفاصيل الكارثة على صدر صفحاتها الأولى، كما نشرت الخطب والكلمات التي ألقيت بالمناسبة وأعطت نبذات عن حياة مروان الحافلة بالدراسة والأعمال والنشاطات على مختلف المستويات.

وأورد فيما يلي نماذج من الرسائل والبرقيات التي وجهت إلينا في المناسبة وبعض مقتطفات الصحف:

فقد جاء في برقية رئيس مجلس الوزراء السوري صلاح الدين البيطار التي وردتنا في السابع عشر من آذار: «علمت بملء الأسف نبأ الفاجعة التي أصابتكم في رفيقنا مروان الذي كان بين رفقائه حد أملنا في النضال من أجل تحقيق أهداف أمتنا وتحرير فلسطين الغالية».

وقالت برقية الأستاذ روحي الخطيب أمين «القدس»؛ الصادرة عن «القدس» في ١٦ آذار: «مصابكم مصاب الجليل الناهض من بلادنا المكلولة. عرفت مروان مجاهداً في طليعة الشباب العربي بأميركا. ففي ذمة الله وعزاء لآله وإخوانه الشباب ولأمته».

أما برقية السيدة عنبرة سلام الخالدي فقالت: «كنت أحسب أنني سأترك الفراش وأشاركك ألم الفاجعة الدامية بنفسي، ويظهر أن أسري سيطول. ولهذا أبادر وأبثك ما شعرت به معك من توجع وأسى وما ذرفت من دموع محرقة على

خسارة شملتنا جميعاً، وكانت صاعقة زلزلت منا القلوب وأذهلت العقول كان الله بعونك ومنحك والعائلة الكريمة القدرة على الصبر والعزاء».

وجاء في نعي منظمة الطلاب العرب في الولايات المتحدة لمروان: «كان مروان قائداً طلابياً وضع في خدمة أمته شباباً زاهراً وخلقاً متيناً ووعياً ناضجاً وعقيدة مرحة. والمنظمة إذ تنعيه إنما تنعي شاباً جعل من نضاله في حياته مفخرة لرفاقه وأبقى لهم بعد غيابه قدوة في المسؤولية والإخلاص والولاء حتى الموت لأماني أمته وأهداف شعبه».

والمعروف أن الحبيب مروان قد شغل مسؤولية نائب رئيس المنظمة لعامي ٦١ و ٦٢ وكان رئيساً لتحرير المجلة الصادرة عنها باللغتين العربية والإنكليزية. ومن خلال المسؤولية التي شغلها شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات لصالح القضية الفلسطينية وكتبت صحيفة «البعث» الدمشقية تعزّي بمروان تحت عنوان: الطليعة العربية تفقد زميلاً مناضلاً، تقول: «فجع الشباب العربي في جميع أنحاء الوطن بفقد الرفيق المناضل المهندس مروان خرطبيل في حادث الطائرة المؤلم، و«البعث» تعزي رفاقه ووالديه وقد كان العزاء الأكيد لهم بعد موته، أنه قدم عمره القصير الخصب في خدمة أمته وأهدافها وقضاياها الكبرى».

وكتبت صحيفة «الأنوار» بتاريخ ١٦ آذار ١٩٦٣ بقلم الياس الفرزلي ما يلي:

«مات مروان خرطبيل... قتله شوقه المتلهف إلى العطاء. لم ينم مروان ليلة مصرعه. لقد كان يتتبع الأخبار إذ اتصل بدار «الصياد» ليلاً ليسأل عن آخر الأخبار من دمشق، وطرق باب أحد أصدقائه في الصباح الباكر ليقول له بأنه ذاهب إلى الأردن وأنه سيلتقي به في دمشق. وفي الصباح مات مروان وغابت معه دنيا تضج بالآمال والأحلام والمطامح الكبيرة».

وتحت عنوان «بصقة على الدنيا» كتب إبراهيم سلامة في جريدة الحياة يقول:

«صديقان صرعهما القدر في نفس اليوم: مروان خرطبيل وعمر مكحل. لا على الأرض ولا في السماء، بين هذه وتلك اختفت وردتان إلى لا شيء في

عالم اللاشيء. لم أبك الصديقين ولم أمش في جنازتيهما، بل بألم الصديق وذكرى الرفيق ابصق على الحياة وأركلها بقدمي وأرميها في الوحل لأن أسخف من الموت الحياة وأسخف ما في الموت أنه خاتمة الحياة.

لم يمت عمر ومروان، بل مات الأمل في الحياة.. وماتت الحياة فينا من شدة الألم.

وقالت عمتي ابتهاج قدورة في إحياء ذكراه ما يلي:

لم يخطر لي أنني سأنوب عن ثكلى حطمت الفاجعة قلبها، وحول الحزن نعيم حياتها السعيدة إلى ظلام دامس تتخبط فيه تتلمس من أنجدته ليكون عوناً في تحقيق أمالها وبلوغ أهدافها، إلى خدمة قضية هي قبلة أنظار العرب، واستعادة الحق السليب الذي اغتصب ظلماً وعدواناً. فأجد نفسي تجاه هذه المهمة قد خارت قواي واستعصى عليَّ التعبير وخانني الكلام في موقفي هذا لأني أتحدث نيابة عن آل الفقيد الحبيب وأقدم لهذا الجمهور الكريم الشكر والامتنان والاعتراف بالجميل. فإن حاولت القيام ببعض الواجب نحو ما أظهرتموه نحوه ففضلكم أعظم وأوسع، وإن استعنت ببلاغة الكلام فعطفكم أبلغ وأرفع وأن استوحيت القريحة فشعوركم أرق وأدق وأكرم.. فعن من أنوب وإلى من أتقدم بالشكر العميق، وإنني أرى فيكم جميعاً أهلاً للفقيد الغالي وأصدقاء أوفياء وإخواناً. فإن غاب عنا وجهه فإنني أرى في كل وجه منكم مرواناً...

أما ماري كته فقالت في كلمة الاتحاد النسائي الفلسطيني:

فلسطين الباكية المتألمة.. كانت تتوسم فيك يداً سمحاء، تمسح دموعها وتضمد جراحها، ولكن سكينة الموت قد هبطت عليك فجأة فصرعتك غضاً رطباً وانتزعتك من بين ذراعي أمك، فتلاشت آمالها فيك.. فارتدت مفجوعة، ملتاعة، مكسورة الخاطر، مهيضة الجناح، تضيف إلى عبراتها عبرات.. تقرح أجفانها وتزيد إلى جراحها جراحاً جديدة بليغة تضني فؤادها ومهجتها...

وتخاطبني بالقول: وأنت يا وديعة أيتها الأم المفجوعة يا أفخر الأمهات، يا رئيستنا وزميلتنا الحبيبة، إن السهم الذي نفذ إلى قلبك الحنون قد أصابنا جميعاً وأطار صوابنا ولكن ما نعهده فيك من حكمة وتعقل وإيمان راسخ يجعلنا

نعتقد أنك تتحملين هذه المصيبة الأليمة بصبر وأناة وتستسلمين لمشيئة الله الذي لا راد لأحكامه وهو تعالى وحده يعطي قلبك المجروح البلسم الشافي.. ويهديك الصبر الجميل والإيمان به عندما يعز العزاء.

أما شركة المقاولات والتجارة «الكات» فقد بعثت إليَّ في ١١ شباط ٦٤ برسالة موقعة من فؤاد جميل الخازن قالت: فيها سيدتي العزيزة تحية واحتراماً وبعد فإننا نحيي فيك نعمة الصبر والشجاعة التي تحليت بها إزاء الخسارة الأليمة المزدوجة التي ألمت بك في الآونة الأخيرة، ونرجو لك تمام الصحة والسلوان. إن هذه الشركة تقديراً منها لما كان يتحلى به مروان من نادر الصفات وسامي الأخلاق قررت أن تزين إحدى قاعاتها برسم له، لذا نرجو أن تختاري صورة لنا وتبعثي بها لهذه الغاية وتفضلي قبول احترامنا.

أما كلمتي أنا في تأبينه فكانت التالية:

الموت نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد

أجل يا مروان لقد اختارك الموت جوهرة أغلى ما في الكون من جواهره وأثمن ما ينطوي عليه من كنوز ولآلىء.

لو كان دمعنا بحراً لنضب معينه. ولجفت ينابيعه. ولو كانت قلوبنا من الصخر الأصم لسحقتها تلك المصيبة الفادحة التي لو نزلت على الجبال لدكت رواسيها دكاً. فكأن الأقدار الغاشمة أبت إلا أن تتوالى النكبات الجامحة على فلسطين ولبنان لتفقدهما شباناً ورجالاً كانا يفتخران بهم على الدنيا.

أيها الراحل الغالي، لم يفقدك آل خرطبيل ومحبوك وذووك وحدهم بل فجع بك الشباب الطموح إلى العلى الساعي وراء جليل الأماني. وشريف المقاصد، كنت في روضته الغناء، وردة نضيرة، ما كادت تتفتح براعمها وتكتحل بنور الأمل، وتنتشر شذاها الفواح حتى انقضت عليها يد المنون الغادرة فقصفتها ومحقتها وأسالت دمع العين مدراراً. ورمتنا بسهام قتالة مزقت قلوبنا. وفطرت أكبادنا أسفاً ولوعة.

فقدتك الحرية. لأنك كنت من عشاقها وكوكباً ساطعاً في سمائها تبدد

ما يتلبد حولها من الظلمات الحالكة. وتنير طريق الذين حملوا لواءها منطلقين وأنت في طليعتهم حتى يعيدوها كريمة عالية الرأس عزيزة الجانب. خسرك الوطن المحبوب لأنه كان ينظر إليك نظرة إلى فارس مغوار من فرسانه البواسل تنزل إلى معترك الجهاد وأنت خريج أعظم جامعات العالم سلاحك العلم الزاخر. ورائدك النبوغ والعبقرية ودرعك العقل والذكاء كان يرجو أن يراك تجول في ميادين الكفاح وتخرج من حلباتها مع المجلين وترفع له مجداً تزلق عن جوانبه حتى العقبان والنسور.

خسرتك المحافل الأدبية في الشرق والغرب وكذلك الطلاب العرب في لجانهم وجامعاتهم في أنديتهم وحفلاتهم أفرادهم وجموعهم.

بكتك يا مروان فلسطين المكلومة فلسطين الدامية فلسطين المغلوبة على أمرها. فقد كنت إبناً باراً من أبنائها الميامين وحامياً من حماتها الأشاوس الذين تتقد في صدورهم، نار الحمية والغيرة وتضرم في قلوبهم جذوة المحبة والإخلاص. تسعى مع المجاهدين الأبطال لتحطيم قيود الظلم والطغيان التي كبلتها المطامع الهوجاء والمصالح الاستعمارية.

كانت ترى فيك سنداً قوياً. ورائداً دامغ الحجة. تدافع عن قضيتها المقدسة وتفحم خصومها في عقر دارهم بعقيدة لا تتزعزع وعزيمة لا تلين، فلسطين المظلومة كانت تجد فيك يا مروان جندياً، أميناً وفياً، يناضل مع المناضلين لأعادة حقها السليب. وحريتها المكبوتة وجمع شمل أبنائها المشردين تحت كل سماء.

رسائل ورسائل:

كما وردتني رسائل لا تحصى معزية بمروان وكلها تعبر عن المكانة التي كانت له في قلوب أصدقائه ومعارفه والشعور بالأسى والحزن لفراقه وخسارته.

ومن هذه الرسائل:

- رسالة من منذر إسماعيل الدروبي بتاريخ ١١ نيسان ١٩٦٣ عن جمعية الطلاب العرب في ماديسون، ولاية ويسكنسون في الولايات المتحدة.

ـ وبطاقة تعزية من الأميرة نجلا أبي اللمع معلوف جاء فيها:

«أي قلم يستطيع أن يعزيك ولكنها كلمة وجيزة تنم عن دمعة حرّى اضمها إلى دموعكم لتعرب عن أسفي العميق للخسارة التي ألمت بكم. فاقبليها من شريكتكم بهذا المصاب الفادح».

وكتبت السيدة نجلا معلوف في إحدى الصحف الصادرة في ديار الاغتراب:

«في الخامس عشر من شهر آذار اصطحب إميل البستاني مروان خرطبيل في طائرته الخاصة، فودع أمه ولم يدر في خلده أن قبلته لها ستكون الأخيرة. إنها مأساة أليمة اخترقت حنايا القلوب حتى التمزيق فيا لحلم الشباب كان قريباً فأمسى بعيداً، ويا لخيبة أمل كان يبسم لفجر ضاحك بات في قعر البحار دفيناً، ويا لثكلى ناحبة تنتظر عودة ولدها فلا عودة ولا بقاء».

ورسالة بتاريخ ١٩ آذار ١٩٦٣ من السيد نيفي كريستنسن عميد كلية الهندسة في جامعة كورنيل التي تخرج منها مروان.

ورسالة من السيدة دلال صوايا رئيسة خريجات كلية بيروت للبنات بتاريخ ١٩ آذار ١٩٦٣.

ورسالة من المحامي والسفير العراقي نجيب الصائغ بتاريخ ٢٦ آذار ١٩٦٣.

ورسالة من السيدة حواء إدريس ـ القاهرة بتاريخ ٢٧ نيسان ١٩٦٣.

ورسالة من الأميرة الكويتية سعاد عبد الله المبارك بتاريخ ٧ شباط ١٩٦٤.

ورسالة من السيد فؤاد الخازن من شركة المقاولات والتجارة بتاريخ ١١ شباط ١٩٦٤.

تأتيني رسائل أقرأ أسماء أصحابها فتزيد في حزني، وأساي كل ما في الكلمات من رقة لا تخفف عني وقع نكبتي، أنثر رسائل العزاء هنا وهناك، وعندما يغادر المعزون أفتحها وأبكي.

والآن وأنا أكتب هذه السطور أفتح رسائل قديمة وفجأة تقع في يدي

رسالة بخط يدي كنت قد أرسلتها إلى زوجي:

زوجي الحبيب أديب - ١٣ - ٧ - ١٩٦٣.

أكتب لك الآن من اسيلومار مقر المؤتمر - الذي لم أتحدث عنه بعد - الذي يبعد عن سان فرنسيسكو خمس ساعات في السيارة، المكان جميل جداً، لكنه بعيد ولا تجد فيه إلا سيدات المؤتمر وكلهن عجائز.

تمت تلبية طلب الجامعة العربية بتنفيذ قرار مؤتمرها في الرياض بإرسال وفود عربية. لقد أعطت الإسرائيلية بيانها عن الشرق الأدنى وقد جاوبتها منيرة أبو ريشة عن سوريا ومندوبتا مصر والعراق، وأنا عن فلسطين وكان جوابي ناجحاً جداً. كيف صحتك وفاروق وهشام، وصبحية هل تدير بالها على البيت والزريعة؟؟. إنتبه لها جيداً حتى تنظف دائماً المطبخ والتتخيتة والبيت وتسقي الزريعات وتطلعهم كل أسبوع إلى الفراندا ليوم واحد.

تركت مروان وهو في أحسن حال، ولكنه مشغول جداً، وبقي معي خمسة أيام وسافر، وقبل سفري كلمته في التليفون وسيكون في بيروت أول تشرين الأول، وله اسم عظيم في الوطنية وقدرة على الخطابة والتصرف الحقيقي، بالفعل إنه يرفع الرأس.

الآن لم يعد هناك مروان، إذ شاهدت حلماً أن صندوقاً من الحديد ألقيته في البحر، وغاب عن ناظري في نفس يوم حادثته. أكتب الآن وأنا أقلب رسائل لاحقة كنت قد بعثتها إلى زوجي. بعد وفاة مروان عندما ذهبت مع الوفد الفلسطيني لحضور اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة وهي مؤرخة في ٧ و ١٦ و ٢١ تشرين الثاني من عام ١٩٦٣.

والرسالة الأخيرة التي عثرت عليها مؤخراً مؤرخة في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٣ نيويورك وتحمل اسم فندق بلازا، نيويورك:

زوجي الحبيب: اكتب لك هذه الرسالة وأنا في غرفتي يوم الأحد صباحاً، وأتتبع أخبار التلفزيون، كل شيء في أميركا أجل لسبب مقتل كيندي، البلد كلها في حداد عام حتى بعد الدفن، وعليه لا يوجد أي اجتماع في هيئة

الأمم إلا بعد الدفن لذلك تأخر الاجتماع العام.

كل هذا الوقت وأنا أشعر بأن الحزن لي أنا، وقد شعرت بحالة يأس وتعاسة لا توصف، لقد تذكرت ولدي وحبيبي، وكم كنت أقول دائماً أنه مثل كنيدي وله مستقبل ماهر، والظاهر يا أديب هكذا أشخاص لا تعيش في هذه الدنيا. مكتوبك لي قطع قلبي وروحي، لأنني كنت بذات الإحساس هنا، أحسب وأقول أنه في هذا اليوم يصل الحبيب مروان إلى بيروت، أنت تفتكر أن وديعة قاعدة في نيويورك، لا والله، ولكن وديعة عائشة في نيويورك فقط على ذكريات ابنها مروان في الأماكن ومع أصدقائه، وليس لي حديث إلا هو، ويا له من حديث ويا له من رجل.

جاءني زياد البارحة من بنسلفانيا وأمضينا السهرة سوية. وقد أخبرني أن شخصية مروان في ذاكرة جميع الطلبة العرب وقد ترك نيويورك ولا أحد يعلم.. وكان جميع الطلبة يؤيدونه وقد تكدروا جداً لعدم بقائه السنة الماضية ليترأس الطلبة العرب، حتى أن المصريين الذين قابلوني كانوا يبكون، وخصوصاً عندما قدموا لي لوحة تذكارية باسم الطلبة العرب عن مروان رجل العام ١٩٦٣ كل الليل وأنا ماكثة قرب التلفزيون تأمل يا أديب أن يقتل كنيدي يوم الجمعة، أيضاً ذات النهار الذي حصل لنا فيه ما حصل من قهر وتعاسة تأمل؟؟؟...

أديب.. وداعاً:

أتحدث الآن عن العام ١٩٦٣، وقد عدت لتوي من الأمم المتحدة، وسيرد بيان ذلك لاحقاً، عندما أتناول المؤتمرات التي شهدتها في حياتي، وصلت إلى بيروت قادمة من لندن كما تشير إلى احتمال ذلك رسائلي. وأمضيت أربعة أيام لا أكثر. كنت خلالها في شواغل كثيرة. إذ علي إعداد العدة للسفر مع زوجي إلى الهند لزيارة ابنتي أمل، التي كان زوجها الدكتور أديب الداودي حينئذٍ سفيراً لسوريا في الهند واطلاع عضوات الجمعية على ما دار في نيويورك وسواها من المدن الأميركية، ولقاء وزير الخارجية اللبنانية فيليب تقلا ومباحثته ليس في ما أسفرت عنه الاجتماعات الدولية، بل وأيضاً في موضوع الكيان الفلسطيني المستقل ومقره، واحتمال أن تكون بيروت مقره، وبدا من حديثه أن لبنان

لا يمانع بذلك، إلا أنه نبه إلى احتمال معارضة مصر والأردن، فأخبرته أن أحمد الشقيري سيحضر إلى بيروت للقائه لهذه الغاية. كان هذا يوم ١٣ كانون الثاني، وفي المساء كنت وأديب في طائرة طيران الشرق الأوسط نتجه إلى بومباي، ومنها إلى نيودلهي حيث مقر عمل صهري زوج أمل. كان استقبالهما حافلاً لنا في المطار، كما حضر كثير من أصدقائهما لاستقبالنا، وشعرت أنهما يحاولان عبر هذا الاستقبال ومن خلال الرعاية التي يقدمانها لنا تعويضنا فقدان الحبيب مروان. في المنزل، تأثرت وأديب عندما وجدنا حفيدتنا رلى مجبرة بالجبس من جراء سقوطها قبل شهر عن الأرجوحة وأصابتها في رقبتها. إلا أن تحسن حالتها كان يومياً، وهو ما خفف عنا الصدمة.

مكثنا هناك مدة شهر تقريباً، لا أدعي أننا أمضيناها في بهجة أو فرح، كنا أديب وأنا نجهد في نسيان مروان، وكذلك أمل التي ارتبطت بشقيقها بعلاقة أقرب إلى الصداقة منها إلى الأخوة العادية. ولأننا كنا على هذا النحو قررنا العودة إلى بيروت، على أن نتوقف في الكويت لزيارة شقيقيّ زوجي الدكتور شفيق وأبو الخير وعائلتيهما وأصدقاءنا الكثر هناك من فلسطينيين ولبنانيين. وحين حطت الطائرة في الكويت ونزلنا هناك التقينا الجميع الذين نجتمع إليهم للمرة الأولى بعد فقدان مروان، وكان اللقاء حاراً ومريراً.

اليوم هو السابع من شباط، وهو اليوم التالي لوصولنا الكويت بالضبط، ونحن في منزل أخي زوجي الدكتور شفيق خرطبيل، كثير من الأصدقاء الفلسطينيين المقيمين في الكويت يأتون لزيارتنا وتمضية السهرة معنا. وبعد ذهابهم يدخل زوجي إلى غرفة النوم، وما هي إلا دقائق حتى أسمعه يصرخ: «وديعة أعطني دوائي من الشنطة». فأدركت في الحال أنه منزعج جداً وإلا لما طلب هذا الطلب، ولا سيما أنه توجه نحو الباب بعد ذلك محاولاً الحصول على الهواء. فناديت أخاه الدكتور شفيق الذي استدعى بدوره عدداً من الأطباء سريعاً.

قبل أن يصل الأطباء استمع إلى زوجي وهو ممدد على السرير يوصيني بالاعتناء بالأولاد وأن أتدبر شؤوني وأتكل على نفسي. وما إن وصل الأطباء حتى

كان قد فارق الحياة، فغبت عن الوعي عدة ساعات. وكان خبر وفاته صاعقاً على أصدقائه والأطباء معاً.

عدت مع زوجي للمرة الأخيرة إلى بيروت ولكنه كان داخل نعش، وقد أوصى أصدقاؤه على هذا النعش ليصنعوه له في الكويت لأنهم لا يستخدمون النعوش هناك للموتى، وكان في لقائنا حشد كبير من الأهل والأصدقاء وموظفي الأونروا على أرض المطار. وقد رافقنا الجميع إلى المنزل ومن ثم إلى المسجد حيث صُلي على الجثمان ورافقوه إلى مثواه الأخير.

وفي ١٩ آذار سنة ١٩٦٤ مضى على وفاة زوجي أربعون يوماً، مرت عليّ وأنا أعاني المرارة والألم والحزن فهو الذي كان ينسيني حزني على مروان، وبفقده لم يعد لي من يهدىء من روعي ويبلسم جراحي. فما أحلك تلك الأيام التي مررت بها وأسودها. لقد كنت أنتقل من حزن إلى حزن. فبافتقادي للحبيبين إفتقدت السعادة الحقيقية. فمروان كان شاباً يتفجر حيوية ونشاطاً ووطنية، وأبو مروان كان إنساناً يعمل لوطنه بصمت وهدوء. لقد كان طبيباً مخلصاً لعمله ومهنته طول حياته. لقد دعوه (الجندي المجهول). ولم يمض وقت حتى ولد طفل لابني فاروق أسميناه أديب تيمناً بجده وكان عزاءً للعائلة.

كانت متابعتي عملي في الاتحاد عاملاً في تخطي تلك المرحلة الكئيبة من حياتي. فالعمل الذي كنت أقوم به كم أوصاني إبني مروان قبل استشهاده على متابعته والسير فيه، وهو الذي كان يؤاسيني ويخفف من أحزاني.

ها أنذا أقف وحيدة الآن، يعتصرني الحزن، والأسى. ولكن رغم كل ذلك، بدا قدري أمامي وكأنه يضعني أمام التحدي، ولا أملك حياله سوى الاستجابة والنهوض ثانية.

ليس صحيحاً البتة توهم أن حياتي قد مرت من حزن إلى حزن، وقد عبرت أيامها مسربلة بسواد ثيابي وقلبي، أحياناً كثيرة كنت أفرح بعائلتي الباقية، إلا أن أي حدث وفاة عادي كان يفتح جراحي ويعيدني إلى فقيدي الغاليين اللذين كانا في داخلي وجزءاً غالياً من صميم حياتي، وأذكر أنه عندما توفيت

عمتي ابتهاج في السابع من تموز العام ١٩٦٧ عدت إلى مروان وأديب، إلى حزني الصافي، مع أني أعلم الآن أن للثلاثة مغزى تميز به كل منهم: حيوية مروان وصلابة أديب وثبات ابتهاج على خط قضية المرأة في لبنان والعالم العربي. الآن هذا ما حدث، وما عليَّ سوى التغلب على ما يعتريني من إعياء في نفسي. والقيام بمسؤولياتي لم تعد يدي بيد عمتي ابتهاج أو زوجي أديب أو ابني مروان في سبيل القضية، لم تعد يدي تلمس أياديهم مادياً، لكنها ما تزال إلى اللحظة تشعر بحرارة حضورهم، وما عليَّ سوى الاستمرار خدمة لقضيتي الأرض والمرأة.

لقد مرت بالتأكيد أحداث كثيرة وكبيرة على تلك العائلة التي حملتها من فلسطين إلى بيروت، وكان الكثير من هذه الأحداث من تلك التي تحياها أي عائلة على وجه الأرض، كنا نفرح في مناسبات الخطوبة والزواج والولادات، ونتألم لدى إصابتنا بأي طارىء كالذي يتعرض له أي إنسان، كان أولادي يكبرون، ويعيشون وينصرفون إلى مشاغلهم، فيما أصبح شغلي الشاغل ما آمنت به، وكان عليَّ أن أتأقلم مع رياح العواصف التي مرت عليَّ أولاً، ثم تلك التي كانت تهب على المنطقة وتهز أركانها، محاولة ضم جهدي إلى دم وعرق وكفاح الألوف من أبناء شعبي في استعادة الأرض، من أجل إيجاد حتى ولو مساحة لقبريّ أديب ومروان، ولي في كنفهماعلى أرض فلسطين.

الفصل الثالث

فلسطين والمرأة

لم تكن حياتي مفهرسة كما في هذا الكتاب، دوماً كانت الأمور متداخلة إلى هذا الحد أو ذاك، فالخاص الذي قدمته على امتداد الصفحات السابقة تداخل معه العام، فيما يتعلق بنشاطي النسائي والوطني فقط، بل في الدافع إليه، فأنا لبنانية بقدر فلسطينيتي تماماً، انتمائي إلى وطني الأول، لم يقلص من إنتمائي إلى بلادي الثانية، ليس لأنه كانت لي عائلة فلسطينية، بل لأن هذه البلاد كانت وما زالت في حاجة إلى كفاحي الذي بذلته من دون تلكؤ أو تقصير، يقيناً إن تكاثف العزائم، وتشابك الأيدي هو السبيل الوحيد لاستعادتها أرضاً عربية محررة.

لم يكن اندفاعي إلى العمل مثابة قرار إرادي من جانبي، إذ الحقيقة أنه كان في جوانب عديدة قراراً عائلياً، سواء تعلق الأمر بموضوع قضيتنا القومية ـ فلسطين، أو في سبيل قضية المرأة العربية، فلسطينية كانت أم لبنانية. وقد ذكرت نشأتي وتأثري بعمتي ابتهاج، وشقيقي أديب، وذهابي إلى فلسطين عروساً لبنانية، وكما في بيروت كذلك في طبريا وطولكرم، ونابلس وغزة وقبلهم القدس، كان إلى جانبي زوجي الدكتور أديب خرطبيل، كما كان أبنائي جميعاً خير معين لقيامي بدوري الذي آمنا به جميعاً.

أكتب الآن وقد افتقدت الحبيبين مروان وأديب، وبديهي أن أشعر في لحظات حزني مدى الانكسار الذي تسبب به رحيلهما المباغت. كان الحزن على الزوج يضاعفه الحزن على الابن، والحزن على الابن يضاعفه الحزن الثاني، ولم يعد الزوج إلى جانبي يخفف عني وقع المأساة وقسوتها، عندما أعدت إيراد ما جاء في بعض ما عثرت عليه من رسائلي، إنما كنت أؤشر إلى المكابرة التي مارسناها كعائلة ـ أديب وأنا ـ للوقوف في خندق القضية التي التزمناها،

وتطلبت الكثير من الجهد والأسفار والصراعات وفقدان حياة الاستقرار، والوصول إلى حافة التهديد بالتصفية. الآن لا أديب إلى جانبي ليخفف من حزني، ويحفزني إلى الاستمرار، مع ذلك أعرف أن رسالة الفقيدين، فقيدي لبنان وفلسطين في قلبي، لذا لا أستطيع الخنوع والانكسار، بالعكس تماماً، كان استمراري في الطريق الذي اخترته، مثابة أمانة في عنقي لا أستطيع التخلي عنها، مهما أثقلت الوقائع كاهلي.

قلت بداية إن حياتي لم تكن مفهرسة، كما هو عليه هذا الكتاب، كما لم تكن فصولاً، وعندما ذكرت وفاة الحبيبين مروان وأديب، اخترقت سنوات طويلة، كانا خلالها معي، أما لماذا فعلت ما فعلته، فلأني ما أزال مسكونة بخسارتيهما، وهنا أعود إلى بيروت بداية ثانية، لا لأتحدث عن عائلتي، وسواها من العائلات الفلسطينية التي استقرت في هذه المدينة المضيافة بعد الشتات، بل لأبدأ صفحة جديدة من العمل، وإنما على ضوء وقائع وما خلفته وراءها من كوارث طالت ألوف، بل مئات الألوف من أبناء فلسطين الذين فروا من بيوتهم تحت التهديد بالموت لا يحملون إلا القليل القليل. وصلوا إلى الشواطىء اللبنانية على متن السفن والزوارق، أو عبروا الحدود بين فلسطين ولبنان معتمدين وسائل النقل البدائية والحديثة، أو ساروا على أقدامهم ساعات وساعات هرباً من هول المجازر والرعب والإشاعات التي كانت تبث عن قصد من العدو الصهيوني فتفرغ القرى والمدن من أهلها.

إذن نزح الفلسطينيون بأعداد كبيرة إلى لبنان وسواه من البلاد العربية ، وكنت واحدة منهم، إلا أننا كنا نعتقد أن ترتيب أمورنا كان حلاً مؤقتاً، واشدد على كلمة مؤقتاً للاقتناع أننا راجعون لا محالة. وصل عشرات الألوف، ولم تكن لا الدولة اللبنانية ولا سواها من الدول العربية قادرة وحدها بأجهزتها على التعاطي مع الكارثة، وسرعان ما نهضت الهيئات والمؤسسات السياسية والخيرية والاجتماعية والنسائية للقيام بواجبها، وكانت عمتي ابتهاج على رأس الأخيرة تعمل على استقبال النازحين وتشرف على إيوائهم في المدارس والكنائس والمساجد.

كانت هذه هي الخطوة الأولى والأكثر إلحاحاً، ولم يترك لنا الضغط الذي كنا نعانيه من جراء قصور الإمكانيات وضغط الحاجة الإلتفات إلى سواها. وفي العام ١٩٤٩، إتصل بي رئيس الوزراء اللبناني السيد رياض الصلح طالباً إليَّ تمثيل المرأة الفلسطينية في المؤتمر النسائي العربي العام الذي سيقعد في بيروت والمخصص لبحث قضية فلسطين، وفي هذا المؤتمر كان من المقرر أن يتم تشكيل هيئة جديدة للمكتب العربي بعد وفاة الزعيمة هدى هانم شعراوي. وعدت الرئيس الصلح خيراً، وكان الأمر يتطلب إجرائي الاتصالات اللازمة بالمراجع الفلسطينية. بداية استشرت عمتي ابتهاج بما طلبه مني الرئيس الصلح، إذ إنني لا أحمل تفويضاً من هذه المراجع، ثم أكملت بالاتصال مع الهيئة العربية العليا فأفادني الأستاذ إميل الغوري بأن حكومة عموم فلسطين قد فوضتني بالحضور والتمثيل، إلا أن مشكلتي الجديدة هي كيفية العثور على النساء الفلسطينيات المساعدات بعد الشتات الكبير. وسرعان ما علمت أن السيدة ساذج نصار موجودة في منطقة سوق الغرب بلبنان، فاتصلت بها لتلك الغاية يشجعني أنها كانت قبل الهجرة سكرتيرة الاتحاد النسائي الفلسطيني العربي العام في حيفا.

الوفد اللبناني:

التأم المؤتمر النسائي العربي العام في العام ١٩٤٩ في بيروت بحضور الهيئات النسائية العربية المختلفة وقد ضمت وفودها، عن لبنان: أدليت الريشاني، نجلاء كفوري، زاهية دوغان، د.جمال حرفوش، اديل علم الدين، نجلاء صعب، زاهية سلمان، نبيهة أعور، حياة بيهم، إميلي نصر الله، منيرة شحادة، عليا السعيدي، ليلى بيهم، د.زاهية قدورة، إقبال الذوق، نازك سركيس، روز شحفة.

الوفد السوري:

عادلة الجزائري، اسما فارس الخوري، ماريا العظم، قمر شورى، ملك دياب، أمل الجزائري، فاطمة دياب، ثنية الأيوبي، رفيقة بخاري، زهرة العابد، فدوى خوّام، ماريا دياب، ريما العظمة، وداد القوتلي، عدوية الطباخ.

الوفد المصري:

سيزا نبراوي، حواء إدريس، مفيدة عبد الرحمٰن، نعمة توفيق خليل، بهيجة رشيد، جميلة عطية، إيفا حبيب المصري، أمينة السعيد، ماري كحيل، نعمتي حرم فؤاد باشا أباظة.

الوفد العراقي:

نظمية تحسين العسكري، سرية خوجة، مائدة حيدري، روز خوري، زهرية خالد الشربجي، سانحة أمين زكي.

الوفد الأردني:

إميلي بشارات، لولا أبو الهدى، حليمة أبو الهدى.

جرى افتتاح المؤتمر في الأنيسكو برعاية رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري، وبعد الافتتاح وإلقاء كلمات الوفود التي تتناول القضية الفلسطينية تم انتخاب المكتب الجديد للاتحاد النسائي العربي العام على النحو التالي:

الرئيسة: إبتهاج قدورة.

نائبة الرئيسة: السيدة الين ريحان.

أمينة السر: السيدة نازك سركيس.

أمينة الصندوق: السيدة منيرة شحادة.

وأثناء انعقاد المؤتمر أرسلنا مذكرات احتجاج إلى مؤتمر حقوق المرأة والاتحاد النسائي الدولي ولجنة التوفيق التي انبثقت عن هيئة الأمم المتحدة للنظر بقضية فلسطين. هذا فضلاً عن توجيهنا برقيات الاحتجاج إلى هيئة الأمم المتحدة والحكومة البريطانية مطالبين بعودة اللاجئين الفلسطينيين إلى وطنهم.

وقد ألقيتُ خلال المؤتمر كلمة وجهتها إلى الحكومات العربية باسم الشعب الفلسطيني أذكرها بالوعود المقطوعة لإعادة هذا الشعب إلى وطنه، وأناشدها العمل على محو وصمة العار عن جبين الأمة العربية.

وكانت المذكرات التي وجهت إلى الهيئات والجمعيات الدولية تتضمن المقررات التالية:

١ ـ حق الشعب الفلسطيني بالعودة إلى فلسطين.

٢ ـ حق تقرير المصير.

٣ ـ التنسيق مع الحكومات العربية من أجل نصرة القضية الفلسطينية.

٤ ـ إرسال برقيات إلى الحكومات العربية بخصوص الاعتراف والموافقة على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان والعمل به والذي يقر بحق الشعب الفلسطيني بالعودة إلى وطنه.

٥ ـ مقاومة أي محاولة لتوطين الفلسطينيين خارج فلسطين والطلب إلى الحكومات العربية أن تقيم لهم المساكن في المناطق المتاخمة لحدود بلادهم.

٦ ـ وجوب تعزيز القوى المسلحة على الحدود العربية الإسرائيلية.

٧ ـ تأييد الحكومات العربية في موقفها المعارض للصلح مع إسرائيل.

أما كلمتي التي ألقيتها ووجهتها إلى أعضاء مؤتمر لجنة حقوق المرأة والاتحاد النسائي الدولي ولجنة التوفيق، فقلت فيها: «أنا ابنة بيروت ومن عائلة معروفة، ولكنني لاجئة من فلسطين وأعيش حياة صعبة ولجأت إلى أهلي ليساعدوني. فكيف يكون حال هؤلاء الناس الذين لا مأوى لهم؟ لذلك يجب أن يعود الحق إلى أصحابه ويعود هؤلاء الفلسطينيون المشردون إلى وطنهم».

إنتهت الأعمال المقررة فبادرت مع أعضاء مؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام بالقيام بزيارات مختلفة إلى الشخصيات السياسية من أجل تقديم المذكرات لهم، فزرنا الشيخ بشارة الخوري رئيس الجمهورية اللبنانية ورئيس مجلس الوزراء رياض الصلح.

ولعلها كانت فرصة مناسبة انتهزناها، على أثر عقد مؤتمر لجنة حقوق المرأة ومؤتمر الاتحاد النسائي الدولي في اليونسكو في بيروت، إذ قدمنا مذكرات باسم الاتحاد النسائي العربي العام حول القضية الفلسطينية وعقدنا لقاءات مع

الأعضاء تم خلالها شرح الظروف التي تحيط بالقضية الفلسطينية.

الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني:

تشكل انطباع لدي في أعقاب المؤتمر النسائي العربي العام يلح على ضرورة وأهمية إثبات المرأة الفلسطينية لوجودها في لبنان وإبراز حضورها لخدمة قضاياها السياسية والاجتماعية. ودفعني هذا الشعور إلى البحث عن السيدات الفلسطينيات اللواتي كن أعضاء في الجمعيات النسائية في فلسطين، وطلبت منهن إعادة إحياء العمل النسائي وتشكيل هيئة نسائية فلسطينية تشرف على خدمة اللاجئين بالتعاون مع الهيئات واللجان المختلفة في لبنان.

حدث هذا مع بداية العام ١٩٥٠، وفي مطلع تلك السنة عقدت اجتماعاً في منزلي حضرته من السيدات مدام سلامة صاحبة الخبرة في العمل النسائي منذ كانت رئيسة جمعية القدس وكل من: جميلة قمبرجي، وبيرت معلوف، ورفيقة ميقاتي، وسنية حكيم، وأم عصام عاشور، وسلوى الأيوبي، وحرم السيد فارس سرحان، وعفاف أغابي، ونينا تماري، وجانيت حوا، وفريدة خورشيد، ماري دقاق، ووجدان بيدس، وسيدر أتيم، وسلمى الحسيني، وحفيظة المقدادي، ووداد صيدح.

شرحت للسيدات الغاية من عقد الاجتماع. وتناولت مؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام الذي عقد في الأونسكو ومثلت فيه المرأة الفلسطينية، والهدف من مشاركة المرأة خصوصاً الفلسطينية في الأعمال الوطنية والاجتماعية المنتجة لخدمة أبناء وطنها.

تألفت على الأثر لجنة من السيدات لمساعدة اللاجئين في المخيمات بالتنسيق مع الجمعيات الأخرى. وبذلك بدأنا نشاطنا فاتصلنا بالجمعيات النسائية والإنسانية في لبنان بدءاً بأصدقاء الشرق الأوسط والصليب الأحمر الدولي وغيرهما من مختلف الهيئات واللجان وطلبت منها القيام بحملة لزيارة المخيمات وتقديم المساعدات. ثم وجدت أنه من المناسب اشتراكي في جمعيات نسائية أخرى لخدمة قضية المرأة الفلسطينية واللبنانية والدفاع عن قضية اللاجئين

الفلسطينيين، فدخلت كعضو عامل في كل من: الميتم الإسلامي الذي كانت ترأسه ابتهاج قدورة، وجمعية الشابات المسلمات، ولجنة مساعدة مستشفى الجامعة الأميركية، وجمعية العناية بالطفل والأم، وجمعية رعاية الطفل اللبناني، وجمعية المؤاساة، وجمعية مكافحة البغاء، ولجنة الصحة، وخريجات كلية بيروت الجامعية، وبعد فترة قصيرة أصبحت من أعضاء الهيئة الإدارية لمعظم هذه المؤسسات.

وحدث أن اتصل بي في أوائل الخمسينيات الدكتور سليم إدريس من مكتب فلسطين الدائم عارضاً عليّ الانتساب إلى مؤسسته التي كان يتولى أمانتها بالاشتراك مع مجلس من العمدة يتألف من السادة: حسين العويني، وحسن البحصلي، والمحامي حبيب ربيز، والدكتور يوسف حتي، وكمال جبر، والدكتور إدمون رباط، وجورج بشارة، والدكتور جورج حنا، ومحمد شقير، والدكتور محمد خير النويري، وعماد الصلح، ومحمد شاكر بيضون.

وافقت على طلب الدكتور إدريس وأصبحت السيدة الوحيدة في اللجنة، وبعد فترة قصيرة اقترح الأعضاء أن نقوم بحملة تبرعات لصالح اللاجئين، خصوصاً لمساعدة مستشفى صور التابع للمكتب، وكانت قد قدمته الحكومة اللبنانية تبرعاً بغرض إسعاف الجرحى والمرضى، فدعا المكتب إلى اجتماع عام تحضره جميع الجمعيات النسائية والخيرية والحزبية في لبنان. وقد لبى الدعوة عدد كبير من الشخصيات العاملة في مختلف الميادين من جمعيات ومؤسسات خيرية وحزبية لبنانية، وفي الاجتماع قسمنا بيروت إلى مناطق لتوزيع النشاط الذي كنا سنقوم به، وطلب مني أحد الأعضاء الاتصال بالسيدة لور مغيزل رئيسة الفرع النسائي في حزب الكتائب في ذلك الوقت من أجل التنسيق والعمل معها. وهكذا كان، فاتصلت بالسيدة مغيزل لهذا الغرض فأبدت استعدادها للتعاون في بادىء الأمر. لكنها تراجعت بعد ذلك متذرعة بأن لديها محتاجين أيضاً وهي في حاجة ماسة إلى مساعدات خاصة بها. ولما اتصلت بها مستفسرة عن سبب تغيير موقفها رغم وعدها، اعتذرت وحاولت أن تقدم مبررات لإنسحابها من هذا العمل الإنساني.

وقد علمت فيما بعد أن موقف السيدة مغيزل كان بأمر من قيادة حزب الكتائب. وتابعنا العمل منفردين. وأعطت حملتنا نتائج إيجابية مشجعة وملموسة نظراً للتجاوب والحماسة والاندفاع من قبل الشعب اللبناني. وبقي مكتب فلسطين الدائم يقوم بواجبه الوطني منذ ذلك الحين وكان المستشفى في صور برئاسة الدكتور يوسف حتي إلى أن تسلمه رئيس جمعية الهلال الأحمر الفلسطيني سنة ١٩٨٠.

وقد وجدت في عام ١٩٥٢ أن عمل اللجنة النسائية الفلسطينية القائمة في ذلك الوقت كان غير كاف. وانطلاقاً من هذا الواقع، طرأت لي فكرة إعادة إحياء الاتحاد النسائي كعمل منظم، فاجتمعت بأعضاء الهيئة العربية العليا ورئيسها سماحة الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين بوصفها الهيئة الفلسطينية الوحيدة التي كانت تعمل في سبيل القضية الفلسطينية، وتباحثت معهم في أمر إعادة تشكيل فرع الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان. فكان الرد مشجعاً للغاية. كما اتصلت برئيس مكتب الهيئة العربية العليا في بيروت السيد إميل الغوري، فشجعني أيضاً بدوره على إعادة إحياء الاتحاد وقدم لنا مركز الهيئة العربية العليا مكاناً لعقد اجتماعاتنا التي كنت أعتزم دعوة المرأة الفلسطينية إليها. كما قدم لنا غرفة خاصة تحوي التجهيزات والتسهيلات اللازمة كافة كي نستخدمها كمكتب مؤقت تجري منه الاتصالات وتعدّ فيه البيانات والتقارير.

عممت بواسطة الإذاعة والصحف دعوة لكل إمرأة فلسطينية لحضور ذلك الاجتماع، فلبت الدعوة نساء عدة حضرن من مختلف المناطق، فافتتحت الاجتماع بكلمة شرحت الغاية من الدعوة وأهمية دور المرأة في المجالات كافة وخصوصاً المرأة الفلسطينية التي يجب أن تتحمل مسؤولية أكبر للقيام بدورها تجاه قضيتها وذلك عن طريق إعادة إحياء الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني. وقد جاء في كلمتي لهن ما يلي:

«من الطبيعي أن تكون مهمتنا في الظروف الحاضرة موجهة في الدرجة الأولى نحو القضية الفلسطينية وما يتفرع عنها من شؤون أهمها قضايا اللاجئين والعناية بأحوالهم الصحية والاجتماعية والثقافية. ويجب أن نغتنم كل فرصة

لتعريف الرأي العام العالمي بالقضية الفلسطينية. وأننا عازمون على توسيع مدى أعمالنا وتنويعها بحيث تشمل آفاقاً كثيرة لتحسن أحوال اللاجئين في شتى الحقول، ويدفعنا إلى ذلك ما نلمسه من تفهم المخلصين من اللبنانيين والفلسطينيين لغاياتنا وما نصبو إليه من تعميم المنفعة العامة. وذلك يشد عزائمنا ويوطد آمالنا في الوصول إلى الهدف الذي نسعى إليه، ونرجو من الله التوفيق».

انتخاب الأعضاء والهيئة الإدارية:

وفي الاجتماع جرى انتخاب الأعضاء والهيئة الإدارية ومختلف اللجان، على الوجه التالي:

الرئيسة ـ وديعة قدورة خرطبيل، نائبة الرئيسة ـ سلمى متري سلامة، أمينة السر ـ جميلة قمبرجي، أمينة الصندوق ـ نينا تماري، المحاسبة ـ أنيسة الغوري، كاتبة الوقائع ـ سلوى الأيوبي، كاتبة اللغة الأجنبية ـ وجدان إفرنجي.

أعضاء الإدارة:

فريدة خورشيد، وماري برتقش، وماري كته، وملك سمارة، وفوزية بيدس وماري دقاق.

المستشارات:

إبتهاج قدورة، وفاطمة سلام، ولمياء بيهم وجورجيت حتي.

أعضاء الهيئة العامة:

السيدة وديعة مسعد صايغ، السيدة سيدر ايتم، السيدة هيلين سابا برنيخ، السيدة حرم السيد يوسف أيوب، الآنسة فدوى الحاج، السيدة كلوديت طلاماس، السيدة سلمى الحسيني، السيدة أولغا عبود، السيدة تغريد أبو ضبة، الآنسة عليا دلول، السيدة عائدة بيضون، الآنسة عبلة دلول، السيدة ابتهاج أدهم، السيدة رفيقة ميقاتي، السيدة فوزية أحول، السيدة عفاف أغابي، عقيلة الدكتور ناجي بيضون، السيدة فائزة بوري، عقيلة السيد كامل القاضي، السيدة رينه توما، عقيلة السيد

جورج شهلا، السيدة فكتوريا بولس، السيدة صبا عاشور، السيدة وداد صيدح، حرم السيد فيليب صائغ، السيدة نجلا جورج قنازع، الآنسة فدوى خورشيد، السيدة زكية نجيب نجم، حرم الدكتور حنا عصفور، الآنسة نينا تماري، السيدة زلفا عاشور، حرم السيد كامل الدجاني، عقيلة السيد سلمان طنوس، عقيلة السيد برهان الدجاني، حرم السيد فارس سرحان، عقيلة السيد جان بيروتي، حرم السيد رفول عبود، الآنسة عفيفة الأحول، السيدة فكتوريا دوماني، السيدة أم بسام الأيوبي، السيدة حفيظة المقدادي، الآنسة كاترين مجدلاني، حرم حنا الصايغ، السيدة ميشا مجدلاني والسيدة أم هاني الدجاني.

الهيئة الاستشارية:

وقد تألفت الهيئة الاستشارية للاتحاد من كل من: الآنسة ابتهاج قدورة، والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي، والدكتور نسيب البربير، والقاضي وفيق الحسامي، والأستاذ سعيد فريحه، والدكتور إدمون نعيم، والأستاذ عبد الوهاب الرفاعي، والأستاذ بدر الفاهوم، والأستاذ عفيف الطيبي، والأستاذ حنا عصفور، والأستاذ صالح كاتبه. وفي نهاية الاجتماع وبعد أن تم تشكيل الهيئة الإدارية والهيئة العامة تليت بياناً عن الأعمال التي قمنا بها في اللجنة السابقة قبل عقد الاجتماع، وكان أبرزها:

١ ـ المساعدات الضرورية التي قدمناها للمعوزين والمحتاجين من اللاجئين الفلسطينيين العاطلين عن العمل.

٢ ـ المساعدات المعنوية والمادية التي قدمت للطلبة المعوزين لإتمام دراستهم معنوياً ومادياً.

٣ ـ قيام اللجنة بمساعدة العاجز أو من كان بحكم العاجز من الأرامل والأيتام اللاجئين الذين لا معيل لهم، ويعيشون على ما تجود به عليهم وكالة غوث اللاجئين من إعاشة شهرية للعائلة والتي لا تسد رمق شخص واحد.

٤ ـ قرار مكتب فلسطين الدائم القيام بحملة لجمع التبرعات وذلك من أجل مساعدة مستشفى صور العائد له والذي يساعد في علاج اللاجئين، وبما

أني عضو دائم فيه شجعت على ذلك بالتنسيق مع بقية الجمعيات النسائية وقد لاقت هذه الحملة تشجيعاً وحماساً من الجميع.

عقدت الهيئة الإدارية المنتخبة أول اجتماع لها، ودرست خلال هذا الاجتماع الأوضاع العامة وأوضاع المهجرين من النواحي الصحية والاجتماعية والثقافية، ووضعت برنامج عملها للمرحلة اللاحقة. وشكلت عدداً من اللجان المختصة (لجنة اجتماعية، لجنة صحية، لجنة ثقافية، ولجنة سياسية ولجنة مالية). واتخذت الهيئة الإدارية قراراً بزيارة مخيمات اللاجئين الفلسطينيين للإطلاع على أوضاعهم عن كثب، حتى تكون هناك إمكانية لمساعدتهم بصورة دقيقة وفاعلة. وخلال كل ذلك كان لنا اتصال مع وكالة غوث اللاجئين (الأنروا)، من أجل التنسيق معها والقيام بنشاطات مشتركة لمساعدة المنكوبين، والحقيقة أن تجاوب «الأونروا» كان جيداً في ذلك الوقت. ووجهت لجنة الإغاثة التابعة للاتحاد نداءً لمساعدة اللاجئين لمناسبة شهر رمضان المبارك وعيد الفطر السعيد، وقد تليت البيان وذكرت فيه: «لقد شرد أهل فلسطين وحرموا الأهل والمال والبيت والعز والوطن. وها قد مضى عليهم أكثر من أربعة أعوام، وهم يعانون ضروباً مختلفة من البؤس والفقر والحرمان، ويقطن معظمهم في كهوف وخيام جيراناً للزواحف، يأكلهم الجوع والمرض ويلبسهم العري وتحتوي الأحزان مشاعرهم. عما قليل يحل العيد المبارك بحلله وزيناته ومباهجه، فينزل الفرح والنشوة والسكينة ندى على قلوب المسلمين كافة إلاّ قلوب أهل فلسطين أولئك الذين يؤلمهم العيد ويمزق أحشاءهم إذ يجسم لهم الجحيم الذي يعانونه. فليبادر المبتغون مرضاة ربهم في هذا الشهر المبارك إلى إسعاف إخوانهم والترفيه عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً».

انصبت أعمالنا بعد هذا الإنجاز التنظيمي، بل وقبله على الأعمال الاجتماعية، وسيجري بيان ذلك لاحقاً، إلا أن الأهم كان تكريس حضورنا ليس على الصعيد المحلي، بل على الصعيدين العربي والدولي. وهكذا ما إن تناهى إلى مسامعنا في عام ١٩٥٤ أن مؤتمراً دولياً سيعقد في سيلان في شهر آب من العام ١٩٥٥ حتى بادرت للدعوة إلى اجتماع عقد في الكابيتول واتخذ قراراً بأن يتمثل الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في هذا المؤتمر للإتحاد النسائي العالمي

الذي ينعقد في العاصمة كولومبو وتنفيذاً لهذه الغاية أرسلت باسم الاتحاد العام طلباً إلى الاتحاد النسائي الدولي طالبة حق الاشتراك في الاتحاد العالمي وأرفقت مع الطلب القيمة المتوجبة للإنتساب كعضو. واتخذ الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني قراراً بإرسالي كممثلة للإتحاد إلى المؤتمر المذكور.

وكان عام ١٩٥٤ مليئاً بالنشاطات والأعمال الخيرية والاجتماعية. وقد قام الاتحاد النسائي الفلسطيني بمشاريع عدة لمساعدة اللاجئين الذين كانوا يعانون الأمرين من جراء التهجير وسوء أحوالهم الصحية والنفسية، وأخذنا نتصل بالشخصيات الأجنبية التي كانت تزور لبنان وتؤيد القضية الفلسطينية وتناصرها. فأرسلنا برقية تأييد للسيدة سمرسكيل سكرتيرة حزب العمال في لندن، وأقمنا بعض الحفلات على شرف شخصيات من ذوي المكانة المرموقة في بلادهم والذين زاروا لبنان، فأطلعناهم على حالة اللاجئين البؤساء ووزعنا عليهم بعض الكتب والمنشورات حول قضايانا.

وقبل انعقاد مؤتمر الاتحاد العربي العام في بيروت وصلتني برقية من الآنسة زليخة الشهابي رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في القدس بواسطة رئيسة الاتحاد العام تخبرني فيها بأنها لن تمثل فلسطين في المؤتمر بل ستكون ممثلة للأردن وطلبت مني تمثيل فلسطين عوضاً عنها. وكان هذا كما تبين، يعني إلغاء التمثيل الفلسطيني نتيجة ضم الضفة الغربية إلى الأردن بشكل نهائي وإلغاء اسم فلسطين. وهذا ما كدرني وأربكني جداً، رغم أنني أصبح عندها حاملة للشرعية بالكامل ومخولة بتمثيل المرأة الفلسطينية. فاجتمعت مع أعضاء الاتحاد ودرسنا الأوضاع وأعددنا الدراسات التي كان يفترض بالآنسة زليخة الشهابي واتحادها إعدادها وتقديمها إلى المؤتمر.

المؤتمر العربي العام:

وفي السابع من حزيران ١٩٥٤ عقد المؤتمر العربي العام أولى جلساته برئاسة رئيس الجمهورية اللبنانية كميل شمعون واستمر حتى الثالث عشر منه. وتألفت هيئة المؤتمر كما يلي:

الآنسة ابتهاج قدورة رئيسة المكتب الدائم للاتحاد النسائي العربي العام.

السيدة إيلين ريحان، نائبة الرئيسة.

السيدة نازك سركيس، أمينة السر.

السيدة منيرة شحادة، أمينة الصندوق.

ترأست الوفد الفلسطيني في هذا المؤتمر وكان يتألف من: السيدة ساذج نصار، والآنسة نينا تمارى، وفيرا حلبي، وكلير صايغ، وفتية قدورة، وفريدة خورشيد، وماري كته، ودلال خليفة، وفاطمة الجابي، وافلين حمصي، ووجدان افرنجي، وأم وليد بيدس، وملك سمارة.

وكان الوفد الأردني: برئاسة زليخة الشهابي، وعندليب العمد، وخلود جقمان، واشتراك عشر سيدات هن: فاطمة بديري، عصام عبد الهادي، رشيدة المصري، زهرة صلاح، شهيرة المصري، ليا منصور، مديحة نسيبة، سميرة الخالدي، مزين العمد، خيرية الحجاوي.

ووفد الاتحاد النسائي العراقي كان برئاسة السيدة آسيا توفيق وهبي وعضوية الدكتورة لمعان زكي الدملوجي، والدكتورة روز خدوري.

أما الوفد النسائي السوري فقد كان برئاسة: السيدة عادلة بيهم الجزائري، وعضوية الأستاذة جيهان الموصلي، وقمر قزعون، واشتراك سبع عشرة آنسة وسيدة. وقد حضر وفد جامعة الهيئات النسائية اللبنانية برئاسة السيدات: لور ثابت، ونجلا صعب، وسلوى محمصاني، واشتراك خمسين سيدة وآنسة. وقد حضر المؤتمر وفد من الجامعيات اللبنانيات برئاسة الدكتورة زاهية قدورة.

وقد ألقت الوفود كلماتها في اليوم الأول، ووضعنا برنامج تحركنا خلال أيام المؤتمر، وألقيت المحاضرات والندوات، ونوقشت خلال المؤتمر قضايا المرأة العربية، والأزمات الاجتماعية المستعجلة في الوطن العربي، كذلك قامت الوفود بزيارة بعض المناطق الأثرية والسياحية في لبنان. وتلقت الوفود العديد من الدعوات التكريمية أهمها كانت الدعوة التي تلقتها الوفود إلى مأدبة عشاء رئيس مجلس الوزراء عبد الله اليافي، كذلك تلقى المؤتمر برقيات من شخصيات عربية مختلفة.

وقد ألقيت كلمة فلسطين في هذا المؤتمر، فبعد أن قدمت التحية للمؤتمر والوفود قلت: «مثل هذا الشأن الذي بلغته الحركة النسائية في البلاد العربية يضاعف مسؤولياتها ويدعوها إلى المساهمة بقسط أوفر في النضال الذي تخوضه الشعوب العربية من أجل الوصول إلى أهدافها، ولا شك أن قضية فلسطين تأتي في رأس القضايا العربية اليوم».

وأنهيت كلمتي أمام المؤتمر بالعبارة التالية: إن الله والوطن وأبطال تاريخنا المجيد ليرقبون أعمالنا والوسائل التي نتخذ لتحرير فلسطين.

ومما جاء في محاضرة ألقيتها أمام الوفود ضمن المؤتمر حول حماية الأسرة، من التشتيت والضياع «أنه من الضرورة العمل على حماية الأسرة الفلسطينية بعد هذه النكبة». وقد خرج المؤتمر بعدة قرارات، منها ما يخص القضية الفلسطينية، ومنها ما يخص القضايا العربية الأخرى وقضية المرأة وقد جاء في القرارات:

- تتولى الاتحادات المحلية مقاومة أي محاولة لتوطين اللاجئين خارج فلسطين، وتطلب من الحكومات العربية أن تقيم لهم في الأماكن المتاخمة لبلادهم (وأينما وجدوا) وحدات للإقامة وأن تهيء لهم سبل الحياة الشريفة صوناً لكرامتهم وصيانة لأخلاقهم وذلك بإقامة مشاريع زراعية وصناعية، ومساعدتهم وتشجيعهم على الإنتاج.

- وجوب تعزيز القوى العسكرية على الحدود العربية الإسرائيلية لدرء الاعتداءات المستمرة من جانب العدو ومتابعة الحكومات العربية للقيام بذلك.

- تأييد الحكومات العربية في موقفها ضد الصلح مع إسرائيل.

مؤتمر قضايا العالم العربي:

عقدت اللجنة التحضيرية للمؤتمر اجتماعاتها في ٢١ و ٢٢ و ٢٣ أيار من العام ١٩٥٤، وحضرته وفود من بيروت وصيدا والقاهرة وعمان ودمشق وبغداد والقدس ونابلس برئاسة إميل البستاني، وحددت الاجتماعات أهدافه بإيلاء قضية فلسطين الاهتمام الأول، وعينت أعضاء اللجان السياسية والاجتماعية

والاقتصادية، ومن دون الغوص في التفاصيل يكفي أن أقول أن اللجنة الأولى قد أسهبت في شرح قضية فلسطين لجهة أسبابها وتطورها، وعوامل الفشل العربي داخلياً ودولياً ونتائج هذا الفشل بالنسبة لقيام إسرائيل ووضعها وخطرها واللاجئين وقضيتهم وعوامل الضعف العربي، توصلاً إلى تحديد طريق المستقبل فيما يخص الهدنة والصلح والدفاع العربي عسكرياً واقتصادياً وسياسياً (الحرس الوطني، الجيش الاتحادي المستقل، المقاطعة، وضع الجامعة العربية وإمكانياتها ومستلزمات قضية فلسطين على السياسة العربية). كما كانت هناك توجهات سياسية على الصعيد العربي، ووقوف أمام خطر إسرائيل الاقتصادي ومن مخاطر التشتت العربي ومظاهره، فيما خصصت الموضوعات الاجتماعية لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين.

بعد هذه الاجتماعات التحضيرية انعقد مؤتمر خريجي الجامعة الأميركية الدائم لقضايا العالم العربي في قصر الأونيسكو في ٢٣ و ٢٤ و ٢٥ حزيران من العام ١٩٥٤، وقد حضرته بناءً على طلب النائب البستاني، الأمين العام للمؤتمر، فيما تولى رئاسته الرئيس عادل عسيران، وقد حضره مائتان وسبعون عضواً من المتخرجين وفدوا من الأقطار العربية. وقد شهد رئيس الجمهورية كميل شمعون الجلسة الأولى للمؤتمر وافتتحه بخطاب، تحدث فيه أيضاً كل من رئيس جمعية متخرجي الجامعة الأميركية إميل البستاني ورئيس المجلس النيابي عادل عسيران ورئيس مجلس وزراء السودان إسماعيل الأزهري وكل من عبد الكريم الأرزي (العراق) السيدة إحسان القوصي (مصر) وجورج خضر (الأردن) وعبد الرحمٰن الكيالي (سوريا) وسعيد تقي الدين (لبنان) ومحمد شقير (بيروت)، ثم بدأت الجلسات بدراسة النظام الأساسي والنظام الداخلي للمؤتمر، كما استمع المؤتمرون إلى أبحاث تناولت المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وقد شاركت في اللجنة السياسية التي انتخب الرئيس صائب سلام رئيساً لها وانتُخبت نائبة للرئيس وجورج طعمة مقرراً، وخلال جلسات هذه اللجنة ألقيت العديد من الكلمات والمداخلات، ومن بينها واحدة لي جاء فيها «إن إسرائيل تطمع في كل أرضنا، لا في الجزء المغتصب، وليست إذن الكارثة في مدلولها الصحيح ما كاد البعض يشتط فيسميه كارثة اللاجئين الفلسطينيين وأمر عودتهم أو بقائهم، إنما

كارثة الأمة جميعاً، ومن ضمنها الفلسطينيون، فأول حل، وأجدى طريق هو الانصباب نحو الوحدة». وقد حصر المؤتمر أبحاثه في قضيتي فلسطين والاتحاد العربي. وإثر انتهاء الاجتماعات جرى تشكيل أعضاء المكتب الدائم من السادة والسيدات:

تشكيل المكتب الدائم:

عادل عسيران، صائب سلام، عبد الكريم الأرزي، الدكتور عزت طنوس، رشاد حبري، إميل البستاني، برهان الدجاني، صائب سلام، وديعة خرطبيل، جورج طعمة، الدكتور قصير، جورج صليبي، لؤي عجمان، يوسف الصايغ، مروان نصر، صلاح هبري.

وبعد ذلك بدأنا بالاجتماعات المتتالية للمكتب الدائم للمتخرجين، وكانت تعقد في نادي المتخرجين لدراسة الأوضاع العربية العامة وآخر تطورات القضية الفلسطينية، والاستعداد للمؤتمر القادم الذي تقرر عقده في القدس بحضور جميع المتخرجين العرب من الأقطار العربية والجامعات كافة، وبذلك لم يعد مؤتمر المتخرجين محصوراً بخريجي الجامعة الأميركية، بل أصبح يشمل جميع المتخرجين العرب.

المؤتمرات النسائية الدولية:

مؤتمر كولومبو

أشرت فيما سبق إلى أن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني قرر المشاركة في مؤتمر الاتحاد النسائي العالمي الذي سيعقد في كولومبو عاصمة سيلان في شهر آب ١٩٥٥. وفي التاسع من شهر آب العام ١٩٥٥ كنت في المطار للتوجه إلى سيلان لحضور المؤتمر الدولي للاتحاد النسائي، ولتمثيل الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني والاتحاد النسائي اللبناني فيه، من كراتشي واصلت السفر إلى كولومبو، التي بلغتها في اليوم التالي. وكان في استقبالي مسؤولات في الاتحاد النسائي في سيلان والاتحاد الدولي، ومن المطار توجهنا إلى فندق غران أوريان

أوتيل. في اليوم الثاني أكملت الإجراءات القانونية التي تتطلبها عملية إدخال الكتب إلى البلاد، كما زرت بعض المصانع والمحترفات التي تديرها الجمعيات النسائية بمساعدة الحكومة. وخلال إقامتي بالفندق التقيت بعض تجار الشاي العرب وقدمت لهم بعض ما أحضرته من كتب تتناول القضية الفلسطينية وتطوراتها. وفي ١٣ آب وزعت نشاطاتي بين حديث لصحيفة سيلون أوبزرفر واستضافة رئيسة الاتحاد النسائي الدولي الآنسة استركراف على الغداء، وشرحت خلاله كل ما يتعلق بعمل الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني والممارسات الصهيونية في فلسطين. أما أيام ١٤ و ١٥ و ١٦ و ١٧ آب، فقد أمنت من الوقت المتاح لترسيخ علاقاتي مع العديد من رئيسات الوفود، وللعمل على تطويق مساعي الوفد الإسرائيلي، وعززت نشاطي مع عدد من النواب بعد أن ذهبت وسيدتين لحضور جلسة مجلسهم. وقد فوجئت بجهل النواب السيلانيين للوضع في المنطقة، إلى حد أن أحد النواب اعتبر لبنان وإسرائيل دولة واحدة. وقد تبين أن أحاديثي في السياسة قد أثارت عضوة اللجنة الإدارية في الإتحاد الدولي مسز سبيللر، التي احتجت عليه وعلى ما جاء في حديثي لصحيفة «الأوبزرفر» أيضاً. وقد اعتبرت أن المرأة رسولة محبة وعليها ألا تهتم بالسياسة.

طوال هذه الأيام كنت أحاول قصارى جهدي لضمان دخولي المؤتمر مندوبة عن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وقد أخبرتني مندوبة الباكستان والعضو في المؤتمر السيدة سعيد وحيد أن التصويت كان لصالح حضوري بنسبة سبعة أصوات ضد ثلاثة. وكانت هذه الخطوة الأولى، التي حصلت في الوصول إليها على دعم من الرئيسة العامة للاتحاد الآنسة استركراف. ومباشرة بعد ذلك قمت بتسديد الاشتراك عن عمتي وعني لأضمن حضوري المؤتمر متمتعة بالعضوية الكاملة. وهكذا قبل ظهر يوم ١٨ آب كانت الترتيبات لانعقاد المؤتمر قد اكتملت تقريباً، وعقد اجتماع للهيئات الإدارية مع الصحافة، حيث قدمت شرحاً لمسألة شراء اليهود للأراضي الفلسطينية التي قذفها أحد الصحافيين في وجهي. أما بعيد الظهر فقد عقد اجتماع تليت فيه أسماء الجمعيات المشاركة ومن بينها الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني الذي قوبلت عضويته بالإجماع.

ما إن افتتح المؤتمر مساء الثامن عشر من آب، حتى بدأ اصطدامي

بمندوبة إسرائيل التي أزعجها حضوري واعترضت على تمثيل فلسطين، إلا أن الجهود التي بذلتها مندوبات الباكستان وإيران والهند والعراق وأندونيسيا حسمت الأمر في إتجاه قبولي ممثلة عن فلسطين في الاتحاد النسائي الدولي. وقد قدمت تقريراً مسهباً وشاملاً عن اللاجئين الفلسطينيين وأوضاعهم وحقوقهم، وأوضحت للمجتمعين بعض الحقائق المتعلقة بالقضية، وتمسكت بضرورة تسجيل فلسطين وتمثيلها في الاتحاد النسائي الدولي كعضو عامل على أساس أن فلسطين بلد له شعبه وحدوده ولا يجوز استبعادها عن المؤتمر أسوة بأوكرانيا التي تعتبر مقاطعة في الاتحاد السوفياتي. ولما بدأ انتخاب الهيئة الإدارية للإتحاد الدولي، رشحت نفسي لهذه الهيئة، رغم أن البعض أخذ يشكك بإمكانية نجاحي، إلا أن النشاط والتحركات مع أعضاء المؤتمرات أدت إلى فوزي وسقوط مندوبة إسرائيل. والحقيقة أنه كان نصراً كبيراً لنا ولقضيتنا وللمرأة الفلسطينية، وكان النصر الأول للقضية الفلسطينية على هذا الصعيد. وهذا ما جعلني أتصل بجميع المندوبات في المؤتمر بشكل شخصي لأشكرهن وأشرح لهن ظروف القضية الفلسطينية ومأساة اللاجئين. وقد وزعت عليهن منشورات وكتباً حول القضية. والجدير بالذكر أن أحد كبار موظفي مجلس النواب السيلاني طلب مني إمداده بمعلومات واسعة عن فلسطين من أجل إعداد دراسة قانونية يعرضها على مجلس النواب. وفي أثناء الحديث تبين أن الموظف الكبير كان يعتقد أن لبنان تابع لإسرائيل. فما كان مني إلا أن سارعت إلى تصحيح حقيقة الأمر له.

وخلال أعمال المؤتمر كان لي لقاء مع وفد من جمعية الشبان المسلمين في كولومبو، الذي طلب مني إلقاء محاضرة حول القضية الفلسطينية، وكان لهذه المحاضرة صدى واسعاً في صفوف الشباب والشابات الذين تحمسوا حماساً كبيراً للقضية.

والحقيقة أن هذا المؤتمر الدولي الذي كان برعاية حاكم سيلان، كان مهرجاناً كبيراً لنصرة القضية الفلسطينية. وقد أقام الحاكم حفلة تكريمية للمؤتمرين أثار حضوري خلالها باللباس الفلسطيني ردة فعل كبيرة في الحفلة والأوساط الصحافية، فأخذت الصحافة تكتب عن القضية الفلسطينية، والمرأة، وأخذت تجري معي مقابلات حول هذا الموضوع. وقدمنا خلال الحفلة علبة من

الصدف صنعت في القدس لحاكم سيلان. وقد قالت لي السيدة سعيد وحيد مندوبة الباكستان: أهنئك بهذا الفوز، إن هذا المؤتمر هو مؤتمرك، ومؤتمر فلسطين.

بعد كولومبو وصلت رسالة إلى الاتحاد من رئيسة الاتحاد النسائي الدولي تهنئنا على الأعمال التي قمنا بها متمنية لنا النجاح.

أما المواضيع التي بحثت في مؤتمر سيلان فكانت على الوجه التالي:

أ ـ السلام وعلاقة الأفراد مع بعضهم البعض.

ب ـ الحقوق السياسية والمدنية للمرأة.

ج ـ مساواة المرأة بالرجل في الحقوق الاقتصادية.

د ـ تعليم أبناء اللاجئين الفلسطينيين.

هـ ـ تنفيذ شرعية حقوق الإنسان في هيئة الأمم المتحدة.

كان مؤتمر كولومبو هو الأول، وكان فاتحة اشتراك الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في مختلف المؤتمرات العربية والعالمية التي كان يدعى إليها. وإذا كان حضور المؤتمرات العربية بديهياً، وسأعود إلى ذلك، باعتبار أن قضية فلسطين هي قضية العرب المركزية، فإن المشاركة في المؤتمرات الدولية كانت ملحة للدعاية لقضايا العرب عموماً وقضية فلسطين خصوصاً، وللتصدي النفوذ الصهيوني الذي حاول تكريس حضوره دولياً.

مؤتمر أثينا:

وكما شاركت في مؤتمر سيلان، شاركت أيضاً في المؤتمر النسائي الدولي الذي عقد في أثينا باليونان، مع افلين حمصي. ولدى وصولنا بعد ظهر ٢٣ آب ١٩٥٨ اتصلنا من مكاتب جمعية الشابات المسيحيات بمكتب الاتحاد النسائي الدولي، وحضرنا بعده اجتماعاً مع الهيئة الإدارية والمشاركات اليونانيات حيث أقيمت لنا حفلة تعارف بين الوفود المشاركة. وفي اليوم التالي قمنا بتسجيل أسمائنا في جمعية الشابات حيث مكتب الاتحاد النسائي الدولي،

وأجرينا اتصالات مع بعض أعضاء مجلس الإدارة، وقد انضمت إلينا العضو الثالث في الوفد وجدان إفرنجي، وعليه بات وفد الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني مكوناً من: وديعة خرطبيل، وافلين حمصي ووجدان إفرنجي.

وفي الساعة الثامنة والنصف صباح يوم الاثنين في ٢٥ آب اجتمعت الهيئة الإدارية وبحثت عدة نقاط منها:

- قانون الاتحاد.
- الموافقة على انتساب خمسة أعضاء جدد إلى الاتحاد.
- تعيين لجنة الانتخاب للإشراف على الانتخابات.

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف عقد اجتماع لجميع أعضاء المؤتمر برئاسة السيدة درانياكالا للموافقة على البرنامج وسماع بيان رئيسة الاتحاد العالمي الآنسة استركراف عن أعمال الاتحاد ونشاطاته وتبني قراراته والموافقة على قبول الأعضاء الجدد في المؤتمر والتعرف عليهن وكذلك الاطلاع على قوانين المؤتمر وبعض المعلومات من السكرتيرة السيدة هوسي.

وفي السابعة مساءً تم افتتاح المؤتمر في قاعة برناسيس ـ سانت جورج تحت رعاية الحكومة اليونانية ممثلة بنائب رئيس مجلس الوزراء الذي ألقى كلمة، ثم تلته كل من رئيسة الاتحاد النسائي اليوناني ورئيسة الاتحاد النسائي الدولي الآنسة استركراف. وفي هذا المؤتمر جرى تقديم جميع رئيسات الوفود باسم بلدانهن مع إعلامها. وفي الساعة العاشرة مساءً أقام الاتحاد النسائي اليوناني لحقوق المرأة حفلة في اللون كلوب تريس على شرف جميع أعضاء الاتحاد النسائي الدولي حضرتها بعض الشخصيات اليونانية.

وفي اليوم التالي، الثلاثاء في ٢٦ آب، طرح على بساط البحث في المؤتمر موضوع تمثيل المرأة في مجالس النواب ونسبة النجاح الذي حصلت عليه في كل بلد ونشاطات المرأة في الميادين العامة. وقد ترأست الاجتماع رئيسة الاتحاد النسائي الدولي الآنسة استركراف، وتكلمت مندوبة فرنسا الدكتورة أندره ليمان في الموضوع، ثم تلتها مندوبة الاتحاد في الأنسكو ومندوبة هولندا

ومندوبة الفيليبين ومندوبة مصر السيدة بهيجة رشيد وعدد من السيدات. ثم ألقيت أنا كلمة باسم لبنان وفلسطين محيطة بالموضوع في إطاريه اللبناني والفلسطيني، فتكلمت عن الحقوق السياسية والاجتماعية للمرأة في لبنان وتطرقت إلى موضوع اللاجئين الفلسطينيين فطالبت بتعليم الفتاة الفلسطينية، فنلت تهنئة الرئيسة وأعضاء الوفود.

وبعد الاجتماع قمنا بزيارة سفير لبنان في اليونان السيد أديب نحاس وحضرنا الحفلة التي أقامها رئيس بلدية أثينا،

ونهار الأربعاء في ٢٧ آب عقد اجتماع برئاسة الآنسة استر كراف طرح خلاله موضوع تمثيل المرأة في مجلس النواب للمناقشة وعن الأسباب الكامنة وراء تقصيرها نسبياً في هذا المجال في العالم وكيفية العمل من أجل حصول المرأة على المقاعد الكافية لتمثيلها بصورة أجدى. ثم توالت على الكلام كل من مندوبة غينيا الانكليزية وفرنسا (السيدة أندره لاهمن) والسويد (السيدة اهناريد) وفلسطين (السيدة وديعة خرطبيل).

وفي هذا المؤتمر الذي دام حوالى أسبوعين، كما في كل مؤتمر، كان الصراع ضارياً مع مندوبة إسرائيل التي حاولت إلغاء دورنا وإخفات صوتنا. فقد حاولت أكثر من مرة أن تُلتقط لها ولزميلاتها صوراً مع الوفد الفلسطيني دون جدوى.

وحدث خلال أيام المؤتمر، أنه بينما كانت الوفود في زيارة لأحد الأماكن الأثرية (دلفى)، صادف جلوس الوفود العربية في أثناء تناول طعام الغداء على مقربة من مندوبة إسرائيل التي كانت تجلس مع مندوبة السويد، فدار حديث بين المندوبتين الإسرائيلية والسويدية، وسألتها مندوبة السويد: هل أنتم سعداء في إسرائيل؟ قالت المندوبة الإسرائيلية: نعم، كل السعادة. ثم قالت مندوبة السويد: إنكم تستحقون إسرائيل ولا شك، لأنها كانت في أياد غير حضارية وبدائية. فأجابتها مندوبة إسرائيل: نعم. والحقيقة أن مندوبة إسرائيل قالت (نعم) وهي خائفة تنظر يميناً ويساراً. فقالت لها السويدية: كيف حالكم مع عبد الناصر؟ فقالت المندوبة الإسرائيلية: أتمنى أن يموت هذا الدكتاتور. عمّ الصمت قليلاً، فقالت لها المندوبة السويدية: إن الصلح سيتم قريباً بينكم وبين لبنان بوجود

الرئيس كميل شمعون. عندها تقدمت أنا من المندوبة السويدية وقلت لها بشدّة، وكانت تجتاح لبنان في ذلك العام ثورة شعبية (ثورة ١٩٥٨): إسمحي لي أن أتكلم لأوضح لك الحقائق المشوهة. أؤكّد لك أنه لن يتم عقد أي صلح مع إسرائيل. ونحن من لبنان، وهذا رأي كل عربي. واعلمي أن الصهيونيين لم يجلبوا إلا الشر إلى فلسطين، وهم يعيشون على التبرعات والصدقات الأميركية والتسلح. ولما استولوا على فلسطين بمساعدة الولايات المتحدة وبريطانيا، كانت فلسطين وسكانها بألف خير واطمئنان، ولكن هكذا أراد الاستعمار. هل من المعقول أن تستولي جماعة على أرض شعب برمته وتحتل منازله وتشرده في أقطار المعمورة. وتابعت كلامي مع مندوبة السويد: أظن أن كل معلوماتك خاطئة وإذا علم همرشولد بما قلته عن عبد الناصر لن يكون مسروراً. وأعلمك أنه ليس بمقدور أي رئيس عربي مهما كان شأنه أن يعقد صلحا مع إسرائيل، لأن أي عمل من هذا النوع سيعرضه للاغتيال، وهكذا لن يكون بوسع الرئيس كميل شمعون أن يعقد هكذا صلحاً دون أي ردة فعل.

وكان جمع كبير من جميع أنحاء العالم على طاولة الغداء، فانبرت مندوبة أستراليا قائلة: «لمَ كل هذا يا مسز خرطبيل؟ يوجد أرض واسعة في البلاد العربية تتسع لجميع الفلسطينيين. ها نحن في أستراليا تركنا بريطانيا وعشنا في أستراليا وفي أحسن حال». فقلت لها: كلامك صحيح، لكن الفرق أنكم تركتم لسببين، أما بسبب نفي المجرمين من بريطانيا إلى أستراليا أو لمزاولة التجارة. ولكن نحن لم نترك بخاطرنا وإرادتنا ولكن طردنا بقوة السلاح. وكانت مشادة كبيرة.

وفي المساء أقيم لنا عشاء رسمي بدعوة من الحاكم وكنت جالسة على طاولة الشرف كرئيسة وفد وكانت قربي رئيسة الوفد السويدي التي أخذت تتكلم وتعتذر عن الموضوع الذي أثارته مندوبة السويد مع مندوبة إسرائيل، فقالت لي رئيسة الوفد السويدي: أرجوك أن لا تأخذي ذلك مأخذ الجد ولا تعتبري النقاش سياسياً، لأن المندوبة السويدية التي تكلمت غير رسمية ولا تعلم شيئاً عن السياسة. وأبدت أسفها لذلك وطلبت عقد اجتماع لاحق لبحث الموضوع بالتفصيل.

وفي اليوم التالي، اجتمعت أنا وإياها بالوفد السويدي، فوزعت المنشورات عليهن وأوضحت لهن الحقيقة فاعتذرت المندوبة السويدية عما بدر منها من كلام غير مسؤول.

والجدير ذكره أنه عندما جرت انتخابات الهيئة الإدارية فزت على مندوبة إسرائيل للمرة الثانية، وكان ذلك بمثابة صفعة كبيرة لها ولمؤيديها.

لجنة خبراء همرشولد:

وضمن سياق تأمين الحضور النسائي الفلسطيني ومطاردته للنفوذ الصهيوني، كان من البديهي أن نولي اهتماماً استثنائياً للمشاريع الدولية التي كانت تتواتر منذ النصف الثاني من الخمسينيات. وكان أبرز تلك المشاريع ما أورده داغ همرشولد الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة، وقد تشكلت لجنة أطلق عليها اسم لجنة خبراء مشروع همرشولد، وقد التقيت بأعضائها خلال اجتماعها في صوفر برفقة الدكتور عزت طنوس، وإميل الغوري، وأحمد اليماني وفايز الصايغ، واللجنة المذكورة كانت تضم في عضويتها أعضاء من كل الدول العربية تقريباً بالإضافة إلى الدول الأجنبية.. وقد قدمنا مذكرة باسم الشعب الفلسطيني للجنة، التي وجدنا بعض أعضائها في حال من جهل للقضية، وهذا ما كان ينطبق مثلاً على مندوب السودان، الذي بدا أنه لا يعرف شيئاً عن معاناة الشعب الفلسطيني في المخيمات، فكان أن دعونا اللجنة إلى زيارة المخيمات للاطلاع على أوضاع اللاجئين وأخذ فكرة عن الحالة اللاإنسانية التي يعيشونها.

وضع الدكتور فايز صايغ دراسة من ٢٢٠ صفحة رداً على تقرير همرشولد، بعد اجتماعه بعدد كبير من الشخصيات الفلسطينية. وقرر النازحون الفلسطينيون رفض تقرير داغ همرشولد الأمين العام لهيئة الأمم المتحدة جملة وتفصيلاً، وأعلنوا أنه لا توطين ولا امتصاص، ولا دمج ولا تهجير، بل عودة إلى فلسطين، وعودة فلسطين إلى أهلها، ولا حلّ غير هذا الحل. وناشد الفلسطينيون الدول العربية رفض المشروع، وحذروا وكالة الإغاثة الدولية من مغبة الأعمال التي كانت تقوم بها والتي تهدف إلى تنفيذ مشروع همرشولد للتوطين والدمج.

ولا بد من ذكر فضل الدكتور فايز الصايغ وقدرته وثقافته ومعلوماته القوية عن القضية، ففي أيامه نشأ تاريخ ذهبي للقضية، خصوصاً عندما استلم مكتب الجامعة العربية في نيويورك، وإن لم يرق ذلك للبعض، لأنهم لا يريدون أن تتصدر القضية الواجهة الدولية، فأرادوا أن يحجموها فنقل فايز صايغ إثر ذلك إلى مكتب الجامعة العربية في القاهرة. وهكذا كان. فهل من المعقول أن يكون فايز صايغ الخطيب الذي هز هيئة الأمم المتحدة وبعض الجامعات في الولايات المتحدة والنوادي والهيئات محجوزاً في عمل مكتبي صرف؟

وقد حضر إلى بيروت في ١٢ حزيران ١٩٥٩ الدكتور فايز صايغ، وعلمنا بذلك فدعوناه مع بعض الشخصيات اللبنانية والفلسطينية إلى الاتحاد، حيث تناقشنا في هذا الأمر وأخذنا قراراً بالعمل مع جميع السفارات العربية والجامعة العربية للاتصال بالرئيس جمال عبد الناصر وأمين عام الجامعة العربية، لإعادته إلى العمل في نيويورك، لذلك قمت مع وفد من أعضاء الاتحاد بجولة على الدوائر الرسمية ودور الصحف اللبنانية وقد أعربنا عن استنكارنا لنقل الدكتور فايز صايغ من مكتب الإعلام العربي في نيويورك، ووصف هذا الإجراء الذي دبره ونفذه السيد عبد الخالق حسونة وكامل عبد الرحيم بأنه مؤامرة مجرمة بحق الضمير العربي والكرامة العربية وقدسية قضية فلسطين وخدمة جريئة لإسرائيل صفق لها الصهاينة في أنحاء العالم.

وأبرق الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني باسم رئيسته برقيتين، أولاهما إلى الرئيس جمال عبد الناصر ترجوه «التدخل لإرجاع ابن فلسطين البار وصوت الحق فايز الصايغ إلى مركزه بأميركا وطلبت إليه أن يدعمه بعطفه، لأن إبعاده عن حقل جهاده المقدس في أكبر ساحة أو معركة دوليتين لهو خدمة لعدوتنا إسرائيل...». أما ثانيتها فلأمين عام جامعة الدول العربية السيد عبد الخالق حسونة تستنكر الإبعاد وتدينه وتؤكد «إن فلسطين غنية بمجاهديها وأبنائها فلا تحرموا أبناءها جهادهم المقدس، لقد دوخت هذه الصفعة، عظام شهدائنا الأبرار، وحجارة بلادنا السليبة تصرخ وتؤيد أبناءها البررة المخلصين».

ومن الأعمال التي اتخذت في هذا الصدد:

ـ وزعنا مذكرات استنكار لفصل الدكتور فايز صايغ على السفارات باسم الاتحاد.

ـ اجتمعنا بسفير مصر عبد الحميد غالب وتناقشنا بالموضوع مطولاً. وكان مستاءً من عملنا هذا لأن المشكلة ترتبط بالسيد كامل عبد الرحيم المصري الجنسية. ومدير مكتب الإعلام التابع للجامعة العربية في نيويورك.

ـ اجتمعنا بسفير العراق نجيب الصايغ وتباحثنا معه وكان متحمساً جداً للموضوع.

ـ اجتمعنا بسفراء جميع الدول العربية وسلمناهم المذكرة، وطلبنا منهم إعادة الدكتور فايز صايغ إلى مركزه في نيويورك خدمة للقضية الفلسطينية.

مؤتمر طهران:

عقد المؤتمر الدولي التالي بعد أثينا في طهران بتاريخ ١٩٦٠/٧/٣، وبما أني كنت عضواً في الاتحاد النسائي العالمي، فقد وجهت لي دعوة إلى حضور دورة الهيئة الإدارية، وكنت قد علمت أن الاجتماع سيكون في الباكستان، إلا أن رفضها حضور مندوبة إسرائيل دفع الاتحاد للبحث في تبديل المكان، وقد زرت سفير إيران طالبة منه اتخاذ الموقف الذي اتخذته الباكستان، كما اتصلت بالخارجية اللبنانية للاتصال بالسفير اللبناني في طهران السيد عبد الرحيم عدرة لبذل مساعيه لدى إيران. لكن عندما وصلت مع عضو الاتحاد في الهيئة الإدارية مرفت دلول وجدت مندوبة إسرائيل في الاجتماع، وقد زارني سفير لبنان وأخبرني بالموقف المتخاذل لإيران وحكومتها عندما قام مع أكثر السفراء العرب بالاحتجاج على وجود مندوبة إسرائيل، وفشلوا في تغيير موقف الحكومة الإيرانية. وهكذا حضرت المؤتمر، وتقدمت من الهيئة الإدارية بعدة قضايا لبحثها في المؤتمر النسائي الدولي الذي كان سيعقد العام التالي في إيرلندا، ومن هذه القضايا قضية اللاجئين، وحق المرأة اللاجئة بالحياة والعودة إلى وطنها، وتعليم الفتاة الفلسطينية ورفع مستواها من الناحيتين المادية والمعنوية، وكانت مندوبة إسرائيل تحاول الإقلال من إلحاح هذه القضايا. وقد هالني كون إيران، البلد

الإسلامي، لا يعرف عن القضية العربية إلا القليل، وقد كان لحكومة إسرائيل المجال الواسع والتحرك في مختلف الميادين التجارية والرياضية والحياتية والاجتماعية. ففي خلال المؤتمر طلب مني مسؤول الفندق لما رآني مهتمة جداً بالقضية الفلسطينية أن أنزل إلى السوق يوم السبت. وفعلاً لقد كانت أكبر المحلات التجارية وأفخمها مقفلة بسبب عطلة يوم السبت يوم الراحة عند اليهود، وكأنني كنت في إسرائيل.

وفي مثل هذا الوضع ما كان إلا أن ذهبت مع الأميرة فيروز من العائلة المالكة السابقة مع الوفد لزيارة الأماكن الأثرية والدينية والقصور والجامعات. قبل أن أغادر إلى طهران كنت قد دعيت إلى حضور اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر النسائي الآسيوي ـ الأفريقي في القاهرة، كان الهدف من المؤتمر تقرير حقوق المرأة الإفريقية الآسيوية ووضع مبادىء المساواة والعدالة. وقد دعي للمشاركة في أعمال اللجنة التحضيرية كل من: إيران، والكاميرون، والهند، والصين، ولبنان، واليابان، والجمهورية العربية المتحدة، وروسيا، وسيلان، وأفغانستان، ومنغوليا، وأوغندا، وغانا، والحبشة، والباكستان، وفلسطين، والأردن، والسعودية، والعراق، واليمن، وقطر، وعمان، والكويت، والجزائر، والسودان، وليبيا والمغرب.

وقد انعقد المؤتمر في منتصف كانون الثاني من العام ١٩٦١، وانتخب الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني سبعة أعضاء برئاستي للمشاركة في المؤتمر هن: ماري كته، ووجدان إفرنجي، ونهيل الحسن، وبهية قبلاوي، وملك سمارة، ولميا أبو غزالة، ورجا بيدس، ومرفت دلول.

عند وصولنا إلى القاهرة كان الوفد الفلسطيني برئاستي والوفد اللبناني برئاسة عمتي ابتهاج قدورة ومعها السيدة أديبة قدورة قزعون شقيقتي، وكان في استقبالنا في المطار السيدة أمينة السعيد، رئيسة تحرير مجلة «حواء» والأديبة والكاتبة المعروفة، والآنسة بهية كرم سكرتيرة المؤتمر الآسيوي الأفريقي وبعض رئيسات الهيئات النسائية. كان الهدف من وراء هذا المؤتمر دراسة أهم مشاكل المرأة من الناحية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وقد ضم هذا

المؤتمر أكثر من ألف سيدة من نساء القارتين يمثلن ٦٠ دولة، واستمر سبعة أيام سافرت بعدها المندوبات إلى دمشق لمواصلة الاجتماعات، وقد نوقشت في المؤتمر عدة نقاط وكان من أهم موضوعات اللجنة الاجتماعية، موضوع مساواة البنت والصبي في حق التعليم والمعرفة، ورفع مستوى المرأة الثقافي، وحقها في تبوؤ مناصب مختلفة. أما لجنة الحقوق السياسية والقانونية فقد ناقشت موضوعات هامة منها حقوق المرأة السياسية وحقها في التصويت في الهيئات العالمية وخلال المؤتمر كان الإعداد للمعرض الكبير الذي ضم إنتاج نساء القارتين من أزياء وفنون شعبية تعبر عن طابع كل دولة.

وقد انتخب مجلس الرئاسة من إثنتي عشرة دولة، وكانت فلسطين عضواً في هذا المجلس، وكان لي شرف تمثيلها، وقد ألقيت كلمة عرضت فيها المشكلة القائمة في البلاد العربية مشكلة اللاجئين الفلسطينيين. كما بحثت قضية المرأة الفلسطينية وأوضاعها، وأوضاع فلسطين وأهلها وما نزل بهم من مصائب نتيجة السياسة الاستعمارية وخططها وأهدافها، وأعلنت للملأ بأن فلسطين هي وطننا ولن نقبل بالظلم النازل والأمر الواقع في بلادنا، وإننا مصممون على إسترداد وطننا.

وفي ١٦ كانون الثاني ١٩٦١ قامت جميع الوفود النسائية بتنظيم مسيرة إلى منزل الرئيس جمال عبد الناصر دون ترتيب أو علم مسبق، وعند وصولنا كانت مفاجأة للرئيس، فخطب فينا وصافح، كل واحدة منا والتقطت الصور التذكارية لكل وفد معه على حدة. وقد شكرنا الرئيس على هذه البادرة وأكد لنا أن منزله هو بيت للعرب وللشعوب الأفريقية والآسيوية. وقد عبر لنا عن سعادته لهذه المفاجأة وهي أن يرى نساء أفريقيا وآسيا على غير موعد، ووجه لنا رسالة بمناسبة افتتاح المؤتمر جاء فيها:

إنني أشعر بسعادة بهذه الروح التي أراها، إن هذه الروح تمثل الروح الكبيرة المتدفقة، إن عليكن مسؤولية بناء الجيل الجديد الذي نعتمد عليه لإقامة صرح حريتنا عن طريق التضامن الأفريقي الآسيوي، إن هذا التضامن يمثل القوى المعنوية الكبرى، إننا في حاجة إلى هذه القوى من أجل بناء أوطاننا في جميع

البلدان في قارة آسيا وأفريقيا، أرجو لكن النجاح في مؤتمركن وأشكركن مرة أخرى على هذه الزيارة التي أرحب بها.

وقد عاد الرئيس وألقى الكلمة نفسها في الوفود باللغة الإنكليزية لتفهمها الوفود غير العربية المشاركة. وقد استغرقت هذه المقابلة من الساعة الثالثة حتى الرابعة بعد الظهر.

ولما اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر بالوفد الفلسطيني، تقدمت منه ووضعت شارة الاتحاد المنقوش عليها خارطة فلسطين بكاملها ويظهر عليها عبارة «أننا عائدون»، على صدره، وقلت له: آمل يا سيادة الرئيس أن تسلمني إياها عن قريب إن شاء الله في فلسطين الحبيبة، فرد علي بالحرف الواحد «موعدنا يا أخواتي، في يافا».

وقامت رئيسات الوفود النسائية وأنا منهن بوضع إكليل من الزهور أمام النصب التذكاري لضحايا العدوان على بورسعيد.

وبعد انتهاء الزيارة ذهبت أكثر الوفود إلى دمشق لتكملة أعمال المؤتمر. وهناك استهل المهندس أنيس شباط أمين سر اللجنة التنفيذية للاتحاد القومي في مدينة محافظة دمشق الجلسة بكلمة قال فيها:

إن دمشق تستقبل نخبة ممتازة من ممثلات الشعوب الأفريقية والآسيوية اللواتي اشتركن في المؤتمر النسائي.

وعقد المؤتمر جلسته الختامية في ١٩٦١/١/٢٣ على مدرج جامعة دمشق، حيث أعلن عن قراراته وتوصياته وحضر الجلسة عدد كبير من الشخصيات الرسمية يتقدمهم الأمناء العامون وكبار الموظفين وأعضاء الاتحاد القومي ورجال السلك الدبلوماسي والقنصلي وعدد من سيدات دمشق، وقد زين المدرج بالأعلام العربية ورفعت على المنصة أعلام الدول الأفريقية الآسيوية المشتركة في المؤتمر، كما رفعت في صدر المدرج صورة كبيرة للرئيس جمال عبد الناصر. كما ألقت مندوبتا فلسطين والجزائر كلمتين وطنيتين في الجلسة الختامية.

وقالت الآنسة بهية كرم سكرتيرة المؤتمر إن المؤتمر نجح أكثر مما كنا نتوقع واشترك فيه عدد كبير من ممثلات الهيئات النسائية في آسيا وأفريقيا. وإنني لا أنسى الجهود وحفلات التكريم والدعوات التي قدمتها كل من مصر ودمشق للوفود النسائية.

بعد حوالى نصف عام من المؤتمر النسائي الافروآسيوي، تركت بيروت إلى تشيكوسلوفاكيا لزيارة ابنتي أمل وصهري الدكتور أديب الداودي، الذي كان وزيرا مفوضاً في سفارة الجمهورية العربية المتحدة في براغ. أمضيت أسبوعين بضيافتهما ثم اتجهت إلى لندن لحضور اجتماع الهيئة الإدارية للعصبة النسائية للسلام والحرية، ولحق بي بعض الأعضاء ومنهن لميا أبو غزالة ومرفت دلول لحضور مؤتمر دبلن كما أن ابنتي أمل تبعتني. وكان اجتماع لندن تحضيراً لمؤتمر سان فرنسيسكو العام ١٩٦٢، وقد سجلت في هذا المؤتمر كعضوة دولية في هذه العصبة.

مؤتمر دبلن

للعصبة النسائية للسلام والحرية:

حضرت مؤتمر دبلن كممثلة للبنان ورئيسة للاتحاد النسائي الفلسطيني، ومن المؤسف أنه لم تشترك أية دولة عربية في هذا المؤتمر سوى الجمهورية العربية المتحدة وفلسطين. ومن أهم القضايا التي نوقشت في المؤتمر قضية المساواة بين الرجل والمرأة في الحقوق الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والمادية، والمساواة بين الجنسين في أجور العمل. وقد طالبنا أيضاً بالسماح للمرأة بالوصول إلى المجالس النيابية حتى يتاح لها المجال للتعبير عن رأيها وهو رأي نصف الأمة.

كما كان طلبي الخاص، من جميع الهيئات الدولية ومنها اليونسكو وهيئة الأمم، عبر تقديم مذكرة رسمية، تعليم الطالب الفلسطيني ورفع مستوى التعليم للفتيات والفتيان وذلك بزيادة الصفوف العالية. فقامت مندوبة بريطانيا مسز بوش، وقدمت قراراً برفع مستوى التعليم لجميع اللاجئين في العالم، وكان التصويت

عليه بأغلبية الأصوات، فاحتججت على ذلك وقلت: إنني لا أمثل لاجئي العالم بل اللاجئين الفلسطينيين، واحتدم نقاش كبير في أعقاب هذا الطرح.

اضطررت بعده إلى الانسحاب من القاعة احتجاجاً، وقبل انسحابي أعلنت أني سأعقد مؤتمراً صحافياً أثير فيه المسألة. ولدى خروجي من القاعة وجدت وفد مصر يدخل إليها، مع أني كنت قد طلبت إليه حضور الجلسة لمساندتي. وقد لحقت بي الرئيسة مسز أشبي إلى الخارج، وهي تلح في عودتي إلى قاعة الاجتماعات، وبأنها ستحقق هذا الموضوع. قبلت شرط ألا أجلس في المقعد الأمامي مع الهيئة الإدارية، وجلست في آخر القاعة لانتظار النتيجة. فقامت مسز اشبي فتكلمت طويلاً حتى أقنعت جميع الحاضرات في أتخاذ هذا القرار. عندئذٍ تقدمت منها وشكرتها على ما قامت به من جهد في هذا الموضوع، كما شكرت الحضور، وكان هذا خيبة أمل بالنسبة لإسرائيل وللجهد الذي قامت به من أجل إسقاط المشروع. وبكل فخر أقول إنه عند الانتخاب كانت النتيجة لصالحي، وسقطت مندوبة إسرائيل من الهيئة الإدارية، وبعد هذه الحادثة المهمة قمت مع الوفد وابنتي وجميع الوفود بزيارة مستشفى في دبلن، وكنا نتحدث العربية، فلحقت بنا اثنتان من الراهبات المسؤولات في المستشفى وسألتانا إذا ما كنا عرباً، فأخبرناهما أننا فلسطينيات فقالتا إنهما معنا ضد إسرائيل التي تحاول استمالتهما. وروت إحداهن أن أخاها كان من كبار رجال الجيش البريطاني في فلسطين عند ضياعها، وبعد رجوعه إلى لندن قابل الملك جورج الخامس، وتحدث معه عن قضية فلسطين قائلاً: «مولاي صاحب الجلالة.. لقد ارتكبنا أكبر خطأ في ضياع فلسطين وتسليمها لإسرائيل» فتعرض لنقمة كبيرة إلى درجة إرساله إلى أفريقيا، وقالت نحن في إيرلندا مؤيدون لكم ولقضيتكم، فقلت لها إنني لا أنسى رئيس الأطباء الإيرلندي الدكتور بيغر الذي عمل وزوجي في فلسطين، وموقفه المشرف في دعم ثورة فلسطين، ذكرني كلامي بالدكتور بيغر وأخذت أبحث عنه، كي أزوره لمناسبة وجودي في بلده، إلا أني علمت أنه توفي منذ حوالى العام.

ما إن رجعت إلى بيروت حتى عقدت مؤتمراً صحافياً خصصته للحديث عن الدور الذي قمنا به في خدمة القضية العربية من خلال تمثيلي لبنان وكرئيسة

للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني في دبلن. إلا أن الموضوع الذي دفعني لعقد المؤتمر كان دعوة الدول العربية إلى مزيد من الاهتمام بالمؤتمرات الدولية، وضرورة إيفاد مندوبات لمواجهة النشاط الذي تبذله إسرائيل لتضليل الدول المشاركة في تلك المؤتمرات.

وما دام مؤتمر دبلن قد انتهى، فمن البديهي أن ينصب اهتمامي على مؤتمر عصبة النساء العالمية للسلام والحرية في سان فرنسيسكو في الولايات المتحدة الأميركية، والذي ستشارك فيه وفود من معظم دول العالم. بداية قمت بتوجيه برقيات ورسائل إلى جامعة الدول العربية ألح فيها على دعوة الدول العربية لإرسال مندوبات للمؤتمر المقرر عقده منتصف العام ١٩٦٢. وفي مطلع تموز انتدبتني الحكومة اللبنانية ممثلة لها في المؤتمر، إضافة إلى كوني رئيسة للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني وخصصت لي مبلغ عشرة آلاف ليرة كتكاليف سفر. وعليه تركت بيروت إلى لندن، ومنها إلى نيويورك، حيث كان ابني مروان بانتظاري، وأمضيت حوالى الأسبوع فيها التقيت خلاله السفير اللبناني في هيئة الأمم المتحدة الدكتور جورج حكيم على مأدبة غداء، ومندوب سوريا الدكتور صلاح طرزي على العشاء. ولما كنت قد أخذت معي خمس دراسات عن قضية فلسطين لأطبعها في مكتب الجامعة العربية في نيويورك لتوزيعها على المؤتمرين، فقد اطلع عليها مروان وتولى أمر دراستها وتنقيحها ثم تولى طباعة مئات النسخ.

فوجئت لدى لقائنا مع مندوب الجامعة العربية السيد فاروق مولوي على مائدة السفير اللبناني الدكتور جورج حكيم الذي أخبرني أن مندوبة الاتحاد النسائي اللبناني أنيسة نجار ستحضر إلى المؤتمر وذلك بناءً لطلبي، وقال:

إن الجامعة العربية قررت إرسال مندوبات للمؤتمر منهن: الآنسة كمال من العراق، وهي تعمل في وفد العراق في هيئة الأمم، والسيدة منيرة أبو ريشة زوجة السفير السوري في واشنطن، والآنسة فاطمة المطاوع من الكويت، وهي طالبة في الجامعة في نيويورك، وهؤلاء المندوبات كن سيتوجهن إلى المؤتمر تلبية لطلبي من الجامعة العربية، فاتصلت برئيسة المؤتمر وأعلمتها بقدومهن، وقد وجهت إليهن دعوة للقاء قبل يوم من ذهابهن، لأنهن لا يعلمن أي شيء عن المؤتمر

وعن الموضوعات التي ستطرح خلاله. وعند وصولنا إلى سان فرنسيسكو وزعت عليهن بعض الدراسات التي أعددتها وهي تتعلق بالموضوع الذي سيناقش في المؤتمر عن قضية فلسطين. وأجريت معهن بعض المراجعات ليتفهمن الموضوع ويصبحن قادرات على نقاشه في القاعة مع اللجان، وبعدها ذهبنا إلى أسيلومار وهي على بعد ست ساعات بالسيارة عن سان فرنسيسكو.

وقد علمت أن السيدة أنيسة نجار لم تكن مرتاحة لتمثيلي لبنان وفلسطين وحدي، وأرادت أن تمثل لبنان وحدها فذهبت هي وعمتي ابتهاج قدورة إلى وزير الخارجية في لبنان للاحتجاج على هذا الموضوع، فقال لهما: كنت أتمنى أن تقمن بمثل ما قامت به السيدة خرطبيل، فقد طلبت من الجامعة العربية إرسال مندوبات لحضور المؤتمر ولكن دون جدوى. ولم نجد أفضل منها لتمثيلنا في المؤتمر، وعليكن أن تشكروها على عملها الوطني والمنظم، فما كان من السيدة نجار إلا أن طلبت المساعدة لتتوجه إلى المؤتمر على غراري. فأجابها: هذا الأمر تقرر وانتهى، وقد تم اختيار السيدة خرطبيل لهذه المهمة.

مؤتمر سان فرنسيسكو:

بعد افتتاح المؤتمر في ٩ تموز ١٩٦٢ طلبت أن يضع المؤتمر على جدول أعماله موضوع اللاجئين الفلسطينيين العرب، خلال الثلاث سنوات القادمة، كما عرض، بناء لطلبي، فيلم «أجراس بيت لحم» في المؤتمر، وألقت جميع الوفود كلمات التحية بالإضافة إلى كلمتي عن القضية الفلسطينية، وكان لهذه الكلمة تأثير كبير لدى المؤتمرات، وبعدها تألفت لجان توزع عليها كل المؤتمرات مع الأعضاء العرب. وفي أثناء الجلسة قدمت مندوبة إسرائيل اقتراحاً ليكون على جدول أعمال المؤتمر، وعندها قدمت اقتراحاً مضاداً استطعت به أن ألغي الاقتراح الذي تقدمت به مندوب إسرائيل.

وكان في جدول أعمال ذلك المؤتمر العمل على نزع السلاح من أجل الحرية والسلام. فوافقت على هذا الاقتراح بشدة، ولكن للأسف اعترضت السيدة أنيسة نجار عليه، على الرغم من موافقة أغلبية الأعضاء، فاختلفت معها حول هذه النقطة.

ولدى عودتي إلى بيروت اجتمعت إلى الدكتور فايز صايغ لأسأله رأيه، فرد بأن الحق إلى جانبي مئة بالمئة، وأنه من صالح العرب الموافقة على هذا الاقتراح وهو نزع السلاح من إسرائيل وعدم تسلحها.

وفي المؤتمر طُلب أن تتألف لجنة للسلام والحرية في لبنان، وبأن أكون الرئيسة لهذه اللجنة، فرفضت وقلت لهم إنني أمثل لبنان وفلسطين، ولكن بوجود مندوبة لبنان أنيسة النجار، فالأفضل أن تكون هي الرئيسة، فكان لي ما أردت، وبعدها سافرنا إلى سان فرنسيسكو وزرنا الجامعات هناك وتعرفت على كثير من أصدقاء ابني مروان، وزرت مقر الجامعة العربية.

وبعد المؤتمر ركبنا أنا وأنيسة الطائرة في العودة عن طريق اليابان، إذ رغبت في اعتماد هذا الخط لزيارة ابنتي أمل وزوجها الدكتور أديب الداودي الذي كان قد عين سفيراً لسوريا في الهند. وهناك أمضيت بضعة أيام جميلة معهما زرت خلالها آثار شمال الهند والتقيت بعدد كبير من السفراء والشخصيات الهندية وزرت مجلس النواب واتصلت ببعض السيدات العاملات في الحقل الاجتماعي، واللواتي كنت أعرفهن من قبل.

مؤتمر استانبول:

وبين أواخر أيلول وأوائل تشرين الأول ١٩٦٢ عقد مؤتمر الطفل الدولي في استانبول وطلب من بعض الأعضاء أن يذهبن إلى هناك وكان منهن السيدات: ماري كته، والكسندرا ظريفة، ووجدان افرنجي، وملك سمارة، وكنت أنا قد ذهبت مع زوجي إلى اسطنبول بزيارة خاصة فحضرت بعض الجلسات لأهمية المؤتمر، وبقيت معظم الوقت برفقة زوجي، ثم عاد الوفد وبقينا هناك لمدة أسبوعين في رحلة سياحية زرنا خلالها جميع الأماكن الأثرية، ثم عدنا بعد ذلك إلى بيروت قبيل وصول ابننا مروان من أميركا.

وفي تشرين الثاني وصل مروان إلى لبنان وقد نال شهادة الماجستير بتفوق في الهندسة وكانت فرحتنا عظيمة بنجاحه ووصوله.

مؤتمر إيطاليا:

صيف العام ١٩٦٣ وجه الاتحاد النسائي الإيطالي دعوة لي إلى حضور المؤتمر النسائي الدولي، الذي كان يعقد كل ثلاث سنوات في بلد من البلدان، وتتوافد المندوبات لحضوره من كل دول العالم، وكان المقرر أن ينعقد تلك السنة في مدينة تريست إيطاليا بتاريخ ١٨ آب ١٩٦٤، وقد ذهبت والسيدة وجدان إفرنجي ممثلتين للاتحاد النسائي العربي الفلسطيني من لبنان، وللأسف لم تحضر مندوبات عن الدول العربية سوى الجمهورية العربية المتحدة التي تمثلت بالسيدتين بهيجة الرشيد وإحسان الأوسي، وكان هناك مندوبات عن ٣١ دولة. أما المواضيع التي بحثت في ذلك المؤتمر فكانت:

- حقوق المرأة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، أي أن تنال المرأة المساواة بينها وبين الرجل بكل معنى الكلمة لأن بإمكانها أن تثبت كفاءاتها في شتى الميادين.

- شرعة حقوق الإنسان ومعالجة مشكلة التفريق العنصري في جنوب أفريقيا. فلكل إنسان حقه في الحياة.

وقد انتهزت هذه الفرصة وبينت في التقرير الذي قدمته إلى المؤتمر حق كل إنسان في العودة إلى وطنه متى شاء طبقاً لما ورد في بنود كتاب شرعة حقوق الإنسان، وعنيت هنا اللاجئين الفلسطينيين فالمجرم ينفى من بلاده، أما الإنسان الشريف فله الحق كل الحق بالعودة إلى وطنه.

أما المواضيع الأخرى فهي العلاقات والصداقات والتفاهم بين كل الدول في العالم. كما تحدثت أيضاً عن موضوعات اجتماعية أخرى مثل تجارة الرقيق ومكافحة البغاء، ورفع مستوى المرأة ثقافياً واجتماعياً وتحديد السن الذي يسمح به للفتاة بالزواج، أي عندما تكتمل عاطفياً وتنضج فكرياً، وطبعاً كانت هذه التقارير برسم الدرس في هيئة الأمم المتحدة.

وفي ٣٠ - ٧ - ١٩٦٦ وصلتني رسالة من أحمد صدقي الدجاني تخولني الاشتراك في اجتماع المجلس الإداري لمؤتمر السلام والحرية الذي كان

سيعقد في استوكهولم، وفي اجتماع الاتحاد النسائي الدولي الذي سيعقد في أثينا بين ٢٠ آب و ١٠ أيلول، وكانت موافقتي من حيث المبدأ على هذا الاشتراك منوطة بالتنسيق مع الهيئة التنفيذية لاتحاد المرأة، لتحقيق الفائدة المرجوة لقضية فلسطين ومشاركتي كانت بصفتي رئيسة للاتحاد النسائي وعضو في الملجس الإداري لاتحاد المرأة.

لذا فقد بادرت إلى توجيه كتاب إلى السيدة عصام عبد الهادي باعتبارها رئيسة الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية قلت فيه:

بناءً على الدعوة الموجهة لي من العصبة النسائية للسلام والحرية لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية بصفتي عضواً استشارياً، وبما لهذا المؤتمر من أهمية خصوصاً أنه كان قد تقرر في الاجتماع السابق إرسال لجنة نسائية دولية من الأعضاء في اتحاد السلام والحرية إلى الشرق الأوسط، وبالأحرى إلى البلاد العربية بصفة خاصة للدراسة والتحقيق في قضية فلسطين وزيارة الأرض المحتلة. وقد وجهت لي الدعوة أيضاً إلى حضور مؤتمر الاتحاد النسائي الدولي الذي سيعقد في أثينا بصفتي عضواً في الهيئة الإدارية لبحث جدول المؤتمر المقبل ومكانه، وستكون إسرائيل ممثلة في هذه المؤتمرات، لذلك ولأسباب عديدة أهمها الحفاظ على مكاننا في المحافل الدولية حيث نستطيع أن نحارب إسرائيل والاستعمار وإفهام حقنا وأهمية قضيتنا للعالم الخارجي وقطع الطريق على إسرائيل في دعايتها الكاذبة، أرى من الضروري والواجب أن نحضر هذين الاجتماعين لأهميتهما القصوى.

مؤتمر أثينا:

وفي أواخر آب توجهت لحضور اجتماع الهيئة الإدارية للعصبة النسائية للسلام والحرية، أما غاية الاجتماع فهي دراسة تقارير فروع العصبة والطرق الكفيلة بتحسين الأسس التي قامت عليها لتعزيزها لتستطيع مجابهة التطور الدولي المعاصر وبحث المشاكل الدولية والسعي لإيجاد حلول لها. ولكن أكثر المسائل إثارة كانت حرب فيتنام واقتراح انتساب الصين الشعبية للأمم المتحدة. وقد فوجئت لدى وصولي بوجود صبا الفاهوم كممثلة لفرع لبنان، وما أدهشني أكثر

ما علمته عن وصول كتاب من رئيسة الفرع تدعي فيه أنني لا أمثل لبنان، علماً أنه قد سبق واقترحت على مؤتمر سان فرنسيسكو أن تمثل السيدة أنيسة نجار لبنان بما أنني أمثل فلسطين. وقد صدمني التصرف واستغربت ذلك المشرفات الإداريات. وعلى أي حال، فقد استمررت بتمثيل لبنان، فيما كنت في المقابل عضوة دولية أتكلم باسم فلسطين.

عندئذٍ تسجلت في العصبة كعضو دولي، وهذا ما تم بالفعل، لكن أعضاء الهيئة الإدارية أصررن على استمراري في عضوية اللجنة الدراسية التي تنظر في أمر انتساب الفروع إلى عضوية العصبة النسائية. وكان هذا تكريماً خاصاً لي، لأنه لا يحق لي في الواقع، كعضوة دولية، أن أكون في عداد تلك اللجنة باعتباري رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، والظاهر أن سبب تصرف رئيسة الفرع في لبنان هو أنها لم ترد أن أحضر الاجتماع المذكور بصفتي رئيسة للاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وإنما أرادت أن أحضر كعضو عن لبنان فقط، وهذا الأمر كان موضع نقاش بيني وبين رئيسة الفرع قبل سفري وبحضور عددٍ من أعضاء الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني بمن فيهن الآنسة صبا الفاهوم التي هي فلسطينية، وقد تبين لي بعد وصولي إلى استوكهولم أن ما جرى كان مؤامرة مدبرة من رئيسة الفرع بالتعاون مع الفاهوم، ومع ذلك فقد أبديت للآنسة الفاهوم استعدادي للعمل سوية لما فيه مصلحة لبنان وقضية فلسطين والبلاد العربية، وذكرت لها أن من الواجب أن نتعاون للدفاع عن هذه القضايا والوقوف في وجه المندوبات الإسرائيليات مهما كان الأمر، وهذا ما جرى.

وقد وجدت أن المندوبات الإسرائيليات كن قد أعددن مشروع قرار عن تعليم اللاجئين الفلسطينيين، وقد عمم هذا المشروع على الفروع المختلفة بما فيها فرع لبنان الذي لم يرسل أي انتقاد أو تعديل لمشروع القرار الإسرائيلي، مع العلم أنه كان لديه متسع من الوقت وكان من واجبه عدم السكوت على المشروع! لذلك قمت بتقديم تعديل لمشروع القرار الإسرائيلي، وقد أدى ذلك إلى وقف دراسة مشروع القرار الإسرائيلي وهو ما جعل المندوبة الإسرائيلية تبدي انزعاجها من هذا الأمر وتنسحب من الاجتماع، وكان ذلك نصراً لي ولوجهة النظر العربية، كما قدمت استعراضاً لأوضاع الشرق الأوسط وقطعت الطريق فيه

على المحاولات التشويهية التي اعتادت مندوبات إسرائيل أن يصورن فيها الأوضاع العربية. لقد كان هذا المؤتمر موفقاً وناجحاً بالنسبة إلى القضايا التي نوقشت، على الرغم من أنني وجدت نفسي حين ذهبت أمام مساع ومؤامرات تحاول إضعاف موقفي في اجتماع الهيئة الإدارية. وقد أظهر هذا التصرف مدى هول الدسائس التي تحاك، ولو كنت أعرف أن فرع لبنان سيرسل مندوبة عنه لرحبت بذلك وزودتها بكل ما تحتاجه من معلومات وبيانات ووفرت على نفسي عناء السفر واكتفيت بحضور المندوبة المذكورة، ولكن أسلوب المباغتة هذا كان عملاً غير لائق، وأنه لمن المحزن أن نظهر على هذا النحو أمام الهيئات والمنظمات الدولية، على كل، ففي نهاية المؤتمر اعتذرت الآنسة الفاهوم مني وشكرتني على روح التعاون والمرونة التي أبديت.

وإزاء هذا التصرف غير اللائق الذي انعكس على قضيتنا طلبت بعد عودتي عقد اجتماع عاجل للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بالاشتراك مع لجنة التنظيم الشعبي في منظمة التحرير لأقدم إليهما تقريراً مفصلاً عما جرى ليكونا على بينة من الأمر حتى لا تتكرر هذه الأعمال في المستقبل، فيضعف بذلك موقفنا الصلب لمواصلة كفاحنا ضد إسرائيل والعمل لإشراك أكبر عدد ممكن من الهيئات النسائية الفلسطينية المخلصة.

وحين عدت إلى بيروت قادمة من استوكهولم وأثينا في ٨ أيلول ١٩٦٦ رافقتني السيدة البيغوم أنور أحمد رئيسة الاتحاد النسائي الدولي زوجة سفير الباكستان في لندن وأمضت البيغوم أربعة أيام بضيافة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني زارت خلالها برفقتي مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وأبدت اهتماماً كبيراً بضرورة تعليم أبناء اللاجئين حتى يصبح هذا الجيل قادراً على تحمل مسؤولياته القومية كما زارت مركز بيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب والذي كان الاتحاد النسائي الفلسطيني يقوم ببنائه بفضل المساعدات السخية التي تلقيناها من المملكة العربية السعوية والمغرب وبلدان الخليج وبلاد عربية أخرى وأفراد محسنين، والذي قررنا تخصيصه لإيواء وتعليم المئات من أبناء الشهداء الفلسطينيين الذين فقدوا آباءهم خلال العمليات الفدائية ضد المحتل الصهيوني وسواهم من الأيتام الذين يحتاجون إلى العون والمساعدة. وقد أبدت السيدة

البيغوم إعجابها به وبالنهضة الاجتماعية في لبنان بصورة عامة.

لم يكن نشاطنا مقتصراً على حضور المؤتمرات ومقارعة الحضور الإسرائيلي فيها، فقد كان من الطبيعي أن نتفاعل مع الأحداث التي تشهدها المنطقة، وهذا ما يتضح لدى استعراضنا للمؤتمرات والجولات العربية التي قمنا بها كاتحاد عربي فلسطيني، إلا أنه في مضمار حضورنا الدولي، لا بد من التأكيد أننا جعلنا ساحات العالم، ميداناً فسيحاً لتحركاتنا. ففي أعقاب العدوان الإسرائيلي بتاريخ الخامس من حزيران ١٩٦٧ وما نتج عنه من مآسي، كان لا بد للاتحاد من تكثيف نشاطاته والقيام بتحركات واسعة وإجراء اتصالات للحصول على العون للنهوض بالمسؤوليات. وكان في صلب قرارنا القيام بجولتين إحداهما إلى الولايات المتحدة الأميركية والثانية إلى المغرب.

بدأت الأولى في الثاني من كانون الأول العام ١٩٦٧، عندما توجهت برفقة افلين حمصي إلى لندن ومنها إلى نيويورك، وبمساعدة الدكتور عزت طنوس رئيس مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك أقمنا في فندق ثيودور القريب من مبنى الأمم المتحدة ومكتب منظمة التحرير الفلسطينية، وأخذنا نتصل بمختلف الهيئات من أجنبية وعربية وفلسطينية، واستطعنا الحصول على عناوين الجاليات العربية المنتشرة في أرجاء الولايات المتحدة. وكان الفضل في ذلك لكل من الدكتور عزت طنوس والسيدة حسن وصهري الدكتور أديب الداودي الذي كان مندوب سوريا إلى مجلس الأمن والذين عرفونا إلى أعضاء الوفود العربية والسفراء العرب. وقد تسنى لنا الاتصال بسفراء دول النفط ومندوبيها، والاجتماع بمختلف الشخصيات السياسية، وحضور بعض جلسات هيئة الأمم المتحدة وتم الاتصال مع لجان مثل نيد (لجنة إيزنهاور) لتوضيح صيغة عملنا وطلب معونات خصصت لمشاريع فلسطينية.

بعد الإقامة في نيويورك وإثر انتهاء عطلة عيدي الميلاد ورأس السنة توجهنا أنا وإفلين حمصي إلى ديترويت في الرابع من كانون الثاني، حيث استقبلنا كريم عجلوني وحسن نواس رئيس الطلبة اللذين حللنا في ضيافتهما، كما التقينا الشيخ محمد جواد شري رئيس النادي الإسلامي الذي ألقيت كلمة فيه عن ملابسات

حرب حزيران. كما اجتمعت هناك مع قنصل لبنان سهيل فريجي وحنا عجلوني رئيس المجلس الفلسطيني وسلمى حداد وجوليا منصور ونبيهة حيدر ونظمية القادري والقس توماس رفن رئيس اللجنة العربية للمساعدات. كل هؤلاء قدموا لنا المساعدات وجمعوا لنا الأموال التي أودعناها المصرف الذي تتعامل معه المنظمة عملاً بالاتفاق المعقود بيننا وبينها.

ومن ديترويت إلى شيكاغو، حيث استقبلنا فيها قنصل لبنان نقولا سلامة، كما التقينا السيد كلا رئيس المساعدات الفلسطينية الأميركية والدكتور جنون وطريف الخالدي وزوجته أمل وسلوى حسن، وحللنا ضيوفاً على المؤتمر العربي الأميركي من أجل فلسطين. وفي اليوم التالي لوصولنا، وكان الحادي عشر من كانون الثاني ١٩٦٨، دعانا الأب أنطوني غبريال لإلقاء كلمة في الكنيسة لتوضيح مشروعنا، وقد سأل أحد الحضور عن ديانة أطفال بيت إسعاد الطفولة، فكان جوابي له أن السيد المسيح عامل جميع الأطفال كأولاد للرب. كما ألقيت كلمة في النادي الإسلامي. ثم افترقنا أنا وإفلين فذهبت هي إلى كاليفورنيا لزيارة أقاربها فيما توجهت إلى سولت ليك حيث استقبلني ابني هشام الذي كان يتابع علومه في جامعة لوفان. وقد التقيت في سولت ليك الطلبة والجالية العربية، وأذكر السيدتين روضة أبو غزالة وعزيزة عطية ورئيس جماعة «المرمونز» وكان لي مقابلات مع مندوبي محطات الإذاعة والتلفزيون، وقد ساعدني الجميع ووعدوا بتقديم كل عون.

التقيت مجدداً بأفلين حمصي في سان فرنسيسكو، واجتمعنا فيها بعدد كبير من أبناء الجاليتين العربية والفلسطينية وقابلنا ويليام جدعون قنصل شرق الأردن، وفاروق المولي مسؤول الجامعة العربية وزوجته نجوى الجابري وإبراهيم طباواشا رئيس مؤتمر رام الله في المدينة. ثم قصدنا لوس أنجلوس حيث استقبلنا قنصل لبنان الفخري وديع أديب وكل من جورج زريقان، سهيل قعوار، عصام قبعين، سمير صايغ، إبراهيم فريد رئيس لجنة «اومن» والدكتور صبري الفرا، وقد أعدوا لنا برنامجاً يشمل دعوات ومحاضرات، فيما كانت الأموال مهيأة سلفاً ومعدة بإتقان.

من لوس أنجلوس قصدنا المكسيك واستقبلنا فيها قنصل لبنان إدوارد خياط والسيدة إدوارد ريحان، وكان برنامجنا معداً سلفاً، وخلال إقامتنا في فندق «بريزدانتا» حدثت هزة أرضية دفعت جميع النزلاء إلى الخروج من الغرف، وكان معظمهم بثياب النوم، وقد زرنا نادياً للجالية العربية هناك وجمعت التبرعات لمشروعنا.

في الرابع من شباط كنا في هيوستن واستقبلنا قنصل الأردن صابر الأموي وزوجته سلمى، وحللنا ضيوفاً عليهما في المنزل، وقد أمنوا لنا لقاء عدد كبير من الشخصيات العربية والأميركية أذكر منهم: داود الطرزي وزوجته، نديم ناصر وزوجته وأنطوان.. رئيس نادي المساعدات السورية ـ اللبنانية. وقد ألقيت كلمة بعد قداس الأحد شرحت فيها أهداف الزيارة وكان التجاوب معها واسعاً. توجهنا بعدها إلى فلوريدا حيث مكثنا يومين فيها، بعدهما قصدنا واشنطن فبلغناها في ٨ شباط، وكان في استقبالنا عفيفة ديراني من السفارة اللبنانية، وأثناء إقامتنا اتصلنا بعدد كبير من الشخصيات العربية أمثال جايمس سامي وكميل نوفل وسفير الكويت طلعت غصين والدكتور هشام شرابي وعدد من الطلبة العرب أصدقاء ابني مروان وزرنا جامع المدينة حيث ألقيت كلمة بدعوة من الجالية العربية هناك، وأثناء وجودي في واشنطن تلقيت اتصالاً من السيدة فيليس قطيط عن طريق السفارة اللبنانية أبلغتني فيه أن مؤسسة إيزنهاور «نيد» على استعداد للقائنا في واشنطن، وكان هذا الخبر ساراً، ودفعنا بعد اللقاء إلى العودة إلى نيويورك، حيث اتصلنا فوراً بالسيدة كريمة سكرتيرة لجنة نيد التي حددت لنا موعداً في اليوم التالي لمقابلة أعضاء اللجنة وكانوا أربعة منهم: جون كيلر أمين الصندوق، وجون ملينكتون، والسيد جيمس رئيس شركة ستاندرد وعضو اللجنة التنفيذية لهيئة لجنة نيد، وقد أعربت اللجنة عن سرورها لمساعدتنا وأفادنا الأعضاء أنهم طلبوا من السفارة الأميركية في بيروت التحقق من المشروع الذي كنا نقوم به لمعرفة ما إذا كان يستحق الدعم المادي، ولما وجدوا أنه جدير بالمساعدة وافقوا على تقديم مساعدة فورية لاقتناعهم بجدوى المشروع الذي نقوم به وهو بيت إسعاد الطفولة وفائدته. وكان تقديرهم للمنافع التي ستجنى من المشروع يفوق ما كنا قد بيناه في طلبنا المساعدة وقد قدم لنا مبلغ مائة ألف دولار مساعدة فورية ووعدونا

بتقديم خمسة وعشرين ألف دولار سنوياً في المستقبل.

منها قصدنا بوسطن، واجتمعنا فيها بالجالية العربية هناك والتقينا الكثيرين ومنهم السيد أنطوني خياط والسيدة حمصي وغيرهم. وقد ساعدتنا الجالية الموجودة في بوسطن مثلها مثل سائر الجاليات العربية في الولايات المتحدة، وقدموا لنا التبرعات التي كانت تحوّل دائماً إلى حساب منظمة التحرير الفلسطينية في نيويورك لترسل من هناك إلى الاتحاد في بيروت.

وفي جميع جولاتنا، كنا نجري مقابلات صحافية وإذاعية وتلفزيونية، ونتحدث عن القضية الفلسطينية ونزود الهيئات والأفراد بالمعلومات والنشرات التي توضح طبيعة عملنا والمشاريع التي حققناها أو كنا نحضرها لتنفيذها في المستقبل.

وكانت بوسطن ختام برنامج الجولة الأميركية، عدنا بعدها إلى بيروت.

أما زيارة بلدان المغرب العربي فقد تولاها وفد من الاتحاد قوامه السيدات: عبلة ربيز (رئيسة)، ونهيل حسن (أمينة سر) وفريدة خورشيد ولميا أبو غزالة عضوان. وخلال هذه الجولة تم تحويل مبلغ مليون وخمسماية وأربعة وأربعين ألف ليرة لبنانية تبرعاً من الملك الحسن الثاني إلى البنك العربي، وقد أعلمنا بالمبلغ المحوَّل السيد سامي العلمي مدير البنك العربي في بيروت، أما سائر التبرعات فكانت تعهد رئيسة اتحاد التونسيات بالاشتراك مع والي بلدتي نابول وصوصة بكساء خمسمائة طفل وطفلة بالملابس الشتوية والبطانيات وتقديم إتحاد النساء الجزائريات كساء لثلاثمائة طفل وطفلة أيضاً، كما تبرع يوسف مادي من طرابلس الغرب بتبني مائة طفلة من أطفال بيت إسعاد الطفولة والإنفاق على تعليمهن وإقامتهن، علماً أن الوفد صدم لدى زيارته ليبيا ومعرفته أن سيدتين قد سبقتاه كانتا تنتحلان صفة تمثيل الاتحاد، وجمعتا مبالغ طائلة من المال وعادتا إلى بيروت.

مسيرة في لندن:

النشاط الدولي اللاحق الذي قمنا به كان في بريطانيا للاشتراك في المسيرة

التي كانت تعتزم القيام بها النائبة العمالية مارغريت ماكاي في إطار مهرجان أسبوع اللاجئين، وقد غادرت بيروت بتاريخ ١٩٦٨/٦/٧ برفقة السيدات: وجدان إفرنجي، وندى يشرطي ولميا أبو غزالة تلبية لدعوة ماكاي حضور المهرجان والمسيرة في ساحة ترافلغار دعماً للقضية الفلسطينية. وعلى متن الطائرة التقينا وفداً من أعضاء البرلمان البريطاني كان في جولة على البلدان العربية وتم التعارف معه وخصوصاً عضو البرلمان الآنسة سايكس وزميلة ماكاي، لكن ما إن وصلنا حتى علمنا أن المسيرة ألغيت بسبب الحداد على روبرت كينيدي، على أن تستمر البرامج الأخرى المقررة. وتبعاً لذلك اجتمعنا مع مندوب وزارة الإعلام الأردنية بطرس صلاح، ثم مع وزير خارجية الأردن أنطوان عطاالله والوفد الأردني الذي حضر خصيصاً للاشتراك في المهرجان. في فندق برنس أوف ويلز، ثم توجهنا إلى المكان الذي سيقام عليه المعرض لوضع الترتيبات النهائية له. ولكن في اليوم التالي اضطرت سايكس إلى الإعلان عن تغيير مكان اجتماع الوفود، وهناك تحدثت هي وكل من جوسه بنز عضو البرلمان البريطاني وكمال ناصر والأميرة دينا ملكة الأردن السابقة. وفي اليوم التالي كان موعد الاحتفال المقرر.

على أي حال أمضينا الفترة في لندن، وحاولنا جهدنا أن نجعلها مفيدة، فقد عقدنا لقاء مع الطلبة العرب في مقر الاتحاد حيث ألقيت كلمة شرحت فيها دور المرأة العربية في قضية العرب عموماً وقضية فلسطين خصوصاً. كما توجهنا إلى مجلس العموم البريطاني والتقينا ماكاي لأكثر من ساعتين فركزت على سبب إلغاء الاجتماع والمسيرة، وكذلك اجتمعنا إلى السيدين روحي الخطيب ويوسف عبده، وحضرت اجتماعاً للعصبة النسائية للسلام والحرية وزرنا مجلس العموم ومكتب وزير الخارجية، حيث تحدث الوزير ويلسن وكل من الوزير عطاالله والخطيب وناصر، وفي قاعة المجلس عرض علينا فيلم «اكسيدوس» ثم فتحت لنا ماكاي باب المناقشة واجتمعنا إلى وزير الدولة للشؤون الخارجية روبرتس وقدمنا له مذكرة، كما لبينا دعوة أعضاء الاتحاد النسائي الدولي إلى الغداء وشرحنا لهن خلالها مهمتنا، وأقمنا لهن حفلة في قاعة حفلات مجلس العموم ارتدت خلالها السيدتان ندى اليشرطي ووجدان إفرنجي اللباس الوطني لكل من رام الله وبيت لحم، وحضرنا صلاة في جامع المقر الإسلامي في لندن، وقد

تحدث إضافة إلى خطيب الجامع روحي الخطيب. وقد التقينا هناك سفير الأردن مدحت جمعة الذي أبلغنا أن الوزير عطاالله يعتزم السفر إلى ألمانيا في اليوم التالي لحضور اجتماع تعقده جمعية الصداقة الألمانية الأردنية في بون، وقد دعانا هو والوزير عطاالله إلى الذهاب لحضور الاجتماع، فكان أن توجهنا إليها في اليوم التالي، حيث حضرنا اجتماعاً كبيراً أقامته جمعية الصداقة الألمانية ـ العربية، وكنت في عداد المتحدثين خلالها، واجتمعنا في اليوم التالي مع عدد من الأعضاء النافذين في الجمعية ومنهم الدكتور هانيز والقنصل الفخري الأردني في هانوفر ومدير مكتب الجامعة العربية في بون زهير قباني. واتصل بنا وفد من الطلاب والعمال العرب في بون قوامه يوسف عبد المهندي (نابلس)، وشريف أبو حسن جابر (بئر السبع)، وإسماعيل عبد الرحمٰن أبو صلاح (جنين)، وماهر زيد، وفايز عواد (قضاء جنين ـ سيريس)، ورشدي الجمل، ومحمد محمود سمارة، ومالك سباعي (حلب)، ومحمود اللبدي (حيفا)، وديب أحمد ديب (جنين)، وفي المساء أدليت بحديث إلى إذاعة الـ بي.بي.سي. عن أهداف الاتحاد والغاية من الزيارة.

ويوم الثلاثاء في ١٩٦٨/٦/١٨ قابلنا في الصباح الدكتور جهلغوف مسؤول العلاقات للشرق الأوسط الذي استفسر عن مشروعنا ونصحنا الاتصال بالمنظمات والمؤسسات الخاصة ومن ثم الحكومات أو إبراز إفادات بأعمالنا من مراجع موثوقة.

اتصلنا بالسفارة الأردنية في بون عارضين على المسؤولين فيها الموضوع وطالبين المساعدة، فوعدتنا بالاتصال بالمراجع المختصة لتسهيل مهمتنا.

ويوم الأربعاء في ١٩٦٨/٦/١٩ أجريت مقابلة مع مندوب الإذاعة الأردنية في بون تحدثت فيها عن أهداف الاتحاد والغاية من زيارتنا. وبعد الظهر توجهنا إلى فرانكفورت حيث اتصل بنا الطلاب الفلسطينيون (إتحاد طلبة فلسطين) وهم السادة: عبد الرحمٰن توفيق علاوي، وعبد الله إفرنجي، ونبيل نصار (القدس)، وأمين الهندي (رئيس الاتحاد في ألمانيا والنمسا). وقد أخبرونا عن نشاطهم الإعلامي هناك وأهميته وأنهم نظموا محاضرة عن القضية الفلسطينية تكلم فيها

البروفسور ابندروث الذي يتزعم الحركة الطلابية اليسارية في ماربورغ.

ويوم الخميس في ١٩٦٨/٦/٢٠ حضرنا اجتماعاً عقده الطلبة الفلسطينيون هناك وتعرفنا إلى سيدة ألمانية أعانتنا في الاتصال بالمؤسسات الألمانية الخاصة وقد عيناها عضو شرف في الاتحاد. وكانت مناسبة لاطلاعنا على أوضاع الفلسطينيين الذين كانوا يعانون من الضيق بسبب تأخر مساعدات الجامعة العربية المالية. وقد اتصلنا بمسؤولي الجامعة العربية وطلبنا منهم مساعدة هؤلاء الطلاب بأقصى سرعة. ثم توجهنا إلى فرانكفورت ومن هناك عدنا إلى بيروت.

وفي وقت لاحق تلقينا رسالة من السيد هارولد ويلسن رئيس الوزراء البريطاني رداً على المذكرة التي سلمناها للسيد بروبرتس وزير الدولة للشؤون الخارجية.

وبتاريخ ٤ تموز، وجهت وزارة الخارجية الأردنية إلى سفارة ألمانيا الاتحادية في الأردن كتاباً تفيدها فيه عن أوضاع الاتحاد والمشاريع الإنسانية التي يقوم بها ومنها بيت إسعاد الطفولة، وطلبت من السلطات الألمانية والدوائر الألمانية المختصة الاتصال بوزارة التعاون الاقتصادي في ألمانيا الاتحادية المسؤولة عن مساعدة المؤسسات الإنسانية والثقافية من أجل العمل على تقديم الهبات التي تمكن مؤسساتنا من القيام بمهمتها الإنسانية لرعاية أبناء وعائلات اللاجئين الفلسطينيين، خصوصاً وأن الحكومة الألمانية ترعى مثل هذه مشاريع.

وقد أرفقت وزارة الخارجية الأردنية كتابها بنبذة عن الاتحاد وبيت إسعاد الطفولة والمشاريع المنوي تنفيذها، وأعطت أسماء القيمات على المؤسسة وأشادت بعملهن ونشاطهن واندفاعهن ونزاهتهن، وذكرت بعض المؤسسات العالمية التي سبق أن قدمت مساعدات بهذا الخصوص إلى الاتحاد ومنها مؤسسة نيد.

مؤتمر باريس:

بعد بون كان الموعد في باريس لحضور مؤتمر الاتحاد النسائي العالمي، الذي أبرق إلى بيروت يدعوني للمشاركة قبل يوم ونصف اليوم من الانعقاد،

ورغم أني لم أكن مهيأة للحضور فيما يخص إنجاز معاملات السفر والحصول على تأشيرة دخول، إلا أني حرصت على ألا يفوتني الحضور كون المؤتمر مناسبة دولية تحضرها مندوبات عن الاتحادات النسائية في العالم. وتشاء الصدف أن يجتمع عندي في المساء القاضي وفيق الحسامي والمحامي جان الخوري والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي وبعض أعضاء الاتحاد فأعلمتهم بالدعوة وضيق الوقت المتاح، فأشار علي المهندس الفاروقي الاتصال بمدير الأمن العام آنذاك أنطوان الدحداح الذي كنت على معرفة به، وفعلاً اتصلت به وأتممت المعاملات الضرورية وسافرت في اليوم التالي وكنت في باريس في الأول من آذار ١٩٧٥، لحضور المؤتمر الذي يرعاه الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان.

وقد إستقبلتني السيدة إيرين دوليكوفسكي رئيسة المؤتمر ومن كبار المسؤولات ورئيسة عدد من الهيئات الاجتماعية والانسانية في فرنسا.

كان هذا المؤتمر بمبادرة من أمينة سر الدولة لشؤون المرأة الفرنسية السيدة فرانسواز جيرو وذلك في نطاق نشاطات السنة العالمية للمرأة، ووصل عدد المندوبات فيه إلى ١٢٣٥ إمرأة. وقد حضرته أيضاً عقيلة الرئيس ديستان والوزيرة الفرنسية سيمون ڤيل.

وقد ألقيت كلمة بالإنكليزية تحدثت فيها عن دور المرأة الفلسطينية، وشكرت الرئيس ديستان والشعب الفرنسي لرعايتهما هذا المؤتمر، واهتمامهما بالقضية الفلسطينية وتفهمها ودعمها على مختلف الصعد. كما شكرت أيضاً الرئيسة دوليبكوفسكي وأعضاء لجنة المؤتمر على الرعاية والجهود الحثيثة لإقامته وتنظيمه وإنجاحه، وتمنيت لهم التوفيق وأن يعم السلام والخير في السنة العالمية للمرأة.

وتحدثت عن المآسي والصعوبات والتشرد التي يعاني منها الشعب الفلسطيني من جراء احتلال أرضه وسلب وطنه وقيام المرأة الفلسطينية بمساعدة الرجل على تحمل أعباء حياته البائسة، وحفاظها على التراث والمجتمع وتمسكها بالتقاليد والأعراف رغم شظف العيش ومرارته.

وبعد أن ذكرت بقرارات الأمم المتحدة وشرعة حقوق الإنسان وحق تقرير

المصير، طالبت جميع المندوبات المؤازرة والمساعدة لدعم قرارات الهيئة الدولية والعمل وفقاً لأنظمتها والتمسك بمبادئها من أجل إعادة الحق إلى أصحابه والسلام إلى العالم.

وقد حضر هذا المؤتمر مندوبات عن لبنان وفلسطين ومصر بالإضافة إلى البلدان التالية:

فرنسا وبريطانيا، فرنسا، والنمسا، وبلجيكا، والكونغو، وألمانيا، وكندا، وبولونيا، والكاميرون، والدانمارك، وفنلندا، والسنغال، والغابون، وإيرلندا، والنروج، والبرتغال، وجمهورية أفريقيا الوسطى، وتركيا، ويوغوسلافيا، وفيتنام الجنوبية، وزائير، والسويد.

وأثناء إقامتي في باريس التي امتدت حتى السادس من آذار ١٩٧٥ التقيت الدكتورة نشأة الخطيب التي كانت تدرس في جامعة السوربون ورافقتني في معظم جولاتي هناك.

لقد قمت أيضاً برحلات خاصة لزيارة الأقارب والأهل ومنها رحلة إلى الولايات المتحدة الأميركية صيف العام ٨١ وأخرى إلى سويسرا في أعقابها. ودوماً كنت أقوم باتصالات واجتماعات لمصلحة القضية التي من أجلها نذرت حياتي.

ففي ٢٤ آب ١٩٨١ ذهبت إلى سان فرنسيسكو مع أخت زوجي نوال وزوجها مصطفى السحتوت اللذين يقيمان في سكرامنتو قرب سان فرنسيسكو فلقد أمضيت بضعة أسابيع في ضيافتهم، وكانت رحلة ممتعة فلقد زرنا جميع المناطق المحيطة وهي جميلة جداً. في جامعة سكرامنتو دعيت إلى اجتماع للطلبة الفلسطينيين بحضور حوالى ٢٠٠ طالب من الطلبة العرب، وقد ألقيت كلمة عن المرأة الفلسطينية والاتحاد النسائي العربي الفلسطيني العربي والأوضاع اللبنانية، ثم فتح باب الأسئلة التي شملت مختلف المواضيع، وقد طلب فيها عدد من الطلاب نقل رسائل إلى ذويهم لتعذر البريد فلبيت ذلك بطيبة خاطر. وفي نهاية اللقاء ألح عليّ الطلبة بعقد اجتماع آخر، فوافقت على ذلك على أن يكون في الأسبوع التالي. وقد التقيت أكثر من مرة رئيس الطلبة أحمد الخطيب وهو

من أبناء الفلسطينيين المقيمين في الكويت وقد درس في إسبانيا وبريطانيا، وزارني في بيت صهري مصطفى السحتوت وقد استفسر عن أمور كثيرة. كما اجتمعت إلى الطلبة ثانية في منزل زياد منصور، وقابلت مصطفى حلواني مع رندة السلطي وعبد القادر طه الذي طلب المساعدة على تأمين منحة له من مكتب صندوق طلبة فلسطين في بيروت، وقد فعلت ذلك وأمنت طلبه لدى عودتي.

وفي السابع والعشرين من أيلول سافرت من سان فرنسيسكو إلى جنيف حيث كان باستقبالي ابنتي أمل وزوجها الدكتور أديب وبناتهما رلى ورانية ومروى وليما. ويوجد في جنيف جالية سورية ـ لبنانية من الأصدقاء والمعارف القدامى وسررت لرؤيتهم واللقاء بهم. وكان سفير لبنان حينذاك في بيرن الدكتور سعيد الأسعد وزوجته السيدة بهيجة الصلح وسفير الأردن عبد الله صَلاح وزوجته فدوى وهم أيضاً من المعارف، وأثناء زيارتي سافرت ابنتي أمل إلى دمشق لحضور افتتاح المشروع الذي قامت به قبل تعيين زوجها في جنيف كسفير سوريا لدى الأمم المتحدة وهو إنشاء قرية للأطفال S.O.S.

وقد زارتني في الرابع من تشرين الثاني بيرل غروبيي، وتباحثنا في أمور الاتحاد النسائي والعصبة النسائية للسلام والحرية والعمل النسائي الفلسطيني والنشاطات التي أقوم بها. وغروبيي على علاقة بالجمعية السويسرية التي تعمل للقضية العربية، وقد مثلت بلادها في الاتحاد النسائي والعصبة النسائية للسلام والحرية. وفي أول اجتماع لنا في مؤتمر سيلان كانت مواقفها غير صديقة لقضية فلسطين، وبعد أن دعوتها لزيارة لبنان وحضرت وبرفقتها ابنها الشاب كريستيان وكان عمره ١٧ سنة وزيارتهما للمخيمات الفلسطينية وإطلاعهما على معاناة الشعب ومأساته أصبحت من أكبر الأصدقاء لقضية فلسطين. وقد دخل ابنها المجال السياسي وانتخب وزيراً في حكومة جنيف ثم أصبح رئيساً لها لمدة عام وهو من أكبر المناصرين للقضية الفلسطينية. ولما زاره ذات يوم رئيس الدائرة السياسية في منظمة التحرير الفلسطينية فاروق القدومي لشرح قضية فلسطين بادره كريستيان وكان رئيساً لدولة جنيف قائلاً: لقد اكتشفت مأساة فلسطين في سن السابعة عشرة عندما دعت والدتي السيدة خرطبيل ورأيت بأم العين الحقيقة الساطعة.

وقد عادت ابنتي أمل من دمشق مسرورة لافتتاح الرئيس حافظ الأسد مشروع الـ S.O.S، وقد أحضرت معها فيلماً عن الافتتاح شاهدناه وكان احتفالاً كبيراً.

ويوم الخميس في ١٢ تشرين الثاني ١٩٨١ أقامت ابنتي أمل وزوجها الدكتور أديب مأدبة غداء على شرف وزير التربية السوري والوفد المرافق إلى مؤتمر التربية وقد دعونا إلى الغداء الوفد الفلسطيني وكان من بينهم حنا ناصر عضو اللجنة التنفيذية ومدير مدرسة بيرزيت، وهو يقطن في عمان بعد نفي سلطات الاحتلال الاسرئيلية له بسبب نشاطه السياسي، وداود بركات ممثل المنظمة في هيئة الأمم المتحدة في جنيف، وكان الحفل فرصة لبعض اللقاءات المجدية. وأثناء زيارتي جنيف، زرنا مناطق مختلفة من سويسرا وهي بلاد جميلة الطبيعة وفي غاية النظام، كما زرنا معارض واحتفالات عديدة مع ابنتي وصهري، واجتمعت إلى عدد من الشخصيات الذين حضروا خصيصاً للمشاركة في اجتماعات هيئة الأمم المتحدة. وفي ١٧ تشرين الثاني غادرت جنيف إلى بيروت حيث الحياة كانت صعبة والحرب لم تتوقف بعد. وقد كان سروري كبيراً للرجوع والعيش بين أهلي وأصدقائي وكان في استقبالي ابني هشام وزوجته سامية وأولادهم.

الفصل الرابع

أربعون يوماً في الأمم المتحدة

الأربعون يوماً التي أمضيتها في مقر الأمم المتحدة في نيويورك في عداد الوفد الفلسطيني لا تنسى، ليس لأنها كانت خطوة أساسية في إتجاه استحضار فلسطين من أعلى منبر دولي، بل لأنها كانت تجربة مغايرة لي قياساً إلى ما سبق. صحيح إننا في الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني قد أولينا القضايا السياسية الفلسطينية والعربية المقام الذي تستحق، إلا أن المحافل التي قصدتها وشاركت فيها، سواء كانت دولية، كما سبق، أو عربية كما سيلي قاربت هذه القضايا من زاوية انعكاسها على المرأة الفلسطينية خصوصاً والمرأة العربية عموماً. من هنا فالأهمية مضاعفة، ولا يستطيع أي مؤرخ، يود رصد حضور فلسطين الدولي، إلا أن يقف متأملاً هذا الإنجاز الذي صنعه نضال شعبنا والشعوب العربية خريف العام ١٩٦٣. والذي لا مبالغة في القول أنه كان اللبنة الأولى التي أرست دعائم نقض ما قامت عليه إسرائيل عندما زعمت أنها قامت على أرض بلا شعب.

إذاً انطلاقاً من أهمية الموضوع سأعمد إلى تقديمه يوماً بيوم، منذ أن كان مجرد فكرة، حتى بات أمراً واقعاً نتابعه لحظة بلحظة. والحقيقة التي لا بد من أن أعترف بها، أني عندما طرح عليَّ هذا الموضوع، لم أكن في وارد الاستجابة له، ليس لأن إيماني بعدالة القضية التي بها آمنت قد تزعزع، بل لأني كنت ما أزال تحت تأثير الكارثة التي أصابتني بفقدان الحبيب مروان غرقاً في مياه البحر كما أسلفت الذكر.

ولأروي القصة، قصة المشاركة في وفد فلسطين كما حدثت:

في أواخر شهر أيلول من العام ١٩٦٣، حضر لزيارتنا أحمد الشقيري معزياً بولدنا مروان، وقد طلب أثناءها مني أن أشارك في وفد فلسطين إلى الأمم

المتحدة، من أجل بحث قضية فلسطين. وقد طلب مني الاجتماع بأعضاء الوفد الذي سيتوجه إلى نيويورك.

وبعد فترة زارنا الشقيري مرة ثانية، برفقة الدكتور عزت طنوس الذي قدم لنا لوحة فضية تخليداً لذكرى مروان وتقديراً لأعماله التي قام بها في خدمة القضية الفلسطينية في الولايات المتحدة.

وقد قال لنا الشقيري بحضور عدد من السيدات الفلسطينيات إنه مكلف من الرئيس جمال عبد الناصر والجامعة العربية بتشكيل وفد من شخصيات فلسطينية من جميع الأقطار العربية، وقد اقترح أن تكون في عداد الوفد سيدتان، وطرح اسمي من بين الأسماء التي وضعت. لكنني رفضت الذهاب إلى الولايات المتحدة بسبب حدادي على ولدي مروان. فأصر الشقيري وقال بإلحاح: «يا أخت وديعة، أنا لم أنتخبك، ولكنني ذهبت إلى الجامعة العربية وطلبت ملفات جميع الجمعيات النسائية الفلسطينية، فوجدت ملف الاتحاد الذي تمثلينه أكبر ملف ويحتوي على أعمال كثيرة، وأنا على علم بما قمت به في فلسطين، والذي زادني رغبة في انتخابك هو أنني، عندما ذهبت إلى غزة وألقيت كلمة في حشد كبير جداً، وأخبرتهم فيها أنه ستكون سيدتان في عداد الوفد إلى الأمم المتحدة، رددوا بصوت واحد: وديعة خرطبيل ويسرى بربري. فهل بوسعي أن أرفض طلب الجمهور الفلسطيني»؟، فرد عليه زوجي بكل إحساس عميق بالحزن: «سوف تلبي وديعة طلبك وطلب شعب فلسطين، بل هذا الأمر واجب عليها». فأجاب الدكتور طنوس بأنه سيكون نعم الصديق لي وجاهزاً لكل مساعدة ممكنة كوني بحالة صحية غير مرضية في ذلك الوقت، بعدها أخذت أعد نفسي للسفر وأنجزت الأعمال المترتبة عليّ في الاتحاد.

توجهت إلى المطار يوم الجمعة في الأول من تشرين الثاني العام ١٩٦٣، بصحبة الدكتور عزت طنوس وأخته أم جورج وهيلدا ابنة أخيه، ومن أعضاء الجمعية ملك سمارة، وسلوى ناجياً، وبهية قبلاوي، وماري كته، ووجدان إفرنجي، ونهيل حسن، ومن العائلة: زوجي، وأولادي وإخواتي وعمتي ابتهاج، وأفراد من العائلة جاءوا لوداعي.

وكانت الرحلة إلى لندن مليئة بالمتاعب والأسى والحزن والبكاء والدموع والنحيب والعذاب والقهر، وأمضيت ليلتي في البيكاديللي أجهش بالبكاء وأتحسر بلوعة ومرارة. ولم أهدأ إلا في الصباح حين اجتمعت بأم جورج طنوس وهيلدا ابنة أخيها في بيت أخ الدكتور عزت طنوس.

وبعد أن أتممت معاملاتي، توجهت إلى المطار مع الدكتور طنوس وصعدنا إلى متن طائرة تابعة للخطوط الجوية الهندية متوجهين إلى نيويورك. ولكن الهواجس ظلت تلاحقني وأنا أتذكر الرحلة السابقة التي كنت أرقص فيها من الفرح في الطائرة لتوقعي مقابلة حبيبي مروان الوشيكة وهو يستقبلني على أرض المطار. وكانت الأحلام تنتابني طوال الوقت وأنا غير واعية إطلاقاً لما يجري، إذ كنت في عالم آخر أتحسر على وضعي وأتألم لقساوة هذه الحياة وعذابها ومرارتها، وأحاول طرد أشباح الأوهام التي أتخيل معها مروان وهو يستقبلني عند نزولي من سلم الطائرة هذه المرة أيضاً.

وكان وجود الدكتور عزت طنوس برفقتي مخففاً بعض الشيء من اضطرابي وكآبتي، فقد استقبلنا في المطار عند وصولنا إلى نيويورك ابنه فريد وخطيبته اللذان أوصلانا إلى فندق باركللي، حيث كان يقيم أحمد الشقيري، الذي اتصل بنا هاتفياً بعد وصولنا إلى الفندق. وقد اعتذرت عن مقابلته لأنني كنت في حالة يرثى لها ويلفني الحزن والأسى، ففضلت أن أمكث في غرفتي طوال نهار ذلك اليوم من دون طعام أو شراب أو نوم.

وفي اليوم التالي، أي في الثاني من تشرين الثاني، زارني في الصباح كل من عمر العزوني وإسحق الحسيني من أعضاء الوفد الفلسطيني ممثلين الهيئة العربية العليا. الحسيني هو زوج رائدة جار الله صديقتي. وقد زارني بعد ذلك إميل الغوري ووفد غزة ممثلاً بالدكتور حيدر عبد الشافي والآنسة يسرى بربري.

وقد قابلنا أحمد الشقيري بعد ذلك وتحدثنا معه عن الخطوط العامة للدورة وما يختص بقضية فلسطين والعمل لتحقيق الكيان الفلسطيني. وبدعوة من السيد إسحق الحسيني على الغداء في مطعم سيدر إستعرضنا الوضع. وفي أثناء خروجنا من المطعم التقينا بالدكتور محمود رياض رئيس وفد الجمهورية العربية

المتحدة. وفي المساء عدت واجتمعت بأحمد الشقيري واميل الغوري، وانكببت بعد ذلك على القراءة والكتابة في غرفتي والأسى يملأ قلبي.

وفي الرابع من تشرين الثاني ذهبت برفقة عمر العزوني إلى مركز هيئة الأمم المتحدة وقابلنا الوفد الفلسطيني، وكان مقسماً على الوجه التالي:

من الأردن: عبد الرؤوف الفارس، وجبرا الأنقر، وهاشم الجيوسي، والدكتور حافظ عبد النبي، والدكتور جمال أحمد ناصر، وخلوصي الخيري.

وفد الهيئة العربية العليا: إميل الغوري، وعمر العزوني، وإسحق عبد السلام الحسيني وعيسى نخلة.

من غزة: منير الريس رئيس بلدية خان يونس، وإبراهيم أبو ستّة، والدكتور حيدر عبد الشافي، ويسرى البربري.

من لبنان: أحمد الشقيري (الرئيس) والدكتور عزت طنوس، ووديعة خرطبيل.

وبعد التباحث، كان لنا لقاء على الغداء في الساعة الواحدة والربع مع وفد المغرب وبشخص رئيسه السفير السيد أحمد بنهيما. ثم اجتمعنا إلى كل من محمود رياض (الجمهورية العربية المتحدة) وصلاح الطرزي (الجمهورية العربية السورية)، وعدنان الباججي (العراق) وجورج حكيم (لبنان)، وعبد المنعم الرفاعي (الأردن)، وقد بحثنا في مذكرة هيئة الأمم المتحدة التي تحمل الرقم 1A/5545 الصادرة في أول تشرين الثاني في الدورة الثامنة والعشرين بخصوص الاتصالات التي تجريها لجنة التوفيق بواسطة أميركا مع الدول المعنية، لبنان وسوريا والأردن ومصر وإسرائيل، بشأن اللاجئين وتوطينهم. وقد تقرر الرد على تلك المذكرة بنفي حصول أي محادثات في هذا الشأن مع أميركا.

وفي الساعة الثالثة بعد الظهر التأمت اللجنة السياسية الخاصة للأمم المتحدة فقدم الوفد الفلسطيني برئاسة أحمد الشقيري مذكرة فلم تلق أي اعتراض، لكن مندوب إسرائيل تحفظ تجاهها ثم تكلم السيد دايفس المفوض العام لوكالة إغاثة اللاجئين وقدم مذكرته عن أعمال الأنروا وتلاه مندوب إسرائيل ومندوب الأردن عبد المنعم الرفاعي ومندوبو العراق وسوريا ومصر، وكلهم تطرقوا

إلى موضوع مذكرة لجنة التوفيق، فأفاض عبد المنعم الرفاعي بالكلام على فلسطين وقضية اللاجئين، وقد رد العراق على مندوب إسرائيل بشأن توزيع اللاجئين على الدول العربية وأعطى البراهين على عدم جدوى مثل هذه المقترحات.

وبعد انتهاء الجلسة، عدت إلى الفندق مع خليل مكاوي مندوب لبنان ولازمت غرفتي، وباءت كل محاولات زيزت السباعي مكاوي والدكتور طنوس لتخفيف الحزن عني في تلك الليلة بالفشل.

ذهبنا يوم الثلاثاء في الخامس من تشرين الثاني لمتابعة اجتماعات الأمم المتحدة، فتكلم أحمد الشقيري رئيس وفد فلسطين، وكان لخطابه صدى عظيم ووقع طيب.

ويوم الأربعاء في السادس من تشرين الثاني اجتمعت اللجنة السياسية مجدداً، فتكلم صلاح الطرزي مندوب سوريا ورد على المندوب الإسرائيلي الذي علق على خطاب أحمد الشقيري، وكانت مشادة بين الاثنين بسبب تعنت المندوب الإسرائيلي وعدم قبوله بالوفد الفلسطيني، ولما طلب الطرزي التصويت سحب مندوب إسرائيل احتجاجه. فتكلم بعد ذلك كل من مندوب مصر محمود رياض والسعودية الدكتور رشاد فرعون، فوضعا النقاط على الحروف وسميا الأشياء بأسمائها، وكانا جريئين وواضحين بإعلانهما أن فلسطين أرض محتلة من قبل الاسرائيليين.

وقد نشرت كلمة الشقيري في الأمم المتحدة على الرغم من اعتراض مندوب إسرائيل الذي سحب اعتراضه بعد ذلك.

ويوم الخميس في السابع من تشرين الثاني ١٩٦٣ اجتمعت اللجنة السياسية الخاصة قبل الظهر وتكلم مندوب أميركا على حصول مفاوضات بين الحكومات العربية وإسرائيل بخصوص اللاجئين وهذا ما كانت تؤكده مذكرة لجنة التوفيق. فرد عليه مندوبا سوريا والأردن وطلبا الاجتماع إلى مندوب أميركا لتوضيح ملابسات الأمر. وهكذا كان.

وعند الظهر كان لي لقاء على الغداء مع عبد القادر شندرلي مندوب

الجزائر الذي كان يعرف مروان جيداً. ثم رجعت إلى الفندق حيث زارني جبرا الانقر الذي تحدث عن ميزات وفد الأردن والصفات التي كان يتمتع بها.

ويوم الجمعة في الثامن من تشرين الثاني اجتمع الوفد الفلسطيني بأكمله منفرداً، وبحث في مذكرة لجنة التوفيق والقرارات المطروحة والسبل الكفيلة لتلافي أية مشاكل تنتج عن أي قرار يقدم من أميركا وإسرائيل في المستقبل. وتم الاتفاق أن يعملوا بالأسلوب نفسه الذي أخذوا به سابقاً وهو تجميد القرار وربطه بقرار العودة رقم ١٩٤ - ٣ الصادر في ١١ كانون الأول ١٩٤٨ وعدم التسرع بعقد أي اتفاق مع أميركا يعطيها الذريعة لطرح حلول غير منطقة.

وقد دعيت إلى الغداء ذلك اليوم مع زوجة الوزير الجزائري، وكان لي لقاء مع كل من بيل باروز صديق الحبيب مروان والسيدة مكميلان صديقة العرب، التي كانت لها خدمات جلى لقضيتهم في العام ١٩٤٦.

وأمضيت يوم الأحد في ١٠ تشرين الثاني في كتابة الرسائل إلى السيدة مولر والآنسة ميلر وكان لي لقاء في منزل صلاح الطرزي مع السيد مظلوم الأمين العام السابق لمديرية الإنشاءات والري في سوريا، الذي استقال والتحق بالأمم المتحدة، والسيدين أحمد الشقيري وعبد المنعم الرفاعي، حيث تكلمنا عن القضية المطروحة في هيئة الأمم المتحدة ومسارها.

ويوم الاثنين في ١١ تشرين الثاني حضرت اجتماع اللجنة السياسية الخاصة الذي تكلم فيه مندوبو العراق وليبيا ويوغسلافيا، والتقيت على الغداء مندوب ليبيا الدائم في هيئة الأمم المتحدة.

وقد قابلت بعد ذلك محمد مهدي رئيس مكتب الجامعة العربية في سان فرنسيسكو سابقاً، وكان يعمل يومذاك مستشاراً في السفارة العراقية في واشنطن. وكان على معرفة وصداقة بمروان منذ مدة طويلة.

وفي الجلسة التي عقدت بعد الظهر تكلم مندوب بريطانيا، وقد رد عليه مندوب العراق، الذي تحدث عن دور بريطانيا في تسليم فلسطين إلى اليهود، والعمل غير الشرعي وغير القانوني الذي قامت به أثناء انتدابها لفلسطين.

ويوم الثلاثاء في ١٢ تشرين الثاني، ذهبت إلى مركز الأمم المتحدة، حيث علمت أن الاجتماع قد أرجىء إلى بعد الظهر. وفي هذا الوقت، سجلت حديثاً عن انطباعاتي لدى زيارتي هيئة الأمم المتحدة للمرة الأولى أجراه معي نديم المقدسي من الإذاعة البريطانية (B.B.C).

وبعد تناول الغداء مع السيد دايفس وعقيلته بدعوة من الدكتور طنوس، ذهبت لحضور اجتماع اللجنة السياسية الخاصة في الأمم المتحدة حيث تكلم مندوبو المغرب والباكستان وموريتانيا والجزائر ومالي وأفغانستان. وقد قدمت أفغانستان مشروع قرار لطرحه على اللجنة لكن مندوب الولايات المتحدة أفاد أن لديه مشروع قرار آخر قيد الترجمة والطبع، قدم إلى السكريتارية العامة، وسيوزع في اليوم التالي على اللجنة السياسية.

لذلك طلب مندوب العراق السيد الباجة جي سماع مشروع قرار الولايات المتحدة كمشروع ثان يلي المشروع الأول. فكان جواب مندوب الولايات المتحدة بأن مشروعه هو الأول لأنه قدم في الساعة الثانية والنصف، وأن التأخير في توزيعه على المندوبين ناجم عن الروتين الإداري المتبع في السكريتارية العامة في هيئة الأمم المتحدة. ودار نقاش حول أولوية المشاريع المقدمة اشترك فيه مندوبو جميع الدول المعنية بالموضوع من أجنبية وعربية. وبعد جدل طويل تركز النقاش على حق التصويت وإذا كان من حق رئيس اللجنة أن يقدم اقتراحاً ويطرحه على التصويت. وعلى الرغم من معارضة مندوب الولايات المتحدة الشديدة، طرح المشروع على التصويت وفاز بأغلبية الأصوات وسط احتجاج المندوب الأميركي ولومه.

وبعد الانتهاء من اجتماعات اللجنة السياسية الخاصة لبينا دعوة البعثة السعودية، وهناك اجتمعت مع كل من علي محي الدين وابنه أنور اللذين وعدتهما بزيارتهما بصحبة إميل الغوري، وكذلك كان لي لقاء مع آل ثابت الذين وعدتهم أن أزورهم مع الدكتور طنوس.

وقد أتاحت لي هذه الدعوة الفرصة بأن ألتقي عدداً من الغيورين والمشجعين، الذين تحدثوا معي عن الحبيب مروان ومنهم غارني خانكين وبعض

الطلاب الذين اعلموني أنهم سيقدمون لي لوحة في موعد لاحق يحددونه بالهاتف.

وقد تكلمت مع السيدة فيليس قطيط بشأن بيت إسعاد الطفولة والمساعدة التي يمكن أن تسديها لنا، واقترحت عليها تأليف لجنة خاصة لمساعدتنا مادياً. فأبدت كل تفهم واستعداد وسافرت إلى واشنطن لهذه الغاية ووعدت بإعلامي بالنتائج.

ويوم الأربعاء في ١٣ تشرين الثاني عقدت جلسة اللجنة السياسية الخاصة في الساعة العاشرة والنصف صباحاً، واستمرت حتى الواحدة بعد الظهر دار خلالها نقاش حول شرعية تمثيل أحمد الشقيري كرئيس لوفد فلسطين والتكلم باسم الفلسطينيين. ولم ينته النقاش في ذلك اليوم بل أرجىء إلى اليوم التالي.

وبدعوة من السيد منير الريس على الغداء ظهر ذلك اليوم، التقينا هناك الجنرال بيرنز رئيس أركان مراقبي الأمم المتحدة في فلسطين ووفد غزة المؤلف من الدكتور حيدر عبد الشافي ويسرى بربري، ونوح القاعود وإبراهيم أبو ستّة.

ويوم الخميس في ١٤ تشرين الثاني حضرت جلسة الأمم المتحدة الصباحية، التي تكلم في أثنائها أحمد الشقيري وانتقد موقف أميركا من العرب ومساعدتها لإسرائيل.

وأقام سفير الكويت في واشنطن راشد الراشد، وكان موجوداً ابن الشيخ صباح السالم الصباح مأدبة غداء تخللها حديث عن الاجتماعات الجارية في الأمم المتحدة..

وبعد الظهر، عدنا إلى اجتماعات الأمم المتحدة حيث دار نقاش حاد بين صلاح الطرزي مندوب سوريا ومندوب أميركا، وكان الشقيري يساند الطرزي في الرد على المندوب الأميركي. وكان لنا لقاء بعد ذلك في حفلة أقامتها البعثة الأردنية في مقر هيئة الأمم المتحدة حيث قابلنا بعض الشخصيات الفلسطينية المقيمة في الولايات المتحدة.

ويوم الجمعة في ١٥ تشرين الثاني حضرت الاجتماع الصباحي في الأمم المتحدة، على الرغم من أنني كنت منزعجة ومتوعكة صحياً، وقد لبيت الدعوة

إلى الغداء التي أقامها لنا وزير خارجية الأردن أنطون عطا لله في مقر هيئة الأمم المتحدة في ذلك اليوم. وبعد الظهر حضرت اجتماع اللجنة السياسية الخاصة الذي تكلمت فيه ـ الإسرائيلية غولدا مائير، وانتقدت الحكومات العربية ومواقفها بشدة متناهية وغطرسة فظيعة.

وقد عقد الوفد الفلسطيني اجتماعاً قبل الظهر لدراسة بعض بنود المشاريع المقدمة وموضوع لجنة التوفيق، وقد جرى التباحث بشأنها، واتفق على تقريب وجهات النظر حولها. أما بعد الظهر، فقد اجتمعت الوفود العربية كلها مع وزير الخارجية الأردني أنطون عطاالله ورئيس الوفد الأردني عبد المنعم الرفاعي للتباحث في الأمور المستجدة وتوحيد الجهود لمواجهتها وقد استقر الرأي على عقد اجتماع آخر قبل ظهر نهار السبت (اليوم التالي) في مقر الوفد العراقي لمتابعة المواضيع المطروحة على بساط البحث بما فيها قضية فلسطين وتكوين رأي موحد حولها.

ويوم السبت الموافق في ١٦ تشرين الثاني، اجتمعت الوفود العربية في مقر الوفد العراقي في الأمم المتحدة لبحث موضوع لجنة التوفيق وما يمكن العمل بشأنها، سواء من حيث طلب استبدال مشروعها أو تعديله، ودار نقاش طويل وسط معارضة وفدي لبنان والأردن لأي طرح للموضوع. وقد كان لوقوف سوريا في بحث موضوع اللجنة إلى جانب الوفد الفلسطيني الذي أعلن رئيسه بأن بعض الدول العربية تحسب حساب أميركا وتعمل من أجل عدم إغضابها، تأثير على مجرى النقاش الذي اتخذ طابعاً حاداً بعد أن اعترض مندوب الأردن واحتج معتبراً أن الكلام موجه إليه وأنه معني به. ووسط هذا الجو المحموم من الجدال العقيم، أخذت بقية الوفود العربية تعمل على إيجاد مخرج من البلبلة التي كانت قائمة وتسعى إلى تضييق شقة الخلاف خصوصاً وأن المندوب الفلسطيني غضب من جهته وطلب الانسحاب لتلكؤ الدول العربية في درس موضوع لجنة التوفيق مع الوفود العالمية على غير عادتها عندما كانت تواجه مشاكل مماثلة.

ولكن التفاهم ساد النقاش أخيراً وذهبنا بدعوة من الجامعة العربية إلى نادي المتروبوليتان حيث التقيت الأستاذين عبد الخالق حسونة أمين عام جامعة الدول العربية وكامل عبد الرحيم مدير مكتب إعلام الجامعة العربية ومندوب لبنان،

وتباحثنا في أسباب الأجواء التي سادت جلسة المناقشة الأخيرة. وقد خرجت من الاجتماع واصطحبت معي إلى الغداء السيدين عبد المنعم الرفاعي وصلاح الطرزي، بعد أن أوضحت لهما سوء التفاهم الذي وقعا فيه بحسن نية. وقد كانا متفهمين للأمور، وزال التوتر عنهما بعد أن أوشك مندوب الأردن تقديم استقالته من الوظيفة.

وفي المساء دعيت والوفد الفلسطيني إلى منزل عمر العزوني في بروكلن، وهو قريب أم أديب الدجاني صديقتي من طولكرم، وقد أمضينا سهرتنا عند عائلة العزوني بضيافة عربية سخية.

ومساء الأحد في ١٧ تشرين الثاني دعاني عبد المنعم الرفاعي مندوب الأردن إلى العشاء والتقيت أحمد الشقيري وأنطوان عطاالله وزير خارجية الأردن الذي تباحثت معه بشأن المساعدة الأردنية، وجبرا الانقر والدكتور ناصر والدكتور صلاح طرزي، وقد طغت قضية فلسطين على جميع المناقشات التي دارت هناك.

ويوم الاثنين في ١٨ تشرين الثاني اجتمعنا صباحاً باللجنة السياسية الخاصة، وقد تكلم وزير خارجية الأردن بعزم وصلابة وقوة، وعند الظهر دعينا إلى الغداء من قبل السيدة سيمون رئيسة الاتحاد النسائي للسلام والحرية، وكان من بين المدعوات السيدة بانديت نهرو، رئيسة الوفد الهندي مع بعض السيدات والصديقات اللواتي كنت سابقاً قد اجتمعت معهن في اسيلُمار وكاليفورنيا، وقد دعوت هؤلاء السيدات صديقاتي بدوري إلى طعام الغداء يوم الأربعاء في ٢٠ تشرين الثاني في قاعة هيئة الأمم المتحدة. وكان هذا اللقاء فرصة لي لأن أحدثهن عن القضية الفلسطينية وأعرفهن إلى الواقع المرير الذي يعيشه الشعب الفلسطيني.

وفي الساعة الرابعة بعد الظهر اجتمعت الوفود العربية دون سواها في مقر الأمم المتحدة، لعدم وجود اجتماع دولي عام، فأخذنا نتصل بوفود الدول الأخرى ومنها الوفد الأميركي لإقناعها بالموافقة على تعديل مشروع لجنة التوفيق أو استبداله بمشروع قرار وسط يرضي العرب والولايات المتحدة، وعدم طرح

مشروع الصلح الذي وقعت عليه ١٨ دولة. وقد طلبنا تفسيراً من الولايات المتحدة لما تعنيه باللجنة السياسية، والتأكيد على أن هدفها هو تنفيذ بنود الفقرة ١١، وليس الموافقة على ما قدمته غولدا مائير من اقتراحات.

وبعد ذلك لبينا الدعوة التي أقامها لنا الوفد السوداني في مقر الأمم المتحدة.

ونهار الثلاثاء في ١٩ تشرين الثاني ألقى أحمد الشقيري في اجتماع هيئة الأمم المتحدة صباحاً خطاباً رائعاً، ثم تلاه مندوب ليبيريا الذي طالب بالسلام والصلح، وقد عاد الشقيري إلى الكلام في الجلسة التي عقدت بعد ظهر ذلك اليوم.

وقد دعاني الدكتور محمد الفرا إلى طعام الغداء في الأمم المتحدة مع الدكتور مصطفى كامل ياسين في ذلك اليوم، حضرت بعده حفلة تكريم أقامتها الوفود العربية للوفد الفلسطيني تخللها تقديم الطلبة العرب لوحة تذكارية لي تخليداً لذكرى الحبيب مروان وانتخابه رجل سنة ١٩٦٣.

ويوم الأربعاء في ٢٠ تشرين الثاني اجتمعت اللجنة السياسية الخاصة في مقر الأمم المتحدة، وقد تكلم عدد من مندوبي وفود الدول الإفريقية والدول الصديقة وباكستان وأندونيسيا وفلسطين وتناقشوا حول الموضوع المطروح. وكان الوفد الفلسطيني مؤيداً لمشروع القرار الأميركي.

وعند الظهر حضر إلى الغداء في مقر هيئة الأمم المتحدة السيدات اللواتي كنت قد التقيت ودعوتهن قبل يومين. وكانت الآنسة يسرى البربري من بين الحاضرات.

ويوم الخميس في ٢١ تشرين الثاني حضرت اجتماعات اللجنة السياسية الخاصة، وبعد الاستماع إلى كلمات الوفود، اجتمع الوفد الفلسطيني للتباحث في وقائع الجلسة.

وبعد تناول طعام الغداء مع سفير تونس الطيب سليم، اجتمعنا مجدداً وتباحثنا في مختلف التطورات وعرضنا ما توصلنا إليه مع الشقيري. وقد اقترحت

عليه بعد تناول القضية من جميع جوانبها، أن أرجع وأعمل مع اللاجئين وخصوصاً الشباب من أجل القضية.

ويوم الجمعة في ٢٢ تشرين الثاني اجتمع الوفد الفلسطيني مع المستر دايفس مفوض عام الأنروا، وقد شكره الوفد على أعماله ونشاطه، ودعاه مع رؤساء الوفود العربية إلى طعام الغداء. وقد اتصل بي في ذلك اليوم السيد كامل عبد الرحيم مدير مكتب الإعلام في نيويورك في الجامعة العربية وطلب مني البقاء فترة أسبوعين إضافيين للقيام بجولة وإلقاء المحاضرات عن فلسطين، فاعتذرت عن تلبية هذا الطلب بسبب عدم إعلام زوجي مسبقاً بالأمر وأخذ الترتيبات الضرورية.

وخلال الغداء الذي دعانا إليه وفد الجمهورية العربية المتحدة برئاسة محمود رياض في ذلك اليوم، جلست بين الأستاذين محمود رياض وأحمد الشقيري، وكان حاضراً عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية وكامل عبد الرحيم رئيس مكتب الجامعة العربية في الولايات المتحدة وأعضاء الوفد الفلسطيني مع الموظفين والوفد الدائم للجمهورية العربية المتحدة وموظفو مكتب الجامعة العربية. وخلال ذلك اللقاء، جاء أحد الصحافيين وأخبر السفير محمود رياض بمقتل الرئيس كينيدي فكان لذلك الخبر وقع الصاعقة على جميع الحاضرين.

وفي يوم الثلاثاء ٢٦ تشرين الثاني حضرت مأتم الرئيس كنيدي مع السفير جورج حكيم وزوجته والسيد خليل مكاوي وزوجته والسيد سليمان طنوس.

وفي اليوم التالي التقينا ببولي باركر صديقة عائدة السيوفي التي كانت ترسم لوحة للحبيب مروان بتكليف من عائدة نفسها وكانت لفتة جميلة ومؤثرة سررت بها جداً.

وقد قرر الوفد الفلسطيني أن نذهب أنا ويسرى البربري إلى واشنطن لوضع إكليل من الزهر على ضريح كينيدي باسم الشعب العربي الفلسطيني.

ويوم الأحد في الأول من كانون الأول، تركت نيويورك الساعة التاسعة والنصف صباحاً بالقطار من محطة بنسلفانيا برفقة الآنسة يسرى البربري إلى

والنصف صباحاً بالقطار من محطة بنسلفانيا برفقة الآنسة يسرى البربري إلى فيلادلفيا حيث استضافتنا السيدة فرايدا مولر رئيسة لجنة أصدقاء فن الطفولة والسيدة مارغريت ماك كوايل في نادي التضامن، وهناك كان لنا لقاء مع السيدة هتشنسن التي اصطحبتنا إلى بعض المراكز التابعة للنادي بما في ذلك مركز جاين ادامز. وبعد مغادرتنا فيلادلفياوصلنا إلى واشنطن الساعة السادسة والنصف بعد الظهر وأقمنا في فندق ماي فلاور، حيث اتصلت بأنور أحمد زوجة سفير الباكستان في واشنطن التي دعتني إلى الغداء في اليوم التالي.

ويوم الاثنين في ٢ كانون الأول زارتنا في واشنطن فيليس قطيط صباحاً، وذهبنا سوية إلى مقر مكتب الجامعة العربية، وبعدها توجهنا إلى مقر منظمة ال أو.آي.اي. وهي تمثل جميع الهيئات في الأميركتين الجنوبية والشمالية.

تناولنا طعام الغذاء عند السيدة أنور أحمد زوجة السفير الباكستاني، وهي صديقة لي ولأمل ابنتي. حين كان زوجها في كراتشي ثم ذهبت مع يسرى البربري وبعض السيدات الباكستانيات إلى مقرَ وزارة الخارجية الأميركية حيث اجتمعنا ببعض الشخصيات وتناقشنا معهم في موضوع قضية فلسطين. ولكنهم كانوا متعنتين جداً ويعتقدون بأن إسرائيل خلقت وستبقى. وقد اتهموا الزعماء العرب بتحريض الفلسطينيين على المطالبة بالعودة وطلبوا منا أن نقنع اللاجئين بالاستقرار والعيش في البلاد العربية حيثما وجدوا. فكان جوابنا لهم بأنه ليس في وسع أي زعيم عربي تقبّل هذا الكلام أو العمل به، لأن سقوطه سيكون محتماً، حتى ولو كان هذا الزعيم جمال عبد الناصر.

ولقد توجهنا بعد ذلك إلى النادي النسائي، حيث قابلنا بعض السيدات اللواتي، رحبن بنا، ووعدننا بالمساعدة في أي مشروع نقدمه لهن في أسرع وقت.

وفي المساء زارنا وفد من الطلبة العرب أصدقاء مروان في واشنطن ودعونا إلى العشاء.

ويوم الثلاثاء في ٣ كانون الأول ذهبنا صباحاً لزيارة ضريح كينيدي برفقة وفود من الجامعة العربية ومندوبين عن وزارة الخارجية الأميركية، ووضعنا إكليلاً

من الزهور عليه باسم الشعب العربي الفلسطيني، وكان في استقبالنا الجنرال مكبل. وقد تلقينا بعد فترة بطاقة شكر من السيدة جاكلين زوجته والسيد روبرت كينيدي. ثم توجهنا لزيارة مبنى الكابيتول والكونغرس ونصب لينكولن ونصب جفرسون التذكاريين وتجولنا في مدينة واشنطن.

تناولنا طعام الغداء في أحد المطاعم، بدعوة من زوجة سفير الكويت السيد طلعت الغصين، وزرنا بعد ذلك جامع واشنطن، حيث التقينا بسيدات الجمعية الإسلامية اللواتي أقمن على شرفنا حفلة شاي دعون إليها عدداً من الدبلوماسيين وموظفي السفارات. وفي هذا اللقاء كانت لي فرصة بأن أتحدث عن قضية فلسطين وعن أعمال الاتحاد والإجابة عن بعض الأسئلة التي طرحها الحضور، ولدى رجوعي إلى نيويورك التقيت في القطار ببعض الضباط اللبنانيين، الذين كانوا يتابعون علومهم في أميركا، وكان بينهم واحد من عائلة معلوف.

ويوم الأربعاء في ٤ كانون الأول توجهت إلى مقر الأمم المتحدة، حيث ودعت الدكتور طنوس والأستاذ صلاح الطرزي وزوجة سفير لبنان جورج حكيم والسيد منير الريس والآنسة يسرى البربري. وبعد أن أخذت الفيلم الخاص عن الحبيب مروان من ليفون كيشيشيان، عدت إلى الفندق، حيث التقيت عائدة مروان، وقد رافقنا الجميع إلى المطار لوداعنا.

تركنا نيويورك الساعة العاشرة مساءً، فوصلنا إلى لندن الساعة العاشرة صباحاً في اليوم التالي، بسبب فارق الوقت بين لندن ونيويورك الذي يبلغ خمس ساعات.

بعد وصولنا إلى الفندق في لندن دعانا الدكتور حيدر عبد الشافي رئيس المجلس التشريعي في غزة إلى العشاء. وقد لبى الدعوة كل من السيد منير الريس رئيس بلدية غزة ورئيس اللجنة التنفيذية العليا وعقيلته والسيد نوح كعود العضو في المجلس التشريعي.

أمضينا يومين في لندن هما الجمعة والسبت في ٦ و ٧ كانون الأول في انتظار العودة إلى بيروت، ويوم الأحد في ٨ كانون الأول تركنا لندن الساعة العاشرة صباحاً ووصلت إلى بيروت السابعة مساءً.

الفصل الخامس

القدس أبداً
بحثاً عن الكيان الفلسطيني

ما سأرويه هنا له ما قبله، وله ما بعده أيضاً، إلا أن اختياري له، رغم وقوعه في الوسط، نظراً لكونه الحدث المفصلي في عمر القضية الفلسطينية خصوصاً والعربية عموماً، أعني به عدوان الخامس من حزيران في العام ١٩٦٧. ففي هذا التاريخ استكملت إسرائيل السيطرة على أرض فلسطين التاريخية، عندما احتلت الضفة الغربية بما فيها القدس الشرقية، وقطاع غزة. ولا شك في أن القدس وطولكرم وغزة حيث أقمت سنوات، وقصدتها تباعاً رغم خروجي من فلسطين في العام ١٩٤٨ عنى لي كما عنى لسواي الشأن الكبير والكثير. والحقيقة أن اختيار هذا الحدث يعود إلى اقتناعي أن كل التطورات التي عرفتها المنطقة ترتبط به، كما ارتبطت الأحداث التي سبق وعبرت بمشروع إسرائيل في إقامة الكيان الصهيوني على أرض فلسطين.

صبيحة الخامس من حزيران في العام ١٩٦٧، كان يغمرنا الأمل بالانتصار الأكيد على إسرائيل لما لمسناه من تآزر الدول العربية وحماس الشعب العربي في كل الأقطار العربية. وقد حدث أن توجهت صباح ذلك اليوم مع فريق من أعضاء الاتحاد إلى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية الكائن في كورنيش المزرعة، لتلقي أخبار الحرب والعمل على تقديم المساعدة الممكنة في الحقول الاجتماعية والإنسانية. بالطبع كان هناك سيل من التصريحات التي تصدر عن الملوك والرؤساء العرب بشأن الهجوم الإسرائيلي على مصر، وكانت كل تلك التصريحات تلتقي في توافق مدهش على أن النصر لا محالة قريب، ولم نكن نعلم، لا نحن ولا سوانا ما حدث في الضربة الأولى، كل ما وصلنا لا يعدو

كونه بلاغات عسكرية تؤكد على التفوق العربي وإسقاط مئات الطائرات المعادية. ظل هذا الشعور يسيطر علينا وعلى الجميع في اليومين الأولين وفي اليوم الثالث للحرب، أي في ١٩٦٧/٦/٨ وبينما كنا في مكتب المنظمة متفائلين نتسقط أخبار المعارك من الإذاعات العربية والأجنبية، إذا بجرس الهاتف يرن في المكتب، ثم أخذ أحدهم يناديني لأني المطلوبة على الخط، وكان الطالب القائم بأعمال السفارة الأردنية في بيروت ينال حكمت، وكان السفير الأردني موجوداً في عمان. فاجأني حكمت بقوله: اسمحي لي سيدة خرطبيل أن أعلمك أن الأردن في حاجة إلى مساعدات عاجلة بسبب الهجرة الفلسطينية الكثيفة من الضفة الغربية. صعقني ما قال، لأن اعتقادي كان أن النصر حليفنا، سألته بهلع هل نحن مهزومون؟ فأجاب: هذا الخبر علمت به من الأردن لدى اتصالهم بي. الجميع الذين استمعوا إلى بعض ما دار تحلقوا حولي بمن فيهم رئيس مكتب المنظمة شفيق الحوت والأعضاء والموظفون الذين تنادوا من الغرف المجاورة يستطلعون الأمر ويستوضحون. أما أنا فكنت أردد وكأني في حال هستيرية: مستحيل.. مستحيل.. وأخذت أتأكد من الخبر من القائم بأعمال السفارة، هو يؤكد أنه ورده في الحال، وأنا أنفيه له، ثم أقفلت الهاتف والدموع على وجنتي والجميع من حولي متجهم الوجه يصرخ من الألم تحت تأثير المفاجأة التي سببتها الهزيمة فيما كان المتوقع النصر.

كان الاتصال هو الصدمة الأولى، ثم تلته صدمات وصدمات، إلا أننا لم ننكسر رغم هول الضربة الصاعقة. وكان علينا أن نعمل ليل نهار مع جميع الهيئات والمنظمات على مد يد العون والمساعدة للملمة الجراح ودرء الكارثة، وبعد التشاور مع الحوت استقر الرأي على التعاون مع منظمة التحرير الفلسطينية للقيام بحملات التبرع لمساعدة الذين شردوا من بيوتهم ووطنهم، وذلك عن طريق الإعلان عن الحملة عبر وسائل الإعلام من تلفزيون وإذاعة وصحف وطلب إرسال المعونات إلى مكتب الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في شارع بلس، ما إن عدت إلى البيت حتى سمعت النداءات عبر الإذاعة والتلفزيون، ولم تمض ساعات إلا وكان حارس مكتب الاتحاد يتصل بي لإعلامي أن جمهورًا غفيراً قد وصل إلى المكتب وهو يحمل المؤن والمساعدات من جميع الأصناف لتقديمها

للمنكوبين، ثم تقاطرت الجموع. وقد استطعنا جمع تبرعات كثيرة من مادية ومواد طبية وغذائية وبطانيات وملابس، ما فاقت حمولته ١١٥ شاحنة كبيرة مملوءة بمواد الإغاثة للأردن وثلاثين شاحنة أخرى إلى سوريا.

وهنا أود أن أشيد بالجهد الكبير الذي قامت به عشرات الجمعيات الخيرية التي بذل متطوعوها جهوداً مضنية في هذه الحملة، وأخص بالذكر هنا جمعية كشافة الجراح، جمعية المقاصد الإسلامية، أساتذة وطلاب الجامعتين اللبنانية والأميركية، شركة الزعتري للحمضيات التي قدمت الشاحنات لنقل المؤن والعشرات من الهيئات والمؤسسات.

وقد زرت سماحة مفتي الجمهورية الشيخ حسن خالد، برفقة مدير مكتب المنظمة في بيروت، وقدمنا لسماحته صورة واضحة عن سير حملة التبرعات والإعانات لضحايا العدوان الصهيوني على سوريا والأردن، وأبدينا استعدادنا لوضع إمكانياتنا بتصرفه في خدمة الحملة التي يرعاها، فرأى أن تستمر الحملة التي يقوم بها الاتحاد والمنظمة مشتركين، على أن تخصص لمساعدة منكوبي الشعب الفلسطيني. كما زرنا رئيس مجلس الوزراء الحاج حسين العويني، الذي أصدر قراراً منع بموجبه أي جمعية من جمع التبرعات باسم منكوبي العام ١٩٦٧ من دون إذن مسبق باستثناء دار الافتاء، البطريركية المارونية والاتحاد النسائي العربي الفلسطيني.

إضافة إلى الـ ١٤٥ شاحنة التي أرسلناها إلى الأردن وسوريا، أرسلنا أربع شاحنات محملة بالدواء فقط إلى الأردن، وقد حصلنا على الدواء المضاد الخاص بحروق النابالم بواسطة أخي أديب الذي كان نقيباً للصيادلة من الولايات المتحدة، ووزعناه على سوريا والأردن، كما أرسلنا شاحنتين محملتين بالمواد الغذائية إلى قرى الجنوب اللبناني الأمامية، لمساعدة الأهلين على الصمود. وقام عدد من أعضاء الاتحاد بزيارة سوريا والأردن حيث سلمنا المستشفيات العسكرية الدواء المضاد لحروق النابالم، كما تفقدنا المصابين بالحروق، كما التقينا عدداً من المسؤولين وزرنا أماكن وجود النازحين، وأعربنا لهم عن استعداد بيت إسعاد الطفولة لقبول أطفال الشهداء والمنكوبين في عداده.

والحقيقة أن حملتنا هذه قد استغرقت عدة أشهر من دون أن ينال منا التعب، وكانت اللجنة المالية للحملة مؤلفة من اختصاصيين من الجامعة الأميركية ومنظمة التحرير الفلسطينية والسفارة الأردنية بمشاركة إحدى العضوات في الاتحاد، وقد أشرف على الحملة من اللجنة كل من السيدة وجدان إفرنجي وعدنان سجق وفهيم خوري، وكانوا يتسلمون النقود المتبرع بها يومياً ويودعونها في البنك العربي، وفي ختام الحملة عقدنا اجتماعاً في مكتب المنظمة وقسمنا المال المجبى إلى قسمين: قسم حول إلى منظمة التحرير وبلغ مجموعة ٩٠٣٣٥ ليرة لبنانية وقسم إلى السفارة الأردنية ليرسل إلى حكومة الأردن ومقداره ٤٧٠١١ ليرة، فيما بلغ إجمالي المال ١٣٧٣٥٦ ليرة لبنانية، حول منها مبلغ ٤٥٠٠ ليرة لجهود الإغاثة في القدس، وتم شراء ملبوسات للأطفال في سوريا بقيمة ١٢٠٤ ليرات، وحول مبلغ ٣٤٢ ليرة للمساعدات الطلابية.

إعترض أحد مستشاري الاتحاد المهندس جواد أبو الهدى الفاروقي على مبدأ التبرع بالمال، معتبراً أن الأجدى هو إنفاقه على أبناء شهداء الحرب، خصوصاً أن صندوق الاتحاد كان بأمس الحاجة إليه لمتابعة نشاطاته ومشاريعه. إذاً اعترض المهندس الفاروقي فيما كان الاتحاد يتلقى العديد من برقيات الشكر على الجهود التي بذلها من الاتحاد العام النسائي في دمشق، والاتحاد العربي الفلسطيني أيضاً، ومن وزارة الصحة السورية، ومن رئيسة اتحاد الجمعيات النسائية السيدة عادلة بيهم الجزائري، ورئيسة الاتحاد العام النسائي، ومن وزارة الاقتصاد الأردنية ومن مدير الصيدلة واللوازم في وزارة الصحة الأردنية ثروت التلهوني ومن لجنة التوعية الوطنية والسفير الأردني في بيروت.

في الحقيقة كان الاتحاد يومها في أمس الحاجة إلى المال، وهو ما دعانا إلى عقد اجتماع مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري في منزله في كيفون، وكانت برفقتنا السيدة زليخة الشهابي التي كانت إسرائيل قد أبعدتها من القدس إلى الأردن، ومن ثم حضرت إلى لبنان. فاتحنا الشقيري بأمر وضعنا، فدعانا إلى القيام بحملة تبرعات لصالح استمرارية عملنا في الاتحاد، وعليه اجتمعت الهيئة الإدارية، وقررت إرسال وفدين أحدهما إلى أميركا، والثاني إلى دول المغرب العربي كما سبقت الإشارة.

القدس دوماً:

دوماً هي القدس في البال، مهما ابتعدت عنها، تعود إليها أو تبقى فيها، لا تغادرها، ولا تبتعد عنها، كأن تلك المدينة بما فيها تسكن فيك، تسري في دمك، وتحيا في نبضك. كانت النكسة، نكسة العام ١٩٦٧، تعني قطيعة قسرية لي معها. لا نكبة العام ١٩٤٨، ولا إرغام زوجي على الرحيل عن طولكرم في العام ١٩٥١ أدت إلى خسارتها.. الآن أشعر أني خسرتها، لذلك تملأ فمي المرارة، وحياتي الضباب.

كانت المرة الأولى التي أقصد فيها القدس بعد استقرارنا كعائلة في بيروت مع زوجي أديب في العام ١٩٥٥ لحضور مؤتمر الخريجين الدائم لقضايا الوطن العربي. كان الصيف قد انتهى لتوه ذلك العام، لكن المدينة ما زالت تحتفظ بحرارته التي لا تكسرها سوى رطوبة الإلفة التي تشيعها المساجد، الكنائس، الشوارع والحواري القديمة، فيما المدينة منقسمة قسمين، أحدهما لا ندخله هو الحديث، الذي سبق وأقمنا فيه قرابة العام، وآخر القديم الأكثر حناناً واقتراباً من الروح بما فيه وعليه من مظاهر روحانية في أماكن العبادة ووجوه الناس.

بدأ المؤتمر أعماله في ٢٣ أيلول ١٩٥٥، بكلمة افتتاحية للملك حسين، أشاد فيها بالجهود العربية الموحدة وحيا الحضور، الذي ضم عدداً كبيراً من المثقفين والمتخرجين العرب من مختلف الجامعات والأقطار العربية.

وقد انتخب المؤتمر أحمد فؤاد جلال سكرتير مجلس الإنتاج القومي ووزير الإرشاد المصري آنذاك رئيساً له. وكان بين الحضور إبراهيم الطحاوي والشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصري في ذلك الوقت.

أما من الذين حضروا المؤتمر من اللبنانيين فكان كل من الأساتذة:

عادل عسيران رئيس مجلس النواب اللبناني آنذاك، وإميل البستاني الذي انتخب أميناً للسر، وإدمون رباط القانوني الكبير ومنح الصلح والدكتور أديب خرطبيل.

وقد حضرت المؤتمر أيضاً عقيلة عبد الغني الولي من الوزراء العراقيين في ذلك الوقت، والسيدة عليا الصلح النشاشيبي عقيلة ناصر الدين النشاشيبي آنذاك

مندوب دار «أخبار اليوم» في العالم العربي، والسيدة وداد بولص عقيلة المهندس نبيه بولص وكيل وزارة الأشغال الأردنية.

وقد تم خلال المؤتمر تعديل النظام الداخلي، وإقرار جدول الأعمال.

وفيما يلي بعض البنود التي وردت في رسالتي الموجهة إلى مؤتمر الخريجين وفيها مقترحات عملية لإيجاد حل لقضية فلسطين وهي:

١ - مشروع إسكان الفلسطينيين في مستعمرات وقرى محصنة تقام على حدود إسرائيل يتدربون فيها وينظرون إلى عدوهم المغتصب صباح مساء وهم على استعداد لليوم الموعود.

٢ - فرض التجنيد الإجباري في كل الدول العربية وإقامة معسكرات للتدريب في العطل الصيفية للشباب المثقف.

٣ - تصديق قانون العقوبات الشديدة بحق المتسللين والمهربين عبر الحدود وحسبان هؤلاء خونة عاديين.

٤ - رفض كل فكرة للصلح مع إسرائيل ووضع مذكرة مشتركة تعتبر رداً تنفيذياً على مشروع دالاس عن التعايش السلمي وإفهام الغرب أن كل مسعى للصلح مع إسرائيل يكسبه عداءنا في وقت يحتاج هو إلى صداقتنا وتأييدنا.

٥ - إقامة صندوق مال مشترك يسمى صندوق فلسطين تحشد فيه الأموال لليوم العصيب.

أما المقترحات الأساسية للمؤتمر فقد تناولت:

١ - قيام دولة إتحادية تضم العراق والأردن والجمهوريتين السورية واللبنانية على أن يجري التدرج في هذه الوحدة وفق الأوضاع السياسية الراهنة فتشمل الوحدة أولاً العراق والأردن وسوريا. ويترك للبنان حرية الانضمام إلى هذه الوحدة وفق إرادة شعبه.

٢ - تأييد الحركات الاتحادية في كل العالم العربي خصوصاً مصر، بحيث تنشأ دولة اتحادية تشمل وادي النيل وتكون سنداً وعوناً لدولة الهلال

الخصيب الاتحادية فيظهر الكيان اليهودي بين الجبارين العربيين بدل أن يستأسد على هذه الدويلات المبعثرة.

٣ ـ تشجيع قيام وعمل الأحزاب العقائدية لأنها من أهم الوسائل لتنوير الرأي العام وتمرين الشباب على المسؤولية وتركيز الجهد والنشاط ومحاربة أمراضنا الاجتماعية.

٤ ـ نبذ كل فكرة أو حركة تقول بالتعايش السلمي مع الإسرائيليين، في طليعة هذه الأفكار الحركات الشيوعية التي تهدم فينا كل عزة وكل إيمان وطني تحت ستار أخوة طبقية زائفة.

هذا ما جاء في المقترحات الأساسية، وقد طرحت خلال جلسات المؤتمر مسألة إيجاد مقر دائم للتصويت، ونظراً لكون الوفد المصري من أكبر الوفود، فقد فاز اقتراح اعتماد القاهرة مقراً دائماً بدلاً من القدس، وهكذا كانت نهاية مؤتمر الخريجين الدائم، يبقى أن أشير إلى أننا في يوم المؤتمر الأخير زرنا الخطوط الأمامية للجبهة، وقد رأينا بأم العين جنود الاحتلال في الجهة المقابلة.

ستمضي سنوات عدة قبل أن أزور القدس ثانية، وهي سنوات كانت حافلة على صعيدي الحركة النسائية، والقضايا القومية. فعلى الصعيد الأول تحققت مطالب قوية هامة من بينها حصول المرأة اللبنانية على حقوقها التشريعية كاملة، بحيث حق لها أن تنتخب وتنتخب من دون تمييز بينها وبين الرجل، كما عقد الاتحاد العربي العام اجتماعاً له في ٣٠ آذار ١٩٥٦ في مصر في نادي هدى هانم شعراوي للتشاور في أهم القضايا العربية، وقد صدرت في ختام الاجتماع السنوي قرارات شملت مختلف العناوين والموضوعات المطروحة على جدول البحث. وكان من أعضاء مكتب الاتحاد:

الآنسة ابتهاج قدورة، وديعة خرطبيل، أنيسة نجار، شفيقة دياب، زليخة الشهابي، نازك سركيس، عادلة بيهم، عصمت السعيد، إيلين ريحان، بهيجة رشيد، زهرة صلاح، عزت استرباضي. أما على الصعيد التنظيمي للاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، فقد تمكننا في العام ١٩٥٦ من وضع دستور بمساعدة مشكورة من الدكتور إدمون نعيم، وقد طبع هذا الدستور وقدم إلى الحكومة

اللبنانية من أجل التصديق عليه، وقد نال الاتحاد بموجبه الرخصة الرسمية تحت بند المؤسسات اللبنانية الخيرية رقم ١١٨٠.

العدوان الثلاثي على مصر:

إلا أن عدوان العام ١٩٥٦ قطع علينا الإلتفات إلى الأوضاع الداخلية للاتحاد بعد الحصول على الرخصة الرسمية.

كان العدوان الثلاثي على مصر صدمة للشعوب والدول العربية كافة، فهب العرب للمساعدة. وفي هذا السبيل، اجتمع في منزل الدكتورة زاهية قدورة ببيروت وبدعوة منها بعض الخريجين من الجامعات المصرية بصفتها إحدى الخريجات ورئيسة رابطة الطلبة اللبنانيين في مصر سابقاً، بهدف القيام بتحرك لدعم مصر في مواقفها ضد العدوان، فاتصلت الدكتورة زاهية بدورها بالرئيس رشيد كرامي بوصفه خريجاً من جامعة القاهرة (فؤاد الأول سابقاً) الذي رحب بالفكرة وأخبرها أنه والحاج حسين العويني اتفقا على القيام بتحرك مماثل، ودعاها إلى الاشتراك مع الهيئات الوطنية والنسائية في هذا المجال. فكان الاجتماع الأول في نقابة المعلمين، حضره حشد كبير وافتتحته الدكتورة زاهية بكلمة مناسبة، ثم ألقى الرئيس كرامي كلمة حماسية رائعة. وكان الاجتماع الثاني في منزل الحاج حسين العويني. وقد لبت الدعوة معظم الجمعيات والهيئات الكشفية والنقابية والاجتماعية في بيروت، وكان نقاش حول كيفية تحقيق الغاية من الاجتماع وتقديم المساعدات المالية والطبية للشقيقة مصر في تلك الظروف العصيبة.

وبعد أن دام الاجتماع ثلاث ساعات، تم الاتفاق على القرارات التالية:

أولاً: تأليف اللجنة الأهلية لنصرة مصر برئاسة السيد رشيد كرامي، وعضوية الحاج حسين العويني، ونازك بيهم، وشفيقة سلام، وشفيقة دياب، وميشال غريب، وأديب قدورة، ووديعة قدورة خرطبيل، ومنيرة شحادة، وليلى بيهم، ونعمت قرنفل، وزاهية قدورة، وزكي النقاش، وسميح الصلح، وعبد الرحيم فتال، والسفير المصري عبد الحميد غالب، ومحمد الداعوق، وجان سكاف،

ونجيب حنكش.

ثانياً: توجيه النداء إلى اللبنانيين للمساهمة في العمل النبيل.

ثالثاً: إرسال برقية تأييد للرئيس جمال عبد الناصر.

رابعاً: تشكيل لجنة مالية ولجنة إعلامية.

وقد لبى أخي النقيب أديب قدورة النداء قبل تأليف اللجنة، وأرسل المساعدة الطبية إلى مصر. كانت الخطوة الأولى تتمثل بالبرقية التي أرسلها رئيس اللجنة الرئيس رشيد كرامي إلى الرئيس جمال عبد الناصر، كما أرسلت برقيات باسم الاتحاد العربي الفلسطيني إلى كل من همرشولد وفي نيويورك وكيتسكيل وسمرسكيل في لندن احتجاجاً على الأعمال العدوانية، وزرت مع وفد من الاتحاد مقر السفارة المصرية وأرسلنا برقية تأييد للرئيس عبد الناصر، كما زار وفد آخر من الاتحاد السفارة السوفياتية لتقديم الشكر على موقف الدولة السوفياتية النبيل، وقمت على رأس وفد مكون من السيدات افلين حمصي، وماري كته ووجدان إفرنجي بمقابلة السفير الأميركي في مقر السفارة وسلمناه رسالة للرئيس الأميركي بخصوص العدوان على مصر، وقد رد الرئيس الأميركي لاحقاً قائلاً أنه سيسعى لإنهاء العدوان.

وفي العام ١٩٥٧ أجرينا انتخابات لهيئة إدارية جديدة للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وكانت النتائج على الشكل التالي:

١ ـ وديعة قدورة خرطبيل رئيسة

٢ ـ افلين حمصي نائبة رئيسة

٣ ـ ماري كته أمينة سر

٤ ـ ملك سمارة أمينة صندوق

٥ ـ فاطمة جوهري كاتبة وقائع

٦ ـ نجلا صباغ مشرفة على العلاقات الأجنبية

وفريدة خورشيد، وسلوى ناجيا، ولميا أبو غزالة، ووجدان إفرنجي، وسنية

حكيم، وميرفت دلول، أعضاء هيئة إدارية.

كما استأجرنا مركزاً جديداً لبيت إسعاد الطفولة، وعينا لجنة استشارية للمشروع من كبار رجال الأعمال والشخصيات أذكر منها:

الآنسة ابتهاج قدورة، والأستاذ جواد أبو الهدى الفاروقي، والدكتور نسيب البربير، والقاضي وفيق الحسامي، والأستاذ عبد الوهاب الرفاعي، والأستاذ بدر الفاهوم، والأستاذ عفيف الطيبي، والأستاذ صالح كاتبه.

كما شاركنا في العام ١٩٥٧ في المؤتمر النسائي العربي في دمشق، وكان تحت رعاية رئيس الجمهورية السورية شكري القوتلي وبرئاسة السيدة عادلة بيهم الجزائري، وقد تقدم الاتحاد بمذكرة إلى الدول العربية في المؤتمر طالباً فيها تشديد الحصار على الكيان الصهيوني وتجنيد الشعب العربي الفلسطيني وتسليحه. وصدر عن المؤتمر المقررات التالية:

١ ـ الدعوة إلى عقد مؤتمرات نسوية آسيوية أفريقية ودولية للدعاية للقومية العربية وللتعرف على قضايا العرب.

٢ ـ الطلب إلى الجامعة العربية المساعدة على قبول الاتحاد النسائي العربي العام من ضمن الهيئات التي يسمح لها إرسال مندوبة إلى الأمم المتحدة لإسماع العالم صوت المرأة العربية.

٣ ـ مضاعفة الجهود من أجل استرداد فلسطين وتحرير الجزائر وعمان وكافة الأقطار العربية الواقعة تحت نير الاستعمار.

٤ ـ تعبئة وتنظيم القوى العربية من أجل إحياء المقاومة الشعبية.

مؤتمر الاتحاد النسائي العربي:

وفي العام ١٩٦٢ كان الحدث الأبرز على صعيد العمل النسائي في لبنان هو انعقاد مؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٢، وهو المؤتمر الخامس، وقد انعقد في فندق البريستول برعاية رئيس الجمهورية فؤاد شهاب ومثّله رئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي، الذي افتتح المؤتمر بكلمة

تمنى فيها التوفيق في تعزيز دور المرأة العربية. ثم تكلمت رئيسات الوفود السيدات:

الحاجة عندليب العمد عن الأردن، د.لميعة الذري عن العراق، فاطمة دياب عن سوريا، رباب الأدعم عن ليبيا، راضية حداد عن تونس، وديعة خرطبيل عن فلسطين، إبتهاج قدورة عن لبنان، ناهد سري عن مصر. وقد مثل الوفد الفلسطيني كل من السيدات: وديعة خرطبيل، نهيل حسن، الكسندرا ظريفة، بدرية الناشف، لميا أبو غزالة، وجدان إفرنجي، ملك سمارة، ماري كته، وداد نشاشيبي، فدوى الحاج، سلوى ناجيا، كلثوم عرابي، سلافة هاشم. وكان من أهداف هذا المؤتمر معالجة قضايا المرأة العربية، والطفولة، وقضية فلسطين.

قسمت الوفود إلى لجان منها ثقافية واجتماعية وسياسية واقتصادية، وكنت أنا في عداد اللجنة السياسية، وباقتراب موعد اختتام المؤتمر ازدادت الحركة والنشاط والإقبال على حضور جلساته من مختلف الهيئات، وقد شهد اليوم الرابع للمؤتمر حشداً كبيراً من المستمعات، وكانت الجلسة مخصصة لفلسطين، فترأست الجلسة بصفتي رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني. وعند افتتاحي الجلسة لفتت انتباه الحاضرات إلى مصادفة غريبة، ففي مثل هذا اليوم ٢٩ تشرين الثاني اتخذ قرار بالتقسيم، كما أنه كانت تطرح في هذا اليوم في الأمم المتحدة في نيويورك قضية فلسطين من قبل وفد فلسطين، وأعلنت الوقوف دقيقة صمت حداداً على روح هدى شعراوي وهي أول من أثار قضية فلسطين في الأوساط النسائية الدولية، وأعلنت بأن إحدى قاعات مباني مشروع بيت إسعاد الطفولة التي يشيدها الاتحاد سوف تحمل اسم هدى شعراوي كما ستحمل الغرف أسماء البلدان السليبة في فلسطين.

ثم حاضرت السيدة ماري كته في موضوع المرأة العربية والطفولة المشردة، فاستعرضت المحاضرة مقدار ما ذاقته المرأة الفلسطينية والطفولة من التشريد والألم. فمشكلة الطفولة لا تقل أهمية وخطراً عن مشكلة الأمومة، فالمرأة لا تستطيع القيام بواجباتها كأن تعنى بتعليم أطفالها، والشعب الفلسطيني المشرد لا يستطيع إنشاء المدارس لتعليم أبنائه ولا الجهات المختصة التي يقيم على

أرضها اللاجئون بمقدورها توفير المدارس الكافية لأبناء فلسطين.

وختمت محاضرتها بنداء إلى الاتحاد العربي العام بأن يتخذ التوصيات التالية:

- أن يكون في كل قطر عربي مؤسسات كمؤسستنا أي بيت إسعاد الطفولة.

- معالجة قضية التعليم الثانوي.

- الرجوع إلى حكومات الدول العربية الشقيقة للسعي لدى هيئة الأمم المتحدة، بضرورة فتح مدارس ثانوية بواسطة وكالة الغوث.

وتلا ذلك مناقشة فطرحت سؤال الدكتورة لميعة البدري مندوبة العراق سؤالاً، لماذا لا تتكون حكومة فلسطين على غرار حكومة الجزائر؟

فأجبتها: هذا ما نسعى إليه وقد طالبنا بإبراز الكيان الفلسطيني.

وسألت السيدة فائزة عبد المجيد مندوبة الأردن عما إذا كان للإتحاد النسائي الفلسطيني نية بمطالبة البلاد العربية وحكوماتها بتبني قضية فلسطين كما جرى في الجزائر عسكرياً ومادياً وفنياً، وما مدى اهتمام الاتحاد بهذا الموضوع.

فأجبت: بأن ذلك هو ما يسعى الاتحاد إليه. وبحثت الوفود الفقرة المتعلقة بالمدارس الثانوية والشكوى من أن مدارس أكثر البلدان التي تستضيف الفلسطينيين لا تفتح أبوابها مشرعة في وجوههم. فقالت أمينة السعيد أن الطلاب الفلسطينيين في جامعة القاهرة يقبلون مثل غيرهم بالترحيب. ومن هنا كان جوابي إقراراً بهذا الواقع الصريح كما كانت عليه الحال في سوريا، لكنني طالبت بإنشاء مدارس ثانوية من قبل وكالة الغوث وذلك ما أقرته الدول العربية.

وقد أدلت جميع الوفود بكلماتها وقدمت دراساتها حول قضية المرأة والطفل، واختتم المؤتمر بانتخاب الآنسة ابتهاج قدورة مجدداً رئيسة الإتحاد العربي العام. أما القرارات المتعلقة بقضية فلسطين فهي:

- التجنيد الإجباري للفلسطينيين القادرين كافة على حمل السلاح.

ـ إقامة حرس وطني في كل الأقطار العربية المتاخمة لإسرائيل وقرى حصينة على الحدود.

ـ تشديد الحصار الاقتصادي على إسرائيل بسد المنافذ البرية والبحرية والجوية، ورفض وجود القوات الدولية في العقبة لمنع دخول السفن إلى إسرائيل.

ـ مقاومة الإسكان والتوطين للاجئين الفلسطينيين في البلاد العربية وإحباط كل محاولة لتنفيذها.

ـ تسهيل تنقل الفلسطينيين في البلاد العربية ومعاملتهم كمواطنين والعمل على تنفيذ مقررات الأمم المتحدة فيما يختص بالقضية الفلسطينية المتعلقة بعودة اللاجئين إلى ديارهم وتعويضهم عن الأملاك التي فقدت وتضررت، ورفع احتجاج لطلب منع إسرائيل من بيع أملاك العرب الغائبين والتصرف بها.

وبعد فترة وجيزة من مصابي الأليم بالعزيز مروان، عقد الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني جلسة لدعوة النساء الفلسطينيات في كل الأقطار العربية لحضور اجتماع تحضيري في شهر تموز التالي الذي سيليه مؤتمر الاتحاد العربي العام للمرأة الفلسطينية في العالم العربي.

وقد افتتحت الجلسة السيدة ماري كته وهي أمينة سر الاتحاد، نيابة عني، لأني لم أكن أستطع مغادرة منزلي بسبب حادثة ابني الأليمة. وبالرغم من ذلك جاءتني في يوم الجلسة بعد انتهائها وأطلعتني على تفاصيلها.

أما كلمة السيدة ماري كته فقد جاء فيها:

«إن الواجب يفرض علينا عدم البكاء بعد اليوم بل العمل المثمر المجدي لاستعادة الوطن العزيز وقضيتنا مرتبطة بكل حركة عربية تمردية، لذلك فإننا نعتبر كل حركة صادقة لمصلحة العرب هي لصالح القضية الفلسطينية ودافعاً لها نحو النجاح والنصر. إن في اجتماعنا هذا إعادة للأمل الكبير إعادة كريمة.. وعلينا أن ننقل هذا الأمل الكبير إلى نفوس إخواننا الفلسطينيين في كل مكان فنعمل متعاونين متكاتفين. هذا الاتحاد الذي يعمل من أجلك ومن أجل شعبك وقضيتك المقدسة.

أختي العائدة.. ولأول مرة في تاريخ نضال المرأة الفلسطينية، أدعوك الآن أينما كنت وحيثما وجدت في بيروت وطرابلس، في صيدا وصور وبعلبك، وفي مختلف المناطق اللبنانية، أدعوك إلى الاشتراك مع الوفود الفلسطينية القادمة من القاهرة وغزة ودمشق وبغداد والكويت والأردن والقدس، في حضور اجتماع تحضيري تقدمين فيه ما تستطيعين تقديمه من عمل يتوافق مع ماضينا الحافل بالتاريخ المجيد والثورات التحريرية والبطولات النادرة.

إن الاتحاد يحث من ترى في نفسها الكفاءة التامة والاستعداد الكامل والرغبة الصادقة في أن تعمل وتشارك في التخطيط والبناء لحاضر المرأة الفلسطينية ومستقبلها».

مؤتمر للنساء الفلسطينيات:

وفي أوائل تموز ١٩٦٣ وصلت جميع الوفود من مختلف الأقطار العربية وتحديداً من دمشق وبغداد ومصر والأردن وغزة والقدس ومن أنحاء لبنان.

وقد مثلت المرأة الفلسطينية في غزة السيدات: عصام حسيني (رئيسة الوفد) وكليمانص طرزي، وبندي وليلى قليبو، أما الوفد الأردني والمقدسي فقد ترأسته السيدة زليخة الشهابي واشتركت الحاجة عندليب العمد، وعصام عبد الهادي في عضويته، ومن القاهرة حضر وفد برئاسة سميرة أبو غزالة وعضوية جهاد سلامة وزينات عبد المجيد ورجاء بيدس، أما العراق فتمثل بالسيدات سلوى بشوتي رئيسة، وفائقة غنطوس وسائدة الأسمر وفتحية فوزي أعضاء.

أما الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، باعتباره صاحب الدعوة، فكنت أمثله كرئيسة، وكان من الأعضاء السيدات: لميا أبو غزالة، وإفلين حمصي، وملك سمارة، وماري كته، ونهيل حسن، وبهية قبلاوي، وسلوى ناجيا، ووجدان إفرنجي، وفريدة خورشيد، ووداد النشاشيبي، وايفيت خوري، وندى يشرطي، وإنعام العلمي، وكلثوم عرابي، وفدوى الحاج، ومن سوريا كانت السيدات: فدوى علمي رئيسة، نهى القزي وجبريل وبدرية شفا عمرو وعصام الحسيني أعضاء.

وقبل افتتاح المؤتمر زارتني الوفود جميعاً لتعزيتي، وأصرت السيدات على حضوري المؤتمر وترؤسه. وعند الافتتاح وقفنا دقيقة صمت على أرواح الشهداء وروح ابني مروان، كما جالت السيدات الفلسطينيات ليشاهدن أطفال بيت إسعاد الطفولة الذي يشرف عليه الاتحاد في بيروت، وهم ينشدون ويمثلون الأغاني والمشاهد المؤثرة، وقد أثار هذا المشهد العاطفة الوطنية في قلوب الحاضرات.

ثم توالت على المنصة رئيسات الوفود لإلقاء كلماتهن، فتكلمت عصام الحسيني عن وفد غزة، وتلتها السيدة نهى القزي جبريل نيابة عن رئيسة وفد سوريا، ثم السيدة رجاء بيدس بالنيابة عن السيدة سميرة أبو غزالة رئيسة وفد الجمهورية العربية المتحدة، ومن ثم تلتها رئيسة وفد العراق السيدة سلوى بشوتي. وقد أنهت الاحتفال السيدة وجدان إفرنجي بتقديمها بياناً عن آمال الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان. ثم ارتجلت الآنسة ابتهاج قدورة كلمة رحبت فيها بالمجتمعات وأكدت اهتمام الاتحاد النسائي العربي العام الذي ترأسه بقضية فلسطين، وأنه يوليها عناية خاصة في كل مناسبة. وقد أبرقت الآنسة زليخة الشهابي تعتذر لتأخر وفد الأردن عن حضور حفلة الافتتاح.

اجتمعت رئيسات الوفود وأمينات السر، واتفقن على أن يكون انتخاب رئيسة وأمينة سر الاجتماع التحضيري علنياً، وأجمعن على تزكيتي رئيسة للاجتماع أثناء انعقاده وحتى المؤتمر القادم، وطلبن مني اختيار أمينة السر، فاخترت السيدة ماري كته وهو ما أثار اعتراضات، وأخيراً قر الرأي على تعيين الآنسة كليمانص طرزي بندي أمينة سر مساعدة.

وبعد ذلك وضع البرنامج العام لاجتماعات اللجان من أجل دراسة المواضيع المختلفة. وقد تألفت اللجان على الوجه التالي:

١) ـ اللجنة الدستورية لدراسة مشروع الدستور المقدم من وفدنا كما وضعها الاتحاد.

٢) ـ اللجنة السياسية لدراسة المراحل الست التي رافقت كارثة فلسطين وهي:

١ ـ فلسطين قبل ١٩٤٨.

٢ ـ فلسطين بعد ١٩٤٨.

٣ ـ العدو قبل وبعد ١٩٤٨.

٤ ـ فلسطين في المرحلة الحاضرة.

٥ ـ تنظيم شعب فلسطين.

٦ ـ مسؤولية الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني تجاه قضية فلسطين.

٣) أما اللجنة الثالثة فهي اللجنة الثقافية والاجتماعية التي ستدرس وضع المرأة، واللجنة الرابعة هي لجنة العلاقات العامة التي ستبحث علاقة الاتحاد النسائي الفلسطيني بالاتحادات النسائية العربية المحلية، والاتحاد العام لطلبة فلسطين، وبالمنظمات السياسية الفلسطينية والحكومات العربية وجامعة الدول العربية، والاتحادات النسائية الدولية والأمم المتحدة.

وبالإضافة إلى تحقيق الهدف الأساسي وهو اتحاد نسائي عام يضم تحت لوائه جميع الجمعيات النسائية الفلسطينية في كل مكان فهناك هدفان هما:

١ ـ توطيد العلاقة والاتصالات بين الفلسطينيات في مختلف الأقطار العربية وجمع صفوفهن، وتوحيد كلمتهن وتهيئة طاقتهن للدفاع عن قضية فلسطين وحقوق شعبها والمساهمة في عملية الكفاح لاسترجاع الوطن المستباح.

٢ ـ توحيد المرأة الفلسطينية العربية للمساهمة بنصيبها في خدمة قضية وطنها، وفي نهضة القومية العربية العامة في ميادينها الاجتماعية والأخلاقية والثقافية والصحية والاقتصادية التي يتطلبها العمل للعودة والتي يفرضها الواجب الوطني على كل من أبنائها، من دون اعتبار للجنس أو المذهب أو الدين.

وجاء في مشروع دستور الاتحاد المقترح أنه «نظراً لخطورة القضية الفلسطينية، يجب أن يبنى الدستور الوطني والخطة السياسية. التي تسير عليها المرأة العربية الفلسطينية على الأسس والقواعد التالية:

١ ـ التعاون مع الشعب العربي ودوله وحكوماته لما فيه مصلحة القضية الفلسطينية.

٢ ـ جعل القضية فوق مستوى جميع المنازعات والاختلافات العربية، سياسية وحزبية وعقائدية واقتصادية.

٣ ـ وضع قضية فلسطين وشعبها بعيداً عن التكتلات والمحاور العربية، فلا يتحزب الفلسطينيون لدولة عربية ضد دولة عربية أخرى، ولا إلى كتلة من الدول العربية ضد كتلة أخرى، وبذلك يُضمن تأييد جميع العرب ودولهم لقضية فلسطين وتعضيدهم لشعبها وعطفهم عليه، فتكون قضية فلسطين في وضع شبيه بالوضع الذي كانت عليه قضية الجزائر.

وقد خرج المؤتمر بمجموعة من التوصيات أهمها في النطاق السياسي:

١ ـ وجوب إيجاد الكيان الفلسطيني المتمثل في حكومة مؤقتة تمثل العرب الفلسطينيين وتنطق بإسمهم.

٢ ـ فرض تجنيد إجباري على جميع الفلسطينيين.

٣ ـ تسهيل إجراءات السفر والتنقل للفلسطينيين.

٤ ـ معارضة مشاريع حل القضية في نطاق العلاقات الدولية العامة.

وخلال أعمال المؤتمر زارت الوفود المخيمات الفلسطينية وبيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب، كما أقيمت لهن العديد من الحفلات والدعوات من بعض الشخصيات ومنها دعوة الحكومة لزيارة بعلبك ودعوة الجمعيات اللبنانية، ومنها الاتحاد النسائي العربي العام لزحلة.

وفي نهاية المؤتمر وجهت عدة برقيات شكر بصفتي رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني إلى كل من رئيس الجمهورية اللواء فؤاد شهاب، ورئيس مجلس الوزراء الأستاذ رشيد كرامي، ووزير العمل والشؤون الاجتماعية الأستاذ جان عزيز لمساعدتهم الاتحاد مادياً ومعنوياً على إنجاح المؤتمر، ومطالبتهم باستثناء الفلسطينيين الموجودين في لبنان من تطبيق أحكام قانون ١٧

أيلول ١٩٦٢ القاضي بتطبيق قانون العمل اللبناني على جميع الأجانب في لبنان ومنهم الفلسطينيون.

مشروع الكيان الفلسطيني:

كانت قد أخذت تتشكل معالم كيان فلسطيني مستقل منذ مطالع الستينيات، وقبل أن يتقرر ذلك رسمياً على الصعيد العربي عبر منظمة التحرير الفلسطينية. والواقع أنه منذ الستينيات أخذت المطالبة الفلسطينية بالكيان المستقل تلقى وزنها في كل التشكيلات الفلسطينية، ومن ضمنها بطبيعة الحال، أو في مقدمها الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وتحقيقاً لهذا المؤتمر في طرح هذا التوجه أبرقت في الثاني عشر من أيلول العام ١٩٦٣ للأمين العام لجامعة الدول العربية عبد الخالق حسونة لمناسبة انعقاد دورة للجامعة طالبت فيها بإبراز الكيان الفلسطيني وتسليم القضية لأصحابها بمساعدة الجامعة مادياً ومعنوياً، وذلك تمشياً مع طروحات المرأة الفلسطينية في جميع الأقطار العربية كما أعلن عنها في اجتماع مقر الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت ما بين الأول والخامس من تموز. وتضمنت البرقية تأييداً ودعماً للأستاذ أحمد الشقيري للإسراع في «تشكيل الكيان الفلسطيني الذي يصل بالقضية إلى مستواها الثوري المطلوب...».

وكان مشروع الكيان الفلسطيني كذلك في العام ١٩٦٤ موضوع الساعة في مختلف الجهات الفلسطينية، وقد عقدت اجتماعاً في منزلي بناءً على طلب الشقيري في ٧ - ٣ - ١٩٦٤ من أجل التداول في المشروع، وقد حضر الاجتماع عدد كبير من السيدات الأعضاء في الاتحاد وخارجه. مهدت للاجتماع بكلمة عرضت فيها الغاية منه، موضحة أن الاتحاد كان في مقدمة المطالبين بإنشائه وقد تحقق هذا الطلب بتأييد إجماعي من كل الدول الأعضاء في الجامعة العربية، ومن واجب كل فلسطيني الإفادة من هذه الفرصة والمساهمة في دعم وتأييد المشروع. بعد ذلك عرضت السيدة سميرة عزام ملحقاً للمشروع الذي عرضه الشقيري وبعد النقاش انتهى الاجتماع إلى النقاط التالية:

١ ـ ضرورة مساندة المشروع مبدئياً.

٢ ـ تسجيل الاعتراضات الوجيهة عليه.

٣ ـ اعتماد المشروع على التعيين لا الإنتخاب.

٤ ـ ضرورة إشراك المرأة إشراكاً فعلياً في المنظمة، في مجلسها الوطني وفي لجنتها التنفيذية.

٥ ـ الدعوة إلى اجتماع عام للمرأة الفلسطينية في نادي الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت يوم الثلاثاء الموافق في ١٩٦٤/٣/١٧.

٦ ـ تشكيل لجنة تحضيرية للاجتماع العام يعقد في منزل السيدة خرطبيل من السيدات والآنسات: وديعة قدورة خرطبيل، ماري كته، وصبا الفاهوم، وندى يشرطي، وسلوى الحوت، وسميرة عزام.

ولم يلبث الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني أن دعا إلى اجتماع يعقد في ٢٧ آذار العام ١٩٦٤ في مقره، من أجل مناقشة المشروع الذي تقدم به السيد أحمد الشقيري ممثل فلسطين لدى جامعة الدول العربية، للتداول في الدور الذي يجب أن تلعبه المرأة الفلسطينية في الكيان الفلسطيني. وقد توّج الاجتماع بمجموعة من التوصيات اتخذها المجتمعون تتلخص فيما يلي:

١ ـ الكيان وأسسه.

٢ ـ تنظيم الكيان.

٣ ـ دور المرأة الفلسطينية في هذا الكيان.

لقد أكد المؤتمر على دور المرأة الفلسطينية في الكيان الفلسطيني وفي معركة التحرير، وعلى المطالبة بتمثيل المرأة في هذا الكيان على المستويات كافة.

كأن ما قمنا به في بيروت على صعيد مشروع الكيان الفلسطيني، كان جواز عبورنا ثانية إلى القدس، إذ أنه من المقرر أن ينعقد مؤتمر الاتحاد النسائي العربي العام ما بين ١٧ و ٢٠ نيسان من العام ١٩٦٤ في القدس. على أن

ما يتوجب عليَّ ذكره أني لم أكن راغبة في حضور المؤتمر، لقد كان الحزن يلفني، وكنت قد تعبت تحت تأثير ما أعاني من فقدان حبيبيَّ مروان وأديب، والنشاط الذي نبذله في إطار الاتحاد. إلا أن اعتزامي الاعتكاف عن الحضور قابله إلحاح شديد من مكتب الاتحاد العربي العام وعمتي ابتهاج، حتى أنني أكاد أقول الآن إنني أرغمت إرغاماً على الذهاب إلى القدس. لا أدري الآن سبب الضغط الذي مارسته عمتي بالضبط، صحيح أن المشاريع المطروحة كانت حقيقية وتوجب الحضور، إلا أن لدي شعوراً الآن أنها أرادت إبعادي عن وحدتي وحزني لصالح إيقاع أجواء المؤتمرات وما تؤدي إليه من إغراق في العمل.

وعليه فلقد حضرت المؤتمر مع بعض الأعضاء اللواتي رافقنني إلى هناك، مثلما كان مقرراً في المؤتمر السابق. وقد استهل المؤتمر الذي بدأ أعماله يوم ١٧ نيسان بموسيقى السلام الملكي الأردني. وقد مثل الملك حسين السيد داوود أبو غزالة محافظ القدس، وحضره إلى جانب ممثل الملك أمين القدس وقائد الجبهة ومساعد محافظ القدس وقائد المقاطعة وعدد كبير من سيدات الجمعيات النسائية في الأردن، فضلاً عن الوفود النسائية من مختلف الأقطار العربية.

لقد كان الموقف مؤثراً جداً بالنسبة إليَّ، إذ اندفع نحوي كثير من الحضور رجالاً ونساءً لما شاهدوني قبل افتتاح المؤتمر وأخذوا يعزونني بفقدي حبيبيّ مروان وزوجي. وأخبروني بأنهم أقاموا عزاءً خاصاً في فلسطين مشابهاً للذي أقيم في لبنان.

وقد ألقت العريفة السيدة عصام عبد الهادي كلمة في المؤتمر حيّت فيها الملك حسن والحضور، وقالت إنه لمن حسن طالع المرأة العربية أن تعقد مؤتمرها بعد انقضاء ثلاثة أشهر على عقد مؤتمر القمة العربي الذي سجل فيه الملوك والرؤساء العرب الدعم والتأييد والمؤازرة لقضية فلسطين.

وبعدها جاء دور الآنسة ابتهاج قدورة رئيسة الاتحادات النسائية العربية، فألقت كلمتها عن دور المرأة العربية في خدمة أبناء وبنات وطنها، وأتت على ذكر باعثة الحركة النسائية في العالم العربي المرحومة هدى هانم شعراوي. وقد

وقف الحضور دقيقة صمت حداداً على روحها. ثم توالت الخطب والكلمات من مندوبات الأقطار العربية الواحدة تلو الأخرى، فألقت كل من زليخة الشهابي وهند حشاش وراضية حداد ونورية الصالح كلماتهن إلى أن جاء دوري، فألقيت كلمتي بقلب متألم ونفس مفجوعة.

وقلت فيها: «ما كنت لأقف هذا الموقف، وفي هذا الوقت بالذات، لولا خطورة الموضوع وأهميته، لا بالنسبة إليّ فحسب، بل كذلك بالنسبة إلى الذي استشهد في سبيل الوصول إلى أرض وطنه، والذي حرم من العودة إليها، فكان أن ثوى بعيداً عنها وقلبه الحزين يتلهف شوقاً إلى بلده الحبيب، ليرحمهم الله أمواتاً وليرحمنا نحن الأحياء، إن لي كل الشعور بأنهم معنا أينما كنا، في الشدائد والآلام إلى أن يجيء يوم النصر، فإذا هم مع إخوانهم شهداء فلسطين الأبرار الذين استشهدوا في سبيل الله والوطن».

وتابعت قائلة:

«يا أبناء شعب فلسطين، لقد آن الأوان لخوض المعركة ومحو العار، هذه هي الفرصة الذهبية التي يتوجب علينا أن نحسن الإفادة منها، إفادة تامة، إنها إبراز الكيان الفلسطيني الذي وافقت عليه بالإجماع، ولأول مرة منذ النكبة، جميع الحكومات العربية، لذلك يتوجب علينا نساءً ورجالاً أن نجند أنفسنا، بجميع ما نملك من طاقات جسدية وفكرية ومادية، لتثبيت دعائم هذا الكيان بأقصى سرعة، وعلى العمل الذي نقوم به في هذا المجال، أن يكون كاملاً شاملاً جدياً واعياً، مع تقدير صحيح لخطورة المعركة وصعوبتها، وأن يعتمد على يقظة الفرد الفلسطيني وإيمانه بعدالة قضيته ودعم الشعوب العربية جمعاء، إلى أن تعود فلسطيننا عربية حرة من جديدة، فإما حياة عزيزة كريمة، وإما شرف الموت جهاداً فوق أرض الوطن».

ثم ألقت كل من رضية إحسان وإيلين حبيب ريحان وناهد وهبة وفائزة عبد المجيد كلماتهن. وقد قدم السيد روحي الخطيب أمين القدس هدية أمانة القدس إلى المؤتمرين.

ومن المقترحات التي طرحت في هذا الاجتماع للبحث، الاقتراحات التي

قدمتها باسم الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان وهي:

١ ـ مناشدة الدول وبذل جهدها لدى الأمم المتحدة للوقوف في وجه إسرائيل للحيلولة دون تنفيذ مشروع تحويل مجرى نهر الأردن.

٢ ـ معارضة الدول العربية المضيفة للمشاريع التي تسهل تصفية قضية فلسطين.

٣ ـ وجوب إيجاد كيان فلسطيني.

٤ ـ طلب تدريب عسكري لجميع الفلسطينيين في البلدان المضيفة، من نساء ورجال.

٥ ـ فتح مجال العمل والتوظيف للفلسطينيين في البلدان المضيفة.

٦ ـ استمرار التعميم على جميع الهيئات النسائية العربية للإنتساب إلى المنظمات الدولية للوقوف في وجه مندوبات إسرائيل ودحض دعايتهن.

٧ ـ المطالبة بالتعليم الثانوي الكامل للفتاة الفلسطينية وإعطاؤها المنح الدراسية في الخارج أسوةً بأخواتها المواطنات في الدول المضيفة.

٨ ـ تسهيل إجراءات السفر والتنقل في البلدان المضيفة.

وقد لاقت هذه الاقتراحات تأييداً من الجميع، وخلال أعمال المؤتمر جرت عدة حفلات وزيارات، كما وجهت دعوات عديدة على شرف المندوبات:

ـ زيارة المتحف، وقد ألقيت كلمة هناك كان لها أبلغ الأثر في النفوس.

ـ زيارة أريحا ومعالمها ثم حفلة شاي بدعوة من رئيس بلدية أريحا في منتزه الجندول.

ـ زيارة جمعيات نابلس.

ـ حفلة شاي في طولكرم بدعوة من الهلال الأحمر وزيارة الخطوط الأمامية.

من بين تلك الزيارات، كانت زيارة طولكرم الأكثر إيلاماً لي، أمام المنزل الذي أقمت فيه مع زوجي ومروان طفلاً صغيراً أترجل من السيارة، أرى المنزل الذي عشت فيه، وأكاد أنادي أديب إنني هنا، يسمع صوتي فيخرج بروبه الأبيض، يضحك ثم يغمرني بين ذراعيه، أنهر مروان أن لا يعتدي على أمل، أن (لا يتشيطن) كي لا يكسر المزهريات وأواني الزينة، وأن يتوقف عن حركاته، ويخرج إلى الحديقة الصغيرة، تملأ الدموع عينيّ، وقلبي ينفطر وأنا أتذكر كل تلك الأيام، كأن المرارة تغيب، مرارة الصراع، والجهد اليومي نبذله أديب وأنا من أجل إنقاذ المصابين من المقاومين الفلسطينيين والعرب، أو المواطنين الذين استهدفتهم العصابات الصهيونية بنارها وقنابلها، لو أن حجارة البيت تتحدث لقالت كلاماً كثيراً عن تلك العائلة التي عاشت في هذا المنزل، ليت للأبواب ألسنة، لأخبرت الأرملة الثكلى عن الزوج والابن اللذين فقدت، كل ما في البيت يطغى عليه الإهمال، كأن أحداً لم يكن يقوم على خدمة كل ما فيه من نوافذ وشرفات وجدران وأزهار، أقف أمام بيتي وأنا بعيدة عنه، أنظر إلى بحر بيروت الذي ابتلع مروان، إلى مناخ الكويت الذي قضى على أديب. تفاجئني ندى الجيوسي ابنة رئيس بلدية طولكرم السابق هاشم الجيوسي من الخلف، تضع يديها على كتفي ثم تضمني وتبكي، نبكي معاً، تخبرني أن هذا البيت الذي أراه بات الآن لا شيء، لا شيء تماماً بعد أن كان جنة، قالت إنها لم تر والدها يبكي في حياته إلا لدى علمه بوفاة زوجي الدكتور خرطبيل، تبكي ندى وأبكي، ثم تقودني من يدي إلى السيارة نحو بناية الاتحاد، وهناك التقي بالكثير من السيدات اللواتي عملن معي في الاتحاد، أنظر في وجوههن، فلا ألمح في تلك الوجوه النضرة التي سبق وتعرفت عليها، ربما هن أيضاً اكتشفن الأمر عندما رأينني، أرتدي حزناً يغلف القلب -كما يكسو الجسد.

انتهت أعمال المؤتمر في ٢١ نيسان، ذهبت والأعضاء إلى المطار، ولما لم نجد طائرة متجهة إلى بيروت، اتجهنا إلى عمان، وانتظرنا في بيت سلفي الدكتور محمد خرطبيل حتى العاشرة ليلاً موعد مغادرتنا طائرة «العالية» إلى بيروت فأصلها في منتصف الليل.

أعود من القدس مترعة بالحزن، أعادتني المدينة إلى اللحظة التي تركت

فيها طبريا، كما أعادتني طولكرم إلى مناخ النكبة، وإنما هذه المرة مضاعفة بالخاص. لكن هذه الأجواء، التي تحفزني إلى عدم العودة ثانية، أو الابتعاد عنها ما أمكن لا تلبث أن تتبدد في مجرى القضية.

بعد الكارثة الكبيرة التي حلت بي بوفاة زوجي جاءني أحمد الشقيري بعد زيارته الأولى لتعزيتي قائلاً: «الآن يجب أن نتحدث في موضوع الكيان الفلسطيني، وهو الموضوع الذي كنت تنادين وتحلمين به دائماً». وقد اتصل ببعض الشخصيات الفلسطينية للاجتماع بهم في منزلي ومنهم: شفيق الحوت، وعزت طنوس، وزهير العلمي، ونقولا الدر، وسميرة عزام، وراجي صهيون، ووليد الخالدي، وبرهان الدجاني، وسعيد الحتحوت، ومحمد خليل، وحسن شبلاق.

دار الحديث خلال اللقاء حول المؤتمر الوطني الفلسطيني الأول المقرر انعقاده في القدس، ودور الفلسطينيين في لبنان، وبذلك يكون لبنان قد شارك في وضع اللبنة الأولى للمؤتمر الوطني الأول لمنظمة التحرير الفلسطينية التي لها الحق بتمثيل الشعب الفلسطيني والنطق باسمه، وقد انبثقت فكرة هذا المؤتمر عندما وجدنا أن أهدافنا لن تتحقق إلا إذا توحدت الكلمة بتوطيد الأعمال المثمرة.

فبعد ستة عشر عاماً من التشرد والضياع، يلتقي مائتان وأربعون فلسطينياً من أقطار العالم، للبحث في كيان فلسطيني يخطط للعودة المظفرة. على حد ما وصفته مجلة «الصياد».

وعليه فلقد دُعيتُ وفود فلسطينية من جميع أنحاء الأقطار العربية، وقد كُلفتُ من قبل الأستاذ الشقيري بتأليف وفد لحضور المؤتمر فانتخب الاتحاد الأعضاء التالية أسماؤهن لحضور المؤتمر وهن: الرئيسة وديعة خرطبيل، والسيدات، الكسندرا ظريفة، وسلوى ناجيا، وسميرة عزام، وصبا الفاهوم، فكان الوفد النسائي مؤلفاً من ثلاثين سيدة من كل الأقطار منهن نحن السيدات الخمس عن الاتحاد العربي الفلسطيني في لبنان.

وكان من المقترحات التي قدمت لهذا المؤتمر انتخاب مجلس وطني دائم واعتبار المجلس الحالي مجرد مجلس تأسيسي، ولا شك، أن المرأة سوف تنجح

أيضاً في الانتخابات العامة وهي التي بدأت العمل النضالي منذ العام ١٩٢١ وحققت الكثير من الإنجازات. ففي تلك السنة تأسس الاتحاد النسائي الفلسطيني وكانت له فروع عديدة في القدس ويافا وعكا والناصرة وطولكرم وطبريا ورام الله والخليل وحيفا.

المؤتمر الفلسطيني الأول:

وقد اتخذ المؤتمر بعد افتتاحه في القدس بتاريخ ١٥ أيار سنة ١٩٦٤ من قبل الملك حسين سلسلة من القرارات أرست القواعد السليمة لإنشاء الكيان الفلسطيني بهدف تمكين الشعب الفلسطيني من تحرير وطنه وتقرير مصيره.

فقد أعلن المؤتمر أن قيام إسرائيل في فلسطين، التي هي جزء من الوطن العربي، رغم إرادة أصحابها الشرعيين يعتبر عدواناً استعمارياً صهيونياً مستمراً ويخالف مبدأ تقرير المصير، وأن بقاء إسرائيل في هذا الجزء من الوطن العربي يشكل خطراً مستمراً على كيانه وعلى السلام العالمي. كما أعلن أن الأعراف الدولية ومبادىء القانون الدولي تعطي الحق للشعب العربي الفلسطيني بالنضال في سبيل تحرير وطنه بكافة الوسائل مدعوماً بمساعدة الدول العربية الشقيقة والدول المحبة للسلام.

وطالب المؤتمر بالعمل على طرد إسرائيل من الأمم المتحدة وجميع المحافل الدولية بالتعاون مع الدول الشقيقة والصديقة، وذلك لممارستها سياسة عدوانية توسعية عنصرية وخرقها جميع المبادىء الدولية وقرارات الأمم المتحدة.

وقد طلب المؤتمر من جامعة الدول العربية اتخاذ موقف حاسم تجاه دول السوق الأوروبية المشتركة لموافقتها على منح إسرائيل امتيازات اقتصادية.

واعتبر المؤتمر أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد لفلسطين لدى جامعة الدول العربية ومكاتب المقاطعة والأمم المتحدة ومنظماتها ووكالاتها المختلفة والمؤتمرات الرسمية والشعبية، وهي تملك هذا الحق وحدها بالنسبة إلى الفلسطينيين وتنظيمهم والنطق باسمهم، وأنه من الواجب الإعلان عن قيام منظمة التحرير الفلسطينية والإفصاح عن أهدافها وتبليغ جميع الدول

والمنظمات الدولية والشعبية والحركات التحررية في العالم بهذا الأمر وطلب المساندة والتعاون والتأييد.

وكان من أبرز القرارات في المجال الاجتماعي والتي اتخذها المؤتمر، العمل على محو الأمية ورفع مستوى الأسرة الفلسطينية، وإنشاء الصندوق القومي الفلسطيني لدعم نضال الشعب الفلسطيني، وتنظيم حملات إعلامية في جميع أنحاء العالم عن طريق الإذاعات والتلفزيونات والصحف والمجلات والأفلام، وإعداد الكتب والمناهج الدراسية اللازمة لتوعية الطلاب العرب مع إدراج مادة قضية فلسطين في جميع المراحل التعليمية ومواد التخصص في الجامعات والمعاهد العالية.

كما وافق المؤتمر على إشراك المرأة الفلسطينية العربية في جميع مجالات العمل التنظيمي والنضالي ومساواتها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات من أجل تحرير الوطن. وكذلك تشكيل إتحادات نقابية للعمال الفلسطينيين وأصحاب المهن والخريجين، وضمها إلى الاتحادات العربية العامة، وتقوية الروابط وأواصر الصداقة بين مختلف شعوب العالم، وتوعيتها بالقضية الفلسطينية.

وأنشأ المؤتمر لهذه الغاية اللجان المختلفة للمساعدة على إجراء الاتصالات اللازمة بمختلف الدول والهيئات والمنظمات، والإشراف على تحقيق ما تم الاتفاق عليه، وتنفيذ المقررات، والتأكد من تلبية حاجات الشعب الفلسطيني.

وبعد اختتام المؤتمر الفلسطيني القومي في القدس في الثامن والعشرين من أيار سنة ١٩٦٤، ارتفعت صيحات كثيرة في الأوساط العربية والفلسطينية بعضها بارك قرارات المؤتمر الأول للشعب الفلسطيني، وتمنى له التقدم المستمر في طريق ثوري صحيح.. وبعضها الآخر قال دون لف ودوران إن المؤتمر كان تمييعاً للقضية الفلسطينية وإن الكيان الذي تم تشكيله جاء مخيباً للآمال، ضعيفاً هزيلاً، لا يشفي الغليل بعد ستة عشر عاماً من النسيان والضياع.

وهنا لا بد من إيراد بعض أسماء الذين حضروا المؤتمر وشاركوا في هذا الواجب الوطني الكبير، خصوصاً السيدات، ومنهن على سبيل المثال لا الحصر:

زليخة الشهابي، وأمينة الحسيني، وباسمة فارس، وسميحة ثابت الخالدي، وعصام عبد الهادي، وعندليب العمد، وفائزة عبد المجيد، وريما صلاح، وليديا الأعرج، وهدى عثمان حمزة، ويشرى شاور، ويسرى البربري - غزة، وصفية الشقيري - أريحا عن فلسطين.

وديعة خرطبيل، وصبا الفاهوم، وسميرة عزام، والكسندرا ظريفة، وسلوى شكري ناجية عن لبنان.

وزينب سقا الله عن الكويت، وسلمى الدجاني عن ليبيا، وفدوى طوقان عن قطر.

المجلس الوطني الفلسطيني الثاني:

قبل أن أعود ثانية وأخيراً إلى القدس، قبل سقوطها في قبضة قوات الاحتلال الصهيوني، لا بد وأن أتناول حضور جلسات المجلس الوطني الفلسطيني الثاني المنعقد في القاهرة في العام ١٩٦٥، فقد وجهت لنا الدعوة لحضور اجتماعاته التي عقدت ابتداءً من ١٩٦٥/٥/٣١ في القاهرة. وقد تمثل الاتحاد بي وبألكسندرا ظريفة وسلوى ناجية وصبا الفاهوم والأديبة سميرة عزام. وفي الجلسة الأولى خطب الرئيس جمال عبد الناصر وعبد الخالق حسونة وأحمد الشقيري، وتم إقرار جدول الأعمال وتلاوة تقارير اللجان ومناقشتها في الجلسة الثانية. وكان من ضمن المقترحات التي حاول بعض الوفود طرحها على التصويت بقصد إقرارها، تشكيل إتحاد نسائي فلسطيني موحد في كل البلاد العربية يرتبط مباشرة بالمنظمة. ولكنني أبديت معارضتي لهذا الاقتراح وكنت المعارضة الوحيدة وقد أصررت على موقفي. فقد قلت لهم حينها: «لا أحد يمكن أن يعرف ماذا سيحدث في المستقبل بالنسبة إلى المنظمة، وأي خلل سيصيب المنظمة سيتأثر به الاتحاد في حال ارتباطه بها مباشرة، لذا يجب أن يبقى الاتحاد مستقلاً تماماً عن المنظمة إسمياً وليس عملياً، كونه مرخصاً به من الحكومة اللبنانية، ويتمتع بالحقوق الكاملة نفسها التي تتمتع بها الجمعيات اللبنانية الأخرى».

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن أعضاء الاتحاد في لبنان كن قد أبرقن بتاريخ ٦٥/٦/١٢ إلى السيد أحمد الشقيري يعلن ترشيحي بالإجماع لتمثيل نساء فلسطين في اللجنة التنفيذية للمنظمة.

والجدير بالذكر، أنني كنت السباقة إلى طرح فكرة توحيد مختلف الاتحادات والجمعيات النسائية تحت لواء الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية وذلك في اجتماع عام عقد في بيروت سنة ١٩٦٣ ضمّ مختلف الهيئات النسائية الفلسطينية بهدف تحقيق وحدة متكاملة من أجل تهيئة العمل النضالي لتحرير فلسطين. وكانت هذه الفكرة قد طرحت مجدداً وتبلورت أثناء انعقاد المؤتمر الفلسطيني الأول في مدينة القدس عام ١٩٦٤. وهكذا خرجت إلى حيز التنفيذ حية تنبض بالحياة، وقد اقترح الدكتور وليد قمحاوي عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية والمسؤول عن التنظيم الشعبي في ذلك الوقت أن تؤسس فروع للإتحاد في جميع البلاد العربية التي يتواجد فيها الشعب الفلسطيني. ونزولاً عند طلبه عقد اجتماع في ٢٠ شباط ١٩٦٥ في القدس بالذات، من أجل البحث في الترتيبات الضرورية لعقد اجتماع يضم النساء الفلسطينيات من مختلف الأماكن التي يتجمعن فيها لإقرار الفكرة التي طرحت والعمل على تنفيذها.

وفي ذلك الاجتماع اتخذت القرارات لتنفيذ المشروع وذلك بتشكيل لجنة تحضيرية عامة مؤلفة من كل من السيدات والآنسات الآتية أسماؤهن:

(أ) زليخة الشهابي والحاجة عندليب العمد وفريدة أرشيد وحلوة جقمان عن مكتب الاتحاد النسائي العربي في الأردن.

(ب) وديعة خرطبيل عن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت.

(ج) يسرى البربري مع عضو آخر تنتخبه جمعية الاتحاد النسائي في غزة عن قطاع غزة.

(د) سميرة أبو غزالة عن القاهرة.

(هـ) سعادة الكيلاني الدباغ عن الجمعية النسائية الفلسطينية في دمشق.

(و) سلمى الخضرا مندوبة عن الكويت.

بدأت اللجنة التحضيرية العامة اجتماعاتها في ١٩٦٥/٣/١٨ في مقر الاتحاد النسائي العربي في القدس واستمرت لغاية ١٩٦٥/٣/٢٣. حضر أول اجتماع لهذه اللجنة كل من الدكتور وليد قمحاوي والآنسة أمينة العيسوي مساعدة المدير العام للتنظيم الشعبي النسائي. وانتخبت في هذا الاجتماع الآنسة زليخة الشهابي رئيسة اللجنة التحضيرية العامة، وسميرة أبو غزالة أمينة للسر. كما حدّدت مدينة القدس لعقد المؤتمر المقبل فيها ابتداءً من ١٩٦٥/٧/١٥ ولغاية ١٩٦٥/٧/٢١ من أجل الموافقة على الدستور الذي وضعه الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت سنة ١٩٦٣ ونوقش وأقر في القدس العام ١٩٦٤.

كما بحثت خلال المؤتمر العديد من المسائل، كإنشاء قيادة جيش التحرير الفلسطيني ووحداته، وإنشاء شعبة لشؤون العدو وتوزيع المكاتب في الأقطار العربية والبلدان الأجنبية، وحضور المؤتمرات، والإشراف على الأنشطة الإعلامية وإنشاء مركز للأبحاث، ودعم الصندوق القومي الفلسطيني، ووضع مشروع التنظيم الشعبي المعدل والاتصال باتحادات الطلاب والعمال لإدخالهم في المشاريع التنظيمية الجديدة، وكذلك تدارس موضوع إيجاد إتحاد عام للمرأة الفلسطينية يضم الهيئات النسائية الفلسطينية والسيدات الفلسطينيات العاملات في الحركة الفلسطينية التحريرية في ضوء الاجتماع التحضيري الذي عقد في القدس، الذي أعد فيه مشروع دستور الاتحاد العام للتنظيمات النسائية الفلسطينية، والذي سيطرح على المؤتمر النسائي الفلسطيني العام الذي سيعقد في شهر تموز ١٩٦٥.

ولما حان موعد عقد المؤتمر في القدس، كما تقرر ذلك في مؤتمر القاهرة، سافرت إليها في ١٣ تموز العام ١٩٦٥ للاشتراك في اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر ولدراسة الدستور الذي وضع سنة ١٩٦٤ في مقر الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في بيروت، وكنا نحن الذين اقترحنا الفكرة آنذاك، ولحضور المؤتمر المزمع عقده أيضاً.

المؤتمر النسائي الفلسطيني:

إفتتح المؤتمر في ١٩٦٥/٧/١٥ برعاية الملك حسين وقد أناب عنه رئيس وزرائه وصفي التل. وكان ذلك في قاعة سينما القدس في مدينة القدس. حضر حفلة الافتتاح حشد كبير من المواطنين والمواطنات، وفي طليعتهم الوزراء والأعيان والنواب ورئيس منظمة التحرير الفلسطينية وأعضاء اللجنة التنفيذية ومدراء دوائرها وقناصل الأقطار العربية في المدينة المقدسة وكبار رجال الدولة والجيش، فضلاً عن الوفود النسائية الفلسطينية الممثلة في الأقطار العربية المضيفة.

استهل المؤتمر أعماله بمناقشة المواضيع المدرجة على جدول أعماله، بناءً على اقتراحات اللجنة التحضيرية، وكان من حق مكتب المؤتمر أن يعدل في جدول الأعمال حسب الظروف، وقد انبثق عن المؤتمر خمس لجان هي:

١ ـ لجنة الدستور والتنظيم الشعبي، ومن أعمال هذه اللجنة:

(أ) التنظيم الشعبي كمقدمة لتنظيم الشؤون العسكرية.

(ب) دور المرأة في المعركة والمقاومة الشعبية.

(ج) الاستنارة بالقواعد التنظيمية الشعبية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

٢ ـ اللجنة السياسية: كان على جدول أعمالها أمور كثيرة أدرجت للبحث، وقد اتخذت التوصيات التالية:

(أ) القيادة السياسية جماعية ومنبثقة عن قاعدة المنظمة ومنتخبة المجلس الوطني.

(ب) التدريب العسكري لكل قادر على حمل السلاح بمن فيهم النساء.

(ج) الكفاح الثوري المنظم.

(د) مساعدة الدول العربية في استخدام جميع الوسائل الممكنة لتحرير فلسطين.

(هـ) مقاومة مشاريع التوطين.

٣ ـ اللجنة الاجتماعية: من أعمالها الاهتمام برفع مستوى الأسرة في روابطها في المدن والأرياف والمخيمات صحياً واجتماعياً وثقافياً وروحياً.

٤ ـ لجنة الدعاية والتوعية، وأخيراً اللجنة المالية.

ومن المواضيع التي كانت أيضاً مدرجة على جدول أعمال المؤتمر انتخاب سيدة فلسطينية تمثل مقعداً في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير. وكان هذا يعني أن المرأة الفلسطينية ستتحمل مسؤولياتها وتشارك فعلياً في القيام بواجباتها الوطنية على أكمل وجه، فضلاً عن أنها ستشترك في المؤتمرات النسائية الدولية والعربية، وأن المرأة الفلسطينية وهي تقيم مؤتمرها الوطني في القدس موطن الإسراء والمهد إنما لتلتزم فيه بالعمل الوطني، وفق منهج يقوم على التخطيط العلمي الثوري الشامل المتفق عليه مع قرارات المجلس الوطني لمنظمة التحرير الفلسطينية الذي عقد في القاهرة في ١٩٦٥/٥/٣١ إيماناً منها بأن الوطن وحدة مقدسة ولا تجزئة فيه لكفاح بين الجنسين، وأنه لا يسترد إلا بتكتل القوى والكفاح المسلح وبالوحدة الوطنية بكل ما فيها من إيمان وتنظيم وتضحية وفداء.

أما بالنسبة إلى انتخاب السيدة التي ستمثل المرأة الفلسطينية في المجلس الوطني فكانت شروطي أن تكون المرشحة على مستوى القضية قادرة على التضحية والعمل الجدي، وأن تكون ذات خبرة ومتفرغة للعمل، لأنه عمل شاق وثوري ليس كالعمل في مجلس نواب مثلاً، فضلاً عن كونها على مستوى ثقافي عال.

كما حاول المؤتمرون إقناعي بأن أكون السيدة المنتخبة لرئاسة اتحاد المرأة، فكان ردي بالرفض، قائلة بما أن المقر الدائم لمكتب الاتحاد العام للمرأة يجب أن يكون في البلد الذي تكون فيه الرئيسة، لذا أقترح أن تكون الرئيسة والمكتب في الضفة الغربية كأرض فلسطينية أي يجب أن تكون السيدة المنتخبة في داخل فلسطين.

لذلك فقد تم انتخاب أعضاء الهيئة التنفيذية من سيدات في الضفة الغربية جرت عملية الترشيح والانتخاب ففازت السيدات:

عصام عبد الهادي رئيسة، وفريدة أرشيد نائبة الرئيسة، وسميحة سلامة

خليل أمينة السر، وأمينة حسيني سكرتيرة للعلاقات الخارجية، ونهيل عويضة سكرتيرة للعلاقات الداخلية، وليديا الأعرج أمينة الصندوق.

أما المرشحات إلى المجلس الإداري فقد فازت الأعضاء التالية أسماؤهن:

عصام عبد الهادي ـ نابلس الأردن، أمينة حسين ـ القدس الأردن، فريدة أرشيد ـ جنين الأردن، نهيل عويضة ـ القدس الأردن، سائدة الأسمر ـ بغداد العراق، سعادة كيلاني ـ دمشق سوريا، رمزية الخطيب ـ غزة فلسطين، سميحة قبج سلامة ـ الخليل رام الله الأردن، تحف الغصين (بالتركية) طرابلس ليبيا، فتية قدورة ـ دمشق، نبيلة عبد الهادي ـ غزة فلسطين، وديعة قدورة خرطبيل ـ بيروت لبنان، زينب سقا الله ـ الكويت، مديحة أبو ستّة ـ غزة فلسطين، صبا الفاهوم ـ بيروت لبنان، يسرى شادر ـ الخليل الأردن، ملك ترزي ـ غزة فلسطين، ليديا الأعرج ـ القدس الأردن.

وبذلك فقد استطاعت المرأة الفلسطينية بعد هذا المؤتمر أن ترسم لنفسها الطريق الأقوم للكفاح والسبيل الأصح للإسهام في العمل المتوجب عليها حتى تسير جنباً إلى جنب مع الرجل الفلسطيني على درب التحرير.

المجلس الإداري

الإتحاد المرأة الفلسطينية:

وما أن حلّ موعد اجتماع المجلس الإداري لاتحاد المرأة الفلسطينية، حتى توجهت إلى القدس للمشاركة في ذلك الاجتماع، وكان ذلك في شهر نيسان ١٩٦٦.

وكان على جدول أعمال ذلك الاجتماع بعض البنود التي نوقشت وأهمها:

- تقارير الهيئة التنفيذية.
- تقارير عن أعمال المجلس الإداري.
- تحديد صلة الاتحاد بدائرة التنظيم الشعبي ومنظمة التحرير.

ـ مناقشة تمثيل المرأة بمقعد واحد في اللجنة التنفيذية للمنظمة، وكذلك تمثيلها في المجلس الوطني الفلسطيني التالي.

ـ مناقشة إمكانية قيام مجلس استشاري على مستوى عال من السيدات اللواتي لهن خبرات طويلة ومجهودات وطنية.

ـ مناقشة دور عضو المجلس الإداري وعضو الهيئة التنفيذية للمؤتمر الوطني الثاني للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

ـ بحث ومناقشة دور الطلبة والمرأة العاملة من الاتحاد العام للمرأة.

ـ مناقشة بعض مواد الدستور والتي تعذر تطبيقها عملياً.

وبعد حضورنا دورة اجتماعات المجلس الإداري الأول وعودتنا من القدس، بدأ عملنا الرسمي حسب دستور الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية. فوجهنا دعوة لبعض السيدات من العائدات في دمشق إلى اجتماع في مكتب منظمة التحرير بتاريخ ١٩٦٦/٥/٧ لتأليف لجنة تحضيرية وقد لبى دعوتنا الجميع، وبعد أن شرحنا لهن الأعمال المنوطة باللجنة قيد الإنشاء ألفت اللجنة التحضيرية وقد انبثق عنها بعد ذلك لجان خمس وهي:

١ ـ لجنة الإسعاف والتمريض.

٢ ـ لجنة الإذاعة.

٣ ـ لجنة المحاضرات.

٤ ـ لجنة التوعية والتوجيه.

٥ ـ اللجنة الاجتماعية والفنية.

وقد انضم إلى كل لجنة من هذه اللجان عدد من العائدات.

في شهر نيسان سنة ١٩٦٦ وجهت إلى الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني دعوة إلى حضور المؤتمر السادس للإتحاد النسائي العربي العام في القاهرة، وبناءً على طلب من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية توجه وفد من الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بتاريخ ١٩٦٦/٤/٢٩ إلى القاهرة لتمثيل المرأة الفلسطينية في المؤتمر

السادس. وقد تشكل الوفد من رئيسة الاتحاد سكرتيرة العلاقات الخارجية وسكرتيرة العلاقات الداخلية.

وكان اتحاد المرأة الفلسطينية قد اتصل بتاريخ ١٩٦٦/٢/٢٣ بالمكتب الدائم للاتحاد النسائي العربي العام في بيروت والذي كانت ترأسته حينذاك الآنسة ابتهاج قدورة طالباً الاشتراك في المؤتمر وكذلك طلب الاشتراك في عضوية الاتحاد ممثلاً المرأة الفلسطينية. فجاء الرد بالرفض على أساس أن فلسطين ممثلة في أكثر من اتحاد في هذا المؤتمر، وهي ممثلة في الاتحاد النسائي الأردني والاتحاد النسائي الفلسطيني في لبنان، فكان جواب الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية بتاريخ ١٩٦٦/٣/١٥ بأن الممثل الشرعي للمرأة الفلسطينية هو الاتحاد العام الذي شكل إثر المؤتمر الأول للمرأة الفلسطينية في القدس في حزيران ١٩٦٥ وأن الاتحاد النسائي الأردني يمثل الأردن والاتحاد النسائي الفلسطيني في لبنان يمثل المرأة الفلسطينية في لبنان. بعدها جاء الرد من الآنسة قدورة في ٦٦/٣/٣١ بأن يجري الاتفاق بين الاتحاد العام والاتحاد النسائي الفلسطيني في لبنان للاشتراك معاً في تمثيل فلسطين. ثم عادت الآنسة قدورة وأبطلت هذا القرار بتبليغ شفوي وخطي بواسطتي، باعتباري رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان وعضو مجلس إداري في الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في الوقت نفسه. وفي ٦ نيسان وصلت برقية من عمتي ابتهاج أثناء انعقاد المجلس الإداري للإتحاد العام للمرأة الفلسطينية في القدس، تقول إن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان هو الممثل الرسمي الوحيد في مؤتمر القاهرة. وهنا اتخذ المجلس الإداري قراراً بإرسال كتاب موقع من قبل أعضاء المجلس الإداري جميعاً، وقد وافقت أنا على عمل إعداد هذا الكتاب ونقله إلى عمتي في بيروت، على أن أعمل على تحقيق طلب المجلس الإداري الذي كان يتضمنه الكتاب، وهو قبول اتحاد المرأة عضواً في الاتحاد النسائي العربي العام، وتوجيه الدعوة له إلى حضور هذا المؤتمر.

وعند وصول وفد اتحاد المرأة الفلسطينية إلى القاهرة، علم بوجود وفدنا وفد الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان في القاهرة أيضاً، والاتحاد الذي أمثله عضو سابق في الاتحاد النسائي العربي العام. وقد حضر وفد اتحاد المرأة

إلى القاهرة لتمثيل فلسطين في المؤتمر مدعياً أن لديه تفويضاً من مكتب المنظمة في القاهرة لهذا التمثيل. فعلم وفدنا بذلك عند اجتماعه في الاتحاد الاشتراكي بالوزير المسؤول عن الإشراف والترتيب للمؤتمر النسائي العربي العام، وقد طلب منا الوزير اعتماداً من منظمة التحرير لاتحاد المرأة بتمثيل نساء فلسطين في المؤتمر.

على أثر ذلك اجتمع وفد اتحاد المرأة برئيس المنظمة أحمد الشقيري في ٣٠ نيسان وشرح له الوضع، فأفاد بأن لا علم له بتاتاً بتفويض الاتحاد النسائي الفلسطيني في لبنان وأن هذا لم يجر من قبله مطلقاً، وقال إنه ليس من المنطق أن يطلب هو من اتحاد المرأة الفلسطينية الحضور من القدس لتمثيل فلسطين ثم تفويض آخرين بذلك في الوقت نفسه، وأقترح، حفاظاً على وحدة العمل وعدم إظهار تفرقة في الخط الفلسطيني، أن يعقد اجتماع بعد ظهر ذلك اليوم في مكتب المنظمة بين الاتحادين للوصول إلى حل لهذه المشكلة. وقد أبدى وفد اتحاد المرأة الفلسطينية استعداده الاشتراك في تمثيل فلسطين ضمن اتحاد المرأة الفلسطينية خصوصاً أنني عضو مجلس إداري فيه. فقد قبل أن أمثل فلسطين ضمن وفد أترأسه على أن يكون التمثيل باسم اتحاد المرأة الفلسطينية.

وبعد ظهر اليوم نفسه جرى البحث حول الموضوع بين الاتحادين، وقد أصررت باعتباري رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان على أن لنا الحق، بصفتنا أعضاء سابقين في الاتحاد النسائي العربي العام، بتمثيل فلسطين، وقد جرت المناقشة على أساس أن الاتحاد النسائي في لبنان يمثل فلسطينيات لبنان فقط، وأن تمثيل فلسطين يعود للاتحاد العام للمرأة الفلسطينية الذي يمثل الفلسطينيات في جميع مراكز تجمعهن، إذ إن الاتحاد انبثق من مؤتمر المرأة الفلسطينية في القدس، وفي بيروت بجهود الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني سنة ١٩٦٣.

هذا وفي ذلك المساء حصل اتحاد المرأة الفلسطينية على اعتماد من مكتب المنظمة في القاهرة وآخر من رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، قدمهما إلى مكتب المؤتمر لإعلام المسؤولين عن المؤتمر باعتماد الاتحاد العام للمرأة

الفلسطينية ممثلاً رسمياً لفلسطين ولمنظمة التحرير الفلسطينية في المؤتمرات العربية والدولية. ولكنني لم أقرّ بهما وهددت بالانسحاب، كما اتصلت برئيس المنظمة بهذا الخصوص. عندها اتصلت الدكتورة سهير القلماوي رئيسة المؤتمر لتعلمنا أنه إذا لم يجر الاتفاق بيننا فسوف تضطر إلى إعلان انسحاب فلسطين من هذا المؤتمر، ومرة أخرى وحفاظاً على شكلية وحدة الصف وعدم الرغبة في استمرار هذا الوضع، فقد أصدر رئيس المنظمة بياناً قرر فيه اشتراك أعضاء الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية والاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان ضمن وفد واحد باسم (فلسطين) على أن يكون الاجتماع بهذا الترتيب في المؤتمر الحالي فقط وأن يلتزم الطرفان هذا الترتيب برئاسة وديعة خرطبيل وبعد استفسار أعضاء الوفود النسائية العربية عن سبب الخلاف وعن الموضوع وافق المكتب الدائم بالإجماع على الآتي:

- أن يكون تمثيل الوفد من الطرفين برئاستي.

- أن يكون تمثيل الوفد في المكتب الدائم المكون من عضو من كل من الطرفين، على أن أكون أنا الرئيسة، ثم طلبت الدكتورة سهير القلماوي أن أدخل إلى القاعة لحضور الجلسة، وقد أبلغت بالقرارين.

ثم تليت كلمة شكرت الوفد على ثقته بي وقلت له إنني لا أقبل في الحقيقة تغيير أمينة السر بأخرى لأني اتفقت معها على أسلوب العمل ولا أقبل أن تبدل، وإن أصر المكتب على ذلك فإني سأنسحب من المؤتمر، وقد أصررت على رأيي.

فأجابت الدكتورة القلماوي أرجو أن يفوضني المكتب الدائم، لو وافق أن أتفاوض مع وفد منظمة التحرير وأناقشه في مسألة أمانة السر، وتمنت أن توفق في إقناعنا لإنجاح المؤتمر، وقد فوض المكتب الدائم الدكتورة القلماوي بمفاوضة وفد منظمة التحرير.

وكان المكتب الدائم قد عقد أول اجتماعاته يوم الجمعة الموافق ٢٩/٤/١٩٦٦ برئاسة الآنسة ابتهاج قدورة وحضور العضوات الآتية أسماؤهن:

عن المكتب التنفيذي:

الآنسة ابتهاج قدورة، هند حشاش، وداد قرطاس.

الأردن: زليخة الشهابي، فائزة عبد المجيد.

سوريا: عادلة بيهم الجزائري، جيهان الموصلي.

العراق: د.لميعة البدري، جهادية القرغولي.

مصر: د.سهير القلماوي، مفيدة عبد الرحمٰن.

الكويت: نورية الصالح، باكيزة أمين.

فلسطين: وديعة خرطبيل، رقية حوري.

لبنان: لور تابت، زاهية سلمان.

ليبيا: خدوجة الشبلي، حليمة زريح.

السودان: فاطمة إبراهيم.

عدن: رضية إحسان.

وكان من أعضاء الوفود الرسمية:

المغرب: زهراء ملين وخديجة الزهير.

الجزائر: صفية بن ماضي ومنوبة خالد خوجة وربيعة عبد الصمد.

وافتتحت الجلسة الآنسة ابتهاج قدورة واستهلتها بالشكر والامتنان للرئيس عبد الناصر على استضافته الأعضاء بمناسبة انعقاد المؤتمر العربي السادس وتمنت للمؤتمر النجاح والتوفيق.

ومن أهم الأمور التي نوقشت في المؤتمر، أولاً: تشكيل لجان الاتحاد على النحو التالي:

١ ـ لجنة الأسرة: الرئاسة: السودان، أمانة السر: ليبيا.

٢ ـ لجنة الرعاية الاجتماعية: الرئاسة: الكويت، أمانة السر: ليبيا.

٣ ـ اللجنة الثقافية النسائية: الرئاسة لبنان، أمانة السر: سوريا.

٤ ـ لجنة النشاط الدولي: الرئاسة: فلسطين برئاسة السيدة وديعة خرطبيل.

٥ ـ لجنة قضايا الوطن العربي: الرئاسة وأمانة السر: بالتناوب بين سوريا والأردن والعراق.

كما ناقش المكتب موضوع المحاضرات والندوات التي يتضمنها برنامج المؤتمر وأقر إلقاء المحاضرات والندوات التالية:

١ ـ محاضرة عن القضية الفلسطينية.

٢ ـ محاضرة عن المرأة في الخليج.

كما كان من بين مواضيع جدول أعمال المؤتمر:

١ ـ منظمة التحرير الفلسطينية.

٢ ـ تمثيل النساء العربيات في الوفود الدولية على الصعيد العربي والصعيد العالمي وإتاحة الفرصة أمام النساء الفلسطينيات لأخذ دورهن في هذه الوفود.

٣ ـ موضوع المساعدات العسكرية لإسرائيل.

كما ذكرت الدكتورة نعمت أنه لا ينبغي أن نكتفي بتحديد أسبوع فقط لفلسطين بل أن يكون في المحلات التجارية، والفنادق وغيرها صناديق للتبرع مقرونة بصور عن مأساة فلسطين، إذ يجب معاونة المرأة الفلسطينية من النساء العربيات الأخريات وقد ألقيت كلمة استهللتها بتوجيه التحية إلى الرئيس جمال عبد الناصر والجمهورية العربية المتحدة، وعدت بالذاكرة إلى اثنتين وعشرين سنة خلت خلال، التقاء الوفود النسائية تحت راية رائدة النهضة النسائية العربية المغفور لها السيدة هدى شعراوي.

وأضفت: أجل، من اثنتين وعشرين سنة، اجتمعنا هنا في قاهرة المعز، وتلوت كلمة فلسطين منبهة إلى الخطر المحدق بها، والذي كان دفعه يومذاك لا يتكلف إلا اليسير، ومن المؤسف والمحزن أن ما حذرت منه قد وقع، فشهدنا السرطان الصهيوني يتغلغل في الجسم العربي، وشهدنا العدو يقيم في قلب وطننا دولة تهدد وجودنا وشرفنا وكما أهبت ببني قومي يومذاك، فإنني أهيب بهم اليوم

واستصرخهم لشد القوى وتوثيق العرى لنستطيع حماية ما سلم من أرضنا ثم الانكفاء على العدو المتربص بنا، كما أشرت الى موضوع التبرع لمنظمة التحرير الفلسطينية وقلت إنه يمكن إشراك جميع الهيئات في الجمع لهذا الغرض والمرأة أقدر من الرجل في هذا المجال.

وختمت بالقول: منذ خمس سنوات وهنا في القاهرة، تقدمت فأهديت إليك أيها البطل جمال عبد الناصر يوم المؤتمر الآسيوي - أفريقي شعارنا وهو «عائدون» وقد وعدتني يومذاك بأن موعد العودة لن يطول لتعيد لي الشعار في حيفا أو طبريا، وها نحن منتظرون.

في ذات العام ١٩٦٦ حضرت إلى غزة مرتين، أولاهما كانت للدورة الثالثة للمجلس الوطني الفلسطيني التي عقدت ما بين ٢٠ و ٢٤ أيار (مايو) ١٩٦٦، وثانيتهما لحضور مؤتمر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية.

وقد عقدت الدورة الثالثة في قاعة سينما النصر. ووزع خلال الافتتاح تقرير اللجنة التنفيذية عن إنجازات المنظمة وأجهزتها والتقرير السنوي لمجلس إدارة الصندوق القومي الفلسطيني، وعرضت الميزانية العامة للمنظمة وتم تأليف اللجان التالية: العسكرية، والسياسية، والتنظيم الشعبي، والإعلام والتوجيه القومي، والمالية والقانونية.

وعقدت هذه اللجان اجتماعاتها بين ٢١ و٢٣/٥/١٩٦٦ ودرست الجوانب التي تقع ضمن اختصاصاتها من التقارير والموضوعات ووضعت كل منها تقريراً خاصاً ضمنته توصياتها رفعته إلى مكتب المجلس الذي عقد جلسة خاصة في قاعة مدرسة فلسطين الثانوية في ٢٤/أيار لمناقشة التقارير والموافقة على التوصيات الواردة فيها والتي أقرت بصيغتها النهائية.

أما السيد أحمد الشقيري فقد أشاد في خطابه الافتتاحي بجيش التحرير الفلسطيني الذي أنشىء ودرب على أسس صالحة وقويمة،، ووجه تحية إلى هذا الجيش الباسل، وقال إن الآمال معقودة عليه لاسترجاع الوطن السليب.

وفي أثناء الدورة، تكلم كل من اللواء وجيه المدني قائد جيش التحرير الفلسطيني الذي شكر المجلس الوطني على الدعم والتأييد، والعقيد صبحي

الجابي رئيس أركان جيش التحرير الذي قدم هدية إلى رئيس اللجنة التنفيذية تقديراً لجهوده ورمزاً للكفاح المسلح في سبيل تحرير فلسطين.

والجدير بالذكر أنه في صبيحة يوم الأحد ٢٢ أيار ١٩٦٦. شهد أعضاء المجلس الوطني في ساحة الجندي المجهول عرضاً عسكرياً قامت به وحدات رمزية من جيش التحرير الفلسطيني. وبعد انتهاء العرض، توجه أعضاء المجلس لزيارة وحدات جيش التحرير الفلسطيني في بعض معسكراته للإطلاع على كفاءته في التدريب والإعداد.

وفي اليوم التالي، ألقى الأستاذ أحمد الشقيري رئيس منظمة التحرير الفلسطينية خطاباً في كتيبة غزة من جيش التحرير الفلسطيني نوّه فيه بشجاعة الضباط والجنود.

مؤتمر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية:

أما مؤتمر الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية، فقد عقد في تشرين الأول في غزة، بحضور المندوبات الفلسطينيات من الجمهورية العربية المتحدة، ولبنان، وسوريا، والعراق، والأردن، والكويت والجزائر. وقد حضرت الاجتماع: سميرة أبو غزالة، وفتنة قدورة، وسميرة السقا، وملك ترزي، ورمزية الخطيب، وسائدة الأسمر، وسعاد كيلاني، مديحة البطة والآنسة أمينة العيسوي ممثلة التنظيم الشعبي، وتغيبت عن الاجتماع صبا الفاهوم.

واختتمت الجلسة بالنيابة عن الرئيسة لتغيبها والتمني لهذا الاجتماع النجاح والتوفيق خدمة لقضيتنا المقدسة من أجل التحرير والعودة. كما جرى انتخابي رئيسة للجلسات وانتخبت الآنسة فتنة قدورة والآنسة سميرة السقا مقررتين.

وقد أتخذت في الاجتماع قرارات وتوصيات عدة بدعم التنظيمات الفلسطينية. كما استنكر المجلس موقف حكام عمان من محاصرة عضوات الاتحاد في الأردن وعدم السماح لهن بالمشاركة في أعمال المجلس، وقد أرسلنا برقية تأييد باسم اتحاد المرأة الفلسطينية للسيد أحمد الشقيري رئيس منظمة

التحرير الفلسطينية.

كما صدر عن الاجتماع بيان عن نشاط الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية منذ تأسيسه سنة ١٩٦٥ حتى موعد انعقاد هذا المؤتمر وعن العقبات التي تواجه الشعب والناتجة عن تشتت أبناء فلسطين في أرجاء الوطن العربي، وانعكاس الظروف التي تحيط بكل قطر عربي على وجود هذا الشعب، وهو ما يؤثر تأثيراً على انطلاقه في تحقيق كيانه والوصول إلى أهدافه.

فالاتحاد استمر في كفاحه من أجل إثبات هذا الكيان ولتحقيق هذا الوجود، ولا بد من الاعتراف أن أكبر هذه العقبات وأكثرها عرقلة كان الوضع القائم على أرضنا الفلسطينية، وما يحاك على هذه الأرض من مؤامرات لعرقلة مسيرة المنظمة وتحطيم قواعدها، مثل عدم الاستجابة لقرارات الجامعة العربية بجعل القدس كعاصمة لفلسطين، وعدم تسليح الخطوط الأمامية وعدم تطبيق قانون التنظيم الشعبي، لذا فإن المرأة الفلسطينية التي عانت النكبة وتناضل لتحافظ على الكيان الفلسطيني ممثلاً بمنظمة التحرير نابضاً بروح أبنائه عامراً بأمالهم وأحلامهم، لتوكد العزم على المضي في طريق العمل الثوري، تحطم أي قيد وتدوس كل عقبه وتقتحم كل صعوبة لتصل بأبنائها إلى طريق الحرية والأمان والعودة المظفرة الكريمة.

وفي ١٩٦٦/١٠/٣١ الساعة التاسعة صباحاً افتتحت الجلسة الختامية باسم الله وباسم فلسطين وبحضور جميع العضوات اللاتي حضرن هذه الدورة وقد قرأت الآنسة سميرة السقا محاضر الجلسات السابقة للمراجعة، كما ذكرت البيان الذي سيصدر عن الدورة والتوصيات التي انتهى إليها المجلس في دورته الاستثنائية. واختتمت أعمال الاجتماع بعد الاتفاق على أن تكون دورته القادمة في المدة ما بين ١٠ - ١٥ من شهر (يوليو) تموز ١٩٦٧ لملاءمة هذا التاريخ لمعظم الأعضاء وحدد مكان الاجتماع المقبل في سوق الغرب في لبنان، وكبادرة للترحيب بالوفود عرضت دار الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في لبنان لاستقبال أعضاء المجلس طوال فترة انعقاد الاجتماع، وقد قوبل هذا الاقتراح بالشكر.

أمضيت الفترة الفاصلة بين مؤتمر الاتحاد النسائي الفلسطيني في لبنان السابق وبين الخامس من حزيران العام ١٩٦٧، في العديد من الأنشطة، وكان أولاها عقد الاتحاد اجتماعه الدوري المعتاد لانتخاب الهيئة الإدارية، وذلك بحضور العضوات المؤازرات، ففازت كل من: نهيل عصفور حسن، ورقية مراد حوري، وسلوى ناجيا، وفدوى الحاج، ووجدان إفرنجي، وبدرية مقدادي الناشف، وندى يشرطي، وجورجيت صنبر، ولميا أبو غزالة، وإيفيت خوري.

وأصبحت الهيئة الإدارية مؤلفة من الأعضاء المذكورة أسماؤهن فضلاً عن الأعضاء المؤسسين هن السيدات:

وديعة خرطبيل، ملك سمارة، افلين حمصي، الكسندرا ظريفة، ماري كته، فريدة خورشيد، كما جدد انتخابي كرئيسة للإتحاد بعد إصرار من الهيئة الإدارية على الرغم من أنني أبديت الرغبة في ترك الرئاسة وإفساح المجال لوجه جديد. وقد تألف المكتب من السيدات:

وديعة خرطبيل رئيسة، افلين حمصي نائبة الرئيسة، رقية حوري أمينة السر، وجدان إفرنجي كاتبة وقائع، الكسندرا ظريفة محاسبة، نهيل حسن أمينة الصندوق، وندى يشرطي مراسلة اللغة الأجنبية.

كما ألفت لجان مختلفة منها:

١ ـ لجنة الجندي والشهيد، ٢ ـ لجنة بيت إسعاد الطفولة، ٣ ـ اللجنة المالية، ٤ ـ اللجنة السياسية، ٥ ـ اللجنة الاجتماعية، ٦ ـ لجنة الجامعيات.

وفي أثناء ذلك، كانت اللجنة الاستشارية للاتحاد مؤلفة على الوجه التالي: الآنسة ابتهاج قدورة، والسيد بدر الفاهوم، والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي، والمحامي وفيق الحسامي، والمحامي حنا عصفور، والقس سمير قفعيتي، والأب حنا كساب، والمهندس خالد يشرطي، والمهندس رجا جودي، والدكتور عبد الرحمٰن اللبان، والدكتور سعيد جنون والمهندس أسامة حوري.

وتميّز العام ١٩٦٧ بالنشاط على الصعيدين المحلي والعربي، وهو نشاط قطع سياقه عدوان الخامس من حزيران. إذ بدأ العام على إيقاع الإجراءات القاسية

التي اعتمدتها السلطات اللبنانية تجاه عدد من المناضلين الفلسطينيين، وكان في مقدمة هؤلاء المناضل الفدائي جلال كعوش الذي فتح الطريق أمام العمل الفدائي. وقد أثار اعتقاله في ٢٧ - ٢ - ١٩٦٧ حملة من الشجب والاستنكار في مختلف الأوساط الرسمية والشعبية، وقد لجأ أهله وأنسباؤه لي للعمل على إطلاق سراحه، خصوصاً وأن علاقة صداقة كانت تربطهم بزوجي منذ أمد بعيد، فأجريت ما يلزم من اتصالات، إلا أنها كانت دون جدوى، ثم ما لبثت الأمور أن سارت في منحاها المخطط، عندما لقي هذا المناضل مصرعه بسبب التعذيب الذي تعرض له.

ولما كنت قد دعيت إلى حضور اجتماع مكتب الاتحاد النسائي العربي في الجزائر المقرر انعقاده بين ٨ و ١٠ - أيار - ١٩٦٧ فقد لبيت الدعوة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يعقد فيها هذا المؤتمر في هذا البلد المجاهد. ولكني عندما وصلت علمت أن السيدة سميرة أبو غزالة قد حضرت أيضاً على الرغم من أنها لم تكن من المدعوات إليه، ولم يكن لها أي غرفة لتقيم فهيا خلال فترة الانعقاد، وقد حضرت كمندوبة عن اتحاد المرأة الفلسطينية في القاهرة. وقد زارني لهذا الغرض بعض مسؤولات الاجتماع،فأبديت رغبتي في أن تقيم في الغرفة التي بها أقيم. إلا أنه في العاشر من أيار اتصل بي رئيس اتحاد طلاب فلسطين أحمد وافي للحصول على موعد لمقابلتي في السادسة من مساء ذات اليوم.

وفي الموعد المحدد، شاءت الصدف أن يقوم بزيارتنا سفير لبنان في الجزائر السيد نجاتي قباني وعقيلته رجا من أجل توجيه الدعوة لنا إلى العشاء أنا ونجلا صعب رئيسة الاتحاد النسائي اللبناني وإميلي فارس إبراهيم نائبة الرئيسة وهند حشاش سكرتيرة الاتحاد النسائي اللبناني. بينما كنت متوجهة إلى الصالون الذي كان يجلس فيه السفير لمقابلته، التقيت بسميرة أبو غزالة التي تحدثت معها فترة ثم توجهت نحو السفير وعقيلته. وفي الوقت الذي كنت أتحدث فيه إلى السفير، شاهدت عدة أشخاص يدخلون إلى الفندق ويتكلمون مع سميرة أبو غزالة التي كانت ما تزال في الدرهة.

وفي اليوم التالي، اتصل بي أحمد وافي وأخبرني أنه اتصل بي مراراً وحضر إلى الفندق في اليوم السابق بناءً على الموعد الذي قطعته له ولم يتمكن من مقابلتي لأن سميرة قابلته وأخبرته أني غير موجودة. وكان مندهشاً من هذا الأمر. ولما عرف أني كنت موجودة تعجب من تصرف سميرة وقد استاء جداً منها خصوصاً عندما علم أنها كانت متعمدة تضليله إذ اصطحبته إلى صالون آخر لكي تحول دون أن يراني ويقابلني، وهي تعلم أني كنت جالسة هناك بانتظاره.

ولم أترك سميرة أبو غزالة دون عتاب لأنها تصرفت بأسلوب مخالف للقواعد الأخلاقية، وقد خدعت الشخص الذي كان سيقابلني وأساءت إلى نفسها أكثر مما أساءت إلي، وطلبت منها أن تكون صادقة ووفية لا سيما وأنها تعمل للقضية الفلسطينية.

وفي اجتماع مكتب الاتحاد النسائي العربي ألقيت كلمة حييت فيها شعب الجزائر الشقيق وسيادة الرئيس جاء فيها: «أن ثورتكم واستقلالكم أعادا إلى الإنسان العربي جزءاً من كرامته واعتزازه الذي هدر في حرب فلسطين، وأننا نشكر الجزائر الشقيقة وحكومتها الرشيدة على موقفها من قضية فلسطين في المجالين العربي والدولي ونأمل أن يزداد هذا الدعم، لأن ما ينتظره شعب فلسطين المشرد من شعب المليون شهيد يفوق بكثير ما ينتظره من غيره. خصوصاً وأن رجالنا الأشاوس قد نقلوا المعركة إلى داخل المنطقة المحتلة مسترخصين الموت ومتوغلين في أعماق المنطقة المحتلة. يزرعون الرعب في أوساط الغاصبين المحتلين، ولا يمكن استعادة عزة الإنسان العربي وكرامته كاملة إلا بتحرير فلسطين، وأن طريق الكفاح المسلح وحده هو الكفيل باستعادة فلسطين كما فعلت الشقيقة الجزائر.

وبعد الاجتماع كانت لنا لقاءات مع عدد من المسؤولين الجزائريين، فزرنا رئيس مجلس الثورة والدولة الرئيس هواري بومدين وقابلنا أفراد الملجس الثوري الجزائري، وتحدثنا معهم عن مراحل الثورة الجزائرية المظفرة، وكلنا أمل أن تخطو فلسطين الخطوة ذاتها وتتكلل ثورتها بالنجاح.

أما الوفود إلى اجتماع الجزائر فكانت على الشكل الآتي:

الدكتورة سهير القلماوي أمينة عام الاتحاد النسائي العربي، السيدة وديعة قدورة خرطبيل رئيسة وفد المرأة الفلسطينية، الدكتورة لميعة البدري مندوبة العراق، الآنسة سعاد العبد الله مندوبة سوريا، والسيدة هند حشاش مندوبة لبنان، الآنسة سامية شاتيلا مندوبة مصر والآنسة صفية بنمهدي مندوبة الجزائر.

وفي ختام الاجتماع تقرر أن يعقد المؤتمر التالي في شهر أيلول من عام ١٩٦٨ على أن يحدد المكان لاحقاً نظراً للظروف التي كانت تسود المنطقة العربية إبان لقائنا ثم كان ما كان.

الفصل السادس

سنوات النار والرماد

كانت الأعوام الممتدة بين هزيمة الخامس من حزيران واندلاع الحرب الأهلية في لبنان، هي أعوام النار والدماء، فالدفع الذي ولدته الهزيمة، كان قد بلغ ذروته، ثم ما لبث أن عاود انحساره بدءاً بأحداث أيلول الأردن، وصولاً إلى الحرب الأهلية في لبنان. هذا التأرجح كانت له تأثيرات بالغة على عملنا في الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، كما على سواه، فضلاً عن مسيرة الأوضاع في المنطقة عموماً، والقضية الفلسطينية خصوصاً.

من دون عودة إلى تفاصيل اليوميات، أقول إننا أمضينا الأشهر المتبقية من عام ١٩٦٧ في الحد ما أمكن من نتائج الكارثة التي أصابت الجيوش العربية. وكان جزءاً من عملنا ينصب على تقديم المساعدة التي نجمعها وسط حماس شعبي قل نظيره، وارتفعت الكثير من الشعارات التي تؤكد القدرة على النهوض ثانية، وواكبنا كسوانا المرحلة المذكورة، حتى كانت معركة الكرامة في الأردن في مطلع آذار من العام ١٩٦٨ بداية المواجهة لمسار الانكسار الذي شهدناه. وعليه يمكن القول أن تلك المعركة قد أوقدت الأمل في نفوس كل المواطنين العرب، فضلاً عن الجيوش العربية في إمكانية مواجهة العدو، بعد تلك الدعايات التي نشرتها الأبواق الصهيونية مترافقة مع الهزيمة.

تظاهرات شعبية ضخمة:

وكان لا بد للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني من التحرك إزاء هذه التطورات المستجدة على الساحة، فنظمنا تظاهرات ضخمة شارك فيها العمال والطلاب والجمعيات والهيئات النسائية وتوجهنا إلى المجلس النيابي اللبناني ندعوه إلى التضامن والوقوف إلى جانب الشعب الفلسطيني والقضية الفلسطينية.

لقد كانت البداية مواكبة بطولات الكرامة، وكان الشارع اللبناني يتجاوب على نحو فوري وصاخب مع كل ما يجري حوله، لا سيما ما يدور منها على ساحتي الأرض المحتلة والأردن، وعليه ما إن تصاعدت موجة الاعتقالات ضد المناضلات العربيات وإعلان سلطات العدو العسكرية عن اعتزامها إقامة استعراض عسكري في القدس حتى باشرنا في الدعوة إلى تنظيم مسيرة نسائية تقرر موعدها في الثاني من شهر أيار (مايو) من العام ١٩٦٨ بالاشتراك مع المجلس النسائي اللبناني وروابط الطلاب ولجان المثقفين ورجال المهن الحرة واتحادات العمال والهيئات النقابية والجالية الأجنبية، احتجاجاً على اعتقال النساء العربيات في القدس والاعتداء على السكان في الأرض المحتلة وإقامة الاستعراض العسكري في مدينة القدس تحدياً لقرار مجلس الأمن الدولي ولتأكيد الحق العربي إزاء اغتصاب القدس العربية وتهديد السلام العالمي.

وقد ارتدت النساء في هذه المسيرة اللباس الأسود للإعراب عن الاستنكار الشديد للاعتداء على حرية مدينة القدس، وانتهاك مقدساتها الدينية ورموزها كمدينة سلام ومحبة.

انطلقت الجماهير من مراكز التجمع المقررة في الصنائع والجامعة اللبنانية وجامعة بيروت العربية وكلية المقاصد ونقابة الصحافة إلى ساحة الشهداء حيث انتظمت الصفوف إلى ساحة رياض الصلح فالسراي مروراً بالمجلس النيابي.

وبوصول التظاهرة إلى السراي، أطل رئيس الوزراء عبد الله اليافي من شرفة مكتبة على المتظاهرين، وكانت تقف إلى جانبه النائبة العمالية البريطانية السيدة مارغريت ماكاي التي كانت في زيارة له، فوجهت أنظار المتظاهرين إليها وقوبلت بالتصفيق والهتاف. وقد أوعز الرئيس اليافي إلى سكرتير الرئاسة عبد الرحمٰن الشيخة بدعوة القيمات على التظاهرة إلى مكتبه حيث استقبلنا بحفاوة بالغة.

وفي أثناء مقابلتنا للرئيس اليافي قدمنا له عدة مطالب باسم الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني والمجلس النسائي اللبناني أبرزها: تجنيد الشباب اللبناني والسماح للفلسطينيين بالالتحاق بإخوانهم والعودة بعد ذلك إلى لبنان.

والجدير بالذكر أن تظاهرات أخرى انطلقت في بيروت وبقية المناطق اللبنانية مثل صيدا وطرابلس وباقي المحافظات في الوقت نفسه تلبيةً لدعوة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني وذلك تعبيراً عن السخط والاستنكار للأعمال التي ترتكبها إسرائيل ضد العرب والضمير الإنساني.

وفي هذه التظاهرات انطلقت أيضاً مجموعات صامتة قوامها عدد من سيدات الجاليات الأجنبية في بيروت من أمام مبنى الجامعة الأميركية إلى شارع الحمراء وهن يحملن لافتات كتب عليها:

«العروض العسكرية لا تصنع السلام» و «القدس مدينة مقدسة» و «السلام مع العدالة» و «احترموا الأمم المتحدة» و «مجلس الأمن يقول لا».

أما المسيرة الشعبية في الشوارع الرئيسية فكانت ترفع لافتات كتب عليها: «فلسطين عربية وستبقى عربية» و «العمل الفدائي طريق التحرير» و «طلاب لبنان يطالبون بالتجنيد الإجباري» و «لئلا تصبح بيروت قدساً ثانية، جندوا شباب لبنان».

وكان الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني قد أبرق بالاشتراك مع المجلس النسائي اللبناني إلى الأمينة العامة للاتحاد النسائي العربي العام الدكتورة سهير القلماوي يحثها فيها لتعميم نداء لجميع الاتحادات النسائية في الدول العربية للقيام بمسيرة مشابهة في الوقت نفسه.

كما أبرق الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني بتاريخ ١٠ أيار ١٩٦٨ إلى كل من السيد أوثانت الأمين العام للأمم المتحدة والسيد جاكوب ماليك رئيس دورة مجلس الأمن لذلك الشهر آنذاك والأميرة أشرف بهلوي رئيسة لجنة حقوق الإنسان، مستنكراً تحدي قرار الأمم المتحدة بإعلان عدم شرعية ضم القدس العربية إلى إسرائيل وقرارها الأخير بمطالبة إسرائيل بإلغاء العرض العسكري فيها معتبراً أن هذه التصرفات تشكل تخريباً متعمداً للجهود التي يقوم بها مبعوث الأمم المتحدة للشرق الأوسط غوناريارينغ من أجل إقامة سلام عادل في فلسطين على الأسس التي أقرها مجلس الأمن ومحاولة محسوبة لدفع المنطقة نحو حرب جديدة وإبقاء التوتر فيها.

تلت هذه الخطوات، خطوات، ففي ذكرى احتلال فلسطين من قبل الصهاينة وفي ١٥ ـ ٥ ـ ١٩٦٨ أقام الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني مهرجاناً شعبياً كبيراً في سينما بيروت في كورنيش المزرعة بتاريخ ١٢ ـ ٥ ـ ١٩٦٨، ومن الذين تحدثوا في ذلك المهرجان: توفيق الصفدي، والمحامي نخلة مطران والمطران باسيليوس سماحة والمحامي أحمد سويد.

مهرجان خطابي كبير:

وقد ألقيت كلمة الاتحاد فقلت أن فلسطين ستبقى وطننا مهماً طغى العدوان واستبد، وحمّلت الخيانة الدولية مسؤولية نكبة ١٩٤٨. ونوهت بالتضامن العربي وموقف الجمهورية العربية المتحدة ومساعدتها العمل الفلسطيني، وقلت أن هزيمة الخامس من حزيران ١٩٦٧ كانت هزيمة عسكرية ولكنها لم تكن أبداً هزيمة شعبية لأن الشعب وقف متضامناً مع قياداته منعاً لتغلغل المشاريع الاستعمارية ومخططات الصهيونية إلى صفوفهم. وقد أشدت بالقوى الفدائية المناضلة التي تخط طريقها نحو النصر، وكذلك بموقف المرأة الفلسطينية البطلة في الأرض المحتلة، وطالبت بتسليح القرى الأمامية والشباب الفلسطيني والسماح له بالتنقل بحرية في البلاد العربية.

ثم اتبع الاتحاد هذا المهرجان بتوجيه نداء إلى الحكام والشعب العربي بتاريخ ٣٠ ـ ٥ ـ ١٩٦٨ لمناسبة مرور عام على الهزيمة، ناشد فيه الحكام بذل ما في وسعهم لاستعادة الكرامة والحق العربيين في فلسطين والمناطق المحتلة من الدول العربية الشقيقة، ودعاهم إلى التضامن فيما بينهم تضامناً كاملاً وشاملاً والتخطيط الحثيث من أجل استعادة الأراضي المسلوبة وإنقاذ فلسطين والأراضي المقدسة من أيدي المغتصبين وطلب الاتحاد من المسؤولين توعية الإنسان العربي ليصبح خليقاً بالبذل والعطاء من أجل القضية.

وقال البيان: «المرأة العربية تقول اليوم أن الخامس من حزيران عبرة للعرب والعبرة لمن اعتبر، وهو عظة لنا أجمعين والعظة لمن اتعظ، فنحن في بداية الطريق وأمامنا الدرب الطويل الشاق، فسيروا على بركة الله وهديه، وأننا لعائدون».

وقد وجه الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني نسخاً من هذا البيان إلى كل من الملوك والرؤساء في لبنان والسعودية ومصر والأردن وليبيا والعراق وسوريا والسودان والكويت ولقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وطلب إليهم تخصيص دخل هذا اليوم لدعم المجهود الحربي والوطني لاسترداد الأرض المحتلة.

تركيز الاتحاد النسائي

على الأوضاع الاجتماعية الفلسطينية:

لقد كان المحور الأساسي في عملنا، خلال تلك الأعوام، هو المحور الأصلي الذي يتناول الأوضاع الاجتماعية الفلسطينية.

فقد توجهت إلى دمشق في ٢٥ حزيران ١٩٦٨ في إطار جولة تستهدف درس أوضاع عائلات وأبناء الشهداء تمهيداً لانتساب أبنائهم إلى بيت إسعاد الطفولة وقد أقمت عند ابنتي أمل زوجة الدكتور أديب الداوودي. وكانت برفقتي أم سمير حوري التي أقامت عند أخيها في دمشق.

وقد زرنا مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في دمشق حيث التقينا أم جهاد الوزير ولوسي حجازي اللتين رافقتانا إلى زيارة المخيمات لندعو أبناء الشهداء إلى الانتساب إلى بيت إسعاد الطفولة. ووزعنا على عائلات الشهداء مبلغ مائة ليرة سورية لكل عائلة وأخذنا نسجل أسماء الذين يودون الإلتحاق بالمؤسسة من أجل إجراء المعاملات اللازمة لهم في بيروت. وكان الإقبال عظيماً.

وكان لنا زيارة للإتحاد النسائي السوري ولجنة الشهداء الفلسطينية خلال اليومين اللذين أمضيناهما في دمشق.

وبعد الظهر تناولنا طعام الغداء مع الأخوين أبو عمار وأبو جهاد في منزل الأخ فاروق القدومي (أبو اللطف) حيث انضمت إلينا بعض عضوات الاتحاد النسائي السوري.

وخلال مأدبة الغداء تحدثت مع أبو عمار الذي طلب مني أن أشترك مع حركة فتح أثناء انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني المقبل. فأجبته أن ذلك يسرني

ي ويشرفني، ولكنني لا أفرق بين منظمة وأخرى إلا من خلال التزامها قضية فلسطين وإخلاصها لها، وأكدت له أن تأييدي إي طرف سيكون نابعاً من هذا الموقف ليس إلا.

وقد تسنى لي هناك الاجتماع مع لجنة القدس التي أعلمت أعضاءها بمصير الرئيسة السيدة زليخة الشهابي ونفيها من القدس، وطلبت العمل من أجل مساعدتها. وعدنا بعد ذلك إلى بيروت، إلا أني ما لبثت أن توجهت إلى عمان مع أم سمير حوري في الأول من تموز حيث حللنا ضيوفاً على الحكومة. وبعد أن لحقت بنا أم جهاد الوزير، أخذنا نجري الاتصالات مع رئيس الوزراء الأردني بهجت باشا التلهوني ووزير الشؤون الاجتماعية ووزير الخارجية، وزرنا مخيمات اللاجئين وعائلات الشهداء ووزعنا عليهم النقود.

كذلك زرنا السلط ومخيم فتح والمستشفى هناك حيث وزعنا بعض المال على كل مصاب في المستشفى وقد بلغ عددهم نحو ٢٢٥ شخصاً.

وكانت زيارتنا للأردن تندرج في إطار الجولة التي بدأناها بدمشق من أجل التهيئة لإلحاق أبناء الشهداء ببيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب. وقد اجتمعنا في الأردن لهذا الغرض مع إتحاد الجمعيات الخيرية بغرض تأليف لجنة للمساعدة في إغاثة عائلات الشهداء.

وخلال وجودنا دعونا الآنسة زليخة الشهابي إلى الاجتماع معنا. وبينماكنا نتناول طعام الغداء، حضر وفد رسمي من قبل السيد ياسر عرفات وأعلمني بأنه يود مقابلتي. فاستمهلته حتى الانتهاء من الطعام وتوجهنا معه إلى مدرسة بيت المقدس لأبناء الشهداء في عمان حيث كان بانتظارنا هناك مع بعض القيادات الفلسطينية. وقد دار الحديث بيننا وبينهم عن القضايا الفلسطينية والشؤون العامة وخاصة قضية أبناء الشهداء.

وبعد فترة غادر عرفات وصحبه المكان ولم يبق معنا سوى السيدين أبو اللطف وأبو يوسف النجار اللذين بحثا معنا موضوع أبناء الشهداء وأعلمانا بنية القيادة إنشاء قرية خاصة لهم. وقد تم ذلك فيما بعد وأنجز المشروع في سوريا.

وفي أثناء الحديث، طلب السيدان أبو اللطف وأبو يوسف النجار منا تقديم المساعدة المالية لمشروعهم هذا، إلا أنني طلبت منهما استمهالي حتى العودة إلى بيروت لاستشارة الهيئة الإدارية للاتحاد في الموضوع وأخذ موافقتهم على تقديم المساعدة والدعم للمشروع.

وعند ذلك، طلبا منا تقديم أية مساعدة فورية ممكنة لمدرسة بيت المقدس، فوعدتهم خيراً، وبعد عودتي إلى بيروت اجتمعت مع الهيئة الإدارية واستطعت تأمين البطانيات والمعاطف لأطفال الشهداء وقد أرسلتها إلى عمان بواسطة المستشار الثقافي في السفارة الأردنية في بيروت السيد سعيد التل.

وكنت قد تسلمت في العشرين من حزيران ١٩٦٨ دعوة من المجلس الوطني الفلسطيني، لحضور اجتماعاته التي ستعقد في مقر الجامعة العربية في القاهرة في ١٠ تموز ١٩٦٨ وذلك كعضو في المجلس بناءً لقرار اللجنة التحضيرية المتخذ في ١٩٦٨/٦/١١.

وفي السابع من تموز حضر إلى زيارتي في منزلي في صوفر كل من السادة: خالد اليشرطي وزهير العلمي وصلاح خلف (أبو اياد) برفقة مسؤولين اثنين من منظمة فتح وإحدى السيدات، وقد طلبوا مني تمثيل فتح رسمياً في المجلس الوطني الفلسطيني.

إجتماع المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة:

وفي الثامن من تموز توجهت إلى القاهرة لحضور اجتماعات المجلس الوطني وكان على متن الطائرة أعضاء المجلس، وقد جلس بقربي على المقعد صلاح خلف (أبو إياد) وتحدثت معه في القضايا والشؤون الفلسطينية.

وقد حقق المجلس الوطني الفلسطيني في دورته الرابعة التي عقدت في القاهرة من ١٠ إلى ١٩٦٨/٧/١٧ نتائج إيجابية منها تلاقي جميع المنظمات الفلسطينية الممثلة فيه ومشاركتها في جميع أعماله وموافقتها على مقرراته التي تعتبر في مجموعها خطة ومنهاجاً للعمل الفلسطيني في جميع الحالات، وهي

تمثل الأفكار والآراء المشتركة التي اتفقت عليها جميع القوى العاملة التي تمثلت في هذا المجلس والتزمت بها.

واعتبر المجلس أن القضية الفلسطينية هي في الحقيقة قضية تحرير أرض، وأن الكفاح المسلح هو وحده طريق التحرير وعلى أبناء فلسطين الإلتزام بسلوك هذا الطريق. وقد اتخذ القرارات التالية لتحقيق ذلك:

١ ـ المحافظة على الشخصية الفلسطينية المتمثلة بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها المسؤولة عن حركة الشعب العربي الفلسطيني في نضاله لتحرير وطنه على جميع الصعد التحريرية والتنظيمية والسياسية وما تتطلبه من دعم عربي ودولي.

٢ ـ شجب الكيان الفلسطيني المزيف الذي يعطي الشرعية والديمومة لإسرائيل وهو ما يتنافى كلياً مع حق الشعب العربي الفلسطيني في وطنه فلسطين.

٣ ـ تعديل اسم الميثاق القومي الفلسطيني ليصبح الميثاق الوطني الفلسطيني.

أما بشأن النظام الأساسي والتعديلات القانونية فقد اتخذ المجلس قراراً بحل هذا المجلس السابق على أن يمارس جميع الصلاحيات المنوطة به لفترة سنتين ابتداءً من ١٩٦٨/٧/١٠.

واتخذت أيضاً قرارات تنظيمية بشأن اللجنة التنفيذية والصندوق القومي الفلسطيني وجيش التحرير الفلسطيني الذي عدّل نظامه الأساسي بحيث يكون له قيادة مستقلة تعمل تحت إشراف اللجنة التنفيذية وتنفذ تعليماتها وقراراتها الخاصة والعامة.

وقد حددت القرارات السياسية هدف النضال الفلسطيني وأسلوبه وإدارته بتحرير الأرض الفلسطينية بكاملها وممارسة سيادة الشعب الفلسطيني عليها وتأكيد الشخصية العربية الفلسطينية والوقوف في وجه أي محاولة لإذابتها أو الوصاية عليها. وأن الكفاح المسلح والنضال هما السبيلان الوحيدان لاسترداد الأرض والحقوق المغتصبة، وأن الجماهير العربية الفلسطينية هي التعبير الحي عن

الإرادة العربية المتحررة المدعومة من قوى التحرر العالمي الرافضة لهيمنة الامبريالية والصهيونية.

واعتبر المجلس أن معركة فلسطين هي معركة مصير بالنسبة إلى الأمة العربية جمعاء، إذ ينبغي التصدي العربي لكل المؤامرات الصهيونية في حرب شعبية ونظامية تسهم فيها إمكانات الأمة العربية.

ورفض المجلس قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الصادر في ١١/٢٢/ ١٩٦٧، لاعترافه بالحدود الآمنة لإسرائيل مما يتناقض مع حق الشعب العربي الفلسطيني، وأكد المجلس أن الثورة الفلسطينية جزء من الثورة العالمية على الاستعمار والامبريالية الأميركية.

وبعد أن فرغ المجلس الوطني من اتخاذ مقراراته، تلا رئيسه كتاب استقالة اللجنة التنفيذية، فتم انتخاب لجنة جديدة كنت من بين أعضائها. إلا أن المجلس عاد وارتأى تجديد ولاية اللجنة المستقيلة، فكان أن قدمنا استقالة جماعية من اللجنة المنتخبة. فقرر المجلس تجديد ولاية اللجنة القديمة لمدة ستة أشهر على أن يكون من مهامها تشكيل مجلس وطني جديد واختيار عضو جديد لينضم إليها ليصبح عدد أعضائها ١١ عضواً.

وبانتهاء أعمال المجلس الوطني، اجتمعت اللجنة التنفيذية وقررت انتخاب السيد يحيى حمودة رئيساً لها بموجب النظام الأساسي الجديد واختيار عضو المجلس الوطني الدكتور يوسف الصايغ ليكون العضو الحادي عشر في اللجنة التنفيذية.

وفي الفترة المتبقية من العام ١٩٦٨ وجه الاتحاد برقيات احتجاج (بتاريخ ١٠ تشرين الأول) على حملات التعذيب والإرهاب التي يتعرض لها الأسرى الفلسطينيون في المعتقلات الإسرائيلية لكل من: مؤتمر حقوق الإنسان الذي عقد في طهران، ورئيسة الاتحاد النسائي الدولي في كراتشي، ورئيسة العصبة النسائية للسلام والحرية في أميركا، والصليب الأحمر الدولي في جنيف، والأمينة العامة للاتحاد النسائي العربي العام في القاهرة ورئيسة المجلس النسائي اللبناني في بيروت.

وقد نوه الاتحاد بالموقف البطولي للفدائية أمينة دحبور التي اعتقلت مع رفاقها إثر قيامها بعملية زيوريخ.

وكانت الكثيرات من اللواتي اعتقلن توجه إليهن تهماً مختلفة، وكن يتعرضن لأبشع أنواع المعاملة والتعذيب. ومن هؤلاء قرينتا روحي الخطيب وتوفيق الحسيني، وعبلة شفيق طه، ولطيفة إبراهيم الحواري، وسارة هاشم جودة، وشادية فايق أبو غزالة، والدكتورة هبة خياط، وزين حبشي، وفؤادة أبو اللمع، ونايلة حبوب، وتردد عبد الهادي، وفدوى السعود أبو الغوش التي قاومت جنود الاحتلال، وكل من يسري شادر ودالا ناصر الدين ومريم البيطار وكريمة الفلاح وسهام الجندي لقيامهن بحملة تبرع للفدائيين وتوزيع منشورات تندد بالاحتلال الصهيوني، وخالدية يوسف نوفل التي صفعت الحاكم العسكري الإسرائيلي.

كما أبرق الاتحاد إلى الملوك والرؤساء بخصوص مقدمات إحداث الأردن (٧ تشرين الثاني ١٩٦٨) إلى الملوك والرؤساء العرب قائلاً: الفدائيون هم الأمل الوحيد للشعب العربي بصفة عامة ورمز النضال المخلص، نستنكر بشدة حوادث الأردن، ونطالب بإطلاق حرية العمل الفدائي وحمايته في جميع البلدان العربية.

المؤتمر الإقليمي العربي

لحقوق الإنسان:

أما الحدث الأخير الذي ساهمت فيه ذلك العام، فكان المؤتمر الإقليمي العربي لحقوق الإنسان الذي عقد في فندق البوريفاج ببيروت ما بين ٢ و ١٠ كانون الأول وقد ألقيت يوم الخميس في ١٩٦٨/١٢/٥ خطاباً في هذا المؤتمر شكرت فيه رئيس وأعضاء المؤتمر لإتاحتهم الفرصة لي لكي أتحدث عن الاضطهاد الفظيع الذي يتعرض له أبناء شعبنا في أرضنا المحتلة وخاصة النساء منهم، وهو ما يتعرض مع الأعراف والمفاهيم الدولية والإنسانية والإعلان العالمي لحقوق الإنسان وإتفاقيات جنيف. وتكلمت عن المقاومة البطولية التي تقوم بها المرأة الفلسطينية ضد المعاملة الوحشية التي تتلقاها من السلطات الإسرائيلية التي لم تراع حرمة ولم توفر كرامة، بل زجت في المعتقلات والسجون النساء

العربيات واستعملت معهن أساليب التعذيب الرهيبة تحت سمع الأمم المتحدة وبصرها وعلى مرأى من الرأي العام الدولي دون أي اعتبار للمواثيق الدولية.

كما تكلمت أيضاً عن المظاهرات السلمية التي تقوم بها المرأة العربية الفلسطينية تعبيراً عن الاستنكار والشجب وتلقيها رصاص قوات الشرطة الإسرائيلية في صدورها.

وتطرقت كذلك إلى بيت إسعاد الطفولة والمشاريع الإنسانية التي نقوم بها للتخفيف عن كاهل الشعب الفلسطيني، وتمثلت بالشعب الجزائري الذي نال حريته بعد كفاح طويل ومرير».

نشاط الاتحاد عام ١٩٦٩:

وفي العام ١٩٦٩ طغى على اهتماماتنا في الاتحاد هاجس التضامن مع ضحايا العدوان الإسرائيلي مقاومين وأهالي، إذ أن ذاك العام شهد ذروة تصاعد العمل الفدائي، وبذات الوقت التآمر عليه سواء في الأردن أو لبنان، إلا أن الأكثر تأثيراً كان وضع الاتحاد النسائي الذاتي، وسيأتي بيان ذلك مقتضباً، تاركة التفاصيل التي تستغرق صفحات وصفحات للتاريخ ليحكم ويقول كلمته بشأنها.

بدأنا العمل ذلك العام بزيارة أسر الفدائيين الذين احتجزوا في عاصمة اليونان إثر خطفهم طائرة إسرائيلية في العام الذي سبق، وكان هؤلاء ينتمون إلى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. هذا أولاً، ثم تابعنا في إطار دعم العمل الفدائي في المحافل المحلية التي كانت إذ ذاك مندفعة في تيار حمايته ودعمه، فقد دعاني النادي العربي في طرابلس لإلقاء كلمة في مقره في نيسان من ذلك العام، وكان عنوان كلمتي «المرأة والمقاومة» وقد استعرضت فيها تاريخ كفاح المرأة ودفاعها ونضالها جنباً إلى جنب مع الرجل من أجل المحافظة على عروبة فلسطين، ثم تناولت بالتحليل نشاط المرأة العربية في كل مكان من الوطن العربي واقتدائها بالمرأة الفلسطينية في كفاحها وتجنيدها طاقاتها وإمكاناتها لخدمة الثورة ومساندة المناضلين في الأرض المحتلة، ووصفت القضية الفلسطينية بأنها قضية العرب عامة وهي قضية حياة أو موت، فإذا هلك جزء منه، تداعت بقية الأجزاء وانهارت.

وفي الأسبوع الأخير من ذلك الشهر قمنا بتظاهرة استنكاراً للمعاملة اللاإنسانية التي يلقاها الفلسطينيون والتضييق على العمل الفدائي الذي ضاعفته السلطة اللبنانية، وبعد ذلك قابلنا بعض الزعماء اللبنانيين ومنهم الرؤساء سلام والعويني واليافي وقدمنا استنكارنا لما جرى من إطلاق نار على المتظاهرين وسقوط الضحايا بين صفوفهم، بعد ذلك زرنا الوزراء عثمان الدنا وشفيق الوزان وبيار الجميل وريمون إده، وفي الإطار ذاته تقريباً قام الاتحاد بتكريم السيدة فاطمة والدة المناضلة أمينة دحبور التي كانت معتقلة في زيوريخ في ذلك الوقت، وقد تحدثت في المناسبة التي حضرتها شخصيات نسائية وحقوقية لبنانية وفلسطينية السيدة فاطمة عن نشأة ابنتها وتاريخ العائلة وتشردها من اللد إلى بيرزيت وغزة وخان يونس والضفة الغربية وعمان على يد الصهاينة. كما تفقد وفد من الإتحاد في منتصف آب جرحى وعائلات الشهداء في الجنوب اللبناني وقدم لهم العقاقير الخاصة بعلاج حروق قنابل النابالم وكذلك الأدوية الأخرى والكساء.

مهرجان اليوبيل الذهبي

للمرأة المصرية:

أما النشاط الخارجي الوحيد الذي حضرته ذلك العام فكان مهرجان اليوبيل الذهبي لبدء نهضة المرأة المصرية، وقد توجهت إلى القاهرة برفقة شقيقتي زاهية رئيسة إتحاد الجامعيات اللبنانيات لحضور الاحتفال الخمسيني الذي دعت إليه جمعيتا هدى شعراوي والمرأة الجديدة، نظراً لكون الاتحاد هو الهيئة النسائية الفلسطينية الوحيدة التي عاصرت السيدة شعراوي، وساهمت في تشكيل الاتحاد النسائي العربي العام في القاهرة عام ١٩٤٤ كما سبق ذكره. وكان من المشاركات في المهرجان كل من الوفود التالية:

سوريا: السيدة عادلة الجزائري، مندوبة عن جمعيات دمشق النسائية، وعنان منيمنة عن الاتحاد النسائي السوري.

العراق: السيدة رمزية خيرو، رئيسة الاتحاد العام لنساء العراق.

الكويت: السيدة نورية الصالح رئيسة جمعية النضهة النسائية الكويتية.

وقد مثلت فلسطين بوصفي رئيسة الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني. وبعد أن التقيت بالسيدة طرب عبد الهادي إحدى زعيمات الحركة الفلسطينية وزوجة الزعيم الفلسطيني السيد عوني عبد الهادي أحد مؤسسي حزب الاستقلال، في الفندق، طلبت من الهيئة المشرفة على المهرجان أن توجه لها دعوة خاصة أيضاً باعتبارها عضوة في الوفد الذي أرأسه.

افتتح المهرجان يوم الاثنين في ٣١ آذار سنة ١٩٦٩ بكلمة تلتها رئيسة جمعية هدى شعراوي السيدة بهيجة رشيد التي رحبت بالوفود وأعلنت وفاة السيدة هدية بركات رئيسة جمعية المرأة الجديدة فجر ذلك اليوم قبل موعد افتتاح المهرجان، وكانت صدمة كبيرة للوفود فخيم جو من الحزن على المهرجان.

ثم تكلم مندوب الرئيس جمال عبد الناصر ووزير الشؤون الاجتماعية السيد حافظ بدوي مهنئاً المرأة المصرية بعيدها ومباركاً دورها القيادي منذ العام ١٩١٩.

وقد نوه الوزير بدوي بدور المرأة البطولي في ميدان النضال السياسي والاجتماعي، وأعرب عن تحية الرئيس جمال عبد الناصر وتقديره للمرأة العربية عامة والمرأة المصرية خاصة، وأكد على ضرورة تخليد جهاد المرأة العربية ورفع صوتها في أرجاء العالم لأن نضالها في عام ١٩١٩ هو امتداد لما سجلته المرأة العربية عبر التاريخ من بطولات، واستشهد بالبطلات العربيات أمثال نسيبة بنت كعب (في صدر الإسلام) وشادية أبو غزالة شهيدة المقاومة الفلسطينية.

وتكريماً لفلسطين، ارتأت السيدة رشيد أن تكون كلمتي أولى الكلمات على الرغم من اعتماد الترتيب الأبجدي. فألقيت كلمتي وتوجهت بالشكر إلى القيمات على جمعيتي هدى شعراوي والمرأة الجديدة، كما حييت الرئيس عبد الناصر الذي تكرم برعاية الاحتفال. وعدت بخطابي إلى الذاكرة قبل ثلاثين عاماً حين دعانا الاتحاد النسائي المصري إلى عقد مؤتمر سمي آنئذ «المؤتمر النسائي الشرقي للدفاع عن فلسطين» الذي كان مظاهرة عربية كبرى شاركت في

أعماله وفود من مختلف الأقطار العربية ومن جملتها فلسطين، وكانت الغاية من عقدة توحيد حقوق المرأة العربية وتقدير حقوقها المدنية والسياسية والدفاع عن قضية فلسطين.

وبعد أن تطرقت إلى أعمال هدى شعراوي التي أرست أسس النهضة النسائية المصرية والعربية بتأسيس الاتحاد النسائي العربي العام الذي خلفتها في رئاسته الآنسة ابتهاج قدورة التي أدت إلى قضية المرأة العربية أجلّ الخدمات وكانت الشعلة الأولى لحركة المرأة اللبنانية، نوّهت بالدور الفعال للمرأة الفلسطينية في الفترة ما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٤٨، ونضالها ضد الاستعمار والصهيونية.

حضر هذا المهرجان الذي أقيم في دار الأوبرا في القاهرة مندوبات عن ٣٢ دولة، وقد قلّد مندوب الرئيس عبد الناصر السيدات الثلاث المحتفى بهن أوسمة الكمال هدية من الرئيس لمناسبة مرور خمسين عاماً على خروج المرأة المصرية إلى الحياة العامة ومساهمتها بإيجابية في تقدم المجتمع المصري منذ عام ١٩١٩. والسيدات الثلاث هن: إحسان القوصي عضو الاتحاد النسائي المصري، وجميلة عطية رئيسة الاتحاد وأستر فهمي ويصا رئيسة جمعية الشابات المسيحيات بالاسكندرية. وقد تعذر تسليم الوسام الرابع إلى السيدة هدية بركات لوفاتها قبل افتتاح المهرجان بساعات عدة، فسلم للسيدة بهيجة رشيد لتسلمه بدورها إلى عائلة المرحومة.

ومن اللواتي ألقين كلمات في هذا المهرجان الدكتورة طلعت الرفاعي عن الجامعة العربية، وعزيزة مكي عن السودان، ورمزية الخيرو عن العراق، ونورية صالح عن الكويت، وعنان منيمنة عن سوريا. وقد تكلمت أيضاً عضوة اللجنة التنفيذية المجرية وتبعتها السيدة إيفا بلومر عضوة الاتحاد النسائي الدولي، والسيدة مرغريت كوربيت آشبي رئيسة الشرف للإتحاد النسائي الدولي الذي أنتمي إليه وصديقتي الشخصية وصديقة عمتي ابتهاج وهي صديقة أيضاً للسيدة هدى شعراوي، والأستاذ فكري أباظة الذي تحدث عن دور الطالبات في الثورة، والسيدة أمينة السعيد التي تحدثت عن دور المرأة وكيف حصلت على مكاسبها

السياسية عام ١٩٥٦. والسيدة ايرين غاتي رئيسة المجلس النسائي الهنغاري، والسيدة لاكشيمي لاجورالياها عن وفد الهند.

وبعد تقديم الأوسمة تكلمت إحدى المحتفى بهن الثلاث وهي السيدة استر فهمي التي تحدثت عن تشكيل اللجنة المركزية النسائية في ١٢ كانون الأول عام ١٩١٩ والتي انبثق عنها آنذاك لجان مقاطعة البضائع الإنكليزية ولجان التبرعات والدعوة في الصحف المصرية والأجنبية ثم تلتها السيدة إحسان القوصي التي تحدثت عن دور المرأة في النضال السياسي.

والجدير بالذكر أن السيدة سيزا نبراوي من الرعيل الأول الذي كافح مع هدى شعراوي كانت من بين الحضور في هذا المهرجان.

وفي الختام اجتمعت الوفود للتباحث في الأمور المصيرية التي يمر بها الوطن العربي، فأرسلت برقيات إلى الهيئات الدولية النسائية احتجاجاً على أعمال التعذيب التي تقوم بها إسرائيل ضد النساء في الأرض المحتلة واعتقال العشرات منهن وزجهن في السجون مخالفة بذلك أبسط المبادىء وحقوق الإنسان.

وقد توجهنا بعد ختام المهرجان إلى منزل المرحومة هدية بركات لتقديم التعازي لعائلتها، وزرنا مهاجري حرب حزيران ١٩٦٧ وشاهدنا آثار الدمار الصهيوني على مدن القنال وزرنا مأوى عجزة ومنشآت جمعية المرأة الحديثة، وكذلك تلك التي أقامتها جمعية هدى شعراوي، وقد قدمت هدية أطفال بيت إسعاد الطفولة وهي عبارة عن قطعتي كانفا لكل من الجمعيتين، وقد ألقت شقيقتي زاهية كلمة دعت فيها للقيام بدور فعال من أجل القضية الفلسطينية، فيما اعتذرت عن الإلقاء مراراً بسبب حالي الصحية.

الفصل السابع

عراقيل ونشاط متقطع

بدأت العراقيل تعترض عمل الاتحاد منذ خريف العام ١٩٦٩. وهي عراقيل داخلية في الدرجة الأولى، وقد أخذت هذه المشكلات الكثير من الجهد، كما عطلت الكثير من الطموحات في تكريس الحضور الفلسطيني على مستويات المؤتمرات والحركات النسائية، وعلى الصعيد السياسي أيضاً، أكثر من ذلك فقد أعاقت هذه العراقيل ذلك التوجه الذي كان قد باشره الاتحاد منذ ما قبل تأسيسه الرسمي في العمل الاجتماعي، علماً أنه خلال تلك المرحلة وما تلاها كان الشعب الفلسطينب بأمس الحاجة إلى أعمال من هذا النوع، بعد تزايد التآمر على وجوده واستهدافه بأشكال ومنوعات من الحروب والاعتداءات اليومية، فضلاً عن المذابح التي خلفت وراءها ألوف القتلى والمعاقين والأيتام والأرامل.

وإذا كان ما جرى يستحق كتاباً كاملاً لروايته، ومذكرات تحصر همها في هذا الشأن، إلا أني هنا سأكتفي بإيراد محطات رئيسية ليس إلا، حتى لا يظن أحد أن تجاهلي الموضوع هذا محاولة تعمية على وقائع باتت الآن ملك التاريخ دون سواه.

* في العاشر من أيلول ١٩٦٩ عقدت بعض عضوات الاتحاد في غيابي ودون إعلامي إجتماعاً وانتخبن رئيسة جديدة للإتحاد هي السيدة ألكسندرا ظريفة، وهذه كانت بداية انعطافة في مسيرة الاتحاد ستشل قواه وتهدر طاقاته لسنوات طويلة.

* انطلقت حملة إعلامية مواكبة للحدث، سرعان ما رد عليها محامي الاتحاد الأستاذ جان خوري مستنداً إلى بعض المواد المنصوص عليها في دستور الاتحاد ونظامه، وخصوصاً مادتيه ١٦ و ١٨ حيث أن جدول الأعمال خلا من أية

إشارة أو تلميح إلى مسألة الانتخاب، وقد وصف ما جرى بأنه انتخابات باطلة ومزورة.

* أخذت الشخصيات الفلسطينية تتصل وتستفسر عما يجري ومن بين هؤلاء: المحامي حنا عصفور، والدكتور عزت طنوس، والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي، وزهير محسن، وأحمد اليماني (أبو ماهر)، ومن الشخصيات اللبنانية: عاصم قانصوه وعقيلته بشرى، وعبد الفتاح جبر، والمحامي وفيق الحسامي.

* قمت باتصال مع وزير الداخلية الرئيس عادل عسيران وزرته في مكتبه وسلمته مفتاح مقر باب الاتحاد وطلبت إليه أن يكون حكماً عادلاً وتدخلت وزارة الشؤون الاجتماعية بشخص مديرها العام عباس فرحات وعقد اجتماع بحضور الأطراف كافة توافقنا خلاله على تجميد عمل الاتحاد لمدة شهر ودعوة الجمعية العمومية لجلسة انتخابية.

* جلت برفقة المحامي جان خوري والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي والأستاذ وفيق الحسامي والسيدة سلوى عبد الرحيم على مختلف الشخصيات السياسية مطالبين بالمساعدة على الحل. ومن الشخصيات التي زرناها الرئيس صائب سلام، والزعيم كمال جنبلاط والرئيس رشيد كرامي.

* وجهنا دعوة لاجتماع استثنائي للهيئة العامة بتاريخ العاشر من تشرين الأول في مقر الاتحاد الذي أمر الوزير بفتحه، إلا أن وزير الداخلية أرجأ الاجتماع معرباً عن اعتقاده بضرورة الوصول إلى تسوية من دون اللجوء إلى الانتخابات، إلا أنني أصررت على الانتخابات فوافق الوزير عسيران، إلا أن المكان تغير إذ أصبح في نادي خريجي الجامعة الأميركية.

* جرت الانتخابات وسط إجراءات قانونية وأمنية مشددة، وحاولت بعض المنشقات عرقلة العملية الديموقراطية، إلا أن حوالي ٧٠ ـ ٧٥ من أصل ١٢٠ حضرن، مما دفع بكل من كلثوم عرابي، ورقية حوري، وسلوى ناجيا، وندى الشرطي، وملك سمارة، ووجدان إفرنجي وسلوى الحوت إلى اللحاق بنا إلى مقر النادي لإفساد العملية التي تمت وتأمن النصاب.

* بعد أن حلت اللجنة الإدارية السابقة انتخب الجمعية العمومية لجنة جديدة قوامها السيدات: وديعة قدورة خرطبيل، وفدوى الحاج، ونهيل حسن، وريتا وهبي، نايفة عبده، ريا الأيوبي بدران، وسلوى عبد الرحيم، وهالة جبر، وسامية خلف العريس، ووجدان إفرنجي، والكسندرا ظريفة، وافلين حمصي، وملك سمارة وفريدة خورشيد.

* في ١١ تشرين الأول أي اليوم التالي للانتخابات وقعت كل من الكسندرا ظريفة وافلين حمصي وملك ووجدان إفرنجي على بيان يدعو لمقاطعة اللجنة الجديدة، وساندهن كل من: ندى اليشرطي، ولمياء أبو غزالة، وسلوى ناجية، وعادلة اللبان، وناجية حمود، وجورجيت صنبر، ورقية حوري.

* قدم لنا المهندس جواد أبو الهدى الفاروقي مكتبه في شارع بلس، بناية الأديسون كمقر مؤقت للاتحاد. وكلفنا المحاميين فؤاد طحيني وجان خوري دراسة القضية تمهيداً لإحالتها للمحاكمة.

* عقدت مؤتمراً صحافياً في ١٧ تشرين الأول حضره نقيب الصحافة الأستاذ رياض طه ونقيب المحررين ملحم كرم تليت خلاله بياناً أوضحت فيه الظروف والملابسات التي مر بها الاتحاد النسائي العربي، توصلاً إلى انتخاب اللجنة الإدارية الجديدة على الوجه الآتي: وديعة قدورة خرطبيل (رئيسة)، ريتا وهبي (نائبة لها)، نهيل حسن (أمينة الصندوق)، نايفه عبدو (أمينة السر)، سامية خلف العريس (محاسبة) وريا الأيوبي بدران (كاتبة وقائع).

* عرض السيد أبو نايف سرحان التوسط في الموضوع فوافقت حرصاً مني على عدم تعريض أطفال بيت إسعاد الطفولة الأبرياء إلى المصير المجهول، وعقد سرحان أكثر من اجتماع في منزل المهندس خالد اليشرطي لأن زوجته ندى كانت من المحرضات وقد وعده خيراً، إلا أن حجراً أصابه في رأسه أدى إلى فقدانه الوعي ثم وفاته في منتصف كانون الثاني ١٩٧٠. خلال هذه الفترة كنت قد اتصلت بالمصارف مطالبة بتجميد الأموال المودعة لديها باسم الاتحاد بعد أن جرى تحويل القضية إلى المحاكم.

* عاد الاتحاد لمزاولة نشاطاته فأبرق إلى مؤتمر القمة العربي الخامس المنعقد في الرباط بالمغرب عام ١٩٧٠ داعياً للعمل على إنقاذ فلسطين. كما قام وفد من الاتحاد بزيارة منظمة فتح والتقينا أبو يوسف النجار وعرضنا له ما جرى، وطلبت إليه التدخل لإبقاء الاتحاد خارج إطار اللعبة السياسية خدمة للقضية. كما وجهنا برقيات إلى الأمين العام للأمم المتحدة ولجنة حقوق الإنسان والاتحاد النسائي الدولي والعصبة النسائية للسلام والحرية والصليب الأحمر بشأن الأعمال البربرية الإسرائيلية. وإذ ذاك توفيت السيدة الكسندرا ظريفة، وقد شاركنا في مأتمها مما فاجأ الأعضاء المنشقات. وتفقدنا أحوال المخيمات وقدمنا البطانيات والملابس والمؤن والأدوية والعقاقير.

* تسلمنا في تاريخ ٢٢ نيسان ١٩٧٠ العلم والخبر الخاص بالاتحاد الذي يسمح له مزاولة أعماله ونشاطاته موقعاً من وزير الداخلية الزعيم كمال جنبلاط.

* زارني في أواسط عام ١٩٧٠ أبو علي اياد برفقة رفيق كعوش، حيث حضر اللقاء العضوات: نهيل حسن، وسلوى عبد الرحيم، ومنى سيور وسامية الأيوبي، وعرض وساطته لجمع الأعضاء وحل المشاكل العالقة واقترح عقد اجتماع يضم مقربين من كل الأطراف للتباحث في تقريب وجهات النظر، وقد وافقت على العرض، وقد اتصل بالفريق الآخر واطلع على الملفات التي بحوزتهن. وقد اكتشف كما أخبرني لاحقاً أن ادعاءاتهن باطلة، لكنه استشهد خلال أحداث أيلول الأسود فانقطعت محاولته المشكورة.

* أصدرت محكمة البداية المدنية في بيروت بتاريخ ٥ كانون الثاني ١٩٧٢ في الغرفة الرابعة برئاسة القاضي أمين حمود وعضوية المستشارين نصير أبو مراد وبسام مرتضى حكمها في قضية الخلاف الناشب في الاتحاد النسائي العربي ـ الفلسطيني وقد جاء فيه: كان الاجتماع الذي انتخبت فيه السيدة الكسندرا ظريفة مشوباً بالبطلان لمخالفته نص المادة الخامسة من القانون الأساسي للاتحاد التي تنص على أنه يعود للرئيسة وحدها توجيه الدعوة للاجتماع، لذلك قضت المحكمة بما يلي:

١ ـ اعتبار أن الانتخابات الجارية في ١٩٦٩/١٠/١٠ و ١٩٦٩/١١/١ غير قانونية وكذلك اللجان المنبثقة منها وإبطال كل القرارات الصادرة بنتيجتها.

٢ ـ إن على الرئيسة وديعة قدورة خرطبيل الدعوة إلى إجراء انتخابات جديدة تجري وفقاً للقانون الأساسي للاتحاد.

* كان صدور هذا الحكم مدعاة ارتياح وانصراف إلى العمل الذي كنا نمارسه سابقاً. ففي العاشر من آذار ١٩٧٣ أبرقنا إلى الملك حسين مطالبات بالإفراج عن أبو داود ورفاقه المسجونين في الأردن، كما سافرت في ٢٦ آذار ١٩٧٣ للاشتراك باحتفال اليوبيل الذهبي للاتحاد النسائي المصري الذي أسسته هدى هانم شعراوي، وافتتح المؤتمر في ٢٩ منه، ومن اللواتي تحدثن في الاحتفال مندوبات عن الأردن والسودان وتونس والاتحاد السوفياتي وفلسطين من خلال الكلمة التي ألقيتها. ومن المفارقات أنه خلال المهرجان طلبت بعض السيدات المصريات مني أن أتوسط لدى عقيلة الرئيس المصري جيهان لمنع هدم منزل هدى هانم شعراوي ذي المكانة التاريخية الهامة في القاهرة، ففعلت ووعدتني خيراً، إلا أنه بعد عودتي علمت أن منزل الزعيمة النسائية قد أصبح مرآباً. كما أن الاتحاد تفقد المناطق التي استهدفها الهجوم الإسرائيلي في العاشر من نيسان ١٩٧٣ والذي اغتيل خلاله القادة الثلاثة كمال ناصر وكمال عدوان ويوسف النجار.

* بتاريخ الخامس من شباط ١٩٧٤ صدر قرار محكمة الاستئناف في بيروت بخصوص النزاع في الاتحاد وقد أيد الحكم قرار محكمة البداية المدنية، واعتبر أني ما زلت الرئيسة للهيئة الإدارية المنتخبة التي يجوز لها تولي شؤونه دون سواها. وقد وجه وزير الداخلية بهيج تقي الدين بتاريخ ٩ تموز ١٩٧٤ كتاباً إلى السيدة افلين حمصي يطلب فيه منها التقيد بحكم محكمة الاستئناف الذي يحمل الرقم ١٧٣.

* قمنا بزيارة مدينة القنيطرة السورية المحررة من الإسرائيليين ورافقنا العديد من الهيئات النسائية اللبنانية، وقد قدم لنا حزب البعث وسائط النقل والسيارات وحللنا ضيوفاً على الاتحاد النسائي السوري طوال إقامتنا في الربوع السورية،

والتقينا الأمين العام لحزب البعث عبد الله الأحمر. وقد ألقيت وشقيقتي الدكتورة زاهية رئيسة اتحاد الجامعيات وإميلي فارس إبراهيم رئيسة المجلس النسائي اللبناني كلمات للمناسبة.

* رغم صدور حكمي محكمة البداية والاستئناف ظلت مشكلة الاتحاد عاالقة وقد أوفد المدير العام للأمن العام اللبناني أنطوان الدحداح العقيد فرنسوا جينادري للتباحث معي، وتم ذلك بمبادرة من المسؤول الفلسطيني أبو الزعيم، وقد التقيت الدحداح في مكتبه وكان متفهماً لوجهة نظري.

* أصدرت محكمة التمييز بتاريخ ٣٠ كانون الثاني ١٩٧٥ باعتباري الرئيسة الشرعية للإتحاد، وكانت كل من افلين حمصي وعادلة لبان ورقية حوري ووجدان إفرنجي وفريدة علي وناجية حمود وجورجيت صنبر وسلوى ناجيا وملك سمارة ولميا أبو غزالة وفريدة خورشيد قد طالبن بنقض حكم محكمتي البداية والاستئناف الصادرين لصالحي، وهكذا قررت محكمة التمييز رد الاعتراض المقدم من المنشقات والإبقاء على الحكم الصادر عن محكمتي الاستئناف والبداية.

* بعد صدور قرار محكمة التمييز عقدنا اجتماعاً عاماً للاتحاد لتقويم النتائج ووضع برامج العمل للمستقبل وقد حضرته عضوات اللجنة الاستشارية، وقد ألقيت خطاباً فيه، طالبة من الحضور التصرف بهذه الأمانة بوحي من ضمائرهن وما يمليه عليه وجدانهن وإخلاصهن للقضية التي يناضلن من أجلها.

* زارني في ١٦ شباط ١٩٧٦ وفد من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية قوامه؛ الدكتور وليد قمحاوي، وعبد العزيز الوجيه ومحمد زهدي النشاشيبي، وكان برفقتهم أبو طارق مدير التنظيم الشعبي في لبنان ومصطفى سحتوت. وتباحث الوفد معي في شؤون الاتحاد ونقل إليّ رغبة أبو عمار في استلامي مهامي، فاعتذرت، وفي اليوم التالي اجتمعت مع الأستاذ حنا عصفور والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي، وتباحثنا في العرض المقدم لي من أبو عمار لاستلام الاتحاد لبضعة أشهر فقط على أن تجري الانتخابات في غضون ذلك وأسلم المهام لمن يفوز بها، وتجري حفلة تكريمية لي وأصبح بعد ذلك رئيسة

شرف، لكني، فضلت عدم الخوض في شؤون الاتحاد. وهكذا أمضيت العام ١٩٧٦ في منزلي ولم أقم بعمل يذكر، باستثناء مباحثات بشأن الاتحاد وبيت إسعاد الطفولة. وقد التقيت خلال تلك الفترة في منزلي بكل من: سلوى عبد الرحيم، وأبو الهيجاء، والمهندس جواد الفاروقي، كما قابلت برفقة عبد الرحيم وجبر وسامية خرطبيل ومنى سيور أبو إياد في مكتبه، وقد تباحثنا بشأن إجراء مصالحة عامة بين الأعضاء لإنهاء الحالة الشاذة وعودة المياه إلى مجاريها. كما طلب مني العودة إلى المجلس الوطني الفلسطيني لمواصلة النضال والعمل المثمر. كما عقدت اجتماعات مع كل من أبو أحمد شعبان وأبو الهيجاء..

* التقيت أبو عمار بعد اتصالات تولاها مصطفى السحتوت وهو عضو في المنظمة والمسؤول عن مكتب سوريا حينذاك أبلغني خلالها برغبة عرفات في زيارتي للتباحث في شؤون الاتحاد، وقد وافقت على اللقاء، وقد زارني أبو عمار وتحدثنا بحضور شقيقتي زاهية وكنتي سامية زوجة هشام، وتناول طعام الغداء على مائدتنا. وتباحثنا بأمور الاتحاد وأعماله بموضوعية وصراحة، وكنت مصرة على موقفي طوال الوقت رافضة العودة إلى الاتحاد. وقد تكررت لقاءاتي به، وكان يتصل بي في مناسبات عديدة، ويبدو دوماً مطلعاً على الأمور كافة.

* خلال لقائي بأبو عمار في ١٣ كانون الثاني ١٩٧٩ في منزلي طلب إلي بإلحاح العودة إلى المجلس الوطني الفلسطيني، فرفضت بداية ثم وافقت، وتوجهت إلى دمشق في اليوم الثاني بسيارته لحضور الدورة الرابعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني المنعقد ما بين ١٥ و ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٩. وقد كنت من بين الأعضاء الذين يحضرون بصفتهم الشخصية إلى جانب المطران هيلاريون كبوجي. وقد أطلق على الدورة دورة هواري بومدين، واعتبر المطران كبوجي عضو شرف في المجلس. تحدث بداية الرئيس حافظ الأسد محيياً نضال الشعب الفلسطيني وصموده في وجه العواصف والمؤامرات متمنياً له التوفيق في جهوده الرامية لتحرير وطنه المغتصب، ثم ترأس الجلسات رئيس المجلس خالد الفاهوم، ثم أقر جدول الأعمال وتمت مناقشة البرنامجين السياسي والتنظيمي والوضع في الجنوب اللبناني. وقد أقر المجلس توصيات تشدد على

التمسك بالحقوق الوطنية الثابتة للشعب الفلسطيني في وطنه وبمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها ممثلاً شرعياً للشعب وأعلن رفض مشروع الحكم الذاتي والتمسك بوحدة لبنان وعروبته وبفلسطين وطناً تاريخياً لا بديل عنه للشعب الفلسطيني. ودعا المجلس القوى الوطنية والقومية في الوطن العربي كافة إلى العمل على إسقاط إتفاقية كامب ديفيد.

وخصص المجلس جلسة خاصة لتكريم سيادة المطران كبوجي، وأقام له الفاهوم مأدبة غداء على شرفه، كنت خلالها والسيدة عصام عبد الهادي رئيسة إتحاد المرأة الفلسطينية الوحيدتين اللتين حضرتاها.

وقبل اختتام أعمال المجلس، أي في اليوم الأخير للاجتماع، تلقينا نبأً مفجعاً عن اغتيال القائد علي سلامة (أبو حسن) بانفجار سيارة ملغومة في أحد شوارع بيروت وكان ذلك بتاريخ ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٩. والشهيد سلامة مناضل فلسطيني، وهو ابن الشيخ حسن سلامة القائد الشهيد، ولد عام ١٩٤٠ في قرية قولة قرب اللد وانضم إلى فتح عام ١٩٦٣. و «نذر حياته لخدمة قضية الثورة والوطن، وكان دائماً ذلك المقاتل الصلب في الخندق الأمامي في مواجهة العدو الامبريالي والصهيونية». (كما وصفته الموسوعة الفلسطينية في المجلد الثالث الصفحة ٣١٣).

وإزاء هذه الفاجعة الأليمة، اتخذ قرار بتمديد جلسات المجلس الوطني إلى الليل كي يتسنى للمسؤولين بعد إقرار أعماله واختتامها التوجه إلى بيروت لتشييع الشهيد. وقد غادر أبو عمار ومساعدوه والمسؤولون دمشق متوجيهن إلى بيروت بعد إنجاز القرارات وتقديم التوصيات في وقت متأخر من الليل.

وبقيت أنا يومين إضافيين في دمشق عدت بعدها إلى بيروت، واتصلت على الفور بأبو عمار لتحديد موعد للتعزية، فما كان منه إلا أن حضر شخصياً وزارني معزياً.

وقد زرت في وقت لاحق معزية زوجتي أبو حسن سلامة السيدتين نجروان الشريف وجورجينا رزق.

* خلال العام ١٩٧٩ كنت قد تلقيت نبأ اغتيال رئيس منظمة الصاعقة زهير محسن جنوبي فرنسا بينما كان عائداً إلى سوريا بعد حضوره مؤتمراً عقد في أحد العواصم الأفريقية (٢٦ تموز)، فيما كنت أساهم في أعمال الهلال الأحمر الفلسطيني، وكنت قد التقيت الدكتور فتحي عرفات في دمشق وطلب إلي المساهمة فرحبت في الفكرة. وكان عملي استشارياً بداية في الجمعية ثم قمت بتنظيم عمل المتطوعات من خلال تأليف لجان خاصة تتولى مهام الإشراف على فروع العمل المختلفة في الأقسام والمستشفيات التي تشرف عليها وتديرها الجمعية. وقمت بزيارات لمدرسة التمريض والمستشفيات والمستوصفات ومن الذين عملوا معي في تلك المرحلة السيدة عفاف ارسلان والسيد توفيق إيراني، وزارتنا خلال وجودي في هذا العمل شخصيات عالمية مثل المرشح للانتخابات الرئاسية الأميركية جيسي جاكسون وضيوف آخرون من منظمات وهيئات دولية. وقد أقمنا احتفالين في الجامعة الأميركية وكلية بيروت الجامعية للدعوة للتطوع في فروع الهلال المختلفة. وقد تحدث خلال الاحتفالين الدكتور عرفات كما تحدثت بدوري حول الغاية من فتح باب التطوع ليتسنى لأكبر عدد من الشابات والشباب شرف المساهمة في هذه الخدمة الإنسانية.

* في العاشر من نيسان توجهت إلى دمشق للمشاركة في جلسات الدورة الخامسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني (١١ - ١٩ نيسان ١٩٨١)، وقد تأخرت هذه عن موعدها لسبب الأوضاع السائدة. وقد حضرتها وفود رسمية وبرلمانية من الدول العربية والاشتراكية والأفريقية وبعض أعضاء الأحزاب الأوروبية والآسيوية والأميركية - اللاتينية فضلاً عن ٢٠٠ فلسطيني من مختلف المناطق بصفة مراقبين وقد سمح للجميع بحضور جلسات المجلس واللجان. وقد ألقى الرئيس الأسد كلمة في افتتاح الدورة، كما تحدث كل من الأمين العام لجامعة الدول العربية الشاذلي القليبي وخالد الفاهوم وأحمد صدقي الدجاني، جمال الصوراني، حنا ناصر، وصلاح الدباغ. وجدّد المجلس بالإجماع رئاسة ياسر عرفات للجنة التنفيذية وولاية المجلس. وقد تحدثت في الدورة مع السيدة عصام عبد الهادي حول نضال ودور المرأة الفلسطينية على مختلف الصعد وفي الحقول كافة.

* أصابتني نوبة قلبية يوم الأحد في ١٣ حزيران ١٩٨٢ بينما كان العدو يضيق حصاره على بيروت، وبعد خمسة عشرة يوماً من الاستشفاء عدت إلى المنزل، وأثرها بيومين قامت البوارج الإسرائيلية بقصف منطقة رأس بيروت مما أدى إلى إصابة منزلي بإحدى القنابل، فنهضت من السرير مسرعة ونزلت بمساعدة الجيران إلى أسفل البناء، ثم التجأت وجيراني من آل عبد الرحيم إلى مكتب يخصهم في شارع بلس قرب المنزل. وعدنا ليلاً، ثم انتقلت في اليوم التالي إلى منزل شقيقتي الدكتورة زاهية وبعدها إلى منزل أخي أديب القريب من مستشفى الجامعة الأميركية. ورغم القصف والحصار تباحث مع كل من أحمد اليماني وصابر حنون وصلاح الدباغ ورفعت النمر في أوضاع الهلال الأحمر والاتحاد. وقد اتخذنا قراراً بإرسال كتاب إلى أبو عمار نبلغه فيه بإعادة تأليف هيئة إدارية للإتحاد النسائي.

لا أود هنا أن أذكر التفاصيل المعروفة من يوميات الحصار الإسرائيلي إلى مغادرة قيادة المقاومة لبنان والوداع الذي نظم لها إلى اغتيال بشير الجميل إلى مجازر صبرا وشاتيلا، التي ما إن أفقنا منها إلا وقد أخذنا نبحث مجدداً في موضوع إعادة إحياء الاتحاد، وقد طلبت مني المرحومة نبيلة برير خلال لقائنا مقابلة أبو عمار أثناء انعقاد المجلس الوطني الفلسطيني لحل المشكلة.

* أدت الظروف إلى استحضار عملية إحياء الاتحاد، خصوصاً وأن رحيل المقاومة والمنظمات بفصائلها أوجد فراغاً كبيراً في ظل تراكم المهام، ودعوت إلى عقد اجتماعات تخصص لمتابعة العمل وتأمين مساعدة الأسر المنكوبة. وبذلك أكون قد حققت ما سبق وعبرت عنه في كتابي بتاريخ ٢٦ آب ١٩٨٢ للأخ أبو عمار لتنشيط الاتحاد. وقد استندت مبادرتي إلى الأحكام الصادرة عن المحاكم البدائية والاستئنافية والتمييزية التي خولتني متابعة العمل وإدارة شؤونه استناداً إلى القوانين المرعية الإجراء، وكان الأساس هو إحياء الهيئة الإدارية بأسرع وقت يمكن والمحافظة على ممتلكات وأموال وموجودات ومؤسسات الاتحاد. وقد كان أبو عمار متفهماً لمواقفي لي هذه المرحلة فمنحني حرية التصرف وفق ما تمليه علي واجباتي ومسؤولياتي وترك لي أمر اختيار الأعضاء وتحديد موعد الانتخابات.. وهكذا تتالت الاجتماعات، وكان البعض يستجبن للدعوة والبعض

الآخر يتهربن من حمل المسؤولية في ظل أوضاع ضاغطة على الشعبين اللبناني والفلسطيني ولا تتحمل التسويف والإرجاء، وقد علمت لاحقاً أن العديد من السيدات قد تلقين تهديدات في حال استمرارهن في خدمة القضية الفلسطينية والتعاون مع الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني. وكان أصحاب التهديد من القوى المسيطرة على الساحة السياسية والمنطقة الغربية في ذلك الوقت. وأمام وضع من هذا النوع تابعت اتصالاتي وقصدت الرئيس صائب سلام في منزله وقابلته في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٨٣ فعرضت له الوضع القائم وكان متجاوباً معي ومتفهماً لمواقفي وأوعز إلى نجله تمام بمساعدتي بدوره على تسلم أمور الاتحاد من أجل القيام بالواجبات والمسؤوليات المترتبة خدمة للقضية الفلسطينية. وقد اجتمعت بتمام سلام عدة مرات توصلنا خلالها إلى الحل الأنسب لمشكلة الاتحاد وانطلقت مجدداً من أجل إحياء الاتحاد والعمل على تنظيم العضوية وترميم المكتب وتكليف المحامين بإجراء الاتصالات القانونية اللازمة مع مختلف الفرقاء ولم شمل الأعضاء من أجل العودة إلى العمل البناء. وتبع ذلك في ختام العام إرسالي كتاباً إلى مدير عام وزارة الداخلية سميح الصلح أدرجت فيه أسماء أعضاء الهيئة العامة للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وهن السيدات:

وديعة قدورة خرطبيل، ونهيل حسن، ومنى سيور، وعنبرة سنو كبي، ودلال رمضان، ونجوى فروخ عويني، وأمل شهاب، وأمل محيو بتروني، وغنى قبيسي، وكرم بيهم نغنغي، ورجاء عيتاني، وعوان حاووط هبري، ولينا لبان جارودي، ونوال عيتاني فواز، ورندة قريطم، وتيريز الريش، ونوال حيدر، وميرفت أبو خليل، ومنى حميدان، وبديعة مراد، وحكمت ياسين، وأمل فواز، وليلى فليفل الترك، وغادة جارودي.

وإزاء التشجيع العارم الذي أبداه لي معظم المهتمين بشؤون الاتحاد من شخصيات سياسية ووطنية وتربوية، كان لا بد من تأمين مستقبل الاتحاد وبيت إسعاد الطفولة في ضوء المعطيات والتطورات الجديدة لا سيما وأن وزارة العمل والشؤون الاجتماعية كانت قد أعدت مشروع قانون في نهاية عام ١٩٨٣ الهدف منه تمديد العمل بالمرسوم الاشتراعي الرقم ٤٢ تاريخ ١٩٧٧/٥/٢٦ المتضمن أحكاماً استثنائية تتعلق بانتخابات المجالس والجمعيات وقدمته إلى مجلس الوزراء

لتجديد العمل بأحكام هذا القانون وفقاً لما ترتأيه الحكومة اللبنانية. وقد بررت وزارة العمل أسباب التمديد نظراً لاستمرار الظروف الاستثنائية التي تحول دون إجراء انتخابات في الهيئات المعنية في أجواء سليمة ومن دون أي محاذير أمنية أو اجتماعية حيث أن الأوضاع التي استوجبت إصدار المرسوم في العام ١٩٧٧ كانت لا تزال قائمة.

وفي ٢ شباط ١٩٨٤ دعوت الهيئة العامة للاتحاد لعقد اجتماع، أقر خلاله بالإجماع إدخال بعض التعديلات على القانون الأساسي. وفي اليوم التالي عقدنا اجتماعاً آخر لانتخاب لجنة إدارية جديدة، ففازت السيدات:

١ ـ وديعة قدورة خرطبيل	٨ ـ دلال رمضان
٢ ـ عنبرة سنو كبي	٩ ـ دينا بحال
٣ ـ نوال فواز	١٠ ـ أمل شهاب
٤ ـ غادة جارودي	١١ ـ عادلة لبان
٥ ـ نهيل حسن	١٢ ـ غنى قبيسي
٦ ـ منى سيور	١٣ ـ جمانة حيدر
٧ ـ رندة قريطم	١٤ ـ ليلى الترك

واجتمعت إثر ذلك اللجنة الإدارية الجديدة وقررت تأليف هيئة على الشكل التالي:

١ ـ وديعة قدورة خرطبيل	الرئيسة
٢ ـ عنبرة سنو كبي	نائبة الرئيسة
٣ ـ نوال فواز	أمينة السر
٤ ـ غادة جارودي	كاتبة الوقائع
٥ ـ نهيل حسن	أمينة الصندوق
٦ ـ منى سيور	المحاسبة

وقد أقرت الهيئة الإدارية الجديدة بالإجماع إنتخابي رئيسة للإتحاد لمدى الحياة تقدير لما وصفته بأنه تقديراً لي ولخدماتي الجلى. ووافقت على ذلك وزارة الداخلية.

* خلال زيارة خاصة لابنتي أمل وصهري أديب الداودي في جنيف التقيت رئيس مكتب المنظمة في جنيف نبيل الرملاوي، فأفاد أنه سيتصل بالأخ أبو عمار للتباحث معه في بعض الأمور، وقد أخبرني لاحقاً أنه تلقى برقية جوابية أن أبو عمار ينتظرني في تونس التي عرجت إليها بتاريخ ١٤ تشرين الأول عام ١٩٨٤. وقد استقبلني الأخ رأفت ونقلني إلى فندق أبو النواس.

وفي اليوم التالي، حضر إلى الفندق شخص اصطحبني إلى مكتب الأخ أبو عمار، فلم نجده هناك، لكن في المساء أرسل أحدهم اصطحبني إلى منزل السيد حكم بلعاوي حيث التقيت بالأخ أبو عمار، وكان لقاء صريحاً وموضوعياً استطعنا بعده أن نتفق ونوحد آراءنا في مختلف الأمور وخصوصاً في ما يخص الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني.

وقد طلبت مني خلال اللقاء البقاء في تونس بعض الوقت على أن أؤجل سفري إلى بيروت. ولكني اعتذرت منه وأخبرته عن انشغالي بأوضاع الاتحاد وأبلغته إني مضطرة للرجوع إلى بيروت بسبب انتخاب هيئة جديدة للاتحاد، وأن الرئيس صائب سلام ونجله قدما لي مساعدة كبيرة وهامة في هذا الصدد بحيث استطعت إعادة بعث الاتحاد مجدداً فكان مسروراً بالنتيجة، وقد وعدته بالعودة ثانية إلى تونس عند الضرورة إذا كان لا بد من ذلك. فكان موافقاً جداً على اقتراحي وأبدى إرتياحه للأعمال التي أقوم بها.

وقد عدت بعد ذلك إلى فندق أبو النواس وبقيت عدة أيام في تونس قابلت خلالها الأستاذ موفق ياسين مدير بيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب السابق، والدكتور فتحي عرفات رئيس الهلال الأحمر الفلسطيني وهدلا الأيوبي، وزوجتي الدكتورين الحسيني وخالد من الهلال الأحمر الفلسطيني.

وعدت إلى بيروت وما هي إلا فترة قصيرة حتى زارتني السيدة سلوى الحوت طالبة مني مرافقتها إلى تونس بناء على طلب من الأخ عمار، فأبلغتها أني

غير مستعدة للسفر إلى أي مكان إذا كان الهدف هو حضور جلسات المجلس الوطني الفلسطيني. فما كان منها إلا أن أبلغتني أن الأخ أبو عمار يصر على حضوري لأسباب سيشرحها لي عند مقابلتي.

وإزاء هذا الإصرار، كان لا بد لي من التوجه إلى تونس لمقابلة الأخ أبو عمار، فسافرت أنا والسيدة سلوى الحوت بتاريخ ١٥ تشرين الثاني ١٩٨٤، وفي اليوم التالي دعانا الأخ أبو عمار إلى الغداء في منزل السيد حكم بلعاوي رئيس مكتب المنظمة في تونس، وكان من بين المدعوين سلوى الحوت، والأستاذ شفيق الحوت والأخ أبو اللطف وأم ناصر.

وبعد عودتي إلى بيروت استأنفنا عملنا في الاتحاد عام ١٩٨٥ بعد استلامه وترميمه فعقدنا الاجتماعات من أجل درس الحلول العملية لإعادة تسييره وإحياء مؤسساته، واتخذنا القرارات بمتابعة العمل وتنفيذ المشاريع المدرجة أصلاً على جدول الأعمال كما تم الإقرار بالإجماع على المحافظة على حقوق الاتحاد وأملاكه ومؤسساته وأمواله، وتم تبني التوصيات بشأن افتتاح المشاغل ومدارس الأطفال ومدارس الأميين والمعوزين من لبنانيين وفلسطينيين.

وبانتظار الإفراج عن أموال الاتحاد المجمدة لدى المصارف، تم تفويضي مع أمينة الصندوق متحدتين بإجراء الاتصالات مع المصارف مع الإجازة بحق التوقيع على جميع المعاملات المالية والقانونية وسحب الأرصدة وإيداعها. وفي هذا الصدد اتصلت بالبنك البريطاني للشرق الأوسط طالبة الإفراج عن رصيد الاتحاد لديه كما تم العمل على جمع المستندات والبحث عن الضائع منها والاستحصال على بديل لها وخصوصاً سندات ملكية العقارات.

ومن أجل إعادة التعاطي مع مختلف المؤسسات، تم إرسال إشعارات للإعلام عن عودة الاتحاد إلى العمل تحت الاسم الذي يحمله نفسه. كما وجّه الاتحاد رسالة شكر عبر السيدة دلال رمضان إلى المتبرع سعيد رمضان الذي قدم الأقمشة للاتحاد. وقد تفاوتت النشاطات ابتداءً من عام ١٩٨٥ ما بين المشاركة في المؤتمرات العالمية وإحياء الندوات الاجتماعية وحضور الاجتماعات الدورية ومساعدة المعوزين.

وإذا كانت سمة العمل كما وصفتها في العام ١٩٨٦، فإن العام ١٩٨٧ لم يختلف بدوره عنها. أما العام ١٩٨٨ فقد استهللناه باعتصام نسائي في المقر الإعلامي لهيئة الأمم المتحدة في بيروت وكان ذلك بتاريخ ٢٢ك الثاني ١٩٨٨ احتجاجاً على الممارسات الإسرائيلية في الأرض الفلسطينية المحتلة ودعماً للشعب الفلسطيني وانتفاضة. وكنا قد اجتمعنا في مقر الاتحاد وألقيت كلمة تشكل على أثرها لجنة لصياغة نداء إلى الأمم المتحدة والجامعة العربية كما تقرر الاعتصام الذي نفذناه. وقد عقدت الهيئة الإدارية اجتماعاً لها في الأول من شباط ١٩٨٨ واتخذت قراراً بمساعدة طفل الانتفاضة وإقامة مهرجان أو أسبوع الانتفاضة في فلسطين، وزار وفد من الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني لهذه الغاية الرئيس سيلم الحص في ١٣ شباط مؤلف مني ومن عنبرة كبي، ودينا حبال، ليلى شهاب وطلبنا أن يكون الأسبوع تحت رعايته فقدم لنا كل مساعدة ممكنة. وفي الثاني من آذار ١٩٨٨ عقدت مؤتمراً صحافياً بحضور نقيب الصحافة الأستاذ محمد البعلبكي ونقيب المحررين وبعض الصحافيين وتحدثت خلالها عن الانتفاضة وضرورة إيلائها ما تستحقه من اهتمام، وبعد المؤتمر انطلقنا في التحضير للمهرجان الذي قررناه في قاعة المتخرجين في الجامعة الأميركية في بيروت، والاستعدادات المتنوعة وأبرزها الرقصات الشعبية للأطفال ودرس نموذج المعرض الذي سيقام والاجتمع مع اللجنة الاستشارية المولجة بالمتابعة ومنهم السادة الدكتور أمين فرشوخ عريف الحفلة وطلحت الشقير والدكتور حليم أبو عز الدين والدكتور علي حسن.

وبتاريخ ٣٠ آذار ١٩٨٨ أحيينا يوم الانتفاضة ويوم الأرض. وقد دعونا رئيس الوزراء سليم الحص لرعاية حفل توزيع الجوائز على الفائزين بنشاطات دعم الانتفاضة بمناسبة يوم الأرض في نادي خريجي الجامعة الأميركية. فانتدب عنه الوزير عبد الله الراسي لتمثيله في الاحتفال، وحضر الاحتفال لفيف من الشخصيات والوجوه اللبنانية والفلسطينية وحشد من المواطنين.

قدم الحفل الدكتور محمد فرشوخ، ثم ألقيت كلمة ترحيب وشكر لجميع الحاضرين والمساهمين في تأييد الشعب الفلسطيني في انتفاضته التي هزت العدو الإسرائيلي في كيانه وأصبحت «الحجارة» رمزاً أقوى لسلاح في يد الشعب البطل

الذي استعاد إعجاب دول العالم وتقديرها دفاعاً عن أرضه وحقوقه وكرامته.

وتحدث في الحفل الشاعر محمد علي شمس الدين عن قدسية الإنسان، والزيت المغلي والحجر الذي أصبح أغلى من الذهب وأقوى من جميع الأسلحة الحديثة حين رشق أول شاب فلسطيني أعزل، إلا من إيمانه والأحجار التي يقتلعها من أرض وطنه. وحارب بها العدو الصهيوني، فأصبحت حديث العالم الذي بدا يهزأ بإسرائيل وجيشها الأسطوري الذي لا يهزم، وهو اليوم يتلقى أمام ضمير العالم الصفعة تلو الصفعة من أبناء الجيل الفلسطيني الثالث ومن أبناء الجنوب في لبنان ومن ورائهم أبناء الأجيال العربية الشابة، التي لم تعد تثق ببعض الجيوش والأنظمة من المحيط إلى الخليج.

لقد كانت ساعات مميزة قضيناها في المشاهدة والاستماع إلى رموز وأبناء الشعب الفلسطيني يقدمون ملاحم ومشاهد وأناشيد وأغنيات البطولة الفلسطينية وانتفاضة أرضها المباركة التي لن تهدأ، بل ستزداد ثورتها كل يوم وتجعل الجيش الإسرائيلي يرتعش من الخوف ويطلق الرصاص في وجوه النساء والشيوخ والأطفال، وسيزداد هؤلاء صموداً وبطولة مهما بلغ عدد الشهداء ومهما اقتلعوا بأيديهم وأسنانهم «حجارة من سجيل».

بعد نجاح هذا الحفل انطلقت أعمال لجنة متابعة الانتفاضة وعقدت العديد من الاجتماعات في مقر الاتحاد بحضور كل من السادة: تمام سلام، والسفير حليم أبو عز الدين، والسيد منح الصلح، والدكتور علي حسن، والدكتور حيان حيدر، وحسين القوتلي، والدكتورة زاهية قدورة وبعض أعضاء الاتحاد. ثم تشكلت لجنة مصغرة لتعمل على الاتصال بالهيئات التي تعمل لدعم الانتفاضة وللتنسيق بشأن إنشاء جبهة لبنانية موحدة لمتابعة دعم الانتفاضة. وقد اجتمعت خلال الفترة نفسها إلى الرئيس سليم الحص وتباحثت معه في قضية المساعدة من اليونيسيف ودعوته لحفل الإفطار لمناسبة شهر رمضان، التي حضرها عدد كبير من الشخصيات والسياسيين والوزراء منهم: الرؤساء تقي الدين الصلح، ورشيد الصلح، والسادة زكي مزبودي، وجميل كبي، وتمام سلام، وأبو فادي، وأبو حسن وأبو هاني. وقد ألقيت كلمة تلاني السفير أبو عز الدين ثم قُدمت

وصلة من الأغاني والرقصات الشعبية الفلسطينية.

كانت الأعوام اللاحقة مشابهة لجهة النشاط والتقطع، ولا سيما وأن الأوضاع الأمنية كانت في ذروة عنفها، قبل أن تتجه إلى الاستقرار. على أي حال من الصعب حصر كل ما قمنا به مع أن اليوميات التي أحتفظ بها تؤشر إلى الكثير منها. أكتفي فقط بالقول أننا كنا ننتهز فرصة الهدوء لمعاودة نشاطنا، وهي عودة تمليها الظروف التي كانت قد وصلت إليها المخيمات التي ذاقت مرارة لم تعرفها سابقاً، عندما تعرضت لما اسمي بـ «حرب المخيمات». بالتأكيد تعددت أنشطتنا وتنوعت، وكلها صبت في مضمار تخفيف العذابات وتقديم المساعدات ورعاية جذوة الأمل باستمرار القضية الفلسطينية وشعبها.

الفصـل الثامـن

الحضور زمن الغياب

بعد هذه السنوات الطويلة من عمر الاتحاد، ومن عمري معه وفيه، من الصعب حصر الأنشطة التي قام بها في سبيل العمل للقضية الفلسطينية والدفاع عنها، وتبيان الإجحاف الذي طال أبناءها. وإذا كانت المؤتمرات التي شهدت والتي ذكرت عنها سابقاً تصب في الإطار المذكور، فإن هذا كله يظل أوسع من مجرد تأمين نصاب الحضور النسائي الفلسطيني والعربي في أحيان كثيرة خلالها. وهذا ما تم دوماً بالصراع مع ممثلي العدو الصهيوني ومؤيديهم.

والحقيقة أن أي تقويم منصف لما فعلناه، لا بد وأن يضعه في إطاره التاريخي، ومنه يتبين الإنجاز الفعلي، لا سيما في اللحظات المبكرة للنكبة بل وقبلها أيضاً، وقبل أن تتواجد منظمة التحرير الفلسطينية، بل دوائر مختصة في الجامعة العربية، ويكتشف العرب أهمية سلاح الإعلام، أي قبل هذا الزمن الذي أصبحت فيه القضية الفلسطينية حاضرة حضوراً لا يتزحزح في كل محفل ومنتدى دولي وإقليمي.

الآن وأنا أكتب ما أكتبه، في الفصل الأخير من العام ١٩٩٤، كيف أطل على ما فعلناه في مدى زمني تطاول إلى أكثر من نصف قرن؟ إذ أن الأنشطة التي قمنا بها أكثر من أن تحصر وتعد وتثبت في هذه العجالة، وللكثير منها ملابسات وصراعات من المفيد أن تروى، لولا ضيق المجال واتساع مدى القول في الصفحات التي مرت من هذه المذكرات. والحقيقة أننا حملنا القضية الفلسطينية التي كانت مغيبة إلى هذا الحد أو ذاك، ولأسباب شتى، بين أبنائها وأشقائهم العرب، وإلى كل من أمكننا الوصول إليه والتأثير عليه. وقد حققنا الكثير مما قصدناه بوسائط متعددة من بينها: التعريف بقضية فلسطين والدفاع عنها من

خلال إنشاء بيت إسعاد الطفولة الذي رعى عدداً غير قليل من أبناء وأيتام المجاهدين الفلسطينيين، ومنها: الدفاع عن المرأة الفلسطينية، والمطالبة بحقوقها قبل النكبة والاستمرار في ذلك بعدها، وإبراز الدور المشرف الذي قامت ومن خلال المنشور، والكتاب، والمذكرة، والبرقية، وزيارة الشخصيات للمخيمات، وعقد اللقاءات مع المفكرين الفلسطينيين والأجانب ولهذا ابتدأ الاتحاد نشاطه بمساعدة المسلولين في المستشفيات وتأمين المساعدات للعائلات الفلسطينية في المخيمات. والخلاصة التي يمكن الخروج بها، إننا كاتحاد نسائي فلسطيني لم نترك طريقاً إلا واعتمدناه، وكنا الشهود زمن الغياب، على أن هناك قضية وشعباً، وإذا كانت الوسائل التي ذكرت هي بعض ما اعتمدناه. فإننا والحق يقال توسعنا في سعينا إلى الوصول، يحدونا الأمل ومضاء العزيمة والثقة بعدالة القضية التي نمثل. وكنا نقابل الرأي بالرأي، والمساعدة بالتقدير، والتنكر بالاحتجاج، وكنا دوماً نساند أولئك الذين وقفوا إلى جانب قضيتنا ومنحوها ما تستحق من دعم، وعليه حافظنا على جذوة النضال، الذي خاضته المرأة الفلسطينية جنباً إلى جنب مع الرجل والطفل الفلسطيني مؤكدين أن لفلسطين شعب لا بد وأن يصل إلى حقوقه المشروعة الوطنية والسياسية الكاملة من خلال عودته إلى دياره وبناء سلطته وكيانه المستقل، فضلاً عن حقوقه الإنسانية في زمن شرعة الإنسان وميثاق الأمم المتحدة، فيما هو فعلاً يئن في مخيمات الذل والإنكسارات والتخلي.

أعود إلى السؤال الذي طرحته بداية حول تلك الأنشطة التي قمنا بها، وكان الكثير منها مثابة أحداث لها وزنها السياسي والإعلامي والنضالي، وهنا أعترف أن ما سأورده ليس حصراً لما فعلناه، إذ هو بعض ما أسعفتني الذاكرة عليه، وما توفر لي من بعض المعطيات التي يملكها الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وأفضل هنا أن أخصص حيزاً قائماً بذاته وأن مختصراً لبيت إسعاد الطفولة كمشروع أولاً وإنجاز ثانياً، وضحية من ضحايا الحرب الأهلية ثالثاً. وعليه أبدأ:

كان ثمة اقتناع لدينا أن جزءاً غير يسير من أسباب هزيمتنا، يرجع إلى ديناميكية الآلة الإعلامية الإسرائيلية، وخاصة في الدول الغربية، التي انساقت قطاعات من الرأي العام فيها وراء هذه الدعاية وتضليلها، وبطبيعة الحال، لم تكن

لدى الدول العربية سياسة مضادة في هذا الاتجاه، وانطلاقاً من هذا الإدراك لم نترك مناسبة تمر، وسانحة تعبر من دون أن نفيد منها في شرح وجهة النظر الفلسطينية. وكان موقعنا النسائي يفتح لنا الكثير من الأبواب المغلقة، خصوصاً وأننا كنا واثقين من نقص المعلومات العربية التي تملأه الآلة الإعلامية الإسرائيلية. ولم نكتف بما أوردناه حول الكتب والمنشورات بل إننا كنا دوماً نرافق هؤلاء الذين نلقاهم إلى زيارة المخيمات الفلسطينية، وذلك ليعاين هؤلاء بأم عيونهم نتائج قيام الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين، والعملية التي حولت شعباً بأكمله تقريباً إلى مجموعات من اللاجئين تنتظر ما تجود به عليه وكالة الغوث، فضلاً عن العذابات اليومية التي يحياها تحت الخيام أو مخيمات الفاقة والعوز. لقد جعل الاتحاد من حفل الشاي، والغذاء، والمناسبة الاجتماعية أياً كانت، ما يشبه البرنامج اليومي له، إضافة إلى أشكال أخرى متعددة. وسأذكر هنا بعض الذين كرمهم وقام معهم الاتحاد بزيارة المخيمات، أو أمن لهم الاطلاع عن كثب على الأوضاع في الضفة الغربية وقطاع غزة، وعقد لقاءات لهم مع مفكرين فلسطينيين لتقديم صورة عن حقيقة ما جرى وما يجري. على أنه لا يفوتني وأنا أذكر الأسماء، تبعاً لترتيب حضورهم إلى لبنان، أن أشير إلى أن أسماء قد تغيب، فأعتذر سلفاً من هذا التقصير أو القصور، الذي له أسبابه:

النائبة عن حزب العمال البريطاني الدكتورة سمرسكيل، الكاتبة الأميركية دورتي طومسون وقد حدث تصادم معها خلال حفل عشاء أقامته رئيسة الاتحاد النسائي اللبناني افلين بسترس، إلا أننا تلاقينا ثانية بعد عودتها من الأراضي المحتلة وزارت المخيمات وأقمنا لها حفلة تكريمية، وقد أبدت لاحقاً تفهماً كبيراً للقضية الفلسطينية، الكاتب الأميركي صديق العرب الفرد ليلينتال مؤلف كتاب «ثمن إسرائيل»، مندوبة جمعية حقوق المرأة الأميركية في الأمم المتحدة الآنسة لورين لي هان، محافظو سبع مدن أميركية تحمل اسم لبنان، استقبال الزعيم الهندي جواهر لال نهرو على أرض المطار وتقديم باقة أزهار له باسم الشعب الفلسطيني وكتاب جاء فيه: أن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني ينتهزها فرصة أخرى طيبة ليؤكد لكم بإخلاص أن القضية الإنسانية في فلسطين هي اليوم في محنة لم تشهد الإنسانية أشد منها خطورة عبر الأجيال، فأبناء هذه الديار

منهم من قتل ومنهم من تشرد مطروداً من أرضه بقوة السلاح، فراح يضرب في الأرض مستصرخاً ضمير الإنسان ليعيش في موطنه ويسهم مع باقي الشعوب في تعزيز القيم الإنسانية والعمل من أجل السلام، إن العمل على إعادة اللاجئين إلى فلسطين هي الخطوة العملية المنتجة لاستقرار السلام في المنطقة، وبالتالي هي الإمكانية الوحيدة لإيجاد تعايش سلمي ممكن بيننا وبين جميع الشعوب»، الحاخام الدكتور برغر، مفوض عام وكالة غوث اللاجئين الفلسطينية هنري لابويس وزوجته. رئيسة شرف الاتحاد النسائي الدولي والمرأة البارزة في المملكة البريطانية في الحياة الاجتماعية ولها شأن كبير في بريطانيا السيدة كوريت اشبي، والقائدة الهندية ورئيسة حزب أصدقاء العرب والهنود السيدة كمالا ريفي مع أعضاء الحزب الموالين لقضية فلسطين، رئيسة الاتحاد النسائي الدولي السيدة ديرانيا كالا ومرافقتها خلال مرورها في بيروت لمدة ثماني ساعات، رئيسة اتحاد البوليس النسائي الدولي لويز هينفز، وفد من المغتربين اللبنانيين والسوريين، وعضو الاتحاد النسائي الدولي السيدة غرويبي، زوجات عدد من النواب الأميركيين الذين زاروا لبنان، الكاتبة البريطانية السيدة ايثل مينون، وكانت قد قامت قبل ذلك بزيارة للمنطقة شملت العراق، الأردن، مصر ولبنان اطلعت خلالها على أحوال اللاجئين الفلسطينيين اطلاعاً مسهباً، وذلك في إطار جمع المواد اللازمة لإصدار كتابها الثاني والخمسين والذي حمل عنوان «الدولة الجائرة» وهو يؤكد قيام إسرائيل على أيدي السياسيين البريطانيين والأميركيين على الظلم والعدوان، السيدتان روبرت براون وايودفوت سكرور والآنسة سامية بطلي وهن رئيسات الشؤون الدولية والهيئة التشريعية واتحاد النوادي النسائية في أميركا، النواب الإنكليز الستة الذين أتوا بيروت لزيارة المخيمات، رئيسة إتحاد السلام والحرية السيدة زوتين، مندوبتا العصبة النسائية للسلام والحرية للإطلاع على أوضاع اللاجئين ووضع تقارير عنهم لتقديمها إلى لجنة التحقيق الخاصة بالشرق الأوسط، وقد اتصلت إذ ذاك بكل من حكومات لبنان وسوريا والأردن لتهيئة برنامج خاص لزيارتيهما يتضمن اجتماعات مع مختلف الحكومات والهيئات والمؤسسات واللاجئين في المخيمات ووكالة الإغاثة، وهما ثان جيرومو من النرويج ولندستروم من السويد، وقد حلتا ضيفتين على الاتحاد، وهما عضوان في

لجنة نوبل للسلام. وقد أقامتا خلال وجودهما في لبنان في بيت إسعاد الطفولة، ورافقتهما في زيارتهما إلى القصر الجمهوري ولقاء رئيس الحكومة رشيد كرامي ووزير الخارجية الدكتور جورج حكيم ووزير السياحة والاصطياف ميشال الخوري، كما زارتا مكتب منظمة التحرير الفلسطينية ومؤسسة الدراسات ومركز الأبحاث الفلسطيني، والتقينا الدكتور فايز صايغ، وأعددت برنامجاً لهما لزيارة غزة بعد الاطلاع على أوضاع أكبر عدد من مخيمات لبنان، كما رافقتهما في زيارة سوريا حيث حللنا ضيوفاً على الحكومة السورية، وقد أقيمت لهما هناك أكثر من حفلة تكريم، ثم توجهنا إلى عمان وحللنا أيضاً ضيوفاً على الحكومة الأردنية والتقينا عدداً من الوزراء والنواب وزرنا المخيمات والجمعيات النسائية والخيرية، ثم غادرناها متجهين إلى القدس، وفي الطريق عرجنا على مزرعة موسى العلمي قرب أريحا وزرنا ثلاث مخيمات فلسطينية وقصر هشام الأثري، وكانت في انتظارنا في القدس رئيسة الاتحاد النسائي العربي زليخة الشهابي. وفي اليوم التالي التقينا المحافظ أنور الخطيب وأمين القدس روحي الخطيب، كما زرنا رام الله، وقمنا بعدها بزيارة الخطوط الأمامية وبيت صفاف والمخيمات الفلسطينية وتناولنا طعام الغداء مع السيد فيشر مدير الأنروا في الأردن. وقد تسنى للزائرتين دراسة أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في الأردن والاطلاع على أحوالهم وزيارة الأماكن المقدسة. وقد أقام رئيس بلدية القدس روحي الخطيب حفلاً تكريمياً ضم عدداً كبيراً من الشخصيات، وفي نهاية الزيارة عبر الوفد من القدس الشرقية إلى القدس الغربية الواقعة تحت السيطرة الإسرائيلية.

أما الشخصيات العربية التي كرمها الاتحاد، فأبرزها: الرئيس جمال عبد الناصر، والرئيس شكري القوتلي، أمير الكويت، والرئيس فؤاد شهاب، والرئيس صائب سلام، والرئيس رشيد كرامي، والحكومة العراقية ممثلة بسفيرها في لبنان، ودولة الكويت ممثلة بالقائم بأعمال السفارة المهلهل المصنف، رئيس الوزراء الأردني بهجت التلهوني وعقيلته. قد أبرق الاتحاد أو أرسل مذكرات ومواقف سياسية إلى كل من: الرئيس جمال عبد الناصر (عدة مرات وفي مناسبات مختلفة) الرئيس شكري القوتلي الملك فيصل والملك سعود مع كتاب شكر أمير دولة الكويت، الآنسة فارتل وينتر التي قدمت شهادتها أمام المحاكم

الأردنية وضحت لتخفيف حكم الإعدام على احرار الأردن والسيد همرشولد الأمين العام للأمم المتحدة، الرؤساء أيزنهاور والمارشال بلغانين والمستر هكل رئيس حزب العمال البريطاني، أمين عام الجامعة العربية، وقد تراوحت أسباب هذه البرقيات والمذكرات بين التأييد (مشروع الوحدة بين مصر وسوريا) والدعوة إلى وقف المجازر (أميركا ـ الاتحاد السوفياتي ـ بريطانيا ـ الأمم المتحدة ـ الجامعة العربية) واستنكار الاعتراف بإسرائيل وإقامة العلاقات معها والمطالبة بإنشاء الكيان الفلسطيني ودعم العمل الفدائي ومنظمة التحرير وإطلاق حرية المقاومة من الأراضي العربية كافة، وأحكام إعدام المناضلين (جميلة أبو حيدر وسواها).. هذا بعض من الاتصالات السياسية التي أجريناها، من دون أن نشير إلى اتصالاتنا البديهية بالمنظمات النسائية الدولية والشقيقة.

لقد قابلنا كل موقف بعرفان، وكل مساعدة بشكر، وكنا نحرص على استمرار علاقاتنا مع الهيئات والمنظمات والمؤسسات والحكومات والدول والأشخاص، مساهمين في تكريس حضور للقضية الفلسطينية من مداخل إضافية، وهو أمر تابعناه ليس في لبنان أو في غضون المؤتمرات التي دعينا إليها، وفضلاً عن تلك الزيارات التي قمنا بها لجمع المساعدات، وقد عرضت في ما سبق من صفحات لزيارتي الأميركية مكلفة من الاتحاد، إلا أن هذه الزيارة لم تكن الوحيدة إذ أن زيارات عديدة قمت بها إلى العديد من الأقطار العربية، بعضها تم بناءً لدعوات خاصة وجهت لي شخصياً وللاتحاد النسائي الفلسطيني، وقد لبيت العديد منها مع عضوات من الاتحاد، وأبرز ذلك زيارتي المملكة العربية السعودية والكويت.

في هذا الجهد كنا لا ننطلق من ضرورة طرح قضيتنا فحسب، بل من واجب الحصول على المقومات التي تسمح لنا بالنهوض بالأعباء والمسؤوليات التي يفرضها الدور المناط بنا، خدمة لأبناء شعبنا الذي كان يعاني مرارة القهر المضاعف على الصعد الوطنية والاجتماعية أيضاً. على أن هذا لم يغل يدنا، إذ أن هذه اليد التي كانت تتلقى المساعدات من الجهات الشقيقة والصديقة، كانت تبذلها لدى كل مناسبة، يقينا أن ما نجمعه إن كان من حق الشعب الفلسطيني فهو من حق الشعوب العربية التي كابدت الكثير هي الأخرى في سياق

خوضها معارك الدفاع عن فلسطين أو نيل استقلالها، وهكذا كنا دوماً إلى جانب الجزائر، ونظمنا أكثر من أسبوع لجمع التبرعات لها، كما تبرعنا من حساب الاتحاد لثورتها المظفرة، وكذلك مصر وسوريا والأردن في حرب العام ١٩٦٧ وقبله في العام ١٩٥٦ خلال العدوان الثلاثي الذي تعرضت له الأولى. لقد كانت عضوات الاتحاد وأصدقاؤه من أبناء الشعبين اللبناني والفلسطيني جاهزين دوماً لتقديم المساعدة ومديد العون كلما ألمت ملمة بقطر عربي شقيق، وكانت مساعداتنا متنوعة من الكنزات التي تحيكها الفتيات الفلسطينيات في المشاغل التي أنشأنا وسوانا، إلى البطانيات والأغذية والمساعدات المالية، الأدوية وسواها، مما استحق معه الاتحاد شكر الكثيرين الذين تسنى لهم الحصول على مساعدات منه ساهمت في شفائهم وصمودهم. فضلاً عن تقدير الحكومات والدول العربية لما بذلناه من جهد في المساعدة على النهوض من العثرات التي كانت تعترض المسيرة العربية.

على أن ما لا بد من ذكره في هذا الإطار، أننا لم نلجأ إلى طلب المساعدة من القادرين فقط، بل أن ما فعلناه وقمنا به من أنشطة، كان ذا مضمون سياسي ـ ثقافي، إضافة إلى نتائجه المالية. واذكر أن من أولى الاحتفالات التي قمنا بها، ما قدمناه في الجامعة الأميركية عندما نظمنا حفلة تمثيلية بعنوان «حفنة ريح» عن قصة للكاتب الكبير الشيخ سعيد تقي الدين الذي تبرع بها، وقد رصد ريعها لمساعدة المنكوبين، وقد مثل في هذه المسرحية كل من: توفيق إسحاق، ونبيهة لطفي، ورفيقة شهاب، ونينا حلبي وشفيق الحوت وابني مروان. وقد نقلنا هذا العرض أيضاً في أنحاء مختلفة من بيروت وصيدا وبعض المناطق الأخرى، وكنا نستعد لعرضها في دمشق إلا أن مقتل المرحوم العقيد عدنان المالكي نائب رئيس أركان الجيش السوري حال دون ذلك. من هذا الريع ومن التبرعات التي كنا نحصل عليها. انطلقنا، وعندما فاض نهر أبو علي في مدينة طرابلس، ساهم الاتحاد في جميع الإعانات من خلال الاتصال بالهيئات الحكومية والشعبية التي ساندته في الحصول على المساعدات وتقديمها، وكانت ما مجموعه حمولة ١٢ شاحنة تضم ألف فراش ووسادة وأدوات منزلية وخلافه، وخلال الزلزال الذي أصاب لبنان العام ١٩٥٦ تبرع

الاتحاد بمبلغ من المال وقدم ألبسة. وعندما تعرضت مصر للعدوان الثلاثي وتألفت اللجنة الأهلية لنصرة مصر برئاسة الرئيس رشيد كرامي وضع الاتحاد جهوده في إطار اللجنة إضافة إلى تبرعه الخاص. أما المساعدات التي قدمها في السنوات اللاحقة للمخيمات فأكبر من أن تحدد في مخيمات لبنان، إذ أنها شملت المخيمات الفلسطينية في سوريا. إضافة إلى الأردن. والحصيلة التي يمكن تسجيلها بثقة أن الاتخاد كان حاضراً في الملمات يبذل المساعدة غندما تتوفر له، ويبلسم الجراح ويتفقد المصابين كلما نزلت نازلة أو تعرضت لعدوان دولة عربية أو مخيم فلسطيني.

على أن ما يتوجب على ذكره هو أن اهتمامنا بالمناضلات كان استثنائياً، وإذا كانت المناضلة الجزائرية جميلة بوحيرد وقد أطلقت وعلى نحو عنيف دور المرأة النضالي، فإن الاتحاد كان دوماً إلى جانب المناضلات اللواتي نذرن أنفسهن للقضية وحملن المشعل وسرن على الدرب، وخصوصاً المناضلات ناديا السلطي وفاطمة برناوي وآمنة دحبور وسواهن.

وما لا بد من أن أعود إليه هو أن اهتمامنا بالمخيمات الفلسطينية لم يقتصر يوماً على تقديم المساعدة، إذ تجاوزها اهتمامنا، إلى المساهمة في مساعدة المرأة لتصبح قادرة على إعالة نفسها وأسرتها، وكانت فاتحة هذا الاتجاه عبر المشاغل التدريبية على أعمال الخياطة والتطريز، إلا أن الإنجاز الأبقى والأهم كان بيت إسعاد الطفولة.

الفصـل التاسـع

إسعاد الطفولة المعزبة

عندما اشترينا قطعة الأرض التي قام عليها المشروع أواخر العام ١٩٥٥ في سوق الغرب، بمساعدة من المهندس جواد أبو الهدى الفاروقي الذي تبرع بتصميم بيت إسعاد الطفولة وإعماره، وكان له الفضل الأكبر في إنجازه وإخراجه إلى الوجود، لم يدر بخلد واحدة منا، أو أحد من الذين تابعوا عملنا أن هذا الصرح سيتحول ما يشبه الاطلال مع نهاية الحرب في لبنان عام ١٩٩١. ولكن هذا ما حدث تماماً، وهو دام لي، كما للكثيرات والكثيرين الذين داروا هنا وهناك يجمعون القرش فوق القرش لإخراج الفكرة من الاحتمال إلى قيد التحقق.

على أن شراء الأرض لم يكن البداية، إذ أنها سبقته بكثير. منذ أن بدأنا نجوب المخيمات مطلعات على أوضاعها، بات حاسماً لنا القيام في جملة ما فكرنا فيه إبعاد الأطفال عن أبائهم المصابين بمرض السل الذي كان منتشراً إذ ذاك. وكان العام ١٩٥٤ في أواخره قد شهد تشييد مستشفى بحنس. من جهتنا بدأنا نبحث في أمر شراء قطعة أرض ووقع اختيارنا على واحدة في عرمون إلى جوار أرض اشترتها الجامعة الأميركية، فتم شراؤها، إلا أن تخلي الجامعة عن إنشاء مشروعها دفعنا بدورنا إلى العدول عن تلك المحاولة. لأن المنطقة لم تكن مأهولة بعد وكان الاتحاد قد قام بحملة تبرعات واسعة لبناء دار نقاهة، وأذكر أن طلاب المدارس والجامعات قاموا بجمع التبرعات، التي ساهم فيها رئيس الوزراء ووزير الأشغال وقائد الجيش.

لم نصل بعد وأنا أتحدث في العام ١٩٥٤ إلى الشروع في التنفيذ الذي توقف قبل أن يبدأ، وبمساعدة من الصليب الاحمر وجمعية أصدقاء الشرق الأوسط لمساعدة اللاجئين ثم إدخال ١٤ مصدوراً إلى مصح ظهر الباشق، كما

قدمنا مساعدات للطلاب المعوزين ووزعنا عليهم الملابس والأحذية، إضافة إلى إدخال بعض المرضى غير المسجلين على لوائح الأنروا إلى المستشفيات. إلا أن الحاجات كانت أكثر اتساعاً من مجرد مساعدة فردية هنا أو هناك، ونجحنا فيما بعد بإخراج أربعين مريضاً من المخيمات حالتهم سيئة وأرسلناهم إلى مصحات بجنس وظهر الباشق وهملين، وتابع الاتحاد علاجهم على نفقته حتى شفائهم. على أن هذا الحل بدا لنا مَلَكَفاً، فكثفنا إتصالاتنا مع سوانا، وأثمرت هذه قيام الباكستان بتشييد مستشفى بحنس الخاص باللاجئين الفلسطينيين بمساعدة من الأنروا. ومع هذا الإنجاز تم نقل جميع المرض الذين تزايد عددهم إليه. أما الأطفال الذين لم يتأثروا بالمرض فتم توجيههم إلى بيت إسعاد الطفولة في شارع بلس الذي أنشأه الإتحاد النسائي العربي الفلسطيني وقد وصل عددهم في حينه إلى خمسين طفل وطفلة. ولم نلبث أن تعاونا مع مصلحة الإنعاش الاجتماعي التابعة لوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وشرعنا في قبول الأطفال اللبنانيين والفلسطينيين معاً. وقد برزت فكرة إنشاء بيت أوسع للطفولة، وضمن هذا التوجه تم شراء قطعة الأرض في سوق الغرب. إلا أن السنوات اللاحقة قبل الإنجاز كانت حافلة بدورها في الحاجات، ففي مطلع شتاء العام ١٩٥٧ أوقفت هيئة الإغاثة الدولية توزيع الملابس على أطفال اللاجئين، مما يهدد صحتهم بأفدح الأخطار، فانطلقنا لمواجهة ذلك وأعددنا حملة لهذه الغاية بالاشتراك مع جميع الهيئات النسائية والمنظمات من جميع الأراضي اللبنانية، وقد اشترى الاتحاد عدداً كبيراً من الكنزات الصوفية للأطفال ووزعها على المخيمات داخل الأراضي اللبنانية. وكنا ندرك أن هذه الخطوة تبقى محدودة إذا لم نصل إلى تنفيذ المشروع الذي طالما راودنا. وكنا نوجه الدعوات لزيارة الاتحاد وبيت إسعاد الطفولة في بيروت لكل القادرين على المساعدة، كما كنا نقيم لهم حفلات الشاي وخلافه، ونشترك بالأنشطة والمعارض ونقدم التمثيليات ونعرض الصور عن نشاطات الاتحاد في كل مكان متاح.

كان المهندس الفاروقي قد أنجز التصاميم، ولما زار الرئيس رشيد كرامي الاتحاد واجتمع إلى الأعضاء واللجنة الاستشارية أبدى إعجابه وتشجيعه، وفي نهاية نيسان من العام ١٩٦٠ أقمنا حفلة خيرية ساهرة في أوتيل الكارلتون برعاية

الرئيس رشيد كرامي، وتخللها توزيع هدايا وجوائز، وقد رصد ريعها لأطفال البيت وذويهم من مرضى في المصحات لبنانيين وفلسطينيين، من هذه النشاطات المتواضعة ومن حملات التبرع الداخلية والخارجية بات بقدرتنا وضع حجر الأساس للمشروع. وفي ٢٢ أيلول ١٩٦٠ تم وضع الحجر الأساس برعاية رئيس الجمهورية الرئيس فؤاد شهاب ممثلاً بالوزير جوزف سكاف الذي تبرع باسمه بمبلغ ثلاثماية ألف ليرة. وقد حضر الحفل عدد كبير من المدعوين في مقدمهم: مفتي فلسطين الحج أمين الحسيني وأعضاء المجلس الاستشاري للإتحاد: والمستشار القانوني القاضي وفيق الحسامي، والآنسة ابتهاج قدورة رئيسة الهيئات النسائية العربية والسادة: بدر الفاهوم، وصالح كاتبه، وحنا عصفور، والمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي الذي تبرع بالإشراف على المشروع، وقد أعلن في الحفلة تبرع العراق. وساهم في إنجاح الحفلة الأستاذ توفيق خباز مدير الكلية الوطنية في سوق الغرب وكامل قسطنطي الذي كان عريف الحفلة.

وقد وجهت باسم الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني وباسمي كلمة شكر للذين ساهموا ببناء مشروع بيت إسعاد الطفولة ومنهم فخامة رئيس الجمهورية آنذاك فؤاد شهاب، كما وجهنا كلمة شكر إلى مشايخ وأهالي الكويت وخاصة الشيخ عبد الله سالم الصبّاح حاكم الكويت والشيخ عبد الله مبارك وأيضاً وجهنا كلمة شكر إلى دولة قطر ومشايخها وخاصة الشيخ أحمد آل ثاني أمير قطر، كما أقمنا حفلة تكريم على شرف السفير العراقي فألقيت كلمة شكر للعراق وحكومته وقد حضر الحفل كل من السفير المغربي والحاج أمين الحسيني وعمتي ابتهاج قدورة وكثير من الشخصيات والسفراء والوزراء. لا يعني وضع الحجر الأساس أن البناء قام، وعليه تابعنا جمع التبرعات لمشاريعنا، فأقمنا حفلة في الكارلتون برعاية الرئيس صائب سلام الذي أناب عنه النائب رفيق شاهين، وكان معظم الحضور من السلك الديبلوماسي والسياسيين اللبنانيين، كما زرنا الرئيس شهاب شاكرين له مساعدته القيمة ورعايته إنطلاقة المشروع، الذي بدا لنا ملحاً، لا سيما وأن عدد الأطفال الذين كنا نرعاهم في البيت في شارع بلس كان قد بات ٦٠ طفلاً، وهو عدد قابل للإرتفاع. رغم توجهنا نحو تحقيق المشروع وإعطائه حيز الأولوية ومتابعة العمل الذي يتولاه المهندس الفاروقي لم نغب عن مضمار عملنا الأساسي

نغب عن مضمار عملنا الأساسي في تقديم المساعدات للمرضى في مطلع كل شتاء وزيارة مستشفى بحنس وتوزيع الهدايا والنقود عليهم، ومع أننا كنا نطلع على كل ما يجري في مكان المشروع، إلا أنه أحد الأيام جاءني المهندس جواد أبو الهدى الفاروقي وأخبرني أن رجال الدرك حضروا وأمروه بايقاف البناء في الطوابق العليا لأنه غير مسموح البناء لأكثر من ثلاثة طوابق حسب القانون المدني في الجبل. ومباشرة اتصلت بالرئيس شهاب وحصلت على موعد لزيارته لبحث الأمر، ثم ذهبت إليه مع المهندس الفاروقي، والسادة بدر الفاهوم، ويوسف بيدس وبعض عضوات الاتحاد، وبعد المناقشة أمر الرئيس شهاب المسؤولين بالسماح لنا ببناء طوابق عليا كونه مشروعاً خيرياً. وطلب من مدير عام رئاسة الجمهورية الياس سركيس أن يتصل بلجنة الإعمار للموافقة على هذا الأمر، وكان هذا جديداً وأثار استغراب الجهات المختصة. حدث هذا عام ١٩٦٤، مع أن ذلك العام كان حزيناً بعد أن فقدت أعز الناس علي، إلا أني تابعت العمل بكل عزيمة وتصميم، وهو ما تجلى لاحقاً في افتتاحنا المدرسة المهنية في سوق الغرب برعاية رئيس الحكومة رشيد كرامي الذي أبدى إعجابه بضخامة المشروع ونوعية البناء والتجهيزات. وفي حزيران العام ١٩٦٦ أقمنا حفلاً في البيت في سوق الغرب لمناسبة حصول دفعة من طلابه على الشهادة الابتدائية، وقد ألقيت في حينه كلمة شكرت فيها المدعوين الذين شاركونا فرحتنا بتخرج أطفالنا، كما شكرت البلدان العربية التي شاركت في بناء هذا الصرح الذي بدأ بتخريج منه أجيال جديدة للمستقبل. بعيد فترة قصيرة من حفل التخريج هذا قام رئيس منظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري يرافقه عدد من المسؤولين على رأسهم مدير مكتب المنظمة في بيروت بزيارة البيت.

وقد ألقيت بالمناسبة كلمة شرحت فيها الواقع والظروف التي نعيشها وأهداف المشروع وغاياته، وعرضت المراحل التي قطعناها لتنفيذ المشروع، والصعوبات التي واجهتنا وتغلبنا عليها، وأعطيت لمحة موجزة عن تاريخ الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني ونشاطاته في كافة الحقول، وعدَّدت المؤتمرات التي حضرناها وعقدناها والقرارات المتخذة فيها، ومنها القرار بإنشاء بيت إسعاد الطفولة الذي بدأ عام ١٩٥٧ وتمّ إنجازه في عام ١٩٦٤ وقد بلغت تكاليفه

٧٥٠ ألف ليرة لبنانية لغاية تاريخه.

وبعد أن توجهت بالشكر إلى جميع الذين ساعدوا في تحقيق هذا المشروع الضخم من حكومات وهيئات ومنظمات وأفراد، والشكر الخاص للمهندس جواد أبو الهدى الفاروقي الذي تبرع بإشرافه على المشروع، نوّهت بالدعم الكبير الذي تلقيناه من مختلف الأطراف وعلى كافة المستويات.

وقد ردّ علي الأستاذ أحمد الشقيري بكلمة مؤثرة للغاية أبرز فيها المجهود الجبار الذي بذل لتحقيق هذا المشروع الإنساني، وقال أنه فخور جداً بالقيمين عليه ويشعر بالغبطة والفرح لأنه يقف في قلب أول مشروع فلسطيني يقام على أرض عربية إلا وهو بيت إسعاد الطفولة.

ورغم التطور الذي شهده المشروع، إلا أننا مررنا في العام ١٩٦٦ بأزمة مالية عاتية، بدا لنا معها أن هناك احتمالاً لشل جهودنا في المتابعة. حدث ذلك تحت وطأة المصاريف اليومية، مما دفعنا إلى إرجاء تنفيذ بعض المشاريع المبرمجة للتنفيذ في إطار البيت. واتجهنا نحو القيام بحملة في بعض البلدان العربية لجمع التبرعات خصوصاً في دول المغرب العربي، إذ لم يكن متيسراً القيام بذلك في لبنان بعد انهيار بنك أنترا واهتزاز الكثير من المصارف، إلا أننا علمنا لاحقاً من الأستاذ الشقيري أن المنظمة ستبدأ بتنفيذ مشروع أسبوع فلسطين والجيش في المملكة الليبية في رمضان شهر الزكاة. فرأينا لزاماً علينا أن نضع مجهودنا تحت تصرف المسؤولين عن الحملة في ليبيا بإشراك بعض أعضاء الاتحاد النسائي الفلسطيني على أن يخصص جزء من المجموع للإتحاد، وبذلك نكون قد أدينا بعضاً من واجبنا تجاه اللجنة التنفيذية وللجيش الفلسطيني، وفي الوقت نكون قد أمنا لهذا العمل المال اللازم لإتمام مشاريعنا العديدة التي كان من أهمها تجهيز قسم من الدار للجنة عائلة الجندي والشهيد المنبثقة عن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني.

وفي الأول من حزيران من العام ١٩٦٧ وبعد أن شعرنا أنه ما زال ينقصنا الكثير من المال، فقد أقمنا حفلة العشاء الدولي الخيري في فندق الكارلتون، وذلك بالاشتراك مع سفارات الدول العربية والأجنبية عن طريق تقديم كل سفارة

طبقها، تحت رعاية رئيس الجمهورية شارل الحلو الذي مثله الوزير فؤاد البزري. وقد حضر الحفل دبلوماسيون من سفارات: الجزائر، والعراق، والجمهورية العربية المتحدة، والسودان، وليبيا، والمغرب، والسعودية، والصين، والمكسيك، والنمسا، وفرنسا، وإسبانيا، وإيطاليا، وتركيا، والباكستان، والهند، والأرجنتين، وإيران، وأندونيسيا، والولايات المتحدة الأميركية.

وقد ألقيت كلمة بالمناسبة جاء فيها:

باسمي وباسم الهيئة الإدارية للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وباسم الطفولة المعذبة التي تتطلع إليكم اليوم بنظرة فيها الرجاء أرحب بكم ترحيباً على أجمل ما يكون الترحيب عليه.

إن الغاية التي من أجلها اجتمعنا هذا اليوم هي غاية إنسانية نبيلة بل هي أنبل وأجمل ما يمكن أن تكون عليه غاية الإنسان.

أما اجتماعنا اليوم مع هذه النخبة من أهل الكرم والجود ما هو الا لأطفال بيت إسعاد الطفولة الذي يضم أطفال الشهداء الأبرار وأطفالاً أبرياء من فلسطين ولبنانيين جنى الدهر على أهلهم بالمرض والفقر، فتعهدهم الاتحاد وهيأ لهم سبل الحياة الكريمة ليشبوا مواطنين صالحين لأمتهم ووطنهم، وتكفلهم بالغذاء والكساء والتعليم. وأن بيت إسعاد الطفولة يستقبل بكل ترحاب كل طفل عربي كان فلسطينياً أم لبنانياً يحتاج إلى رعايتنا وعلمنا.

أنه يشرفنا جميعاً أن يرعى فخامة الرئيس حفلتنا المتواضعة هذه فقد عودنا فخامته على أن يشارك في كل عمل إنساني خير طيب يعود خيره على أبناء لبنان وأبناء العروبة قاطبة، وأننا نعلم أننا لسنا وحدنا في هذا الطريق الخير، ونؤكد أن تشجيع أهل البر والإحسان تشجيعاً متواصلاً متجدداً في كل مرة يجعلنا نحمل في قلوبنا وفاءً وشعوراً جميلاً بالإخلاص، لا نستطيع إزاءه إلا أن نقدم كل شكرنا واحترامنا إلى الذين أعطاهم الله من نعمه فكانوا على الناس ظل النعم وسبيل المعروف.

بعد هذا الحفل زارنا الرئيس رشيد كرامي، ورئيس الوزراء الأردني بهجت باشا التلهوني وعقيلته والسفير الأردني وبعض أركان السفارة في بيت إسعاد

الطفولة في سوق الغرب، وألقى الرئيس كرامي كلمة نوه فيها بالعمل الجبار وقدم تبرعاً، وقد رددت عليه بكلمة شاكرة مبادرته.

وتوجهت في منتصف تشرين الأول ١٩٦٨ إلى عمان لتنظيم نقل أبناء شهداء الأردن الذين سيلتحقون ببيت إسعاد الطفولة. وقد وصل هؤلاء الأطفال إلى مطار بيروت الدولي يوم ١٩٦٨/١٠/٣٠، حيث استقبلتهم مع سفير الأردن السيد عبد الله زريقات وأركان السفارة والسيدة إميلي فارس إبراهيم نائبة رئيسة المجلس النسائي اللبناني والسيدة زاهية سلمان رئيسة جمعية رعاية الطفل اللبناني والآنسة ناجيا حمود مندوبة الجامعيات اللبنانيات وعضوات الهيئة الإدارية للإتحاد النسائي العربي الفلسطيني. وعدد من الجمعيات وقد استقبلنا هؤلاء الأطفال في صالون الشرف في المطار ونقلناهم إلى بيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب حيث ألقيت كلمة رحبت فيها بهم وشكرت جميع الذين ساعدونا في إنجاح المشروع من مسؤولين ورسميين ومؤسسات وهيئات وجمعيات وشركات. وقد شكرت الحكومة اللبنانية وعلى رأسها رئيس الجمهورية الأستاذ شارل حلو لتسهيل هذا العمل الإنساني.

والجدير بالذكر أن هؤلاء الأطفال تراوحت أعمارهم بين الخامسة والحادية عشرة، وقد أنشدوا عند وصولهم إلى المطار نشيد فلسطين وسط جو مؤثر للغاية.

وقد قمنا مع وفد من هؤلاء الأطفال بزيارة السيدة الأولى عقيلة الرئيس شارل حلو في القصر الجمهوري حيث قدم لها الأطفال باقة من الزهور تعبيراً عن شكرهم وامتنانهم للضيافة والرعاية الكريمة التي لاقوها خلال قدومهم إلى لبنان.

والاحتفال الثاني الذي أقمناه بعد حفل التخريج الأول حدث في ١٢ حزيران من العام ١٩٦٩ عندما وزعنا الشهادات على المستحقين من طلاب بيت إسعاد الطفولة والجوائز على المتفوقين، والدفعة هذه كانت الخامسة.

افتتح الاحتفال بالنشيد الوطني اللبناني ونشيد الفدائيين. ثم ألقت السيدة عادلة دجاني كلمة عبرت فيها عن إيمان الفلسطيني بالعودة وبانتصار الثورة الفلسطينية.

كذلك تكلم السيد وفيق الطيبي الذي نوّه بدور المرأة الفلسطينية وبإيمانها أن لا حرية لها إلا وسط شعب حر وفي الوطن الحر، وأنها هدمت أسوار الانعزال لتصنع الحياة الجديدة الحرة الكريمة لشعبها وللشعب العربي وشعوب العالم الثالث.

وألقيتُ كلمة بالمناسبة تحدثت فيها عن دور الاتحاد في تأسيس بيت إسعاد الطفولة والعمل الرائع الذي أنجز رغم كل المصاعب والعقبات، وتطرقت إلى الغاية المنشودة من وراء إنشاء هذه المؤسسة، واعتبرتها قاعدة من قواعد الثورة وقلعة حصينة من قلاع الصمود

وقد نوهت بالمساعدات القيمة التي تلقيناها من مختلف الأطراف وخصوصاً تلك التي تلقيناها من جلالة الملك المغربي وكذلك ما قدمته المملكة العربية السعودية والكويت والعراق و... والتعاون المثمر الذي شجعنا على المضي قدماً في مشاريعنا ونشاطاتنا، ذكرت بالمسؤوليات الجسام التي تترتب علينا من أجل تأمين مقومات حياة الطفل العربي الصحية والثقافية والاجتماعية حتى يصبح مواطناً صالحاً مخلصاً لوطنه، أميناً على مقدرات أمته، ساعياً لرفع شأنها بين الأمم.

واعتبرت في كلمتي هذه أن خير هدية نقدمها للمناضلين تقديراً لبطولاتهم وتضحياتهم في سبيل استرجاع فلسطين هي تكريس بيت إسعاد الطفولة وفتح أبوابه على مصراعيها ليستقبل أبناء من يكتبون تاريخ أمتهم بأحرف من نار ونور.

ولا بد وأن أشير هنا إلى أن هذا البيت تحول منذ تأسيسه إلى مقصد لكل الوفود والشخصيات التي كانت تفد إلى لبنان، والكثير منها قد أقام في ربوعه، وكان الكثيرون ممن يقصدونه يقدمون تبرعاتهم لدعمه، خصوصاً بعد أن توسع في تقديماته ووصل تعداد الطلاب فيه إلى حوالي ٧٥٠ طالباً وطالبة.

أكتفي بهذا القدر فأقول أن البيت تابع عمله رغم اندلاع الحرب الأهلية، وظل يقوم بدوره حتى الاحتياج الإسرائيلي. الذي استهدف المنطقة كسواها، وكانت المهمة الأساسية في ذلك الوقت العصيب تأمين سلامة الطلاب، ونجحت الجهود في نقلهم على دفعات إلى سوريا وسط المخاطر التي كادت

تودي بالمئات منهم.. ثم سرعان ما تحولت المنطقة إلى ميدان حرب مما أدى إلى إصابته بأضرار فادحة طالت أقسامه كافة ومن دون استثناء. وهكذا تسلمناه ثانية عبارة عن هياكل منخورة بالرصاص والقذائف مليئة بالتجهيزات المتضررة التي لا ينفع معها الإصلاح.

ورغبة في عدم الاستفاضة بذكر تفاصيل هذه الكارثة التي أصابت هذا الصرح، أقول أنه خلال الفترة الفاصلة بين الغزو الصهيوني للبنان وإعادة تسلم بيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب قام الاتحاد في العام ١٩٨٦ بتأسيس مشغلٍ في مخيم شاتيلا للخياطة والأشغال اليدوية، إلا أنه دمر أيضاً، ولم يثن ذلك الاتحاد فقد عاود نشاطه بافتتاح روضة للأطفال سميت «روضة دلال المغربي - بيت إسعاد الطفولة» وهي تضم الآن حوالي ٨٥ طفلاً وطفلة، مع أن الطلبات على هذه الروضة تتضاعف، إلا أن هناك ظروفاً مادية ضاغطة على الاتحاد تحول دون الاستجابة، واذكر أيضاً أن الاتحاد أسس مشروعاً لتشغيل المرأة الفلسطينية واللبنانية ويضم المشغل ثلاثين سيدة تمارسن العمل لمساعدة عائلاتهن، وأنشأ معرضاً حرفياً دائماً في مقره...

يبقى أن أختم، هذا قليل من كثير، بعض الجهد الذي بذلت، والكثير من عمل الاتحاد الذي كان لي شرف تأسيسه، إلا أنه ينتسب إلى الشعب الفلسطيني الذي آمن وساند، وكذلك الشعب اللبناني الذي عاضد هذه المسيرة رغم عثراتها المتعددة.

خاتمة

هذا ما كان، بعض ما كان بالتأكيد، إذ إن حياة مديدة بين بيروت وطبريا والقدس ونابلس وغزة، وطولكرم، هذا عدا عشرات المدن التي قصدتها بمناسبة مؤتمرات عالمية أو عربية ليس من السهولة تقديمها، وقد فات الذاكرة مما كان واجب الذكر والتدوين في حينه، وعندما حاولت استعادته، كانت الكثير من الأيام قد تراكمت على ما سبقها فأوهت حضورها إلى هذا الحد أو ذاك.

عندما شرعت في كتابة هذه المذكرات، كنت أسابق احتمال أن يقهرني المرض الذي انتصرت عليه، وإن كان ترك في الكثير من الندوب. إلا أن ما خلفه المرض لم يكن الأقسى ولا الأكثر مرارة. إذ عرفت الكثير من الحسرات خلال عمري، وكان عليَّ دوماً أن أعاود النهوض، كشعبي الذي أنتسب إليه سواء أسميناه لبنانياً - فلسطينياً أو عربياً بالضرورة. ليس من السهولة بمكان عليَّ أن أفقد ابني أولاً ثم زوجي ثانياً وأقف ثانية في هذا المؤتمر أو ذاك الحفل أدافع عن القضية التي بها آمنت، وكرست لها حياتي. حتى أنني الآن وعندما أتذكر أدرك وكأنني كنت أركض طوال هذا الوقت محاولة اختصار الزمن، أو تسريع دورته وصولاً إلى انتزاع الحق السليب. إلا أن الحسرات لم تقتصر على تلك التي أصابت القلب فأدمته، إذ تجاوزتها كما هي العادة إلى المحيط الذي أتحرك فيه. لم يكن أمراً عارضاً أو بسيطاً أن أحمل أطفالي وأعود إلى بيروت حيث أهلي والمكان الذي ترعرعت فيه، ثم إذا بالزوج يتبعني طريداً من الأرض التي قرر البقاء فوقها إيماناً منه بعدالة قضيته والدور الذي يلعب. كما لم يكن سهلاً على من هم أبناء جيلي أن ينهار الأمل كله دفعة واحدة في أعقاب هزيمة الخامس من حزيران وتتراجع الجيوش العربية عن خطوط القتال وتسقط كل فلسطين.. ثم ألم يكن الأصعب والأشد قسوة ووحشية أن تلحق بنا وبالتالي أبناء شعبي الفلسطيني ومناضلي الشعب اللبناني إسرائيل إلى العاصمة بيروت وتدكها

بوحشية نادرة بمختلف أنواع الأسلحة ليلاً ونهاراً، وعلى مدى حوالي الشهرين أمام نظر العالم وسمعه، ثم تتوج هذا العدوان البربري بمجزرة صبرا وشاتيلا التي مهما حاولت إسرائيل أن تتنصل من مسؤوليتها، يظل دم الضحايا الذين ذبحوا ببرودة أعصاب على أيدي ومسمع جنزالاتها ومرتزقتها المحليين أشد سطوعاً من أن تمحوه الأيام.

هذا بعض ما كان بالتأكيد، وتلك الحياة الفسيحة كانت أوسع مدى من الصفحات التي كتبت. بعض ما مر عرضاً هنا أو هناك في ثنايا تلك المذكرات، لم يكن على هذا النحو في لحظته، كان عبارة عن معاناة طويلة ومغالبة امتدت لسنوات عديدة، وكل هذا من أجل ضمان مقومات المواجهة على جبهتي القضية الفلسطينية السياسية والاجتماعية. حتى أنني الآن أقول وبثقة أنني لم أترك سانحة تمر، أو فرصة تعبر من دون أن أوظفها من أجل القضية. الآن أتذكر كيف أن حياتي الخاصة، ـ هل كانت لي حياة خاصة أصلاً؟ ـ كما العشرات من أبناء شعبي الفلسطيني، كانت موظفة بالكامل في هذا السبيل الصعب والمتسارع والخطر بذات الوقت.

هذا بعض ما كان بالتأكيد، وفلسطين اليوم في الإمتحان الأعسر، كما كانت دوماً منذ أن حطّ المشروع الاستيطاني الصهيوني رحاله على أرضها المقدسة. لكن الوجه الآخر الذي أشعر معه بالرضا والثقة هو أن «الحفر بالصخر» الذي مارسته لم يذهب سدى في الدفاع عن حق المرأة الفلسطينية إلى جانب أخواتي الفلسطينيات قبل النكبة، والكفاح الذي خاضه الاتحاد النسائي الفلسطيني بعد النكبة، ولم تذر الرياح دمنا وعرقنا عبثاً، وأنا أرى أجيالاً جديدة تتنكب القضية وتدفع بها قدماً إلى مواقع جديدة، لا أريد أن أقارب ما تشهده فلسطين اليوم، وكيف انكفأ هذا الحلم الذي صنعناه بصبر ودأب عن اتساعه وشموله كل فلسطين إلى الوضع الحالي، كثيرون سواي يتناولون هذه المرحلة الآن، وكثيرون سيفعلون في المستقبل، إلا أن جذور فلسطين أبعد وأعمق غوراً وأكثر مدى من هذا الذي يطفو الآن من زبد.

هذا بعض ما كان بالتأكيد، وكل ما نما من مؤسسات واتجاهات لم يأت

صدفة، ولم ينشأ عفو الخاطر، بل كان ثمرة كفاح مرير مثابر سالت في سبيل بلوغه الكثير من الدماء وبذلت من أجل غاياته الأكثر من العذابات. وكان هدف هذا الكفاح المرير الطويل أن تصبح للشعب الفلسطيني هوية وطنية ومؤسسة تحمي انتماءه، وحضوره في المحافل الدولية. كل هذا بعض ما أنجزه جيلنا وليس صحيحاً البتة أن هذا الكفاح الذي شاركنا في ممارسته لم يراكم إلا الهشيم، عندما تزول غشاوة اللحظة الراهنة سيتأكد الكثيرون أن ما أنجزناه هو مدماك أساسي يفتح الطريق نحو المستقبل.

هذا بعض ما كان بالتأكيد، والحقيقة أن أكثر من نصف قرن من العمر مرت كما سرعة البرق بحثاً عن الأمل، الأمل الذي زرعته في كل منا فلسطين المقدسة ودمها الطاهر ورسالتها التي يتقادم عليها العهد، وتظل متألقة كأنها نجمة الشمال.

هذا بعض ما كان بالتأكيد، وقد أكون اختصرت هنا وأطلت هناك، هذا ليس مهماً، حاولت وأنا في هذا العمر أن أنظر ورائي فأرى نقطة التوازن بين هذا الحدث وذاك، كما في ممارستي كمسؤولة عن الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني، وفي المحافل التي قصدت، قد أكون أخطأت هنا أو هناك، لكن يكفيني شرف المعاناة والسعي الدؤوب وأن أشعر إنني مرتاحة الضمير أمام محصلة الجهود الطويلة التي بذلت في سبيل قضيتيّ المرأة وفلسطين وهذا الأمر يستحق عمراً كالذي عشت.



أدية، وديعة، أديب، وفيقة وزاهية في الطفولة.



في ملابس الكشافة مع زميلات الدراسة.



الدكتور أديب مصطفى قدورة



الوالد الصيدلي مصطفى قدورة



في ثياب بدوية في العام ١٩٢٦



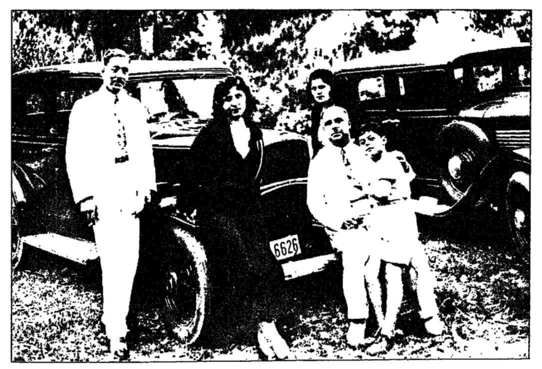
الـدكـتـور أديـب
خرطبيل وصديقه
رشيد الطبري العام
١٩٢٧



الدكتور خرطبيل في طبريا
خلال العشرينات.



الدكتور خرطبيل وأنا معه في منزلنا بطبريا في العام ١٩٣٣.



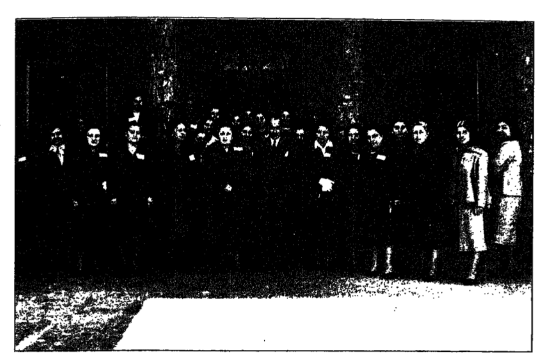
صورة مأخوذة في الثلاثينات مع زوجي وأختي وفيقة وخالي نبيه الحسامي محتضناً ابني فاروق.



في مؤتمر الأطباء في القاهرة: الدكتوران مسلم وخرطبيل ومعنا زاهية.



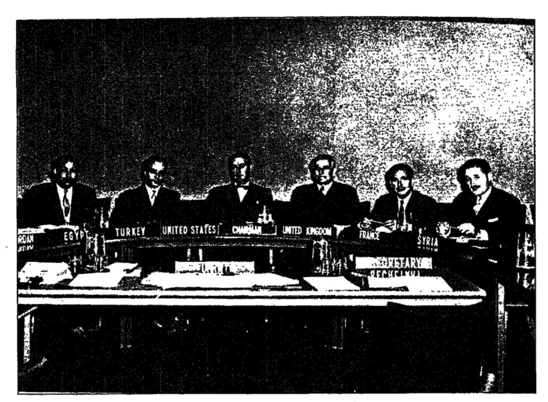
في عاليه من اليسار: هدى شعراوي، السيدة متى، إبتهاج قدورة، وديعة خرطبيل، د.سنية حبوب. وفي الصف الخلفي: حواء إدريس، جان رياشي، رقة سلام، السيدة خرسا، والدتي خانم قدورة، أديبة، زاهية ورفيقة والطفل الجالس هو فاروق وتاريخ التصوير هو العام ١٩٤٤



رئيس التشريفات الملكية المصرية يتوسط المشاركات في المؤتمر بعد تسجيل أسمائهن



مشهد من إحدى التمثيليات التي شاركت فيها في كلية بيروت الجامعية.



إجتماع اللجنة الإستشارية لوكالة الأنروا، والدكتور أديب الداوودي الأول من اليمين (نيويورك١٩٥٣).



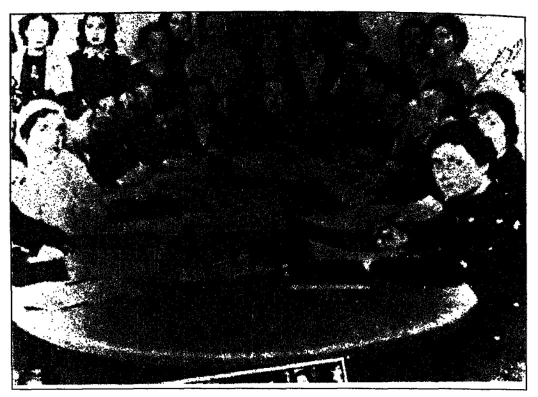
هيئة الاتحاد النسائي كما كانت عليه العام ١٩٥٥



خلال حفل على شرف كوريت اشبي رئيسة الشرف في الاتحاد النسائي الدولي.



وفود الخبراء العرب لدراسة مشروع همرشون خلال زيارتهم إلى مخيم شاتيلا.



من اليمين: منيرة شحادة، جميل عطية، إبتهاج قدورة، عادلة الجزائري، زليخة الشهابي، نازك سركيس، عزت استرياضي، أنيسة نجار، جيهان موصللي، الن ريحان، عصمت العاصي سعيد، شفيقة دياب، بهيجة رشيد، وديعة خرطبيل، وزهرة صلاح في نادي الاتحاد بالقاهرة.



رئيسة وأعضاء الاتحاد النسائي والمعلمة مع أطفال بيت إسعاد الطفولة في شارع بلس خلال زيارة المسز شولر.



خلال انعقاد المؤتمر الآسيوي ـ الأفريقي في القاهرة في ١٩٦١ مع بعض المشاركات.



من اليمين: حنين الحسن، وديعة، ممثل الكويت وزوجته، مروان خرطبيل، خالد يشرطي، القاضي وفيق الحسامي في المؤتمر الآسيوي أفريقي في القاهرة.



مروان خطيباً في أحد مؤتمرات دعم لاقضية الفلسطينية في أميركا.



وفد فلسطين إلى المؤتمر مع الرئيس عبد الناصر وتبدو من اليمين: بهية قبلاوي، وجدان إفرنجي، ماري كتة، ملك سمارة، نهيل حسن ولمياء أبو غزالة.



اضع شارة الاتحاد على صدر الزعيم العربي عبد الناصر «إننا عائدون».



على درج قصر يلدز في استانبول في العام ١٩٦٢ خلال اجتماع إتحاد الطفل العالمي.



المشاركات في مؤتمر الاتحاد النسائي العربي الذي عقد في عمان يحطن بالرائدة ابتهاج قدورة.



مع عمتي ابتهاج وشقيقتي زاهية وبعض قيادات الحركة النسائية.



الرئيس كرامي وإلى يمينه السيدة ابتهاج قدورة في فندق الكارلتون خلال حفل الاتحاد.



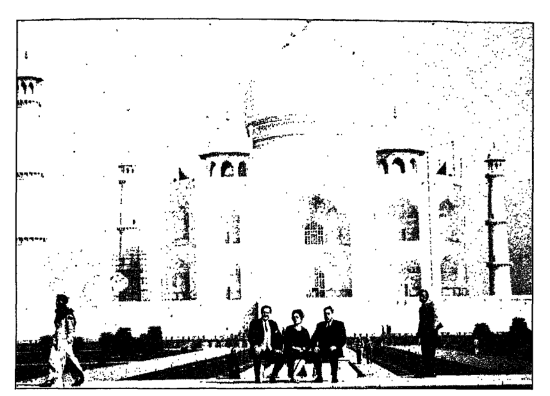
إفتتاح اجتماع المرأة الفلسطينية في ١ - ٦ - ١٩٦٣ لتأسيس إتحاد المرأة الفلسطينية.



في إحدى اللقاءات العائلية ومروان إلى يمين الصورة.



مع الحبيب مروان دائماً.



أتوسط زوجي وصهري الدكتور الداودي، سفير سوريا في الهند أمام تاج محل.



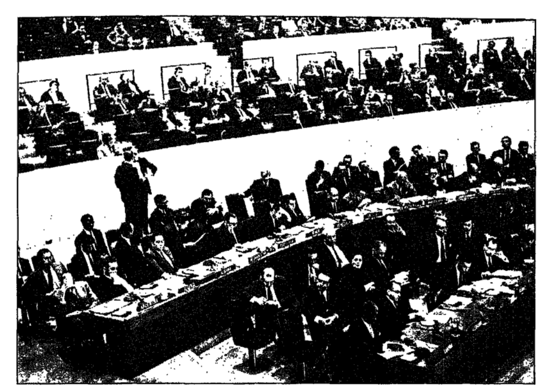
إجتماع الهيئة الإدارية للاتحاد النسائي الدولي في طهران وتتوسط الأعضاء السيدة آشبي.



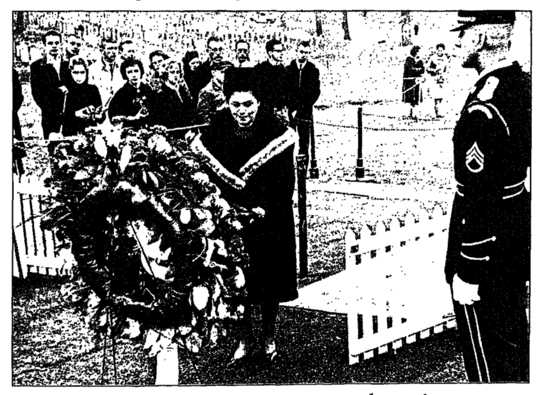
إفتتاح مؤتمر الاتحاد في العام ٦٣ وتبدو السيدات؛ بيرس، سنو، الدنا، قدورة وسلمان وعضوات الاتحاد



الوفد الفلسطيني في هيئة الأمم المتحدة في تشرين ثاني من العام ١٩٦٣.



خلال اجتماع الهيئة الدولية وأبدو في عداد الوفد اللبناني.



أضع إكليلاً من الزهر على قبر الرئيس كنيدي باسم فلسطين.



خلال حفل أقيم في مقر الاتحاد على شرف زينات الجداوي ويحطن بالرائدة ابتهاج قدورة كل من: الجداوي، زهيه سلمان، زاهية قدورة، وداد عانوتي وخرطبيل ...



في اجتماع في القدس في ٢٨ أيار ١٩٦٤ الذي انبثقت عنه م.ت.ف. من اليسار: شفيقة أحمد الشقيري، سلوى ناجية، ووديعة خرطبيل.



الهيئة الإدارية للإتحاد النسائي الدولي خلال اجتماعها في تريستا بإيطاليا العام ١٩٦٤.



وفد أميركي في ضيافة الاتحاد والمجلس النسائي اللبناني وتبدو في الصورة: إبتهاج قدورة، أنيسة نجار. وديعة خرطبيل، والصورة مأخوذة في بعلبك.



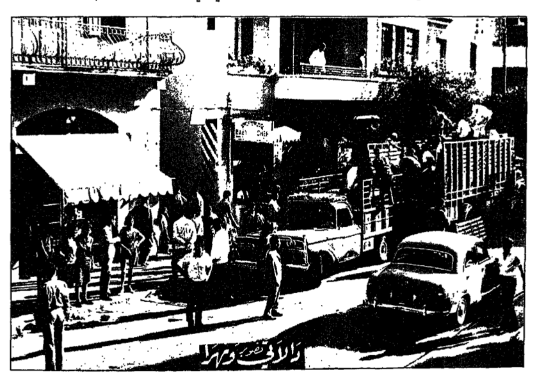
خلال حفل استقبال الكاتبة الإنكليزية مانن مع ماري كته والدكتور عزت طنوس.



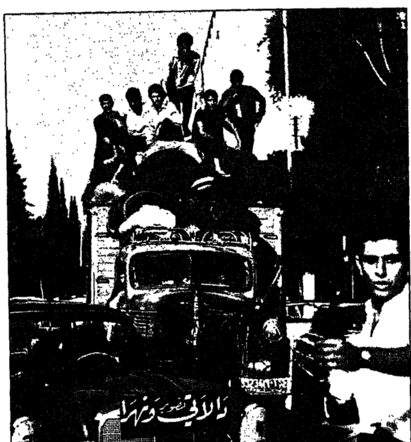
فتاة باكستانية (خالدة باكان) تقدم رقصة بلادها في حفل خيري للإتحاد.



خلال العمل على توضيب مساعدات الشعب اللبناني في أعقاب حرب العام ٦٧.



شاحنات تعمل على جمع المؤن من الأهالي.



الشاحنات تتجه نحو سوريا والأردن.



السيدة إفلين حمصي تسلم على قائد منطقة القنيطرة خلال زيارة الاتحاد لجبهة الجولان.



معلمات وعضوات من الاتحاد قدمن الهدايا لمناسبة عيدي الميلاد والفطر لأطفال الشهداء في بيت إسعاد الطفولة.



أولاد البيت مع رئيسة الاتحاد والعضوات.



إجتماع للهيئات النسائية في مقر الاتحاد في شارع بلس وتبدو في الصورة كل من: ادفيك شيبوب، نجلا صعب، وديعة خرطبيل، إميلي فارس إبراهيم، د.زاهية قدورة، نهيل حسن، وفي الصف الثاني: الكسندر ظريفة، الآنسة بيوض، فريدة خورشيد، افلين حمصي ورقية حوري.



مدرسة من بيت إسعاد الطفولة تستقبل بنات أردنيات مع أمهاتهن.



الأميرة لميا الصلح في بيت إسعاد الطفولة في سوق الغرب مع الهيئة الإدارية.



المهندس جواد أبو الهدى الفاروقي يشرح لمدير الأنروا عن بعض أقسام بيت أسعاد الطفولة.



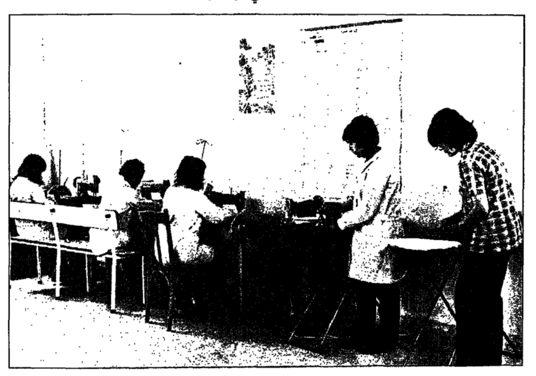
مدخل بيت إسعاد الطفولة خلال إحدى الاحتفالات الكشفية.



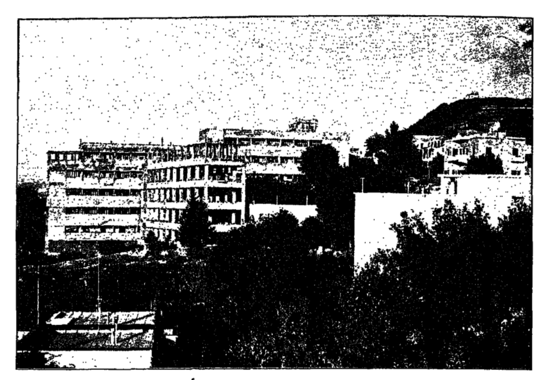
خلال حصة التدبير المنزلي في البيت



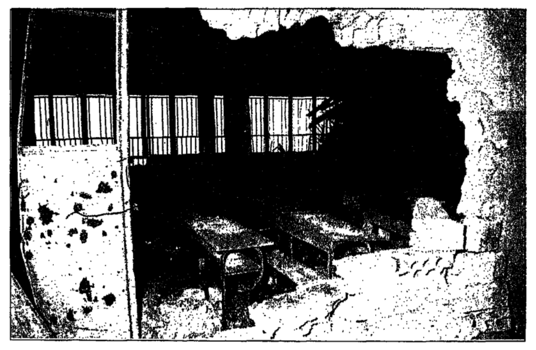
أطفال البيت أعضاء في فرقة الإنتفاضة



درس خياطة في البيت.



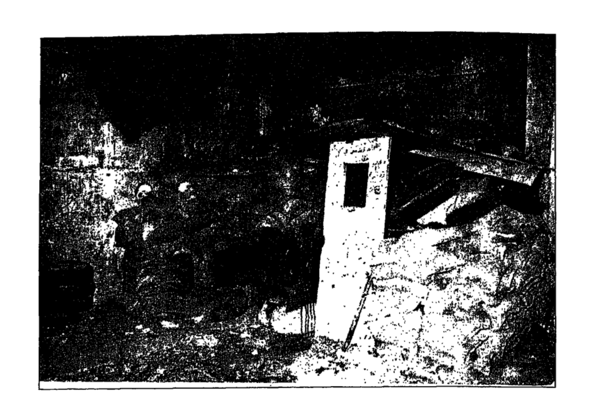
موقع بيت إسعاد الطفولة قبل إنجاز الأعمال.



صور تبين ما صار عليه بيت إسعاد الطفولة مع توقف القتال في لبنان. في الصورة أحد الصفوف. وفي الثانية غرف المنامة، وفي الثالثة ما أصيب به المبنى، والرابعة تظهر الدشم داخل المبنى.









مع ا فلين حمصي خلال زيارتنا لمقر وكالة الفضاء الأميركية «نازا».



في إحدى الاحتفالات دعماً للانتفاضة رئيس جمعية المقاصد تمام سلام يسلم أحد الطلبة جائزته في مباراة دعم الانتفاضة.



في منزل أبو عمار في تونس



مع القائدين الفلسطينيين شفيق الحوت وأبو ماهر اليماني.



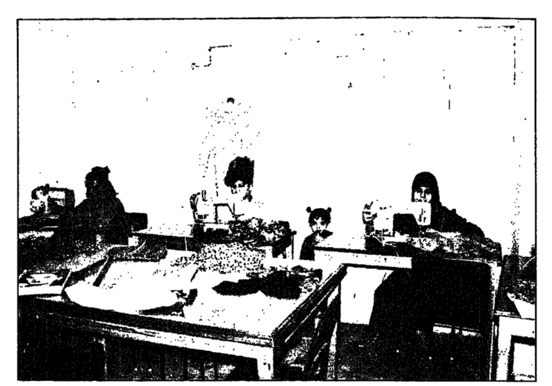
مع شفيق الحوت في إحدى أنشطة دعم الانتفاضة.



إفطار رمضاني دعماً لانتفاضة الشعب الفلسطيني ويبدو المرحومان تقي الدين الصلح ونسيب البربير، ورئيس جمعية المقاصد تمام سلام وجانب من الحضور.



توزيع هدايا لمناسبة عيدي الأم والطفل في بيت إسعاد الطفولة في روضة الشهيدة دلال مغربي في برج البراجنة.



مشغل الاتحاد في فندق الفيدرال في العام ١٩٩١.



تفصيل الثياب.



لمناسبة عيد الفطر عام ١٩٩٤، في منزلي هشام خرطبيل، ابتهاج قدورة وأولادهما، الدكتور عماد قدورة وزوجته وأولادهما، ظافر قزعون، خليل بيهم وزوجته.



الدكتور أديب الداودي وزوجته أمل خرطبيل وبناتهما مع أولاد ابنتهما رولا



هشام وسامية خرطبيل مع بناتهما لانا، تاله ورانية



الوزير السابق النائب بشارة مرهج يقدم درعاً تكريمية لي باعتبار من الرواد المؤسسين خلال الاحتفال الذي دعا إليه المنتدى القومي العربي في الذكرى ٣٧ للوحدة في دار الندوة، والذي أقيم في ٢١ شباط ١٩٩٥.

الفهرس

هذه المذكرات

.. في الزمن الصعب، ومن بعده في الزمن الرديء، عندما تزعزع الكثيرون من مدعي النضال والصمود، فانكفأ من انكفأ، وتراجع من تراجع، وتلون من تلون، بقيت ذراع وديعة مرفوعة براية فلسطين والعروبة، وكأنها سارية السواري كلها.

ولا عجب في ذلك، فلقد نشأت وديعة في أسرة بيروتية عريقة قومية الهوى، علمية النهج، سباقة في خدمة المجتمع والوطن. ويكفي من أعلامها على سبيل المثال لا الحصر، عمتها السيدة ابتهاج قدورة رائدة الحركة النسائية في لبنان منذ العهد العثماني، وشقيقتها العروبية الناصعة الدكتورة زاهية قدورة، ثم جاء زواج وديعة من الدكتور المناضل المرحوم أديب خرطبيل، ابن فلسطين البار، كاستدراج الطيب للطيب، وتفاعل المعدن مع نوعه.

في هذا الكتاب القيم من الحقائق والوقائع ما يعفيني من تكرارها، وإن كنت واثقاً بأن كل هذا مما حباها الله به من ايمان وثبات وصمود، ومن قدرة على العطاء.

آخر مرة التقيتها، وأعتبر نفسي على موعد مع هذه السيدة الجليلة، كانت متعبة من وعكة وطريحة الفراش. بعد دقائق من اللقاء واستماعي لما رددته من كلمات، لم أعد أرى سوى قامتها المديدة الواقفة باستمرار كالألف، بكل ما عرفته عنها من قوة وعنفوان، تماماً كما التقيتها أول مرة قبل اثنتين وأربعين سنة يوم ظننتها أم «مروان» فقط، لأعرف فيما بعد أنها أم جميع الفلسطينيين.

أمد الله بعمرها هذه السنديانة العربية الأصيلة والعريقة.

شفيق الحوت

